موسوعة العلامة البلاغي

الجزء الثالث

الهدى

إلى دين المصطفى

(المجلد الأول)

مركز العلوم والثقافة الإسلامية
قسم إحياء التراث الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

شبكة الفكر
alfeker.net

موسوعة
العلّامة الشيخ محمّد جواد البلاغي

الهدى
إلى دين المصطفى / ج ١

تحقيق: أسعد الطيّب

الجزء الثالث

المركز العالي للعلوم والثقافة الإسلاميّة
مركز إحياء التراث الإسلامي

المركز العالي للعلوم والثقافة الإسلاميّة

الجزء الثالث

موسوعة العلّامة الشيخ محمّد جواد البلاغي

مجموعة من المحقّقين

إشراف: **علي أوسط الناطقي**

إعداد: مركز إحياء التراث الإسلامي

الطباعة: مطبعة الباقري

الطبعة الثانية: ١٤٣١ق / ٢٠١٠م

الكمّيّة: ١٠٠٠ نسخة

حقوق الطبع محفوظة للناشر

العنوان: قم، ساحة الشهداء، المركز العالي للعلوم والثقافة الإسلاميّة

الهاتف: ٠٢٥١_٧٨٣٢٨٣٣

الفاكس: ٧٨٣٢٨٣٤

ص. ب: ٣٧١٨٥/٣٨٥٨

وب سايت: www.isca.ac.ir

البريد الالكتروني: nashr@isca.ac.ir

موسوعة العلّامة البلاغي / [تحقيق] مجموعة من المحقّقين؛ [إعداد] المركز العالي للعلوم والثقافة الإسلامية، مركز إحياء التراث الإسلامي. ـ قم: دفتر تبليغات اسلامى، پژوهشگاه علوم و فرهنگ اسلامى، ١٣٨٦.

٩ ج.

ISBN: 978-964-2636-30-3
ISBN: 978-964-2636-31-0
ISBN: 978-964-2636-32-7
ISBN: 978-964-2636-33-4
ISBN: 978-964-2636-34-1
ISBN: 978-964-2636-35-8
ISBN: 978-964-2636-36-5
ISBN: 978-964-2636-37-2
ISBN: 978-964-2636-38-9
ISBN: 978-964-2636-39-6

فهرستنويسى بر اساس اطلاعات فيپا.

كتابنامه.

مندرجات: ج صفر. المدخل، حياة العلّامة الشيخ محمّدجواد البلاغي. ج ١ـ٢. آلاء الرحمن في تفسير القرآن. ج ٣ـ٤. الهدى إلى دين المصطفى. ج ٥. الرحلة المدرسيّة. ج ٦. الرسائل الكلامية. ج ٧. الرسائل الفقهية. ج ٨. رسائل متفرقة. الفهارس العامّة.

١. اسلام ـ مجموعه‌ها. ٢. بلاغى، محمد جواد، ١٢٨٣ ـ ١٣٥٢ق. ٣. كلام شيعه اماميه ـ مجموعه‌ها. الف. المركز العالي للعلوم والثقافة الاسلامية، مركز إحياء التراث الإسلامي. ب. عنوان.

٢٩٧/٠٨ BP/٦/٤م٨

١٣٨٦

دليل

موسوعة العلّامة البلاغي

المدخل

حياة العلّامة الشيخ محمّد جواد البلاغي

الجزء الأوّل والثاني

١. آلاء الرحمن في تفسير القرآن / ج ١ و٢

الجزء الثالث والرابع

٢. الهدى إلى دين المصطفى / ج ١ و٢

الجزء الخامس

٣. الرحلة المدرسيّة والمدرسة السيّارة

الجزء السادس = الرسائل الكلاميّة

٤. أنوار الهدى

٥. البلاغ المبين

٦. مسألة في البداء

٧. التوحيد والتثليث

٨. أعاجيب الأكاذيب

٩. دعوة الهدى إلى الورع في الأفعال والفتوى

١٠. الردّ على الوهّابيّة

١١. نَسَماتُ الهُدى ونَفَحاتُ المَهْديِّ

١٢. نصائح الهدى

الجزء السابع = الرسائل الفقهيّة

١٣ ـ ١٧. العقود المفصّلة:

١. عقد في قاعدة على اليد ؛

٢. عقد في تنجيس المتنجّس ؛

٣. عقد في بعض مسائل العلم الإجمالي ؛

٤. عقد في مسألة الصلاة في اللباس المشكوك فيه ؛

٥. عقد في إلزام غير الإمامي بأحكام نحلته .

١٨. تعليقة على بيع المكاسب

١٩. رسالة حرمة حلق اللحية

الجزء الثامن

رسائل متفرّقة:

٢٠. رسالة في شأن التفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري عليه السلام

٢١. مراسلاته

٢٢. شعره

الفهارس العامّة

مقدّمة التحقيق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خيرته من خلقه محمّد وعلى آله الطاهرين.

إنّ العلّامة البلاغي ﷺ عالم بلغ مرتبة الاجتهاد وهي أغلى أماني طالب العلم في حوزة النجف، وهو طالب علم منهوم لا يشبع، فلم يكتفِ بالدرجة العلميّة العالية، وإنّما حاول بأدوات زمانه ـ البسيطة بالنسبة إلى زماننا هذا الذي توفّر فيه تعليم اللغات، وصارت معاهد تعليم اللغات تستقبل أفواج الطلّاب كلّ يختصّ في لغة من لغات العالم الكبير الكثيرة ـ نعم، حاول العلّامة البلاغي تعلّم اللغة العبريّة فكان له ما أراد، حتّى صار يحتجّ بها على أهلها، ويبيّن تحريفهم لألفاظ في التوراة.

وهذا أمر أبعد ما يكون عن اهتمامات حوزة النجف، وعن مشاغل طلّابها. ولا أذكر اللغة الفارسيّة التي أتقنها ﷺ؛ لأنّها كانت قريبة منه بكثرة الطلبة الفرس يومذاك.

هذه واحدة.

وأُخرى، فقد تطلّع بهمّته العالية إلى دراسة التوراة والإنجيل فكان له ما أراد أيضاً، فإذاً هو يحاجج أهل التوراة والإنجيل، ويبيّن عَوار كتبهم، ويكيل لهم الصاع صاعين رادّاً على مبشّريهم الذين فسح المجال لهم في زمانه جهل الأُمّة وجهل الحكّام وضعفهم وسيطرة المستعمر الغازي القويّ، فصار هؤلاء المبشّرون يؤسّسون الجمعيّات، ويؤلّفون الكتب، ويعقدون الندوات لحرف المسلمين عن دينهم، وتجرّؤوا على قدس القرآن المجيد وشخص النبيّ الكريم ﷺ والإسلام الحنيف.

لذلك صرف ﷺ جملة من عمره في ردّ هذه العادية، وحفظ الناشئة من شرّهم، فألّف في هذا الباب عدّة كتب أعلاها وأسناها كتابه القيّم الهدى إلى دين المصطفى.

ومن السمات النفسيّة العالية للبلاغي ﷺ في كتابه هذا حسن الخلق وسعة الصدر واستيفاء البحث، مع أدب جمّ لا يسبّ ولا يشتم ولا يفحش.

وأودّ أن أُشير هنا إلى ناحيتين من نواحي هذا الكتاب الفريد، وأنقل نصّين:

الناحية الأُولى: التقسيم المنطقي، وقد استعمل هذا التقسيم كثيراً، لأجل استيفاء الموضوع الذي يطرقه. والتقسيم المنطقي جليل الخطر في حصر الموضوع ولَمْلَمَة حواشيه، وعدم صرف الفكر والوقت في الموضوع المُبَعْثَر المتناثر.

والنصّ هو ما جاء في أوّل المقدّمة العاشرة في ذكر الموانع للنبوّة والرسالة، الشاهدة على كذب ادّعائها. قال:

وهي أُمور:

[المانع] الأوّل: أن ينصّ النبيّ المعلوم النبوّة على كذب المدّعي للنبوّة والرسالة؛ فإنّ تصديق هذا المدّعي تكذيب للنبيّ المعلوم النبوّة في تبليغه لكذب هذا المدّعي. وهو غير جائز بالعقل والنقل واتّفاق الملّيّين القائلين بالنبوّات.

ومثل هذا أن ينصّ النبيّ المعلوم النبوّة على أن لا يكون نبيّ من هذه القبيلة أو من هذا الصنف أو في الزمان الفلاني، ويكون مدّعي النبوّة من هذه الأقسام.

ومثله أن ينصّ على انحصار النبوّة بهذه القبيلة أو بهذا الصنف أو بهذه البلاد أو بهذا الزمان، ويكون مدّعي النبوّة من غيرها.

المانع الثاني: أن يعطي النبيّ المعلوم النبوّة علامة على كذب دعوى النبوّة، وتنطبقَ تلك العلامة على مدّعيها.

المانع الثالث: أن يعترف مدّعي النبوّة ويخبر بنبوّة شخص، وينصّ هذا الشخص على كذب ذلك المدّعي للنبوّة في دعواه لها؛ لأنّه إن كان هذا الشخص نبيّاً حقّاً فقد نصّ على كذب مدّعي النبوّة فيلزم تصديقه في ذلك، وإن لم يكن هذا الشخص نبيّاً فقد كذب مدّعي النبوّة في التبليغ عن الله بإخباره بنبوّة هذا

الشخص. والعقل وإجماع أهل الملل حاكمان بأنّه لا يكذب النبيّ في التبليغ.
المانع الرابع: أن يكون مدّعي النبوّة فاعلاً للإثم وما هو قبيح في العقل أو في الشريعة التي يتديّن بها؛ لما قدّمناه في الفصل الثالث من المقدّمة الثامنة من دلالة العقل والنقل على لزوم عصمة النبيّ، ومن جملة ذلك أن لا يظهر عليه الكذب المحرّم في تعاليمه واستشهاداته.
المانع الخامس: أن لا يأتي في دعوته بما هو مخالف للعقل، ومنه الدعوة إلى الشرك وتعدّد الآلهة وعبادة غير الله؛ فإنّ العقل لا يذعن بنبوّة من هو على خلاف هداه وبديهيّ حكمه، ويجحدها أشدّ الجحود. وإنّا إن لم نتّبع موازين العقل فقد أضعنا رشدنا وضللنا عن السبيل الهادي إلى الله ورسله وكتبه والمعارف الحقّة.
وهل وراء العقل إلّا الجهل؟ وهل بعد الحقّ إلّا الضلال المبين؟
المانع السادس: تناقض تعاليمه في بيان الحقائق، وتناقض احتجاجه لها بنحو لا يكون من النسخ للحكم السابق؛ فإنّ اللازم من ذلك كذبه في التبليغ في أحد الأمرين المتناقضين، وجهله في وجه الاحتجاج للأُمور الإلهيّة.
المانع السابع: شرب الخمر ـ أُمّ الشرور والقبائح والتهتّك والخلاعة ـ المنافية لوظيفة الرسول وسفارته من قبل الله على الخلق لهداهم وتكميلهم وتهذيبهم وإصلاح مدنيّتهم وأخلاقهم. كما يدلّ عليه اعتبار العقل وتظافر النقل[1].

ثمّ ساق آيات من القرآن الكريم ونصوصاً من التوراة والإنجيل.

الناحية الثانية: تلخيص كثير الكلام في قليله، وجمع النظير إلى نظيره. وهو أمر مفيد جدّاً في الاحتجاج؛ إذ يأخذ ﷺ المبشّر من جميع أقطاره، ويسدّ عليه كلّ منافذه.

والنصّ هو:

ومرجع كلام المتكلّف ـ وأعوذ بالله من وبال بيانه ـ هو أنّ خزانة رحمة الله ولطفه وعدله وهداه وإرادة الصلاح بعباده ودعوتهم إلى التوحيد والهدى والكمال، قد كانت محجوراً عليها، ممنوعة بالقهر من أن يرشح من نداها شيء على العباد، أو

١. راجع ص ٢١٧ ـ ٢١٨.

أنّ الحرص ضرب عليها أقفالاً ختمها بخواتيم المحاباة لبني إسرائيل، ورصدها بحراسة الشحّ؛ فبقيت عباد الله هَمَلاً فَوْضى بلا معارف نبوّة، ولا دعوة توحيد، ولا نور هدى، ولا تكميل تعليم، ولا لطف تهذيب، ولا فيض رحمة، ولا بركة نعمة، ولا مدنيّة أحكام إلهيّة، ولا سياسة شريعة، يعاقَبون بلا حجّة، ويوبَّخون بلا بيان، ويوصفون بالظلم بلا شريعة تميّز الحقوق وتحفظها بالسياسة، إلى أن ارتفع ذلك الحجر من نحو خاصّ، وتفصّمت تلك الأقفال، وانصرفت الحرّاس من جهة واحدة، فانهطل وابل النبوّة على إسرائيل وبنيه سحّاً بلا ميزان، ولا رعاية أثر، ولا مراعاة حكمة، ولا دعوة عامّة، ولا بركة شاملة، ولا هدى فائض؛ فلذلك اتّفق لها بمقتضى نقل التوراة الرائجة أمر عجيب قد فاتته الموفّقيّة وجانبته الحكمة، فلم تذكر التوراة في نبوّة إبراهيم إلّا الوعد بالبركة وكثرة النسل، وإعطاء قطعة من الأرض لهم، وعهد الختان الذي أبطله العهد الجديد، وتنفيذ أوامر سارة ولم تذكر في نبوّة إسحاق إلّا الوعد بتكثير نسله وإعطائه قطعة من الأرض، ولكنّها لم تذكر أنّ أمره لولد عيسو أن يصنع له طعاماً كما يحبّ ليأكل ويبارك عيسو قبل أن يموت، وأنّ اشتباهه بمخادعة يعقوب إذ باركه بعدما أكل وشرب خمراً، هل كان هذا كلّه بوحي ونبوّة أم لا؟ نعم، ذكرت أنّ يعقوب اختلس بركة النبوّة وعهدها بالمخادعة والتزوير، وأحكم أمرها بالمصارعة والجهاد مع الله تعالى شأنه.

والحاصل لم تذكر التوراة في نبوّة هؤلاء الأنبياء ولا الذين من قبلهم كتاب هدىً ورحمة، أو نبوّة بالدعوة إلى التوحيد والكمال، أو بتمهيد شريعة أدبيّة، أو تأسيس قوانين مدنيّة وإصلاح للاجتماع.

نعم، ذكرت أنّ في أيّام شيث ابتدأ أن يدعى باسم الربّ، ولكنّها لم تذكر من الداعي؟ ولمن دعا؟ وبماذا دعا؟ وكيف دعا؟

ثمّ بعد ذلك اندفقت النبوّة بأُبّهة رسالتها ورئاستها الكبرى على موسى، فلم تَعدُ التوراة أن ذكرت أنّه ردّ هذه الرسالة بلسان غير ليّن ولا مؤدّب، ولم يلتفت إلى حجّة الله ووعده بالتأييد، بل كرّر الردّ بلسان خشن حتّى حمي عليه غضب الله.

ثمّ تحكّم على الله بالغفران لعبدة العجل أو يمحوه من كتابه، ووصف الله بالإساءة

إلى الشعب وإلى عبده، وشكّ في قدرة الله على إشباع بني إسرائيل من اللحم كالمستهزئ بوعد الله، وذكرت المزامير أنّه فرط بشفتيه.

هذا كلّه، ولم تسمح هذه الرسالة أن ترشح من بركتها قطرة واحدة على فرعون وقومه بالدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده، فلم تذكر التوراة أنّ موسى دعاهم إلى الإيمان والتوحيد ولا بكلمة واحدة، حتّى كأنّ سكوته عن ذلك كان إمضاءً لما عليه فرعون وقومه.

وغاية فائدة تلك الرسالة وبركة عاقبتها هو أن يطلق فرعون بني إسرائيل، الذين كانت عاقبتهم بعدما رأوا الآيات أن عبدوا العجل وزنوا ببنات موآب. إلى آخر ما ذكرناه في المقدّمة الخامسة من ارتداداتهم[١].

ومن الأُمور التي يجب التنبيه عليها هنا أنّ كتاب الهدى إلى دين المصطفى غير تامّة، والدليل على ذلك أنّ المؤلّف ﷺ وعد في عدّة أماكن منه وعوداً عديدة لا توجد فيما بين أيدينا من الهدى:

فقد وعد في ج ٢، ص ٧٠٠ بقوله: «سيأتي التعرّض إن شاء الله لذكر الجنّة في الأجزاء الآتية بحول الله وقوّته».

وفي ج ٢، ص ٧٨٩ بقوله: «سيأتي بيان ذلك مفصّلاً مشروحاً».

ولم يأتِ شيء من ذلك في هذا الكتاب. وعدم إتمام المؤلّف ﷺ لكتابه أمر يأسف له محبّو علمه وأدبه، وتأسف له ميادين علم الكلام.

عملنا في الكتاب

مضافاً إلى تحقيق النصّ على الأُصول والقواعد الحديثة في كلّ الموسوعة:

١. خرّج المؤلّف ﷺ نصوص التوراة والإنجيل في داخل المتن، ففككنا الرموز مثل «تك ٢: ١» صار عندنا «سفر التكوين ٢: ١»، وأخرجنا التخريج من المتن وجعلناه في هوامش صفحات الكتاب.

---

١. راجع ج ٢، ص ٥٨٠ ـ ٥٨٢.

٢. في كثير من الموارد ذكر المؤلّف ﷺ الأصحاح فقط ولم يذكر العدد في النصوص التي نقلها عن التوراة والإنجيل، فخرّجنا العدد.

٣. ميّزنا النصوص المنقولة من التوراة والإنجيل بوضعها بين علامة التنصيص ـ « » ـ أو طباعتها في فقرات مستقلّة، ممتاز عن متن الكتاب بتجميعها في الجانب الأيسر من الصفحة وبكون حروفها أصغر حجماً.

٤. فككنا رموز الكتب التي نقل عنها ورمز لها، وهي:

أ. مقالة في الإسلام، رمز لها المؤلّف بـ« ق ».

ب. ذيل مقالة في الإسلام، رمز لها المؤلّف بـ« ذ ».

ج. تذييلات في أثناء مقالة في الإسلام، رمز لها المؤلّف بـ« قذ ».

د. الهداية، رمز له المؤلّف بـ« يه ».

٥. أكثر المؤلّف من الإحالة على مواضع من كتابه منها ما تقدّم ومنها ما يأتي، وقد عيّنّا تلك الموارد بهوامش تشير إلى أرقام الصفحات.

٦. نقل المؤلّف ﷺ من كتب لم نجدها مع بحثنا الشديد عنها، فتركنا تخريجاته كما ذكرها، ووصفناها في الفهرس العامّ للمصادر بـ«الطبعة القديمة».

٧. وردت أغلاط في الأرقام في النسخة المطبوعة منها في ٢: ٢٧٥ س ٦: لو ٢: ٢٤ و ٢٧ وصوابه لو ٢٠: ٣٤ و ٣٥ و ٣٦.

٨. غيّرنا تجزئة المؤلّف وألحقنا الفصلين الأوّل والثاني من المقدّمة الثانية عشر بالجزء الثاني. علماً بأنّ المؤلّف تمّ الجزء الأوّل منه حتّى أوائل الفصل الثاني «تعجيلاً لإنجاز مطبوعه».

وفي الختام لا يسعني إلّا أن أُثمّن هذا العمل الكبير الذي نهض بأعبائه مركز العلوم والثقافة الإسلاميّة ونفّذه مركز إحياء التراث الإسلامي، فجزى الله الجميع عن العلم وأهله خير الجزاء. وأن الحمد لله ربّ العالمين.

أسعد الطيّب

شهر رمضان المبارك ١٤٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[2].

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[3].

اللّهمّ فلك الحمد والشكر دائماً أبداً كما أنت أهله، على أن هديت إلى الحقّ، وأوضحت سبيل الرشد، وأنرْتَ البرهان على حين فترة من الرسل، فَلَطُفْتَ وأنعمت بإرسالك صفوة الأنبياء، وخاتم عدّتهم، والدليل على نبوّتهم، المبعوث بأتقن شريعة وأوضح طريقة، الداعي إلى الحقّ والهادي إلى الصواب، محمّد رسولك الصادق الأمين، الصادع بأمرك، والمجاهد في سبيلك، صلواتك عليه وعلى آله الطيّبين الطاهرين وصحبه المنتجبين.

وبعد، فإنّي وقفت على كتاب عربي أُرّخ طبعه بسنة ألف وثمانمائة وإحدى وتسعين ميلاديّة، لم تُذكر ـ كما هو المعتاد ـ مطبعته ولا محلّها ولا صاحبها، عنوانه أنّه تعريب

---

١. الأنعام (٦): ٧١.

٢. البقرة (٢): ١٢٠.

٣. آل عمران (٣): ٨٥.

هاشم العربي ـ نزيل بلاد الإفرنج حالاً ـ عن اللغة الإنكليزيّة لـمقالة في الإسلام لرجل ترجمه المعرِّب بـ«أنّه جرجيس صال الإنكليزي مولداً ومنشأً، المولود في أواخر القرن السابع عشر». وقد ألحق المعرِّب هذه المقالة بتذييل مستقلّ في آخرها، وتـذييلات متفرّقات في أثنائها.

ثمّ وقفت على كتاب آخر استعير له اسم الهداية قد تكلّف فيه الردّ على كتابَي إظهار الحقّ، و السيف الحميدي. فوجدت الكتابين الأوّلين على طريقة ينكرها شرع التحقيق في البحث والأدب في الكلام والأمانة في البيان، ولا يرتضيها خدّام المعارف المحافظون على فضلهم ورواج بضاعتهم، المتحذّرون من وبال الانتقاد ووصمة ظهور الزيف والزيغ.

وقد أحببت أن أُشير إلى بعض ما فيهما ممّا حاد عن الأمانة، أو تاه فـي الغـفلة، خدمةً منّي للمعارف، وإحقاقاً للحقّ، وانتقاداً للزيف؛ ليثني من يريد الكتابة من جماح تعصّبه، ويأخذ في مزالّ الأقدام وعثرات الأقلام بيد قلمه.

وقد آثرت أن أجعل ذلك في خلال ما هو الأمثل بنا ـ بل الواجب عـلينا ـ مـن الإرشاد إلى سبيل الهدى ودين الحقّ، وخالص الإيمان وحقيقة العرفان، دين الإسلام المتكفّل بأعدل النظام وأحسن التمدّن وأكمل التهذيب لعامّة البشر، وقـربهم مـن الله وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

وقد رتّبت كتابنا هذا على مقدّمات ومقاصد وخاتمة.

تنبيه: الظاهر أنّ مصنّف المقالة السابق ذكرها هو الذي سمّاه «الدكتور سعادة» في مقدّمته على معرّب إنجيل برنابا بالمستشرق سايل. وأنّ هذه المقالة هي الكتابات التي ذكر أنّه نشرها وسمّاها بالمباحث التمهيديّة. وهو الذي سـمّاه صـاحب إظهار الحقّ بالقسّيس سيل، ونقل عن مقدّمته لترجمة القرآن ثلاث جـمل مـتفرّقة تكشـف عـن ملائمة طريقته في البحث وحسن الأدب والإنصاف، على خلاف ما قد يوجد في أثناء هذه المقالة، فأظنّ أنّ جملة ممّا تجاوز في هذه المقالة عـن حـدّ البـحث إلى سـوء الأدب إنّما هو من تصرّف التعريب، أو أنّه كان من هفوات الجهل قبل أن يأخذ مـن المعارف بعض حظّه.

وتعريب المقالة المذكورة يشتمل على ثلاثمائة وإحدى وعشرين صحيفة، وقد سمّيت صاحبها عند التعرّض لكلامه «سايل» وجعلت الإشارة إليها «ق».

وأمّا المعرّب فالمظنون أنّه موّه باسمه ومحلّه، ويظهر من حاله أنّه ليس له وقوف على كتب العهدين كما ينبغي للنصراني، وإلّا لما أقدم على كثير من أقواله ـ كما ستعرف ذلك إن شاء الله منْ متفرّقات هذا الكتاب ـ اللّٰهمّ إلّا أن يكون قد حاول الإغفال وأمن الانتقاد. وقد سمّيته عند التعرّض لكلامه «المتعرّب» وإنّ تذييله المستقلّ يشتمل على خمس وتسعين صحيفة من أواخر الكتاب، وجعلت الإشارة إليه «ذ» وللتذييلات التي في أثناء المقالة «قذ».

وأمّا الكتاب المستعارله اسم الهداية فقد ذكر لي أنّه تأليف جماعة من النصارى، لكن قد رسم في ختامه «يقول العبد الفقير» بالإفراد ولعلّه أقرب؛ فإنّي أستبعد أن يقدم جماعة من هذا الجيل المتنوّر بآدابه وحسن مباحثته على مثل ما أقدم عليه مؤلّفه، كما ستطّلع عليه إن شاء الله.

وهو يشتمل على أربعة أجزاء مطبوعة في مصر بمعرفة المرسلين الأمريكان:

الجزءالأوّل من الطبعة الثانية سنة ١٩٠٠ م يشتمل على ثلاثمائة وعشرين صحيفة؛

الجزء الثاني من الطبعة الثانية سنة ١٩٠٤ م يشتمل على ثلاثمائة صحيفة؛

الجزء الثالث مطبوع في سنة ١٩٠٠ م يشتمل على ثلاثمائة وأربع صحائف؛

الجزء الرابع مطبوع في سنة ١٩٠٢ م يشتمل على ثلاثمائة وأربع صحائف.

وقد سمّيت مؤلّفه عند التعرّض لكلامه «المتكلّف» وجعلت الإشارة إلى الكتاب «يه» وإلى الجزء «ج» وإلى عدده بالرقم قبله.

المقدّمة الأُولى

[في الرموز المصطلح عليها للعهدين]

لمّا كان من مباحثتي لهم الاحتجاج عليهم جدلاً وإلزاماً بما في العهدين المنسوبين إلى الإلهام والوحي الإلهي عند عموم النصارى، وخصوص البروتستانت الذين منهم هؤلاء، فلا بأس بذكر تفصيل كتبهما والإشارة إلى الرموز المصطلح عليها لأسمائها:

فالأوّل من العهدين هو المسمّى بـ«العهد القديم» وهو عبارة عن تسعة وثلاثين سفراً، خمسة منها منسوبة لنبيّ الله موسى عليه السلام تسمى بـ«التوراة» والأسفار الباقية منسوبة إلى الوحي إلى من بعد موسى من الأنبياء إلى ما قبل زمان المسيح بنحو ثلاثمائة وسبع وتسعين سنة، وقديسمّى جميع العهد القديم بـ«التوراة».

واللسان الأصلي له إلى ما قبل سبي بابل هو اللسان العبراني، ومن سبي بابل صار الأصل لبعضها هو اللسان الكلداني وهو لسان بابل. ثمّ ترجم العهد القديم إلى اللغة اليونانيّة بعناية سبعين أواثنين وسبعين من علماء اليهود، لمائتين واثنتين وثمانين سنة ـ أو وخمس وثمانين، أو وستّ وثمانين ـ قبل المسيح، على اختلاف الرواية في تأريخ الترجمة وأسبابها. قيل: وتمّت في اثنين وسبعين يوماً، وسمّيت بالترجمة السبعينيّة. ومقتضى النقل أنّها كانت معتبرة غاية الاعتبار فيما بين اليهود وقدماء المسيحيّين، وأنّ مصنّفي «العهد الجديد» ما نقلوا الفقرات الكثيرة إلّا عنها، وأنّ المسيح كان يخاطبهم عن الشريعة والأنبياء من هذه الترجمة، وكذا ستفانوس في خطابه لليهود، وكذا الذين

تشتّتوا في البلاد ليبشّروا بالمسيح باللغة اليونانيّة. ثمّ ترجم بعد ذلك إلى لغات كثيرة.

وهذه أسماء أسفاره، ورموزها:

١ ـ «تك» لسفر التكوين، وهو الأوّل من «التوراة» المنسوبة لموسى، ويسمّى سفر الخليقة أيضاً بمقتضى تسمية الترجمة السبعينيّة. ويسمّى في العبرانيّة باسم أوّله «برئشييت».

٢ ـ «خر» لسفر الخروج، وهو ثانيها بتسمية السبعينيّة، وفي العبرانيّة يسمّى بأوّله «واله شموت» أي وهذه أسماء.

٣ ـ «لا» لسفر اللاويّين، وهو ثالثها بتسمية السبعينيّة، وفي العبرانيّة بأوّله «ويقرا» أي ودعا.

٤ ـ «عد» لسفر العدد، وهو رابعها بتسمية السبعينيّة، ويسمّى في العبرانيّة بأوّله «ويدبر» أي وكلّم.

٥ ـ «تث» لسفر تثنية الاشتراع، وهو خامسها بتسمية السبعينيّة، وفي العبرانيّة بأوّله «اله» أي وهذه.

٦ ـ «يش» لسفر يشوع، أي يوشع.

٧ ـ «قض» لسفر القضاة.

٨ ـ «را» لكتاب راعوث.

٩ ـ «١ صم» صَمُوئيل الأوّل.

١٠ ـ «٢ صم» لكتاب صَمُوئيل الثاني.

١١ ـ «١ مل» لتأريخ الملوك الأوّل.

١٢ ـ «٢ مل» لتأريخ الملوك الثاني.

١٣ ـ «١ أي» لتأريخ الأيّام الأوّل.

١٤ ـ «٢ أي» لتأريخ الأيّام الثاني.

١٥ ـ «عز» لكتاب عزرا.

١٦ ـ «نح» كتاب نحميا.

١٧ ـ «أس» لكتاب أستيرا.

١٨ ـ «أي» لكتاب أيّوب.

١٩ ـ «مز» لمزامير داود، أي الزبور.

٢٠ ـ «أم» لأمثال سليمان.

٢١ ـ «جا» لكتاب الجامعة المنسوب لسليمان.

٢٢ ـ «نش» لنشيد الإنشاد.

٢٣ ـ «أش» لكتاب إشَعْياء.

٢٤ ـ «إر» لكتاب إرميا.

٢٥ ـ «مرا» لمرائي إرميا.

٢٦ ـ «حز» لكتاب حَزْقِيال.

٢٧ ـ «دا» لكتاب دانيال.

٢٨ ـ «هو» لكتاب هُوشَع.

٢٩ ـ «يوء» لكتاب يوئيل.

٣٠ ـ «عا» لكتاب عاموس.

٣١ ـ «عو» لكتاب عُوبديا.

٣٢ ـ «يون» لكتاب يونان، أي يونس بن متّى.

٣٣ ـ «مي» لكتاب ميخا.

٣٤ ـ «نا» لكتاب ناحوم.

٣٥ ـ «حب» لكتاب حبقوق.

٣٦ ـ «صف» لكتاب صفينا.

٣٧ ـ «حج» لكتاب حجّي.

٣٨ ـ «زك» لكتاب زكريّا.

٣٩ ـ «مل» لكتاب ملاخي.

ولهذه الكتب في النسخ العبرانيّة ترتيب آخر من حيث التقديم والتأخير.

وأمّا العهد الجديد فهو عند النصارى عبارة عمّا كتب بالإلهام والوحي الإلهي بعد عيسى وهو عند البروتستنت سبعة وعشرون كتاباً، وها هي ورموزها المصطلح عليها:

١ ـ «مت» لإنجيل متّى.

٢ ـ «مر» لإنجل مرقس.

٣ ـ «لو» لإنجيل لوقا.

٤ ـ «يو» لإنجيل يوحنّا.

٥ ـ «أع» لأعمال الرسل.

٦ ـ «رو» لرسالة بولس إلى أهل رومية.

٧ ـ «١ كو» لرسالته الأُولى إلى أهل كورنثوش.

٨ ـ «٢ كو» لرسالته الثانية إليهم.

٩ ـ «غل» لرسالته إلى أهل غلاطية.

١٠ ـ «أف» إلى أهل أفس.

١١ ـ «في» إلى أهل فيلبي.

١٢ ـ «كو» إلى أهل كولوسي.

١٣ ـ «١ تس» الأُولى إلى أهل تسالونيكي.

١٤ ـ «٢ تس» الثانية إليهم.

١٥ ـ «١ تي» الأُولى إلى تيموثاوس.

١٦ ـ «٢ تي» الثانية إليه.

١٧ ـ «تي» إلى تيطس.

١٨ ـ «فل» إلى فليمون.

١٩ ـ «عب» إلى العبرانيّين.

٢٠ ـ «يع» لرسالة يعقوب.

٢١ ـ «١ بط» لرسالة بطرس الأُولى.

٢٢ ـ «٢ بط» للرسالة الثانية.

٢٣ ـ «١ يو» لرسالة يوحنّا الأُولى.

٢٤ ـ «٢ يو» لرسالته الثانية.

٢٥ ـ «٣ يو» لرسالته الثالثة.

٢٦ ـ «يه» لرسالة يهوذا.

٢٧ ـ «رو» لرؤيا يوحنّا المسمّاة بالمكاشفات، والمشاهدات، والجليان.

ولكلّ واحد من كتب العهدين فصول معدودة يسمّونها الأصحاحات، تشتمل على فقرات معدودة بالرقم الهندي. فإذا أرادوا الإشارة إلى الفقرة أشاروا إلى كتابها بما ذكرنا من الرموز، ثمّ أشاروا إلى أصحاحها بعدده بـالرقم الهـندي، وجـعلوا بـعده نـقطتين إحداهما فوق الأُخرى هكذا (:) ثمّ أشاروا إلى الفقرة بعددها بالرقم أيضاً.

مثاله: إذا أردنا أن نشير إلى الفقرة الثالثة عشر من الأصحاح الثالث من رسالة بولس إلى أهل غلاطية رسمنا هكذا «غل ٣: ١٣».

وإذا أرادوا الإشارة إلى فقرات متعدّدة أشاروا إلى الأُولى بنحو ما ذكرنا، ثمّ رسموا بعدها خطّاً عرضيّاً هكذا «ـ» ورسموا بعده عدد الفقرة الأخيرة، فيكون الخطّ العرضي بمعنى «إلى» أو «حتّى».

مثال ذلك: إذا أردنا أن نشير إلى جملة هي مـن الثـامنة عشـر إلى نـهاية الثـالثة والعشرين من الأصحاح الحادي والعشرين من سفر التثنية، رسمنا هكذا «تث ٢١: ١٨ ـ ٢٣»، وإنّ الكثير من اصطلاحنا في الكتاب أن نذكر عدد الأصحاح صريحاً، ثمّ نشير إلى عدد الفقرات بالرقم.

وإنّ الذي حضرني من نسخ العهدين عند كتابة هذا الكتاب نسخ عديدة:

الأُولى: نسخة عبرانيّة مطبوعة في برلين سنة ١٩٠١م. يشتمل العهد القديم مـنها على ألف وثلاثمائة وأربع وثمانين صحيفة، والجديد على أربعمائة وستّ وثمانين.

الثانية: نسخة عربيّة أُشير في متنها إلى الكلمات التي زيدت في الترجـمة عـلى الأصل العبراني واليوناني بطبعها بالحرف الصغير، وإلى الكلمات التي لا توجد في أقدم النسخ وأصحّها بجعلها بين خطّين هلاليّين. وأُشير في أسفل صحيفتها إلى اخـتلاف العبرانيّة واليونانيّة والسامريّة، وإلى اختلاف القراءات. وأُشير في جـانبها الأعـلى إلى تكرّر الكلمة والمضمون في العهدين، وإلى تأريخ بعض الحوادث المذكورة فيهما. وإنّ العهد القديم منها ليشتمل على ألف واثنتين وستّين صحيفة. والجديد عـلى ثـلاثمائة وثمان وخمسين. وفي آخرها ما نصّه: «وكان الفراغ من اصطناع صفائحه فـي شـهر تموز من أشهر سنة ١٨٧٠ مسيحيّة في بيروت».

الثالثة: نسخة عربيّة أيضاً من الطبعة الثانية عشرة في المطبعة الأمريكانيّة في بيروت سنة ١٩٠٥م. يشتمل العهد القديم منها على تسعمائة وعشرين صحيفة، والجديد على مائتين وخمس وتسعين.

الرابعة: نسخة عربيّة طبع دي ساراه هوجسون سنة ١٨١١ م.

الخامسة: نسخة فارسيّة مطبوعة في روكلين مدلبسيك سنة ١٨٩٥م، بنفقة الجمعيّة المشهورة به بريتش وفورن بيبل سوسائيتي دار السلطنة لندن. يشتمل العهد القديم منها على ألف وثلاثمائة وثمان وثمانين صحيفة، والجديد على أربعمائة وإحدى وعشرين.

السادسة: نسخة فارسيّة أيضاً بالحرف الصغير، مساوية للتي قبلها في عدد الصحائف والوضع والطبع بنفقة الجمعيّة المذكورة، طبع العهد القديم منها سنة ١٩٠١م، والجديد سنة ١٩٠٢م.

السابعة: نسخة فارسيّة أيضاً، العهد القديم منها يشتمل على أربعة أجزاء في ثمانمائة وستّ وأربعين صحيفة، بترجمة وليم كلن قسّيس أكستي ومعلّم العلم الإلهي، باستعانة فاضل خان الهمداني، بفرمان المجمع المشهور بيونيتد اسوشئت سند سكتلند. مطبوعة بفرمان المجمع المذكور في دار السلطنة أدن برغ، بمطبعة تومس كنستبل سنة ١٨٤٥ م. والعهد الجديد منها يشتمل على خمسمائة واثنتين وثلاثين صحيفة، بترجمة أفضل الفضلاء المسيحيّة هنري مرتن قسّيس إنكليسي، وطبع بفرمان مجمع برتيطش اندفرن بيبل سسيتي في أدن برغ، في المطبعة المذكورة أيضاً سنة ١٨٤٦م.

الثامنة: خمسة أسفار التوراة لموسى، فارسيّة بترجمة تومارا بنسن القسّيس، مطبوعة في لندن بمطبعة رجاردواطس سنة ١٨٣٩م. وهي تشتمل على خمسمائة وسبعين صحيفة.

التاسعة: العهد الجديد نسخة عربيّة، تشتمل على أربعمائة صحيفة، فرغ من اصطناع صفائحها في مدينة نيويورك سنة ١٨٤٦م، وطبعت في مطبعة المدرسة في أوكسفورد سنة ١٨٦٩م.

العاشرة: العهد الجديد بالفارسيّة، تشتمل على ستّمائة وسبعة وعشرين صحيفة، بترجمة هنري مارتن المذكور، من الطبعة الثالثة بمطبعة رجاردواطس في لندن، بإعانة مجمع بيبل سوستيتي سنة ١٨٣٧ م.

المقدّمة الثانية

فيما يستخرج من العهدين من المدّة التي تراخى فيها وحي كتبها

أمّا التوراة: فإنّ ابتداء وحيها لموسى كان في جبل حوريب، إذ كان موسى يرعى غنم كاهن مدين[1]، ثمّ في مدين[2]، ثمّ في مصر في دفعات متراخية بحسب الزمان إلى عبور بني إسرائيل البحر[3]، ثمّ في مادّة[4]، ثمّ في برّيّة سين حيث أُنزل المَنّ بعد الخامس عشر من الشهر الثاني لخروجهم من مصر[5]، ثمّ رَفِيدِيم[6]، ثمّ في بَرّيّة سِيناء بعد الشهر الثالث لخروجهم من مصر[7]. وتتابع الوحي في دفعات متراخية في جبل سِيناء وبَرّيّته، إلى أن ارتحلوا منها في العشرين من الشهر الثاني من السنة الثانية لخروجهم من مصر[8]، ثمّ في قَبَرُوت هَتَّأْوَة[9]، ثمّ في حَضَيْرُوت[10]، ثمّ في

---

١. سفر الخروج ٣: ٤.

٢. سفر الخروج ٤: ١٩.

٣. سفر الخروج ٥ ـ ١٤.

٤. سفر الخروج ١٥: ٢٥.

٥. سفر الخروج ١٦: ١.

٦. سفر الخروج ١٧: ١.

٧. سفر الخروج ١٩: ٢.

٨. سفر العدد ١٠: ١٢.

٩. سفر العدد ١١: ٣٥.

١٠. سفر العدد ١٢: ١٦.

برّيّة فاران[١]. وتتابع الوحي هناك في سنين عديدة إلى أن مات هارون في جبل هُور[٢]، وكان موت هارون في أوّل الشهر الخامس من السنة الأربعين لخروجهم من مصر[٣]. ثمّ في عَرَبات مُوآب، ووضع لهم هناك شرائع وأحكام[٤]، ثمّ في عبر الأُردنّ في أوّل الشهر الحادي عشر من السنة الأربعين لخروجهم من مصر[٥].

فكانت مدّة نزول الوحي والشريعة على موسى بالتدريج والتعاقب، من المدّة التي كان فيها يرعى غنم كاهن مدين في حُورِيب إلى أن توفّي في أرض مُوآب، ما يزيد على إحدى وأربعين سنة. على أنّه لم يعرف من التوراة الوقت الذي أُوحي فيه سفر التكوين إلى موسى.

ومقتضى صراحة التوراة أنّ كتابة موسى لها في كتاب وجمعها كانت في آخر عمره الشريف عند إتمام الشريعة، كتب هذه التوراة وسلّمها للكهنة وشيوخ بني إسرائيل، وأمرهم بوضعها بجانب تابوت عهد الربّ[٦].

وأمّا وحي إشَعْياء فقد كان متراخياً في أيّام عُزّيّا، ويُوثام، وآحاز، وحِزْقِيّا، ملوك يَهُوذا[٧]. وكانت مدّة ملك هؤلاء الأربعة مائة وثلاث عشرة سنة[٨]. وكذا وحي كتاب هوشع[٩].

وكان وحي كتاب إرْمِيا متدرّجاً متراخياً من السنة الثالثة عشرة لملك يُوشِيّا، وأيّام ملك يَهوآحاز، ويَهوياقِيم، ويَهُوياكِين، إلى السنة الحادية عشرة لملك صِدقيّا[١٠]،

---

١. سفر العدد ١٢ : ١٦.
٢. سفر العدد ٢٠ : ٢٢ ـ ٢٩.
٣. سفر العدد ٣٣ : ٣٨.
٤. سفر العدد ٢٨ ـ ٣٦.
٥. سفر التثنية ١ : ١ ـ ٤.
٦. انظر سفر التثنية ٣١ : ٩ و٢٤.
٧. سفر إشَعْياء ١ : ١.
٨. أخبار الأيّام الثاني ٢٦ ـ ٢٩.
٩. سفر هوشع ١ : ١.
١٠. سفر إرْميا ١ : ١ ـ ٤.

وكانت هذه المدّة إحدى وأربعين سنة[١].

وكان وحي كتاب حَزْقِيال من السنة الخامسة لسبي يَهُوياكِين[٢]، متدرّجاً إلى السنة السابعة والعشرين[٣].

وكان وحي كتاب دانيال متدرّجاً من أيّام بَخْت نَصَّر[٤]، إلى السنة الثالثة لكُورَش[٥]. وهذه المدّة تزيد بحسب التأريخ على الستّين سنة.

وكان وحي كتاب مِيخاالمُورَشي متدرّجاً في أيّام يُوثام، وآحاز، وحِزْقِيّا، ملوك يهوذا[٦]. وكان [مدّة] ملك هؤلاء إحدى وستّين سنة[٧].

وكان وحي كتاب حجّي ـ على قلّته ـ متدرّجاً من أوّل الشهر السادس من السنة الثانية لملك داريوس[٨]، إلى الرابع والعشرين من الشهر التاسع[٩].

وكان وحي كتاب زَكَرِيّا متدرّجاً من الشهر الثامن من السنة الثانية لداريوس الملك[١٠]، إلى الشهر التاسع من السنة الرابعة[١١]. ثمّ لم يؤرّخ وحيه بعد هذا في كتابه.

ولم يذكر في العهد القديم أنّ باقي كتبه كان وحيها دفعة واحدة.

وكان عمر المسيح حينما اعتمد من يوحنّا ونزل عليه الروح القدس نحو ثلاثين سنة[١٢]. ومن المعلوم أنّ عمره الشريف حينما رفع إلى السماء كان نحو ثلاث وثلاثين

---

١. تأريخ الأيّام الثاني ٣٤ و٣٥.

٢. سفر حَزْقِيال ١: ٢.

٣. سفر حَزْقِيال ٢٩: ١٧.

٤. سفر دانيال ٢: ١.

٥. سفر دانيال ١٠: ١.

٦. سفر ميخا ١: ١.

٧. سفر الأيّام الثاني ٢٧ و ٢٨ و ٢٩.

٨. سفر حجّي ١: ١.

٩. سفر حجّي ٥: ١٠.

١٠. سفر زكريّا ١: ١.

١١. سفر زكريّا ٧: ١.

١٢. إنجيل لوقا ٣: ٢١ ـ ٢٤.

سنة، فتكون تعاليمه النبويّة الإلهاميّة إلى ليلة الجمعة التي هجم فيها عليه اليهود، متدرّجة ـ حسبما ذكر في الأناجيل ـ في مدّة ثلاث سنين.

وإذا عرفت هذه المقدّمة، فماذا تقول في قول المتكلّف في شأن القرآن الكريم: «وهو مخالف لكتب الوحي؛ لأنّها نزلت جملة والقرآن مقطّع»؟[١] ثمّ انظر إلى تهوّر سايل[٢]، فهل تراهما لم يطّلعا على ما في العهدين أم حاولا الإغفال ليروّجا أغراضهما؟ أفأمنا من رقيب الحقّ؟

ومن الظرائف قول المتعرّب: «اليهود يقولون: إنّ الناموس أُعطي لموسى نجوماً»[٣].

وليت شعري إنّ التوراة في أعصار هؤلاء لم تنحصر بنسخة حلقيا أو عزرا، ليجهلوا مافيها.

المقدّمة الثالثة

فيما اتّفق من صراحة بعض كتب العهدين بما يدلّ على مخالفة وضعها وترتيبها لترتيب إلهامها ووحيها

فإنّ المزمور الثامن عشر كان إلهامه عندما أنقذ الله داود من أيدي كلّ أعدائه ومن يد شاول، وإنّ المزمور الرابع والثلاثين كان إلهامه عندما غيّر داود عقله قدّام أبي مالك، وهو قبل ذلك، وإنّ إلهام المزمور الحادي والخمسين كان بعد ما تـزوّج داود بـامرأة أُورِيّا، وإلهام الثاني والخمسين عندما أخبر دواغ الأدومي شاول بدخول داود إلى بيت أخي مالك، وهو قبل ما تقدّم ذكره، وكذا إلهام المزمور السادس والخمسين. وكان إلهام المزمور السابع والخمسين بعد إلهام المـزمور التـاسع والخـمسين. وإنّ إلهـام التـاسع والخمسين كان عندما أرسل شاول من يراقب داود في البيت، وهو قبل كلّ ما ذكر. وكان إلهام المزمور المائة والثاني والأربعين عندما كان داود في المـغارة، وهـو قـبل أغلب ما ذكرنا، ومقارن لإلهام المزمور السابع والخمسين. ويعرف ما ذكرنا من التقدّم والتأخّر ومخالفة الترتيب من ملاحظة عناوين المزامير، ومراجعة تأريخ أحـوال داود من تاسع عشر صَمُوئيل الأوّل إلى ثاني عشر صَمُوئيل الثاني.

وإنّ إلهام الأصحاح الحادي والعشرين من إرميا، كان في أيّام صِدقيّا آخر مـلوك يهوذا. وإلهام أوائل الثاني والعشرين في أيّام يَهُوياقِيم، وإلهام أواخره في أيّام ابنه كنيا هو، وهما قبل صِدقيّا. وإلهام الخامس والعشرين كان في السنة الرابعة ليَهُوياقيم، وهي

قبل ملك كُنْياهُو وصِدِقيّا. وإلهام السادس والعشرين كان في ابتداء ملك يَهُوياقيم، وهو قبل كلّ ما ذكرنا. ومثله إلهام السابع والعشرين بحسب أوائله إلّا أنّ فيه غلطاً واضحاً كما يشهد به الثامن والعشرون. وإنّ إلهام الثاني والثلاثين كان في السنة العاشرة لصِدقيّا. وإلهام السادس والثلاثين كان في السنة الرابعة ليَهُوياقيم. وإنّ إلهام الثالث والأربعين كان في تَحْفَنْحِيس في مصر بعد سبي بابل وانقراض مملكة يهوذا بمدّة، وكذا إلهام الرابع والأربعين. مع أنّ إلهام الخامس والأربعين يتعلّق بالسنة الرابعة ليهوياقيم.

فراجع نصّ الأصحاحات المذكورة من إرْميا مع تأريخ ملك يَهُوياقيم، ويكنيا، وصِدقيّا ـ ملوك يهوذا ـ في الثالث والأربعين إلى الخامس والأربعين من الملوك الأوّل، والسادس والثلاثين من الأيّام الثاني.

وإنّ إلهام السادس والعشرين من كتاب حَزْقِيال كان في السنة الحادية عشرة لسبيهم، مع أنّ إلهام أوائل التاسع والعشرين كان في السنة العاشرة، وإلهام أواخره كان في السنة السابعة والعشرين مع أنّ إلهام الحادي والثلاثين كان في السنة الحادية عشرة.

وكان إلهام الأصحاح العاشر من كتاب دانيال في السنة الثالثة لكُورَش ملك فارس. وإلهام الحادي عشر في السنة الأُولى لداريُوس المادي، وهو قبل كُورَش وبناءً على ما في النسخة السبعينيّة من ذكر كورش بدل داريُوس يكون إلهام العاشر في السنة الثالثة لكورش وإلهام الحادي عشر في السنة الأُولى له.

ولعلّ التتبّع في العهدين يدلّك على أكثر ممّا ذكرنا من مخالفة ترتيب الكتاب لترتيب إلهامه، بل لعلّ التنقير في خصوص توراة موسى يشهد بكثير من ذلك، بل لعلّ ما لا شاهد عليه أكثر وأكثر، فلنكتفِ في هذه المقدّمة على هذا المقدار.

المقدّمة الرابعة

فيما ذكر في العهدين من الحالات الغريبة التي تعرض للأنبياء عند الوحي إليهم، وتجلّي الله وظهور جلاله لهم

ففي التوراة أنّ إبراهيم لمّا أُوحي إليه في شأن نسله وغربتهم، وقع عليه عند مغيب الشمس سُباتٌ ورعبة مظلمة[1]. وأنّ يعقوب لمّا رأى في الحُلم السُلَّم والملائكةَ وخاطبه الربّ واستيقظ، خاف وقال: ما أرهَبَ هذا المكان[2].

وأمّا موسى فإنّه وإن لم تذكر التوراة في شأنه شيئاً عند ظهور الله له في حُورِيب في عُلَّيقة النار في أوّل تكليمه، إلّا كونه غطّى وجهه؛ لأنّه خاف أن ينظر إلى الله[3]، وكذا في جبل سيناء[4]. لكن أستفانُوس الذي وصف بأنّه مملوء من الإيمان والروح القدس والقوّة بحيث كان يصنع عجائب وآيات عظيمة في الشعب[5]، قد ذكر أنّ موسى ارتعد ولم يجسر أن يتطلّع عند ما ظهر له ملاك الربّ في نار العُلَّيقة[6]. وبُولس الرسول العظيم عند النصارى ذكر في شأن ظهور جلال الله على جبل سيناء حين ارتجف الجبل، أنّ

---

١. سفر التكوين ١٥: ١٢ ـ ١٥.

٢. سفر التكوين ٢٩: ١٢ ـ ١٨.

٣. سفر الخروج ٣: ١ ـ ٦ والعلّيق: نبت يتعلّق بالشجر. الصحاح ٣: ١٥٣٢، «ع ل ق».

٤. سفر الخروج ١٩: ٢٠.

٥. سفر أعمال الرسل ٦: ٥ ـ ٨.

٦. سفر أعمال الرسل ٧: ٣٠ ـ ٣٣.

المنظر كان مخيفاً حتّى قال موسى: «أنا مُرتَعِب ومُرتَعِد»[١].

ويلزم من ذلك أنّ التوراة أهملت ذكر حال موسى في هذا الشأن، نعم ذكرت في مقام آخر أنّ موسى قال لله: أرني مجدك، فقال:

أجيز كلّ جودتي قدّامك... ولا تقدر أن ترى وجهي؛ لأنّ الإنسان لا يراني فيعيش وهو ذا عندي مكان فتقف على الصخرة ويكون متى اجتاز مجدي أنّي أضعك في نقرة من الصخرة، وأسترك بيدي حتّى اجتاز، ثمّ أرفع يدي فتنظر ورائي، وأمّا وجهي فلا يُرى[٢].

والمعقول من هذا الكلام هو أنّ الطبيعة البشريّة ـ حتّى من مثل موسى ـ لا تقوى على مشاهدة جلال الله ومجده من الوجهة الحقيقيّة المكنيّ عنها بالوجه، وإنّما تقوى بمساعدة العناية الربّانيّة على بعض المشاهدة من الوجهة المكنيّ عنها بالوراء.

وذكرت التوراة أيضاً أنّ السحابة غطّت خيمة الاجتماع، وملأ بها الربّ المسكن، فلم يقدر موسى أن يدخل خيمة الاجتماع؛ لأنّ السحابة حلّت وبهاء الربّ ملأ المسكن[٣]. ومقتضاه أنّ موسى مع مقامه النبوي وكونه كليم الله قد ضعف وأحجم عن الإقدام على مشاهدة بهاء الله.

وقد اتّفق للعهدين التعرّض لبعض أحوال الأنبياء عند الوحي والمكاشفة من تصرّف الروح بهم على غير اختيارهم، وسقوطهم لوجوههم، ومقاساتهم الجهدَ والشدّة ـ كوقوع الغيبة والإغماء عليهم واضطرابهم وغير ذلك ـ عند مشاهدة آثار الجلال والكبرياء.

فعن قول حَزْقِيال لمّا رأى منظر شبه مجد الربّ وخرّ على وجهه[٤]: «فدخل فيّ روح وأقامني على قدمَيّ»[٥]. وعن قوله أيضاً: «فحملني الروح وأخذني وذهبت مرّاً في

---

١. رسالة بولس إلى العبرانيّين ١٢: ٢١.

٢. سفر الخروج ٣٣: ١٨ ـ ٢٣.

٣. سفر الخروج ٤٠: ٣٤ و ٣٥.

٤. سفر حَزْقِيال ١: ٢٨.

٥. سفر حَزْقِيال ٢: ٢.

حرارة روحي ويد الربّ كانت شديدة عَلَيّ»[١]. وأيضاً:

وإذا بمجد الربّ واقف هناك كالمجد الذي رأيته على نهر خابُور، فخررت على وجهي، فدخل فيّ روح وأقامني على قَدميّ[٢].

وأيضاً: «ومدّ شبه يد وأخذني بناصية رأسي، ورفعني روح بين الأرض والسماء»[٣]. وأيضاً: «ثمّ دفعني روح وأتى بي إلى باب البيت»[٤]. وأيضاً: «كانت على يد الربّ فأخرجني بروح الربّ وأنزلني في وسط البقعة»[٥].

وعن قول دانيال في بعض رؤياه ومكاشفاته بالوحي:

وسمعت صوت إنسان بين أولاي فنادى وقال: يا جبرائيل فهِّم هذا الرجل، فجاء إلى حيث وقفت، ولمّا جاء خفت وخررت على وجهي... وإذ كان يتكلّم معي كنت مُسْتَبِخاً على وجهي إلى الأرض، فلمسني وأوقفني على مَقامي[٦].

وأيضاً:

ورأيت هذه الرؤيا العظيمة ولم تبق فيَّ قوّة، ونضارتي تحوّلت إلى فساد ولم أضبط قوّة. ولمّا سمعت صوت كلامه كنت مستبخاً على وجهي ووجهي... إلى الأرض. وإذاً بيد لمستني وأقامتني مرتجفاً على ركبتَيَّ وعلى كفَّي يَدَيَّ... وهو ذا كشبه بني آدم لمس شفتيّ، ففتحت فمي وتكلّمت وقلت للواقف أمامي: يا سيّدي بالرؤيا انقلبت عَلَيّ أوجاعي، فكيف يستطيع عبد سيّدي أن يتكلّم مع سيّدي وأنا فحالاً لم تبق فيّ قوّة، ولم تبق فيّ نسمة[٧].

ومن الواضح أنّ سقوط حَزْقِيال على وجهه ومرارته وحرارة روحه، وشدّة يد الربّ

---

١. سفر حَزْقِيال ٣: ١٤.

٢. سفر حَزْقِيال ٣: ٢٣ و ٢٤.

٣. سفر حَزْقِيال ٨: ٣.

٤. سفر حَزْقِيال ١١: ١.

٥. سفر حَزْقِيال ٣٧: ١.

٦. سفر دانيال ٨: ١٦ ـ ١٩.

٧. سفر دانيال ١٠: ٧ ـ ١٨.

عليه، وتصرّف الروح به لا باختياره، وكذا حالات دانيال المذكورة إنّما هي من انفعال الطبيعة البشريّة واندهاشها وسقوط قواها لسطوة التجلّي وهيبة الجلال وعظمة الكبرياء.

وفي العهدين أيضاً:

أنّ إيليّا لمّا سمع صوت الربّ الخفيف المنخفض، لفّ وجهه بردائه[١]. وأنّ زَكَريّا لمّا رأى ملاك الربّ عن يمين مذبح البخور، اضطرب ووقع عليه الخوف[٢].

ولمّا خرج من الهيكل وهو لا يستطيع التكلّم، فهم اليهود أنّه قد رأى رؤياً[٣].

ويفهم من ذلك أنّ انفعال الطبيعة البشريّة واندهاشها عند التجلّي كان أمراً معلوماً مقرّراً عند اليهود.

وفي العهد الجديد: أنّ المسيح بعد اعتماده من يوحنّا ونزول الروح القدس عليه، أصعده الروح وأخرجه إلى البرّيّة وصار يقوده فيها مع الوحوش أربعين يوماً[٤]. وتغيّرت هيئة وجهه عندما تجلّى الله له بإرسال موسى وإيليا[٥]. واضطرب بالروح إذ أُخبر أنّ واحداً من تلاميذه سيسلّمه[٦].

ولعلّ من هذا النحو كونه ليلة هجوم اليهود عليه في جهاد ـ كما ترجم بالفارسيّة والتركيّة: «الاضطراب» ـ حتّى صار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض[٧]. مع أنّ الوقت كان بارداً يحتاج فيه إلى الاستدفاء والاصطلاء بالنار[٨]. وأنّ بطرس قد وقعت عليه غيبة ـ وفسّرت بـ«بيهوش» ـ وذلك حينما أُوحي إليه حِلّ جميع الحيوانات عند نزول الزنبيل[٩]. وكذا

١. سفر الأيّام الأوّل ١٩: ١٢ و ١٣.

٢. سفر اللاويّين ١: ١١ و ١٢.

٣. سفر اللاويّين ١: ٣٢.

٤. انظر إلى إنجيل متى ٤: ١؛ إنجيل مرقس ١: ١٢ و٣؛ إنجيل لوقا ٤: ١ وراجع التراجم الفارسيّة وغيرها.

٥. إنجيل لوقا ٩: ٢٩.

٦. إنجيل لوقا ١٣: ١٢.

٧. إنجيل لوقا ٢٤: ٤٤.

٨. انظر إلى إنجيل مرقس ١٤: ٦٧؛ إنجيل يوحنّا ١٨: ١٨.

٩. سفر أعمال الرسل ١٠: ١٠.

بولس حينما أُوحي إليه بالخروج من أُورشليم[١]. بل وكذا عند ما عرج به إلى السماء[٢]. وأنّ يوحنّا بن زبدي سقط في رؤياه كميّت[٣]. وكم وكم تصرّف بـه الروح وذهب بـه لا باختياره[٤].

هذا كلّه، مع أنّ كتب العهدين لم تستقص ذكر هذه الحالات للأنبياء عند الوحـي، بدليل أنّ التوراة أهملت في شأن موسى ما ذكره أستفانوس وبُولس، وأنّ الأناجيل قد أهمل كلّ واحد منها كثيراً ممّا ذكره الآخر، فضلاً عن اختلافها الكاشف عن عدم اطّلاع كَتَبَتِها على حقيقة الحال، وأنّ العهد القديم لم يذكر حالات إشَـعْياء وإرمـيا وهُـوشَع وغيرهم من الأنبياء إلى مَلاَخِي، وما يعرض لهم عند الوحي والتجلّي ولا تظنّ أنّهم في ذلك أعلى شأناً وأحسن حالاً من إبراهيم ويعقوب وموسى وحَزْقِيال ودانيال وزَكريّا والمسيح وبُطرس وبُولس ويُوحنّا، كلّا.

نعم، ذكر في العهد القديم لبعض أنبيائه عند الوحي والتنبّؤ حالات يستغربها العقل، ولا يدنو مضمونها إلى الفهم:

منها: أنّ أَلِيشع النبيّ لمّا أراد يهوشافاط أن يسأل به الربّ قال: ائتوني بعوّاد، ولمّا ضرب العوّاد بالعود، كانت عليه يد الربّ، فتنبّأ عن قول الربّ[٥].

ومنها: أنّ صَمُوئيل قال لشاول:

> إنّك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من المرتفعة وأمامهم رَباب ودفّ ونـاي وعود وهم يتنبّؤون. فيحلّ عليك روح الربّ فتنبّأ معهم... ولمّا جاؤوا إلى هناك إلى جِبْعَة إذاً بزمرة من الأنبياء لقيته، فحلّ روح عليه الله فتنبّأ في وسطهم[٦].

وليت شعري ما مداخلة العُود والعَوّاد والدفّ والرَباب والناي في النبوّة؟!

---

١. سفر أعمال الرسل ٢٢: ١٧.

٢. رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنتوس ١٢: ١ ـ ٤.

٣. رؤيا يوحنّا ١: ١٧.

٤. انظر إلى رؤيا يوحنّا ١: ١٠ و ٤: ٢ و ١٧: ٣ و ٢١: ١٠.

٥. سفر الملوك الثاني ٣: ١١ ـ ١٩.

٦. سفر صموئيل الأوّل ١٠: ٥ ـ ١١.

وأيضاً:

لمّا أرسل شاؤول رسلاً لأخذ داود في الرامة، ورأوا جماعة من الأنبياء يتنبّؤون وصَمُوئيل رئيس عليهم، فكان عليهم روح الله فتنبّؤوا هم أيضاً...، وكذا الذين أرسلهم ثانياً وثالثاً، ذهب هو فكان عليه روح الله... فخلع هو أيضاً ثيابه، وتنبّأ أيضاً أمام صموئيل، وانطرح عُرياناً ذلك النهار كلّه وكلّ الليل[١].

وليت شعري ما معنى هذا التنبّؤ وحلول روح الله؟ وما مداخلة خلع الثياب والتعرّي في النبوّة؟ وما معنى ذلك؟ وهل يعدو هذا النحو أن يكون ضرباً من الخلاعة والتجانُن؟

فاحفظ هذه المقدّمة على ذكرك فإنّ بعض المباحثين للإسلام من النصارى كأنّهم لم يطّلعوا على ما فيها، وإلّا لما تفوّهوا بما تفوّهوا من الشطط إن كانت لهم نفوس حرّة.

تذييل: في بعض ما ذكر في العهدين من أحوال بعض الأنبياء في التبليغ عن أمر الله

فمن ذلك ما في أُخريات العشرين من إشَعْياء، من أنّ الله أمر نبيّه إشَعْياء أن يمشي عُرياناً وحافياً بين الناس ثلاثَ سنين؛ ليبلّغ الناس ويقول لهم: هكذا يسوق ملك آشُور سبيَ مصر، وجلاء كُوش الفتيان والشيوخ عراة وحفاة ومكشوفي الأستاه خِزياً لمصر[٢].

وما في السابع والعشرين من إرميا من أنّ اللّه أمر نبيّه إرميا أن يصنع له ربطاً وأنياراً ويجعلها على عنقه، كما يجعل نير الفدّان على أعناق البقر؛ ليبلّغ الناس ويقول: أدخلوا أعناقكم تحت نير ملك بابل[٣].

وما في الرابع من حَزْقِيال من أنّ الله أمر نبيّه حَزْقِيال أن يأكل كعكاً من خبز الشعير الذي يخبزه أمام عيون بني إسرائيل على الخرء الذي يخرج من الإنسان؛ ليبلّغ ويقول: هكذا يأكل بنو إسرائيل خبزهم النجس بين الأُمم الذين أطردهم إليهم[٤].

---

١. سفر صموئيل الأوّل ١٩: ٢٠ ـ ٢٤.

٢. العدد ٢ ـ ٥.

٣. العدد ٢ ـ ١١.

٤. العدد ١٢ ـ ١٣.

وما في أوائل الخامس من حَزْقِيال أيضاً من أنّ الله أمر نبيّه حَزْقِيال أن يحلق رأسه ولحيته ويقسم الشعر أثلاثاً: يحرق ثلثاً، ويضرب بالسيف حوالي ثلث، ويذري الثلث الثالث. إلى الريح؛ ليبلّغ ويقول: إنّ ثلث أهل أُورشليم يموتون بالوباء والجوع، وثلثاً يسقط بالسيف، وثلثاً يذريه في كلّ ريح ويستلّ سيفاً وراءهم[1].

وما في الخامسة عشر إلى الثامنة عشر من الرابع والعشرين من حَزْقِيال أيضاً، من أنّ الله كلّم نبيّه حَزْقِيال بأنّه يأخذ منه شهوة عينيه ـ وهي زوجته ـ وأمره أن لا ينوح ولا يبكي ولا يعمل مناحة، ويلفّ عصابته ويجعل نعليه في رجليه، ولا يغطّي شاربه ولا يأكل من خبز الناس؛ ليبلّغ بني إسرائيل ويخبرهم أنّه هكذا يقع بهم[2].

وما في الثالثة من أوّل هُوشَع من أنّ الله أمر نبيّه هوشع أن يأخذ لنفسه امرأة زنى وأولاد زنىً. و نتيجة ذلك تعليله بأنّ الأرض قد زنت تاركة للربّ، وموعظة بني إسرائيل بأسماء الذين ولدتهم له تلك المرأة وذكر زناها، فراجع أوّل هوشع وثانيه فإنّه عجيب[3].

وما في ثالث هوشع أيضاً من قول هوشع:

> وقال لي الربّ: اذهب حبِّب امرأة حبيبة صاحب وزانية كمحبّة الربّ لبني إسرائيل وهم ملتفتون إلى آلهة أُخرى ومحبّون لأقراص الزبيب، فاشتريتها لنفسي بخمسة عشر شاقل فضّة وبحُومر ولثك شعير، وقلت لها: تقعدين أيّاماً كثيرة لاتزني ولا تكوني لرجل وأنا كذلك؛ لأنّ بني إسرائيل سيقعدون أيّاماً كثيرة بلاملك وبلا رئيس وبلا ذبيحة[4].

ومقتضى العهد القديم أنّ هؤلاء الأنبياء عملوا بما أمرهم به الله للتبليغ.

---

١. العدد ١ ـ ٣.

٢. سفر حَزْقِيال ٢٤: ١٥ ـ ١٨.

٣. سفر هوشع ١: ٣.

٤. العدد ١ ـ ٥.

المقدّمة الخامسة

في نبذ من سيرة بني إسرائيل والملّة النصرانيّة في ديانتهم

نقلاً من كتب العهدين مع اختصارٍ مّا، ونقل بالمعنى في بعض الموارد:

أمّا بنو إسرائيل فقد ظهرت لهم من موسى ـ الداعي لهم إلى التوحيد ـ معجزة العصا، واليد البيضاء، والعجائب في مصر، وانشقاق البحر لهم وعبورهم على اليابسة فيه، والمنّ، والسَلْوى، وإخراج الماء من الصخرة في حُورِيب، وآثار عظمة الله وقدرته على جبل سيناء[1].

وبلغهم عن الله قوله: لا تصنعوا معي آلهة فضّة، ولا تصنعوا لكم آلهة ذهب، لا يكن لك آلهة أُخرى أمامي، ولا تصنع لك تمثالاً منحوتاً في السماء أو في الأرض أو في الماء، ولا تسجد لهنّ ولا تعبدهنّ. فقالوا: كلّ ما تكلّم به الربّ نفعل. فكتب موسى هذه الأقوال وغيرها وقرأها عليهم تجديداً للعهد، فقالوا أيضاً: كلّ ما تكلّم به الربّ نفعل ونسمع[2].

وبلغهم أيضاً: لا تصنعوا لكم أوثاناً، ولا تقيموا لكم تمثالاً منحوتاً أو نصباً، ولا تجعلوا في أرضكم حجراً مصوّراً لتسجدوا له[3]. وبعد هذا كلّه لم تمض سنة منه

---

١. سفر الخروج ٤: ١٩.

٢. سفر الخروج ٢٠: ٢٤.

٣. سفر اللاويّين ٢٦: ١.

حتّى ارتدّوا عن عبادة الله، وقالوا لهارون لمّا أبطأ عليهم موسى في جبل سيناء: اصنع لنا آلهة تسير أمامنا. فلمّا صنعوا العجل المسبوك من ذهب حليّهم، قالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من مصر، فسجدوا له وذبحوا [١].

ولمّا أقاموا مع موسى في شِطّيم، صار الشعب يزنون مع بنات مُوآب، فَدَعَونَ الشعب إلى ذبائح آلهتهنّ فأكل الشعب وسجدوا لآلهتهنّ، وتعلّق إسرائيل ببَعْل فَغُور [٢].

وكفى في تمرّدهم على الشريعة أنّهم في مدّة أربعين سنة لم يختنوا من وُلد منهم، وبعد ما عبروا الأُردنّ في زمان يُوشَع صنع يُوشَع عن أمر الله سكا كين صَوّان ـ أو حادّة، وفي العبرانيّة: صيريم ـ وختنهم بها [٣].

ولم تمض مدّة كثيرة من موت يوشع حتّى فعل بنو إسرائيل الشرّ في عيني الربّ وتركوه وساروا وراء آلهة أُخرى وسجدوا لها، وعبدوا البَعْل وعَشْتارُوت [٤].

ولم يزل بنو إسرائيل في زمن القضاة يعاودون إلى عمل الشرّ في عيني الربّ [٥]. وبعد موت جِدْعُون رجعوا وزنوا وراء البَعْلِيم، وجعلوا لهم بَعْل بَرِيث إلهاً [٦]. وبعد موت يائير القاضي عادوا يعملون الشرّ في عيني الربّ، وعبدوا البَعْليم، والعَشْتارُوت، وآلهة آرام، وآلهة صَيْدُون، وآلهة مُوآب، وآلهة عَمّون، وآلهة الفلسطينيّين، وتركوا الربّ ولم يعبدوه [٧].

وحاصل شأنهم أنّهم اختلطوا بالأُمم المشركين وتعلّموا أعمالهم، وعبدوا أصنامهم وذبحوا بنيهم وبناتهم للأوثان، وأهرقوا دماً زكيّاً دم بنيهم وبناتهم الذين ذبحوهم لأصنام كَنْعان، وتدنّست الأرض بالدماء [٨].

---

١. سفر الخروج ٣٢: ١ ـ ٩.

٢. سفر العدد ٢٥: ١ ـ ٤.

٣. سفر يشوع ٥: ٢ ـ ٣.

٤. سفر القضاة ٢: ١١ ـ ١٤ و ٣: ٧.

٥. سفر القضاة ٣: ١١ و ٤: ١ و ٦: ١ و ١٣: ١.

٦. سفر القضاة ٨: ٣٣.

٧. سفر القضاة ١٠: ٦.

٨. سفر المزامير ١٠٦: ٣٥ ـ ٣٩.

ولمّا مات سليمان، انقسمت مملكة بني إسرائيل إلى قسمين، فتبع رَحْبُعام ـ ابنه ـ سبطا يَهوذا وبِنْيامِين وملّكوه عليهم وانعزل عنه باقي الأسباط فملّكوا عليهم يَرْبُعام، فعمل لرعيّته عجلي ذهب وقال: هذه آلهتك يا إسرائيل، ووضع واحداً في بيت إيل والآخر في دان، وكان الشعب يصعدون إلى أحدهما حتّى إلى دان[١]. واستمرّ بنو إسرائيل هؤلاء وملوكهم على خطيئتهم وطريقة يَرْبُعام[٢]، أي العكوف على عجول الذهب التي في بيت إيل ودان[٣] حتّى إذا ملك أخاب شاعت في أيّامه عبادة البَعْل، حتّى أنّه كان للبَعْل أربعمائة وخمسون نبيّاً، وللسواري أربعمائة نبيّ[٤]. وقطعت إيزابِل الصَيدُونيّة أنبياء الربّ إلّا من أخفاه عُوبديا[٥]. حتّى لم يبق للربّ نبيّ غير إيليّا[٦]. وحتّى لم يبق من مئات الأُلوف العديدة من بني إسرائيل من لم يعبد البَعْل إلّا سبعة آلاف أو أقلّ، ولعلّهم كانوا من الأطفال الذين لا يميّزون هذه الأُمور[٧].

واستمرّ بنو إسرائيل على خطيئتهم وطريقة يربعام إلى أن ملك عليهم هُوشَع بن أَيلة[٨]. وفي أيّامه سباهم ملك آشُور وأسكن في ديارهم غيرَهم، وقد كانوا اخطأوا إلى الربّ إلههم، واتّقوا آلهة أُخرى، وسلكوا حسب فرائض المشركين، وعبدوا الأصنام، ورفضوا فرائض الله وعهده، وساروا وراء الباطل، وصاروا باطلاً، وتركوا جميع وصايا الله، وعملوا لأنفسهم عجلين، وسجدوا لجميع جند السماء، وعبدوا البَعْل[٩].

وأمّا سِبطا يَهُوذا وبِنْيامِين، فلمّا تثبّتت مملكة رَحْبُعام بن سليمان، ترك شريعة الربّ

١. سفر الملوك الأوّل ١٢: ١ ـ ٣٠.
٢. سفر الملوك الأوّل ١٥ و ١٦.
٣. سفر الملوك الثاني ١٠: ٢٩ و ٣١.
٤. سفر الملوك الأوّل ١٨: ١٩.
٥. سفر الملوك الأوّل ١٨: ٤.
٦. سفر الملوك الأوّل ١٨: ٢٢ و ١٩: ١٠ و ١٤.
٧. انظر إلى سفر الملوك الأوّل ١٩: ١٨.
٨. سفر الملوك الأوّل ٢٢، و سفر الملوك الثاني ١٧.
٩. سفر الملوك الثاني ١٧: ١ ـ ١٧.

هو وكلّ إسرائيل معه[١]. وعمل يهوذا الشرّ أكثر من جميع ما عمل آباؤهم، وبنوا لأنفسهم مرتفعات وأنصاباً وسواري من آثار الشرك، على كلّ تلّ مرتفع وتحت كلّ شجرة خضراء. وكان أيضاً مأبونون في الأرض ففعل يهوذا حسب أرجاس المشركين[٢]. وفي السنة الخامسة لملك رَحُبْعام نهب شوشَق ملك مصر خزائن بيت الربّ وخزائن بيت الملك، وأخذ كلّ شيء[٣]. ثمّ ملك أبِيا بن رَحُبْعام وسار في جميع خطايا أبيه التي فعلها قبله[٤] ولمّا ملك آسا ابنه، عمل ما هو مستقيم وأزال آثار الشرك، وأمر يَهُوذا أن يعملوا حسب الشريعة والوصيّة[٥]. وأمّا المرتفعات، فلم تنزع من بني إسرائيل[٦]. ولإسرائيل أيّام كثيرة بلا إله حقّ، وبلا كاهن معلّم، وبلا شريعة. وفي النسخة العبرانيّة: بلا توراة[٧]. ثمّ ملك يَهُوشافاط ابنه وسار في طريق آسا أبيه وعمل المستقيم، والمرتفعات أيضاً لم تنزع، بل كان الشعب لم يعدّوا بعد قلوبهم لإله آبائهم[٨]. ثمّ ملك بعده يَهُورام ابنه، وبعده ابنه أَخَزيا، وعملا الشرّ على نهج بيت أخاب[٩].

وبعد أَخَزْيا ملكت أُمّه الخبيثة المشركة عَثَلْيا بنت عُمْرِي ملك إسرائيل سبع سنين[١٠]. وهدم بنوها بيت الله، وصيّروا كلّ أقداس بيت الله للبعليم، إلى أن نهض يُوآش ويَهُوياداع الكاهن لتجديد بيت الربّ، وأقاموا بيت الله على رسمه على مقداره وثبّتوه[١١]. وبعد ما قتلوا عَثَلْيا ملك يُوآش بن أَخَزْيا وعمل المستقيم في أيّام يَهُويا داع

١. سفر أخبار الأيّام الثاني ١٢: ١.
٢. سفر الملوك الأوّل ١٤: ٢٢ ـ ٢٤.
٣. سفر الملوك الأوّل ١٤: ٢٥ و ٢٦.
٤. سفر الملوك الأوّل ١٥: ٣.
٥. سفر أخبار الأيّام الثاني ١٤: ٢ ـ ٦.
٦. سفر أخبار الأيّام الثاني ١٥: ١٧.
٧. سفر أخبار الأيّام الثاني ١٥: ٣.
٨. سفر أخبار الأيّام الثاني ٢٠: ٢٢ و ٢٣.
٩. سفر أخبار الأيّام الثاني ٢١: ٦ و ٢٢: ٣ و ٤.
١٠. سفر أخبار الأيّام الثاني ٢٢.
١١. سفر أخبار الأيّام الثاني ٢٤: ٧ و ١٢ و ١٣.

جاء رؤساء يهوذا وسجدوا للملك يُوآش فسمع لهم، وتركوا بيت الربّ إلههم، وعبدوا السواري والأصنام[١]. ورجموا زَكريّا بن يَهُوياداع بأمر الملك، وقتلوه في دار بيت الربّ؛ لأنّه لبس روح الله، فوعظهم ووبّخهم وأراد إرجاعهم إلى الله، فتركوا الربّ إله آبائهم[٢].

ثمّ ملك أَمَصْيا بن يُوآش، وأتى بآلهة ساعِير وأقامهم له آلهة، وسجد أمامهم وأوقد لهم[٣]. وفي أيّامه جاء يُوآش المشرك ملك إسرائيل، ونهب كلّ الذهب والفضّة وجميع الآنية الموجودة في بيت الربّ[٤]. ثمّ ملك بعد أَمَصْيا ابنه عُزّيّا، وبعده ابنه يُوثام، وكانا مستقيمين، ولكن كان الشعب يفسدون بعد[٥].

ثمّ ملك آحاز وسار في طريق ملوك إسرائيل، وعمل أيضاً تماثيل مسبوكة للبَعْلِيم، وهو أوقد في وادي هِنُّوم وأحرق بنيه في النار حسب رجاسات المشركين، وترك يهوذا الربّ إلههم. وأيضاً ذبح آحاز لآلهة دمشق، وقطع آنية بيت الله، وأغلق أبواب بيت الربّ[٦]. وأغلقوا أيضاً أبواب الرواق، وأطفؤوا السُرُج، ولم يوقدوا بخوراً، ولم يصعدوا محرقة في القدس[٧].

وإذا ملك حِزْقِيّا فتح أبواب بيت الربّ، ودخل الكهنة إلى داخله، وأخرجوا كلّ النجاسة التي وجدوها في الهيكل، واستمرّوا في تطهير بيت الربّ ثمانية أيّام[٨].

ولمّا ملك بعده ابنه مَنَسَّى عمل الشرّ حسب رجاسات المشركين، وبنى المرتفعات التي هدمها أبوه، وأقام مذابح للبعليم، وعمل سواري وسجد لكلّ جند السماء، وبنى لها مذابح في داري بيت الربّ. ولمّا ذاق وبال أمره من ملك آشور رجع إلى الله، فلمّا أنقذه

---

١. سفر أخبار الأيّام الثاني ٢٤: ٢ و ١٧ و ١٨.
٢. سفر أخبار الأيّام الثاني ٢٤: ٢٠ ـ ٢٤.
٣. سفر أخبار الأيّام الثاني ٢٥: ١٤.
٤. سفر الملوك الثاني ١٤: ١٤.
٥. سفر أخبار الأيّام الثاني ٢٧: ٢.
٦. سفر أخبار الأيّام الثاني ٢٨.
٧. سفر أخبار الأيّام الثاني ٢٩: ٧.
٨. سفر أخبار الأيّام الثاني ٢٩: ١ ـ ١٩.

أزال الآلهة الغريبة والأشباه من بيت الربّ، وأمر يهوذا أن يعبدوا الربّ إلههم. ثمّ ملك بعده ابنه أمون فعمل كلّ ما عمله أبوه أوّل الأمر، ولم يرجع إلى الله كما رجع أبوه في الآخر[١].

وملك بعده ابنه يُوشِيّا وكان مؤمناً، وفي السنة الثانية عشرة لملكه ابتدأ يطهّر يهوذا وأورشليم من السواري والمرتفعات والتماثيل والمسبوكات، وطهّر يهوذا وأُورشليم، وقطع تماثيل الشمس في كلّ أرض إسرائيل، وهدم بيوت المأبونين التي عند بيت الربّ، وبعد أنّ طهّر الأرض وبيت الربّ توجّه لترميمه وتسقيف البيوت التي أخربها يهوذا. وعند إخراجهم الفضّة المدخلة إلى بيت الربّ قال حِلقيّا الكاهن لشافان الكاتب: قد وجدت سفر الشريعة ـ أي التوراة ـ في بيت الربّ. فقال شافان للملك: قد أعطاني حِلقيّا الكاهن سفراً، وقرأ فيه شافان أمام الملك، فلمّا سمع الملك كلام الشريعة مزّق ثيابه، وأمر جماعة من خواصّه قائلاً: اذهبوا اسألوا الربّ من أجلي وأجل مَن بقي من يهوذا وإسرائيل على كلام السفر الذي وجد؛ لأنّه عظيم غضب الربّ الذي انسكب علينا من أجل أنّ آباءنا لم يحفظوا الربّ، ليعملوا حسب كلّ ما هو مكتوب في هذا السفر. وجمع الملك كلّ رجال يهوذا وكلّ الشعب من الصغير إلى الكبير والكهنة والأنبياء إلى بيت الربّ، وقرأ في آذانهم كلّ كلام سفر العهد الذي وجد في بيت الربّ، ووقف على منبره وقطع عهداً مع الله على عبادته وحفظ وصاياه وفرائضه، حسب كلام العهد المكتوب في هذا السفر[٢].

وإنّ صريح هذا الكلام وفحواه وشواهده ودلائله لتوضّح أنّ ارتدادات يهوذا وتقلّباتهم في الشرك ـ حتّى جعلوا الأصنام في بيت المقدس ونجّسوه وأخربوه وأغلقوه، وبقوا أيّاماً كثيرة بلا إله حقّ ولا كاهن معلّم ولا شريعة توراة ـ لم تبق سفراً للشريعة والتوراة بينهم، إلى حدّ لم يقدر الملك عليه ولم يره ولم يسمع منه شيئاً مدّة اثنتي عشرة سنة من ملكه، وهو مؤمن يطلب الله والشريعة، فإنّه لو كان للتوراة حينئذٍ

---

١. سفر أخبار الأيّام الثاني ٣٣.

٢. سفر الملوك الثاني ٢٢ و ٢٣، و سفر الأيّام الثاني ٢٤.

وجود لكانت عنده منها نسخة يقرأ بها كلّ أيّام حياته من أوّل جلوسه على كرسيّ مملكته، حسب ما هو الواجب في الشريعة على ملوك إسرائيل[١]. ولكنّه لمّا رأى ما ادّعى حِلقِيّا الكاهن أنّه وجده في بيت الربّ، وسمع ما فيه رأى شيئاً جديداً وسمع ما لم يكن معهوداً له، وحسبه هو والمؤمنون من يهوذا من الحقائق التي غفلت عنها الأيّام وخبّتها عن دواهيها زوايا الخمول، حتّى مزّق الملك عند قراءته ثيابه، واضطرب من أجل تضييعهم وجهلهم ما فيه، وبذل العناية التامّة في قراءته على جميع يهوذا وإسرائيل؛ ليطّلعوا على ما أضاعه منهم الضلال، ويعودوا إلى ما ظفروا به من الشريعة التي لم يكونوا يعرفونها ولا يجدون كتابها.

فكانت نسبة هذا الذي وجدوه إلى الشريعة الحقيقيّة موكولة إلى أمانة حلقيّا. ولو كان لسفر الشريعة عندهم قبل هذا اسم أو رسم، لما وقع أقلّ قليل من هذا الاحتفال العظيم والتنبّه إلى الشريعة بما ادّعى حِلقيّا أنّه وجده. وهذا ممّا لا ينبغي أن يرتاب فيه من له حظّ من الرشد والفهم.

[مكابرات المتكلّف وفسادها]

قال المتكلّف:

> إنّ المراد بسفر الشريعة هاهنا هي النسخة التي كانت موجودة في الهيكل بجانب تابوت عهد الربّ، حسب الأمر الوارد[٢]. وهذا لا ينافي وجود نسخ أُخرى في أيدي الكهنة واللاويّين والشعب[٣].

أقول: إن أراد من هذه النسخة أنّها النسخة التي كتبها موسى، وأمر بوضعها بجانب تابوت العهد، فيدّعي في تكلّفه أنّ احتفال يُوشِيّا بها من أجل كونها تذكاراً لموسى ومن آثاره، فليقل ـ وإن كان ما ذكرنا من أحوال يُوشيّا وأقواله أجنبيّاً عن هذا

---

١. سفر التثنية ١٧: ٨ ـ ٢٠.

٢. سفر التثنية ٣١: ٢٥ و ٢٦.

٣. الهداية ٤: ١٣٤.

الاحتمال ـ: أين كانت هذه النسخة؟ وأين صارت إذ نهب الفلسطينيّون التابوت من بني إسرائيل ووضعوه بقرب صنمهم داجون في أَشْدُود، ثمّ نقلوه إلى جَتّ، ثمّ إلى عَقْرُون، ثمّ إلى بَيْت شَمس، ثمّ نقل إلى قرية يَعارِيم[١]. ثمّ نقله داود إلى بيت عُوبِيد الجَتّي، ثمّ إلى مدينته[٢]. ثم نقله سليمان من صِهْيَوْن مدينة داود إلى محراب البيت قدس الأقداس تحت جناحي الكروبين؟[٣] فإنّه لم يجر لهذه النسخة في هذه المواضع والتنقّلات ذكر ولا اسم ولا رسم، مع ما لها من الشأن المهمّ.

فإن قال: إنّها كانت إذ ذاك في جوف التابوت.

قلنا: لم يكن في التابوت حينما وضعه سليمان في قُدس الأقداس إلّا لوحا الشهادة[٤].

وإن قال: إنّها حين نهب التابوت كانت عند الكهنة.

قلنا: ينبغي أن يكون محلّها بحسب الوظيفة في مكان التابوت، تحت جناحي الكَرُوبين في المسكن من خيمة الاجتماع[٥]. وعلى هذا فلماذا لم يجرِلها ذكر عند تحويل سليمان لخيمة الاجتماع وما فيها، مع أنّ هذه النسخة أهمّ وأهمّ وأولى بالذكر من سائر أدوات خيمة الاجتماع، وفي ذكرها البشارة الكبرى، وبيان نعمة الله العظمى بجمع شمل الشريعة المتبدّد في جعل نسخة التوراة التي كتبها موسى على مقتضى وظيفتها إلى جنب تابوت العهد، الذي أنعم الله بإرجاعه من نهب المشركين إلى بيت المقدس؟ ففي ثامن الملوك الأوّل:

> وجاء جميع شيوخ إسرائيل، وحمل الكهنة التابوت، وأصعدوا تابوت الربّ، وخيمة الاجتماع، مع جميع آنية القدس التي في الخيمة[٦].

فإن أبى المتكلّف في مكابراته إلّا أن تكون النسخة المذكورة وضعت على وظيفتها،

---

١. سفر صموئيل الأوّل ٤ ـ ٧.
٢. سفر صموئيل الثاني ٦: ١٠ ـ ١١.
٣. سفر الملوك الأوّل ٨: ١ ـ ٧.
٤. سفر الملوك الأوّل ٨: ٩، و سفر أخبار الأيّام الثاني ٥: ١٠.
٥. انظر إلى سفر الخروج ٤٠: ١ و ٢، و سفر التثنية ٣١: ٢٦.
٦. سفر الملوك الأوّل ٨: ٣، و سفر أخبار الأيّام الثاني ٥: ٤ و ٥.

في محراب بيت المقدس على عهد سليمان بجانب التابوت.

قلنا: إنّ الموضع الذي عيّنه سليمان لتابوت العهد، الذي تكون هذه النسخة إلى جنبه، هو المحراب قُدس الأقداس تحت جناحي الكَرُوبين[١]. وكانت مساحة هذا المحراب عشرين ذراعاً في مثلها[٢]. ومساحة جناحي الكَرُوبين الملتقيين اللذين يوضع التابوت تحت ملتقاهما عشرة أذرع[٣]. فيكون التابوت في وسط المحراب، ومحلّ نسخة التوراة المذكورة إلى جنبه.

وعلى هذا فهل تركها شوشَق ملك مصر الذي نهب الذهب والفضّة من بيت الربّ على عهد رَحْبُعام؟ وهل يترك المحراب مع أنّ عمدة الذهب فيه؟

فرضناه تركها، فهل يتركها بنو إسرائيل ويهوذا في الأيّام الكثيرة التي بقوا فيها بلا إله حقّ وبلا كاهن ومعلّم، وبلا شريعة؟

فرضناهم تركوها، فهل يتركها المشركون أولاد عثليا المشركة، إذ هدموا بيت الربّ، وصيّروا كلّ أقداسه للبَعْلِيم، حتّى احتاج البيت إلى تجديده وإقامته على رسمه؟

تمحّلنا وفرضناهم تركوها، فهل يتركها يُوآش المشرك إذ نهب كلّ الذهب والفضّة، وجميع الآنية الموجودة في بيت الربّ على عهد أمَصْيا؟

فرضناه تركها، فهل يتركها آحاز المشرك الذي قطع آنية بيت الربّ وأغلق أبوابه؟ وهل تركها قومه الذين وضعوا النجاسة في الهيكل وأغلقوه وأطفؤوا سرجه، عناداً للتوحيد والشريعة؟

أفترى هؤلاء كلّهم يتركون هذه النسخة في محلّها، ويسمحون لها بالبقاء، وهي أشدّ ما يكون مقاومة ومصادمة لشركهم وضلالهم، وأصنامهم وتماثيلهم وقد بلغت في توبيخهم ولعنهم وذمّهم وسبّ آلهتهم مبلغاً لا يمكن في العادة أن يصبروا عليها، ويتركوا لها وجوداً وأثراً؟

---

١. سفر الملوك الأوّل ٨: ٦، و سفر أخبار الأيّام الثاني ٥: ٧.

٢. سفر الملوك الأوّل ٦: ٢٠.

٣. سفر الملوك الأوّل ٦: ٢٤ ـ ٢٨.

كلّا بل هي أولى بأن تمدّ إليها يد الضلال من الهيكل الذي لا يقاومهم مثلها ببيانه.

وأيضاً لماذا لم توجد هذه النسخة عند إدخال الفضّة إلى بيت الربّ؟ وما هو السبب الذي أخّر وجدانها إلى حين إخراج الفضّة؟

وأيضاً لماذا لم يجدها حِلقِيّا إلّا بعد مضيّ ما يزيد على عشر سنين من ملك يُوشِيّا، مع أن يُوشِيّا ملك مؤمن يطلب الله والشريعة من أوّل أمره، وأنّ حِلقيّا الكاهن لا ينفكّ عن كثرة الدخول إلى المحراب في الأُسبوع مرّة أقلّاً؟

هذا، وإن قال المتكلّف: إنّ هذه النسخة غير التي كانت في زمان موسى وأمر بوضعها إلى جنب التابوت، بل هي نسخة أُخرى من سائر النسخ وضعت مع التابوت على رسم الشريعة.

قلنا: كيف يتركها الذين هم قبل يوشيّا من المشركين الذين عبثوا ببيت الربّ وأخربوه ونجّسوه؟ وكيف لم يجدها حِلقيّا إلّا بعد عشر سنين من ملك يُوشِيّا، مع أنّها نصب عيني الداخل إلى المحراب؟

وأيضاً فليُعمِل المتكلّف فكره بما عنده من الفطانة، وليبيّن لنا أنّ هذه النسخة إذا لم تكن بخطّ موسى وتذكاراً له، بل كانت من سائر النسخ الكثيرة، فما الوجه المقبول في احتفال يُوشِيّا بها ذاك الاحتفال العظيم، لو كان لها أمثال كثيرة؟

ثمّ ملك من بعد يُوشِيّا إلى سبي بابل يَهُوآحاز ويَهُوياقِيم ويَهُوياكِين وصِدقِيّا وعملوا الشرّ[1].

وأمّا يهوذا في أيّامهم فقد تكرّر كلام إرميا النبيّ في توبيخهم على سلوكهم وراء البَعْلِيم، وسيرهم وراء آلهة أُخرى، حتّى صارت آلهتهم بعدد مدنهم وبعدد شوارع أُورشليم[2].

ولمّا رجعوا من سبي بابل وتوجّهوا إلى عبادة الله والشريعة، اجتمع كلّ الشعب وقالوا لعَزْرا الكاهن أن يأتي بسفر شريعة موسى التي أمر بها الربّ، فأتى عَزْرا

١. سفر الملوك الثاني ٢٣ و ٢٤.

٢. سفر إرميا ٧ و ٨ و ٩ و ١١ و ١٢ و ١٦.

بالشريعة أمام الجماعة من الرجال والنساء وكلّ فاهم ما يسمع ؛ وقرأ فيه من الصباح إلى نصف النهار، وآذان الشعب نحو سفر الشريعة، وجميع الشعب بكوا حين سمعوا كلام الشريعة. وفي اليوم الثاني اجتمع رؤساء آباء جميع الشعب والكهنة واللاويّون إلى عزرا ليفهمهم كلام الشريعة، فوجدوا مكتوباً فيها أنّ إسرائيل يسكنون في مظالّ في العيد في الشهر السابع، فأخذوا في عمل المظالّ[١]. وقرأ أيضاً في سفر موسى في آذان الشعب ووجدوا مكتوباً أنّ عَمُّونِيّا ومُوآبِيّا لا يدخل في جماعة الله إلى الأبد ولمّاسمعوا الشريعة، فرزوا كلّ اللفيف[٢].

قل: فما هو السبب في أن ينفرد عَزرا وحده بقراءة سفر الشريعة على أُلوف من بني إسرائيل جميع رجالهم ونسائهم، وكلّ فاهم ما يسمع حتّى الكهنة الذين هم حملة الشريعة والتوراة بمقتضى الوظيفة الشرعيّة؟

ولماذا هرع إليه في اليوم الثاني رؤساء آباء الشعب والكهنة واللاويّون؟

ولماذا تنبّهوا بسبب قراءته إلى أُمور لم تكن معهودة لهم، وبادروا إليها مبادرة مغتنم؟

أفيجوز مثل هذا مع فرض الوجود لنسخة أو أكثر في بني إسرائيل غير التي بيد عزرا؟ كلّا.

وأيضاً لو كان بعد سبي بابل عند اليهود نسخ من التوراة والشريعة لم يكن محلّ ووجه لنزول الوحي على حَزْقِيال في شريعة الكهنة، وقسمة الأرض بين بني إسرائيل، وغير ذلك من الشرائع التي تكفّلت التوراة ببيانها[٣]. تجد من الواضح أنّ ذلك بيان لما ليس في أيدي بني إسرائيل من الشريعة.

ثمّ من بعد سبي بابل وإن لم يصرّح بارتدادهم عن التوحيد إلّا أنّهم كانوا يقولون: من يفعل الشرّ فهو صالح في عيني الربّ وبهم يسرّ[٤]. ويقولون: عبادة الله باطلة، وما

---

١. سفر نحميا ٨: ١٣ ـ ١٥.

٢. سفر نحميا ١٣: ١ ـ ٣.

٣. انظر إلى سفر حَزْقِيال ٤٣ ـ ٤٨.

٤. سفر ملاخي ٢: ١٧.

الفائدة من أنّنا حفظنا شعائره[١]. وأنّ كهنتهم احتقروا اسم الله[٢]. وخانوا في الذبائح[٣]. وحادوا عن الطريق وأعثروا كثيرين بالشريعة، وأفسدوا عهد موسى[٤]. وكانت منهم فرقة يسمّون بالصَدُوقيّين ينكرون القيامة وحياة الأموات بعد الموت، وينكرون الملك والروح[٥]. وقد شحنت الأناجيل من الكلام المنسوب للمسيح بتوبيخهم على تمرّدهم على الله والشريعة ورياء كهنتهم وكتبتهم، حتّى تربّصوا به من أجل ذلك الدوائر.

ومع هذا كلّه، هل يمكن للإنسان أن يتلقّى من هذه الفرقة المتقلّبة في ارتداداتها ـ هذا التقلّب الذي طرق سمعك ـ كتاباً وشريعة عن الوحي والإلهام على حقيقته الأوّليّة بطريق يفيد اليقين بذلك؟ كلّا.

وأمّا أهل الديانة النصرانيّة في زمان المسيح، فإنّ الكثيرين الذين آمنوا به في عيد الفِصْح لمّا رأوا منه الآيات لم يأتمنهم على نفسه؛ لأنّه كان يعرف الجميع ولا يحتاج لشاهد على ما في ضمير الإنسان[٦]. ورجع عنه كثيرون من تلاميذه ولم يعودوا، وذلك بسبب وعظه وإرشاده وبيان رسالته[٧]. والتلاميذ الاثنا عشر مالوا إلى الرئاسة الدينيّة الدنيويّة، وتشاجروا في أنّه من يكون الأكبر بعد المسيح لمّا أخبرهم بما يجري عليه وأنّه ماض عنهم، فوعظهم لذلك ووعدهم ومنّاهم بما يرغّبهم في الائتلاف وعدم التشاجر[٨]. واغتاظ عشرة منهم على المسيح من أجل ابني زبدي[٩]. ووبّخهم على قلّة إيمانهم[١٠].

---

١. سفر ملاخي ٣: ١٤.
٢. سفر ملاخي ١: ٦.
٣. سفر ملاخي ١: ٧ ـ ١٤.
٤. سفر ملاخي ٢: ٨.
٥. سفر أعمال الرسل ٢٣: ٨؛ وإنجيل متّى ٢٢٢؛ وإنجيل مرقس ٢٢؛ وإنجيل لوقا ٢٠.
٦. إنجيل يوحنّا ٢: ٢٣ ـ ٢٥.
٧. إنجيل يوحنّا ١٦: ٥٢ ـ ٦٦.
٨. إنجيل لوقا ٢٢: ٢٢ ـ ٣١.
٩. إنجيل متّى ٢٠: ٢٤.
١٠. إنجيل متّى ١٧: ٨.

وأنّهم لا إيمان لهم[١]. وليس لهم من الإيمان مثل حبّة خردل[٢].

ووصفهم الإنجيل بغلظ القلوب[٣]. وأخبر المسيح بأنّ كافّتهم يشكّون فيه ليلة هجوم اليهود عليه[٤]. ويتفرّقون عنه كلّ واحد إلى خاصّته، ويتركونه وحده[٥]. وطلب منهم أن يسهروا معه تلك الليلة، فلم يفعلوا ولم يواسوه مع ما هو فيه من الدهشة والاكتئاب، حتّى وبّخهم على ذلك مراراً ولمّا أمسكه اليهود حسب الظاهر تركه التلاميذ كلّهم وهربوا[٦].

وأنّ من التلاميذ الاثني عشر يهوذا الأسْخَرْيُوطي كان بيده صندوق أموال الفقراء[٧]. وكان سارقاً[٨]. وهو الذي اجترأ على تسليم المسيح إلى أعدائه، وباع دمه الشريف بقليل فضّة[٩]. وأنّ كبير التلاميذ بُطرس صار ينتهر المسيح، حتّى قال له المسيح: «اذهب عنّي يا شيطان، أنت مَعْثَرة لي؛ لأنّك لا تهتمّ بما لله بل بما للناس»[١٠]. وقد أنكر المسيح ثلاث مرّات، وابتدأ يلعن ويحلف أنّه لا يعرفه[١١]. مع أنّ المسيح أنذره بذلك، فوعد المسيح أن لا ينكره ولو اضطرّ إلى الموت معه[١٢].

هذا، وأمّا ما كان بعد حادثة الصليب، فإنّ التلاميذ الأحد عشر لم يصدّقوا اللواتي أخبرنهم بقيام المسيح من الأموات في اليوم الثالث، بل عدّوا كلامهنّ كالهذيان[١٣]. حتّى

---

١. إنجيل مرقس ٤: ٤٠.
٢. إنجيل متّى ١٧: ٢٠.
٣. إنجيل مرقس ٦: ٥٢.
٤. إنجيل متّى ٢٦: ٣١.
٥. إنجيل يوحنّا ١٦: ٣٢.
٦. إنجيل متّى ٢٦: ٣٦ـ ٥٧.
٧. إنجيل يوحنّا ١٢: ٦ و ١٣: ٢٩.
٨. إنجيل يوحنّا ١٢: ١٦.
٩. انظر إلى أُخريات الأناجيل وأوّل أعمال الرسل.
١٠. إنجيل متّى ١٦: ٢٢ و ٢٣.
١١. إنجيل متّى ٢٦: ٦٩ ـ ٧٥.
١٢. إنجيل متّى ٢٦: ٣٥.
١٣. إنجيل لوقا ٢٤: ١١.

وبّخهم المسيح على عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم؛ لأنّهم لم يصدّقوا الذين نظروه قد قام[١]. مع أنّ في الأناجيل أنّ المسيح كم وكم قدّم لهم أنّه يتألّم من اليهود، وفي اليوم الثالث يقوم[٢]. حتّى أنّ اليهود كانوا يعلمون بكلامه هذا ويخشون عاقبته[٣]. وتذمّر اليونانيّون من المسيحيّين على العبرانيّين منهم، بسبب الغفلة عن طعام أراملهم[٤].

ووقعت المشاجرة في الختان، فتكلّم بطرس ويعقوب في رفعه عن الأُمم بمجرّد الاستحسان والتألّف للأُمم، في مقابلة تأكيد حكمه في التوراة وتأبيده، وتعليم المعلّمين المسيحيّين من اليهوديّة، فحضروا ما على الأُمم من أحكام الشريعة باجتناب المخنوق وما ذبح للأوثان والدم والزنى[٥]. وأنّ برنابا وبولس ـ اللذين اختارهما الروح القدس لعمله[٦] ـ تشاجرا فيمن يأخذانه معهما للخدمة حتّى فارق أحدهما الآخر[٧].

وقد اختلف المعلّمون في النصرانيّة، واختلفوا في التعليم، حتّى صار بعضهم يحذّر الأُمّة من بعض[٨]. حتّى قال بعضهم في البعض الآخر: «إنّهم لا يخدمون المسيح بل بطونهم»، وبالكلام الطيّب والأقوال الحسنة يخدعون قلوب السُلَماء[٩]. وعن حسد وخصام يَكرِزُون بالمسيح[١٠]. وأنّهم ذئاب خاطفة[١١]. ورسله كَذَبَة فَعَلَة ماكرون مغيّرون شكلهم إلى شِبه رُسُل المسيح. كالشيطان يغيّر شكله إلى شِبه مَلاك نور[١٢]. حتّى أنّ

١. إنجيل مرقس ١٦: ١٤.

٢. انظر من جملة ذلك أقلاً إلى إنجيل متّى ١٦: ٢١ و ١٧: ٢٣ و ٢٠: ١٩ و ٢٦: ٣٢ وغير ذلك في الأناجيل الأربعة.

٣. إنجيل متّى ٢٧: ٦٣.

٤. أعمال الرسل ٦: ١.

٥. أعمال الرسل ١٥: ١ ـ ٣٠.

٦. أعمال الرسل ١٣: ٢.

٧. أعمال الرسل ١٥: ٣٦ ـ ٤٠.

٨. انظر إلى رسائل بولس وبطرس ويهوذا ويوحنّا.

٩. رسالة بولس إلى أهل رومية ١٦: ١٨.

١٠. رسالة بولس إلى أهل فيلبي ١: ١٥.

١١. أعمال الرسل ٢٠: ٢٩.

١٢. رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس ١١: ١٣ و ١٤.

كثيرين خرجوا وصاروا أضداداً للمسيح[١]. وجميع الذين في آسيا ارتدّوا عن بولس، وبعض زاغ عن الحقّ وادّعى أنّ القيامة قد قامت[٢]. وأنّ من المعلّمين إخوة كَذَبة أُدخلوا خُفيَةً ودخلوا اختلاساً، وأنّ المعتبرين أنّهم شيء ـ كالتلاميذ الأحد عشر ـ مهما كانوا لا فرق بينهم وبين هؤلاء. وأنّ بطرس والنصارى العبرانيّين في أنطاكية حتّى برنابا استعملوا الرياء والمداهنة، ولم يسلكوا باستقامة حسب حقّ الإنجيل[٣].

وأنّ بولس قد استعمل الرياء، وختن تِيموثاوس اليوناني على خلاف تعليمه[٤]. وأنّ يعقوب وجميع المشايخ في أُورشليم تواطؤوا مع بولس على استعمال الرياء، بإلزام بولس مع أربعة أشخاص بأحكام الناموس، تمويهاً لإبطالهم لها ومداهنة للأُلوف والربوات من المؤمنين بالمسيح من اليهود الذين ينكرون إبطال الناموس بمجيء المسيح[٥]. وأنّ بولس ليس له نظير مخلِص، بل الجميع يطلبون ما هو لأنفسهم لا ما هو للمسيح[٦].

ويتّضح من الأعمال ورسائل بولس أنّ تعليمه الرائج بين النصارى في القرون المتأخّرة، كان ضدّاً لتعليم الرسل والمعلّمين من العبرانيّين الذين هم من أهل الختان، ولذا كثر تعرّضه لهم وقذفهم وانتقاصهم وافتخاره عليهم، حتّى ادّعى العروج مرّة إلى السماء الثالثة، وأُخرى إلى الفردوس[٧]. انظر إلى الحادي عشر والثاني عشر من كورنثوس الثانية[٨].

ومن ذلك تعليمه بكفاية الإيمان وحده في الفائدة، وتعليم يعقوب بعدم كفايته

١. رسالة يوحنّا الأُولى ٢: ١٨ و ١٩.
٢. رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس ١: ١٥ و ١٨.
٣. رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٢: ٣ ـ ١٥.
٤. أعمال الرسل ١٦: ١ ـ ٤.
٥. أعمال الرسل ٢١: ٢ ـ ٢٧.
٦. رسالة بولس إلى أهل فيلبي ٢: ٢٠ و ٢١.
٧. سفر العدد ٢٢ فما بعد.
٨. سفر العدد ٣ ـ ٤.

بدون الأعمال. انظر إلى الحادي والعشرين من العبرانيّين[١]، وإلى رسالة يعقوب وخصوص ثانيها[٢].

وقد اختلف تعليم بولس في أكل ما ذبح للأوثان الذي قرّر الرسل حرمته، واضطرب كلامه فيه:

فتارةً جعله يُذبَح للشيطان لا لله، ولا يريد أن يكون المؤمنون شُرَكاء الشياطين؛ لأنّهم لا يقدِرون أن يشربوا كأسَ الربّ وكأسَ شيطان؛ ولا يشتركوا في مائدة الربّ ومائدة شياطين. أم نغيّر الربّ ألعلّنا أقوى منه[٣].

وتارةً رجّح الامتناع منه من دون تحريم؛ لأنّه مَعْثَرَة للضُعفاء[٤]. ومن أجل ضَمِير الآخر الضَعيف[٥].

ثمّ ندم وقال:

لماذا يحكم في حُرّيّتي من ضَمير آخر؟ فإذا كنت أتناوَل بِشُكر فلماذا يُفْتَرى عليّ لأجل ما أشكُر عليه[٦]؟

وعلى كلّ حال فهذه الأقوال المضطربة خلاف ومقاومة لما قرّره الرسل من التحريم المطلق، كما مرّ.

وعن بولس في بعض تعاليمه: «كلّ شيء طاهرٌ للطاهرين»[٧]؛ «وكلّ خَلِيقَةِ الله جَيّدة، ولا يُرْفَض شيء منها إذا أُخِذ مع الشُكر»[٨].

وهذه خلاف ومقاومة لما قرّره الرسل من تحريم ماذبح للأوثان والمخنوق والدم.

---

١. لعلّه من أوهام الطباعة، وصوابه الأصحاح ١١.

٢. العدد ١٤ ـ ١٥.

٣. رسالة بولس الأُولى إلى أهل كورنتوس ١٠: ١٨ ـ ٢٢.

٤. انظر رسالة بولس الأُولى إلى أهل كورنتوس ٨.

٥. رسالة بولس الأُولى إلى أهل كورنتوس ١٠: ٢٩.

٦. رسالة بولس الأُولى إلى أهل كورنتوس ١٠: ٢٩ ـ ٣٠.

٧. رسالة بولس إلى تيطس ١: ١٥.

٨. رسالة بولس الأُولى إلى تيموثاوس ٤: ٤.

وعنه أيضاً في تعاليمه في شأن الناموس والعهد القديم ما لفظه: «فإنّه يصير إبطال الوصيّة السابقة من أجل ضَعفها وعدمِ نفعها؛ إذ النامُوس لم يَكْمل شيئاً»[١].

وعنه في شأن العهد القديم أيضاً:

لو كان الأوّل بلا عَيب لما طُلِب مَوضِعٌ لثانٍ... فإذا قال جديداً فقد عَتقَ الأوّل، وأمّا ما عَتق وشاخَ فهو قريبٌ من الاضْمِحْلال[٢].

وهذا الكلام إذا أغمضنا النظر عن منافاته لما في العهدين، وخصوص الكلام المنسوب للمزامير ومَلاخي والمسيح، فإنّه مناف ومناقض لخصوص ما عن بولس نفسه من قوله:

كلّ الكتاب موحىً به من الله، ونافع للتعليم والتوبيخ للتقويم والتأديب الذي في البِرّ؛ لكي يكون إنسان الله كاملاً متأهّباً لكلّ عمل[٣].

وقد طال الكلام في هذه المقدّمة فاقتصرنا على ما ذكرنا لئلّا يخرج الكتاب عن وضعه، وإن كان للمزيد مجال واسع.

---

١. رسالة بولس إلى العبرانيّين ٧: ١٨ و ١٩.

٢. رسالة بولس إلى العبرانيّين ٨: ٧ ـ ١٣.

٣. رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس ٣: ١٦ و ١٧.

المقدّمة السادسة

[في بيان عدم حجيّة ما في كتب العهدين على المسلمين]

قد وجدنا العمدة لمُباحثي المسلمين من النصارى هو الاحتجاج عليهم بما في كتب العهدين، وكأنّ هؤلاء المباحثين لم يفطنوا إلى أنّه لا حجّة لهم بها على المسلمين لوجوه:

[الوجه] الأوّل: أنّه من المتعذّر إيصال السند في كلّ واحد من هذه الكتب إلى الأنبياء معادن الوحي والإلهام، على سبيل التواتر المفيد اليقين في كلّ طبقات النقل، فاستوضح بعض ذلك من المقدّمة السابقة. وغاية ما عندهم هو الاعتماد على حكم المجامع المتقلّب في تمييز الكتاب الإلهامي من المكذوب، والاستشهاد بمطابقة كلام القدماء، كما ستعرف ذلك من أشتات كلام المتكلّف.

الوجه الثاني: أنّه لا تمكن معرفة رسالة الأنبياء السابقين، وتعيين كتبهم الصادرة عن الوحي معرفة يقينيّة، إلّا بسبب إخبار رسول الله خاتم المرسلين، والقرآن الذي هو كلام الله بواسطة دلالة العقل على صدق رسول الله بدعواه الرسالة، وأنّ القرآن الكريم هو كلام الله العظيم فلو شككنا ـ والعياذ بالله ـ بالرسول والقرآن كما يريدون، لم تبق لنا معرفة بنبيّ مرسل ولا اسم كتاب إلهامي؛ فإنّ كتب العهدين بنفسها ووجوه مضامينها هي التي تصدّ عن الإذعان باتّصال سندها، وصحّة تواترها وصدورها عن الوحي والإلهام، وتمنع عن التصديق بنبوّة أنبيائها، والوثوق بنقل دلائل نبوّتهم لو صحّت

نسبتها إليهم، كما ستعرفه إن شاء الله من متفرّقات كتابنا، وخصوص ما يأتي إن شاء الله في بيان أُنموذج النظر[١]، بل قلّما يمرّ بك فصل إلّا ويدلّك إن شاء الله بأوضح دلالة على ما ذكرنا.

وأيضاً إنّ القرآن الكريم والعقل السليم يدلّان بأوضح دلالة على أنّ في هذه الكتب شيئاً كثيراً ليس من الإلهام والوحي أصلاً؛ لمخالفتها لهما في أُمور كثيرة مخالفةً لاتقبل التأويل، كما ستسمع تفصيل بعضه في محالّه إن شاء الله. وبذلك يسقط اعتبار مجموعها لو صحَّت نسبة المجموع إلى الوحي في الجملة.

الوجه الثالث: شهادة بعضها على بعض بالتحريف صريحاً، وإن حامى بعض النصارى عن ذلك وكتبوا في كتبهم قولَهم: «متى حُرِّفت؟ ولماذا حرّفت؟ ومن حرَّفها؟ ولأيّ غرض حرّفها؟». فمن جملة الشهادات ما في الثالث والعشرين من إرميا في خطاب الشعب:

أمّا وحي الربّ فلا تذكروه بعد؛ لأنّ كلمة كلّ إنسان تكون وحيه، إذ قد حرّفتم كلام الإله الحيّ ربّ الجنود إلهنا[٢].

هكذا ما اطّلعنا عليه من التراجم العربيّة، ونصّه فيالنسخة العبرانيّة:

ومسّاء ادوناي لو تزكيروا عود كي همسّاء ادوناي ليايش

ووحي الله لاتذكروا بعد لأنّ وحي الله لرجل

ديبارو وهفخيتيم ايت

كلامه وحَرّفتم

دبري ايلوهيم حييم ادوناي صيباوءت ايلوهينو

كلام الإله الحيّ ربّ الجنود إلهنا.

وإنّ في ملاحظة ما ذكرناه من الأصل العبراني هاهنا والتراجم العربيّة لشهادةً أيضاً على وقوع التحريف.

---

١. يأتي في ص ٢٢٤.

٢. سفر إرميا ٢٣: ٣٦.

وفي ثامن إرميا أيضاً: «كيف تقولون: نحن حكماء وشريعة الربّ معنا؟!»[١]. حقّاً إنّه إلى الكذب حَوَّلها قلمُ الكَتَبَة الكاذِب.

ونصّه في النسخة العبرانيّة:

ايخاه توميروا حاخاميم انحنو وتوراة ادوناي اتانو هنيه لشيقير
كيف تقولون حكماء نحن وشريعة الربّ معنا هوذا للكذب
عاساه عيط شيقير سوفيريم
صنعها قلم كذب الكَتَبة.

وفي التاسع والعشرين من إشَعْياء: «يالَتَحْرِيفكُم»[٢]. ونصّه في الأصل العبراني: «هافخيخيم».

وفي الثالث من رسالة بطرس الثانية ـ كما في الرسائل كلّها أيضاً مُتَكَلِّماً فيها عن هذه [الأُمور] التي فيها أشياء عَسِرَة الفهم ـ: «يُحَرِّفها غيرُ العلماء وغيرُ الثابتين ـ كباقي الكتب أيضاً ـ لهلاكِ أنفُسِهم»[٣]. وفيه شهادة بتحريف المعلّمين للرسائل كما حرّفوا سائر الكتب.

ولا تظنّ أنّ هؤلاء المحرّفين من الوثنيّين؛ فإنّ الوثنيّين لا اعتناء لهم بهذه الكتب ولا غرض لهم بتحريفها، بل إنّما هم المعلّمون من اليهود والمتنصّرين الذين يريدون بضلالهم أن يشوّهوا تعليم الكتب فيحرّفونها حسب أهوائهم.

وفي أوّل غلاطية:

إنّي أتعجّب أنّكم تنتقلون هكذا سريعاً عن الذي دعاكم بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر ليس هو آخر غير أنّه يوجد قوم يزعجونكم ويريدون أن يحوّلوا إنجيل المسيح[٤].

---

١. سفر إرميا ٨: ٨.
٢. سفر إشَعْياء ٢٩: ١٦.
٣. رسالة بطرس الثانية ٣: ١٦.
٤. رسالة بولس إلى أهل غلاطية ١: ٦ ـ ٧.

وفي آخر رؤيا يوحنّا: «قد شدّد في الدعاء على من يزيد في نبوّة كتابه أو ينقص منها» [١]. وفي فحوى كلامه شهادة بأنّ للتحريف حسب الهوى حينئذٍ طغياناً مخوفاً.

الوجه الرابع: شهادة بعض كتب العهدين على البعض الآخر بالتحريف ضمناً وإشارةً، وهو أنّ التوراة في ثامن عشر التثنية من العشرين إلى الثانية والعشرين قد أعطت علامة لما ليس من كلام الله وما هو كذب على الله والوحي، وإنّ في العهدين لكثيراً من هذا القبيل الذي يعرف بهذه العلامة أنّه ليس من كلام الله ولا من الوحي والإلهام في شيء، كما ستسمع بعضه إن شاء الله في المقدّمة الثامنة في الفصل الرابع [٢].

الوجه الخامس: هو أنّه يوجد من نتائج الجمع بين مضامين العهدين موانع كثيرة من نبوّة المسيح ورسالته وقداسته، بل يلزم منهما شِركُ موسى وهارون وداود وأساف وسليمان والمسيح، وكفر إرميا، واستحقاق هؤلاء للقتل، كما سيمرّ عليك في محالّه إن شاء الله. وإنّهم لمقدّسون عن مثل ذلك وكلّ ما يَشِين.

الوجه السادس: أنّا قد وجدنا التبديل الصريح والتصرّف الواضح في العهدين في التراجم والمطابع، وهو لا يعدو القسّيسين ورؤساء الدين:

فمن جملة ذلك أنّ في النسخة العبرانيّة في الثامنة من رابع التكوين ما تعريبه الحرفي: «وقال قايين لهابيل أخيه، ولمّا صارا في الحقل، قام قايين على هابيل أخيه فقتله». وكثير من المترجمين لمّا رأى أنّ جملة: «وقال قايين لهابيل أخيه» جملة فارغة عن المعنى ناقصة الفائدة؛ لأجل احتياج القول إلى المقول، ترجموها في مطابعهم هكذا: «وكلّم قايين هابيل أخاه» فبدّلوا القول بالتكليم لأجل ما يتراءى في التكليم من الفائدة. وجروا على هذا التبديل في أكثر ما رأينا من التراجم الفارسيّة وغيرها، مع أنّ الأصل العبراني هكذا: «ويامر فاين ال هبل احيو وقال قايين لهابيل أخيه».

ولو كان الأصل «وكلّم» لقيل: «ويدبر».

وبعضهم ـ كصاحب الترجمة المطبوعة سنة ١٨١١ م ـ لمّا رأى التباين الكلّي في

---

١. رؤيا يوحنّا ٢٢: ١٨ و ١٩.

٢. يأتي في ص ١٠٦ ـ ١٠٩.

اللغة العبرانيّة بين لفظ ما تعريبه «وقال» ولفظ ما تعريبه «وكلّم» حاول أن يتستّر في تصرّفه فذكر هكذا: «وقاول قايين هابيل أخاه».

وبعضهم لمّا وجد النسخة السامريّة واليونانيّة تامّة الكلام والفائدة، لا سقط فيها كما في العبرانيّة، جعل ترجمة للعبرانيّة على طبقهما تصرّفاً وتقوّلاً على العبرانيّة، فذكر في الترجمة: «وقال قاين لهابيل أخيه تعال نخرج إلى الحقل». نقله في إظهار الحقّ[1] عن التراجم القديمة والعربيّة المطبوعة سنة ١٨٣١ و ١٨٤٨م.

وبعضهم زاد في الترجمة من تلقاء نفسه تتميماً للمعنى منهم توماراً بنسن القسّيس في ترجمته للعبرانيّة بالفارسيّة المطبوعة في لندن بمطبعة رجاردوا طس سنة ١٨٢٩م فقال: «وقايين هابيل برادر خود را گفت كه بيا» فزاد من نفسه لفظ: «كه بيا».

ويلزم ممّا ذكرنا حدوث النقصان المخلّ في العبرانيّة وإقدام مترجميها على التبديل أو الزيادة لأجل تصحيحها، فزادوا في الطنبور نغمة.

وأيضاً في الأصل العبراني في الثالثة عشرة من ثاني عامُوس ما نصّه عن قول الله:

هنيه انوخي ما عيق تحتيخيم كاشير تاعيق.

هاهو أنا صار أو أصر أو مضايق ـ أو نحو ذلك ـ تحتكم كما أو كالذي تصر أو نحو ذلك.

هاعاغالاه هملا أه لاه عامبر العجلة/ الملآنة/ حزماً أو حشيشاً.

وفي العربيّة المطبوعة سنة ١٨١١م: «لأجل هذا ها أنا أتمرّغ تحتكم كما تتمرّغ العجلة المملوءة قصباً». ونقل في إظهار الحقّ[2] عن ترجمة عربية مطبوعة سنة ١٨٤٤م موافقة العبرانيّة في مضمونها بما لفظها: «أنا ذا أصير تحتكم كما تصير العجلة المحملة حشيشاً». وعن نسخة فارسيّة أيضاً مطبوعة سنة ١٨٣٨م: «اينك من در زير شما چسبيده شدم چنانچه ارابه بر ازاقد چسبيده مى‌شود». ولمّا رأى كثير من المترجمين أنّ حقيقة مضمون هذا الكلام ومجازه بمكان من السخافة، بدّلوه في أكثر ما رأيناه من

---

١. إظهار الحقّ ٢: ٥٢١ ـ ٥٢٣.

٢. المصدر: ٥٢١ فما بعد.

التراجم العربيّة إلى ما لفظه: «ها أنا ذا أضغط ما تحتكم كما تضغط العجلة الملآنة حُزَماً»[١]. ونحوها ما رأيناه من التراجم الفارسيّة.

وأيضاً قد زادوا على ترجمة العبرانيّة واليونانيّة ألفاظاً اعترفوا بأنّها ليس لها وجود في الأصل العبراني واليوناني، وزعموا أنّهم زادوها في الترجمة لأجل الإيضاح، ورسموها بحرف صغير في بعض النسخ العربيّة المبنيّة على التأنّق في طبعها، مع أنّ الكلمات الكثيرة من ذلك بحيث يعسر إحصاؤها في هذه المقدّمة كثرةً لتأبى أن تكون إيضاحاً، بل هي إتمام لمعنى ناقص أو زيادة على معنى تامّ. فراجع الكلمات المذكورة في أُولى النسخ التي عددناها، وراجع الأصل العبراني واليوناني.

ولنكتف في هذه المقدّمة على هذا المقدار وإن كان قليلاً من كثير، ونحيل بالزيادة على ذلك إلى محالّها إن شاء الله. وسوف نورد فيما يأتي باباً واسعاً إن شاء الله في هذا الشأن، وندلّك على سقوط المتكلّف وغيره في تشبّثاتهم وتكلّفاتهم، فإنّ وضع المقدّمات لا يحتمل أكثر ممّا ذكرنا هاهنا، وإن كان فيه كفاية بتوفيق الله لذي الرشد.

---

١. سفر عاموس ٢: ١٣.

المقدّمة السابعة

[في آداب المباحثة والمناظرة]

لا يخفى على كلّ ذي رشد ومعرفة بطريق البحث والمباحثة، أنّ مباحثة أهل الدين والاعتراض على جامعتهم وأصل دينهم إنّما يحسن، ولا يعدّ خبطاً ومراوغة عن الحقّ إذا كان البرهان عليهم بالمقدّمات المنتهية إلى بداهة العقل أو المسلّمة عند عمومهم، وإذا كان الجدل والإلزام لهم بما يعلم أنّه من الدين الذي عكفوا عليه والقدر الجامع بينهم، لا بما كان رأياً أو رواية يختصّ به واحد أو آحاد من أهل ذلك الدين لا يفيد علماً، ولا يُذعِن عموم أهل الدين بصحّته أو أنّه من دينهم؛ فإنّ تشبّث خصمهم بمثل هذا في الاحتجاج على جامعتهم، كان ذلك منه حياداً عن الحقّ؛ لضعف الحجّة وضيق الخناق.

ولأجل هذا لم أعتمد في هذا الكتاب في البرهان إلّا على ما هو حقّه من المقدّمات البديهيّة لدى العقل والعقلاء، ولم أُجادل عموم النصارى وألزمهم في جامعة دينهم والنصرانيّة التي عندهم إلّا بما تسالموا على إلهاميّته وصدوره عن الوحي، وهي كتب العهدين التي ذكرنا أنّهم متّفقون في هذه القرون على نسبتها إلى الوحي والإلهام، وشرحنا أسماءها في المقدّمة الأُولى. ولم أُباحثهم خبطاً بآراء آحاد مفسّريهم وعلمائهم، أو آحاد تقاليدهم التي لا توجب في دينهم علماً، أو يأبى صحّتها أغلبهم.

ولكن هلمّ الخطب في جملة من المباحثين لدين الإسلام، وخصوص الثلاثة الذين

وعدناك بالتعرّض لكلامهم في هذا الكتاب، فإنّهم قد دارت مباحثهم للإسلام على قطبين فاسدين في شرع البحث وأدب الكاتب:

أحدهما: اعتمادهم في البرهان لدعاويهم في قبال الإسلام على كتب العهدين، التي يدّعون إلهاميّتها وصدورها عن الوحي. وقد عرفت في المقدّمة السادسة[١] ـ وتعرف إن شاء الله ـ ما يبطل ذلك، وأنّ تشبّثهم بها في قبال الإسلام والمسلمين ممّا لا يليق بالمباحث، وإن لم يقصد ببحثه تحقيق الحقّ.

وثانيهما: أنّهم تشبّثوا في مقام الجدل لدين الإسلام، وإلزام عموم المسلمين في جامعة دينهم، بآراء بعض مفسّريهم وروايات آحادهم ممّا لا يقبله عمومهم ولا يذعنون بصحّته، ولا يعتمدون عليه في جامعتهم الإسلاميّة.

أو نرى هؤلاء المباحثين لم يفطنوا أولم يسمعوا بأنّه عرض لروايات آحاد المسلمين، مثل ما قد عرض الأناجيل وتعاليم النصرانيّة بعد المسيح، من الاختلاف والتشويش والاضطراب، حتّى تعدّدت الأناجيل واختلفت اختلافاً واضحاً، وحتّى تتابع النداء من أعمال الرسل والرسائل المدرجة في العهد الجديد بأنّ بطرس ويهوذا ويوحنّا وبولس يستغيثون ويحذّرون الأُمّة من التعاليم المتشعّبة من المتنصّرين. كما ملأ سمعك في أواخر المقدّمة السادسة[٢]، وستسمع له زيادة إن شاء الله. على أنّه لم ينحصر الاختلاف في أخبار آحاد المسلمين بتعمّد الكذب من بعض الوسائط، بل كان منه ما نشأ من عدم التثبّت والتفهّم في السماع، ومنه ما نشأ من خلل التوهّم والنسيان، ومنه ما كان لأجل اختفاء القرائن المتّصلة والنقل بالمعنى.

ولأجل هذا نرى المسلمين لم يأخذوا بها جميعاً على سبيل التسليم، ولم يطمسوا الحقائق بالإعراض عنها رأساً، بل تصدّوا من قديم الزمان إلى الوقت الحاضر، وصنّفوا الكتب الكثيرة لمحض البحث والتنقير في أحوال الرواة وجرحهم وتعديلهم وضبطهم وحفظهم، وحسن سماعهم وأمانتهم، وسلامة عقيدتهم، واتّصال السند وانقطاعه. كلّ

---

١ و ٢. تقدّما في ص ٥٥ ـ ٦٠.

ذلك ليميّزوا منها المتواتر باللفظ أو بالمعنى، فيكون لهم حجّة في أُصول الدين وفروعه. والذي لا يبلغ التواتر بحثوا فيه عن سند الرواية، وشهرتها وقبول أساطين العلم لها، وعدم اضطرابها أو مخالفتها للعقل أو الكتاب أو السنّة، ليعتمدوا في فروع الدين وأحكامه على ما اطمأنّوا بصحّته وصدوره على وجهه منها. وما وجدوه مضطرباً أو مخالفاً للعقل أو الكتاب أو السنّة ضربوا به الجدار في مقام العمل.

نعم، لأجل اختلاف آرائهم في جهات الاطمئنان والوثوق على طبق القانون المذكور؛ اختلفت فتاوى أئمّتهم؛ إذ قد يَثِق أحدهم بما لا يثق به الآخر. فقد جرى دأبُ كلّ منهم على ما ينبغي للباحث الطالب للحقّ بجدّه واجتهاده، من عدم التقليد لغيره في بيان الصحيح المطمئنّ الموثوق به، ولو فرض أنّه قرّرته عدّة من المجامع، بل كلّ منهم يبحث في هذا الشأن بحسب القواعد الممهّدة له، ليتميّز بنظره واجتهاده ما هو الصحيح الموثوق به. ولأجل مراعاتهم للقوانين المذكورة ترى القبول المعمول عليه من أخبار الآحاد أقلّ قليل.

وأيضاً قد جعلوا من الوجوه ـ التي يعرف بها تخليط الراوي وفساد عقيدته ـ ما يجدونه في روايته من مخالفة العقل أو الوجدان، أو الأُمور المعلومة، أو الكتاب أو السنّة.

وأمّا أقوال المفسّرين، فمنها ما هو رأي لهم، أو مؤدّى أخذهم من السير والتواريخ التي لا تفيد علماً. وهذا لا حجّة فيه على الجامعة الإسلاميّة ولا جدل أصلاً، كما بيّنّا. ومنها: ما كان رواية فالاحتجاج أو الجدل بها في أُصول الدين وفروعه، إنّما يحسن ولا يعدّ خبطاً ومراوغة إذا كان على القانون المتقدّم ذكره في الرواية.

المقدّمة الثامنة

في محلّ البحث من الرسالة والنبوّة

وفيها بابان، وفيهما فصول

الباب الأوّل

الفصل الأوّل منه: في بيان حقيقة الرسول

النبيّ المرسل هو إنسان كامل يرسله الله إلى البشر ليكمّلهم ويهديهم إلى الصواب، ويرشدهم إلى ما يحتاجون إليه في معرفة الله وطاعته والاحتراز عن معصيته، ويحملهم على ما فيه حفظ كمالاتهم ومصالحهم الشخصيّة والنوعيّة في الدين والدنيا، ويزجرهم عمّا يضرّهم فيهما.

الفصل الثاني: في الغاية المطلوبة من إرساله

لا ينبغي أن يشكّ ذو رشد بأنّ ما ذكرناه هو الغاية المطلوبة من إرسال الله للنبيّ.

وتقريره بالبيان الواضح هو أنّ إرسال الله للنبيّ في دعوته رحمة من الله ولطف من ألطافه بمن يدعوهم النبيّ، ليُقرِّبهم إلى طاعة الله، ويُبعِّدَهم عن معصيته، ويُنبِّهَهم من رقدة الغفلة، وينقذهم من سَورَة[1] الهوى والضلال، ويحملهم على جادّة الهدى ودين الحقّ وقوانين العدل وحسن التمدّن والاجتماع وآداب السياسة، لينالوا سعادة الدارين.

الفصل الثالث: في عصمته

وأوّل ما يلزم في تحصيل هذه الغاية الشريفة والغرض الحميد، وحصول هذا اللطف والرحمة أمران:

---

١. سَورَة الشيء: حِدّته. لسان العرب ٤: ٣٨٤، «س و ر».

أحدهما: كون الرسول معصوماً في التبليغ غير متّهم فيه، مع فرض رسالته.

وثانيهما: كونه معصوماً عن الذنوب وارتكاب القبائح التي هي ضدّ لما يدعو إليه من شريعة الهدى والصلاح.

أمّا الأمر الأوّل: فقد اتّفق عليه أهل الملل القائلون بالنبوّة والرسالة؛ لوجه أوضَحَتْه لهم بداهةُ عقولهم، وليس حقيقته إلّا تحصيل الغرض من الرسالة، وقبح نقضه بإرسال الكاذب والمخطئ في التبليغ.

وأمّا الأمر الثاني: فحقيقة وجهه وحجّته عين الوجه الأوّل وحجّته ـ وإن خالف فيه اليهود والنصارى ـ فإنّه يقبح ويمتنع من الله القادر القدّوس الغنيّ العليم الحكيم أن يجعل رحمته ولطفه في طريق يمنع عن فائدتهما ويصدّ عن منفعتهما، مع إمكان أن يجعلهما في طريق لا يمنع عن حصول الغرض والفائدة ولا مفسدة فيه، بل هو الناجح في تحصيل الغرض. ولبيان ذلك وجوه.

[الوجه] الأوّل: أنّ إرسال النبيّ الذي يصدر منه الذنب والقبيح ومخالفة شريعة الحقّ ناقض للغرض المطلوب من إرساله، ونقض الغرض قبيح ببداهة العقل ومنقصة فاضحة، فهو ممتنع على الله؛ فإنّ الوجدان ليشهد بأنّ نفوس البشر المحتاجة إلى الاستصلاح والترويض والإرشاد والتقريب إلى الله وشريعة الحقّ لتنفِر نُفرَةً شديدة عن الانقياد إلى من يدعوها إلى الله والشريعة ويعظها ويوبّخها ويزجرها عن شهواتها، إذا كان ممّن يخالف الله والشريعة ويتمرّد على أحكامها وينقاد إلى شهواته وهواه مع ادّعائه المعرفة والرئاسة الدينيّة، فلا تصغي إلى إرشاده ولا تعتني به فانظر بوجدانك إلى المذنب العاصي إذا جاءك واعظاً مرشداً مؤدِّباً زاجراً لك عن اتّباع هواك، فهل ينتج من إرشاده ووعظه وزجره إلّا أن يُسْتَهْزَأ به ويقال له: كَمِّل نفسك وأصلِحها وأرشدها، ثمّ التفت إلى تكميل غيرك وإرشاده، وحينئذٍ ادّعِ عليه الرئاسة وفضيلة الإرشاد وسيطرة الزجر والتوبيخ.

بل نقول: إنّ صدور الذنب والقبيح من الرسول ـ الذي هو الرأس والرئيس والقدوة في الدين ـ مؤيِّد ومحرِّك لدواعي سائر البشر إلى الإقدام على الذنوب والتهاون

بالشريعة؛ لشهادة الوجدان بأنّ رئيس الدين إذا أذنب، هان على الناس اتّباعه في الاقتحام في الذنوب، وتحرّكت شهواتهم وأهواؤهم إليها، وقد لهج الناس بقولهم الموافق للحكمة والتجربة: «إذا فسد العالِم فسد العالَم». على ذلك يلزم من صدور الذنب والقبيح ومخالفة الشريعة من الرسول، حصولُ الفساد من الجهة التي أراد الله برحمته ولطفه منها الصلاح. وحقيقة هذا ومعناه أن يريد الله الصلاح ـ لأجل رحمته ولطفه بعباده ـ من الجهة التي هي أشدّ وأدعى في انتشار الفساد، وهل يرتاب عاقل في قبح ذلك وامتناعه على الله جل شأنه؟!

وانظر إلى الملوك، فهل تراهم يرسلون إلى إصلاح رعاياهم المتمرّدة على شريعة المملكة إلّا من يطمئنّون بعدم مخالفته لتلك الشريعة وقوانين الإصلاح مهما أمكنهم؛ لئلّا تفسد الرعيّة بفساده، ولو وجدوا إلى المعصوم سبيلاً لما عدلوا عنه، وذلك لعين ما ذكرنا من قبح نقض الغرض فهل ترى الملوك أنظر لصلاح رعاياهم من الله لعباده؟!

الوجه الثاني: أنّ إرسال الله للرسول المعصوم ممكن، وحاجةُ الخلق في الاهتداء إلى الحقّ وظهور الصلاح والانقياد إلى الرسول وعدم التنفُّر عنه داعيةٌ إلى ذلك. وهو مصلحة بلا مفسدة، بل المفسدة بخلافه، فيجب بمقتضى الحكمة والرحمة واللطف فيمتنع إرسال غير المعصوم. أفيقال: إنّ وجود المعصوم غير ممكن؟ أو إنّ الله لا يعلم به؟ أو أنْ لا مصلحة في إرسال المعصوم؟ وإنّ في إرساله مفسدةً؟ أو إنّه يجوز على الله القدّوس الغنيّ العليم الحكيم الإخلالُ بالحكمة، والعدولُ عبثاً عمّا فيه الصلاح وحصول الغرض إلى ضدّه؟ حاشا وكلّا.

الوجه الثالث: دلالة الكتب المنسوبة بين الملّيّين إلى الوحي والإلهام بنحو يشير بمضمونه أو فحواه إلى ما ذكرنا من وجه دلالة العقل:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[1]. وفاعل القبيح ظالم؛ إذ لا أقلّ من كونه

١. البقرة (٢): ١٢٤.

ظالماً لنفسه بإلقائها في تهلكة العقاب ورذيلة فعل القبيح، قال الله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِالْخَيْرَٰتِ﴾[١].

وفي سابع عشر التكوين: «ظهر الله لأبرام وقال له: أَنا القدير، سِرْ أمامي، وكن كاملاً فأجعل عهدي بيني وبينك»[٢]. فإنّ جعل الله للعهدِ بينه وبين إبراهيم متوقّف على سير إبراهيم أمام الله وكونه كاملاً. وفي المزمور الخامس والعشرين: «سِرّ الربّ لِخائفِيه»[٣]. وفي المزمور المائة والواحد: «السالِك طريقاً كاملاً هو يَخدمُنِي»[٤]. وفي الثالث من الأمثال: «لأنّ الملتويَ رِجسٌ عند الربّ، أمّا سِرُّه فعند المستقيمين»[٥]. وفي الحادي عشر: «كَراهةُ الربّ مُلْتَوُو القلبِ، ورضاهُ مُستَقِيمُو الطريقِ»[٦]. وفي الخامس عشر أيضاً: «الربّ بعيدٌ عن الأشرار»[٧]. وفي ثالث رسالة بطرس الأُولى: «لأنّ عيَني الربّ على الأبرار، وأُذُنَيهِ إلى طَلِبَتِهم، ولكن وجه الربّ ضدّ فاعلي الشرّ»[٨]. وفي خامس متّى عن قول المسيح لتلاميذه: «أنتم مِلحُ الأرض، ولكن إن فَسَد الملحُ فبماذا يُمَلَّح لا يصلح بعد لشيءٍ، إلّا لأن يُطرح خارجاً ويُداس من الناس»[٩]. وفي رابع عشر لوقا ما يؤدّي هذا المضمون[١٠]. وفي سادس متّى:

لا يقدر أحد أن يخدم سيّدين؛ لأنّه إمّا أن يبغض الواحد ويحبّ الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر، لا تقدرون أن تخدموا الله والمال[١١].

---

١. فاطر (٣٥): ٣٢.

٢. سفر التكوين ١٧: ١.

٣. سفر المزامير ٢٥: ١٤.

٤. سفر المزامير ١٠١: ٦.

٥. سفر الأمثال ٣: ٣٢.

٦. سفر الأمثال ١١: ٢٠.

٧. سفر الأمثال ١٥: ٢٩.

٨. رسالة بطرس الأُولى ٣: ١٢.

٩. إنجيل متّى ٥: ١٣.

١٠. إنجيل لوقا ١٤: ٣٤.

١١. إنجيل متّى ٦: ٢٤.

ومثله في سادس عشر لوقا [١].

وعلى هذا، كيف إذن يقدر على خدمة الله ومعاناة المشاقّ في إرشاد خلقه وإصلاحهم من لا رادع له عن خدمة الهوى والشهوات التي هي في الحقيقة خدمة الشيطان ؟!

وفي سادس عشر لوقا: «الأمين في القليل أمين أيضاً في الكثير، والظالم في القليل ظالم أيضاً في الكثير» [٢]. وقد تكرّر نقل هذا المضمون عن المسيح بلطيف البيان والتقريب في الخامس والعشرين من متّى [٣]، وتاسع عشر لوقا [٤]، وفي ثامن يوحنّا في شأن إبليس: «لأنّه كذّاب وأبو الكذّاب» [٥]. وفي ثامن عشر متّى [٦]، وثاني مرقس [٧]، وسادس لوقا:

> أنّ المسيح لمّا اعترض عليه اليهود بأكل تلاميذه في يوم السبت من الزرع، وأنّه لا يجوز فعل مثله في السبت، احتجّ عليهم بأكل داود من خبز التقدمة الذي لا يحلّ إلّا للكهنة [٨].

فلو لم يكن النبيّ معصوماً، وأنّ داود بريء ممّا رُمي به في شأن امرأة أُورِيّا، لما صحّ من المسيح الاحتجاج بفعله، ولكان يحاذر أن يجيبه اليهود بأنّ داود أذنب وفعل الخطيئة في أكله من خبز التقدمة، كما أخطأ في شأن امرأة أُورِيّا وفعل ذلك القبيح الشنيع.

---

١. إنجيل لوقا ١٦: ١٣.
٢. إنجيل لوقا ١٦: ١٠.
٣. إنجيل متّى ٢٥: ١٤ ـ ٣٠.
٤. إنجيل لوقا ١٩: ١٢ ـ ٢٧.
٥. إنجيل يوحنّا ٨: ٤٤.
٦. إنجيل متّى ١٨: ١ ـ ٥.
٧. إنجيل مرقس ٢: ٢٣ ـ ٢٦.
٨. إنجيل لوقا ٦: ١ ـ ٤.

الفصل الرابع: في ذكر الاعتراضات على هذا المقام، وأجوبتها في تحقيق الحقّ وكشف الالتباس

فإن قيل: إنّ كتب الملّيّين المنسوبة إلى الوحي والإلهام لَصَريحةٌ في صدور المعصية والذنوب والقبائح من الأنبياء المرسلين.

قلنا: وهل بعد دلالة العقل، وما ذكرناه عن الكتب المنسوبة إلى الإلهام والوحي مجالٌ للريب؟ فإنّا إن لم نتمسّك بهدى العقل، فبماذا نعرف أنّ الكتاب كتاب وحي جاء به النبيّ المرسل من عند الله؟ ولماذا نتغافل عمّا ذكرنا عن الكتب من وضوح الدلالة على عصمة النبيّ، ممّا يؤكّد ببيانه الجليّ حكم العقل البديهي؟

فإن قيل: فماذا نصنع بما أشرنا إليه ممّا يدلّ صريحاً على صدور المعصية والذنب من الأنبياء المرسلين؟

قلنا: أمّا ما أمكن حمله على المعصية المجازيّة، التي هي عبارة عن ارتكاب خلاف الأولى، ومخالفة الأمر الاستحبابي والإرشادي، أو النهي التنزيهي أو الإرشادي، فيجب حمله على ذلك؛ لأجل قرينة العقل والنقل وحكمهما بالعصمة. كما يحمل ما جاء في الكتب المذكورة من نسبة الوجه والعين والأُذن والأنف واليد والرجل والقدم وباطن القدمين والضحك والركوب والطيران لله جلّ شأنه على معان مجازيّة مناسبة؛ لأجل حكم العقل بتنزّهه تعالى شأنه عن الجسم.

وأمّا ما لا يمكن حمله على ما ذكرنا، فإنّ العقل ـ الذي هو دليلنا على معرفة الله والنبيّ والوحي ـ يدلّنا على أنّ ذلك أجنبي عن الوحي والإلهام، وإنّما هو من فلتات الأقلام.

فإن قيل: إنّ أهل الكتاب يدّعون أنّه لا ريب في إلهاميّة كتبهم المصرّحة بصدور الذنوب والمعاصي العظيمة من الأنبياء، فهم لأجل ذلك يتأوّلون ما دلّ على لزوم عصمة النبيّ من كتب الإلهام، ويمنعون ما اعتمدتم عليه في العصمة من دلالة العقل.

قلنا أوّلاً: قد طرق سمعك ـ وسيتواتر عليك إن شاء الله من بيان هذا المختصر ـ ما يمنحك اليقين بأنّ الكثير من كتبهم أجنبي عن الوحي والإلهام، فلا يوثق بشيء منها في كونه إلهاميّاً، فضلاً عن مصادمته للعقل والنقل في هذا المقام.

وثانياً: إنّ ما اعتمدنا عليه من دلالة العقل قد بلغ من البداهة إلى حدّ تلجئهم فيه الفطرة إلى الاعتماد عليه، فينطلق به لسانهم أحياناً من قيود العصبيّة؛ فإنّ المتكلّف ـ وهو أقلّ من عرفناه إنصافاً وأشدّ عصبيّة ـ قد قال:

> إنّ الأنبياء هم أُناس أرسلهم المولى سبحانه وتعالى إلى شعبه، لإرشادهم إلى الحقّ اليقين وهدايتهم إلى الصراط المستقيم، فكانوا حصناً منيعاً من إلحاد الملوك والأُمراء، وواقياً لشرّ الفجّار، وكانوا قدوة حسنة للصغير والكبير والخطير والحقير[1].

وهذا اعتراف منه بمقتضى إلجاء الفطرة بالغاية المطلوبة من إرسال الأنبياء.

وقال أيضاً:

> ويلزم أن يكون النبيّ تقيّاً خائف الله سليم الفطرة والفكرة؛ ليستأمنه المولى على أقواله، وليوحي إليه إرادته ومشيئته، ويأمره بأن يبلّغها للورى، فيسمع طائعاً[2].

وهذا اعتراف منه بلزوم عصمة الأنبياء، خصوصاً عن مثل ما نسبته إليهم كتب العهدين من فواضح القبائح، كما سيمجّه سمعك إن شاء الله في الفصول الآتية في الباب الثاني من هذه المقدّمة[3].

وأيضاً قد تكرّر من المتكلّف في أجزاء كتابه ـ تبعاً لأمثاله ـ سيّئُ الطعن بقدس رسول الله خاتم المرسلين صلوات الله عليه، بنسبة المعصية والذنب له، لأجل أن يتشبّثوا بوهم ذلك لنفي رسالته صلوات الله عليه، وعدم صلاحيته لها. مع أنّ ما نسبوه

---

١. الهداية ٣: ٧٢.

٢. المصدر: ٧٣.

٣. يأتي في ص ٨٣ـ ٢٠٣.

له لو تساهل معهم الامتناع في فرضه لم يبلغ مبلغ ما نسبته كتبهم لموسى وهارون وداود وسليمان وإرميا والمسيح قدّست أسرارهم. دع اعتراف المتكلّف وأمثاله؛ فإنّي قد أوضحت الحجّة على العصمة بفضل الله لأهل هذه الأدوار السعيدة، الذين حرّروا أذهانهم من عبوديّة العصبيّة والتقليد، وجعلوا قول الحقّ ضالّتهم التي يطلبونها. هداهم الله إلى الحقّ، وأخذ بأيديهم في مزالّ الأقدام. وقد قال الله تعالى شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1].

وثالثاً: إنّ أهل الكتاب قد اتّفقوا على الاعتراف والتسليم بلزوم عصمة الأنبياء في التبليغ، وحجّتهم في ذلك ليست إلّا نحو ما ذكرنا من دليل العقل في رعاية الغاية المطلوبة من الرسالة. وماذا تراهم يصنعون فيما ورد في كتبهم التي ينسبونها إلى الوحي والإلهام، من نسبة بعض الأنبياء إلى الكذب في تبليغ الوحي، على وجه الصراحة التي لا يحوم حولها مقبول التأويل؟ أتراهم يعدلون عن دليل العقل، ويقولون بكذب النبيّ في التبليغ تعبّداً بما في كتبهم، أم يعترفون بأنّ ما ينادي بصراحته بكذب الأنبياء في التبليغ ليس من الوحي والإلهام بل هو مدسوس فيه؟

ولئن غفلوا عن ذلك، أو تغافلوا، أو حاولوا الإغفال، فإنّ رقيب الحقّ لابدّ أن يحصيه عليهم، فقد ذكر في الثالث عشر من الملوك الأوّل[2] أنّ الشيخ النبيّ الساكن في بيت إيل الموصوف[3] بأنّه كان إليه كلام الربّ للتبليغ، قد كذب على شمعيا رجل الله بدعوى الوحي وتكليم مَلاك الربّ له، حتّى حمله بكذبه على الله وعليه وخداعه بدعوى الوحي على مخالفة أمر الله، وأوقعه في هلكة النكال.

ومن الظرائف أنّ مترجم الترجمة العربيّة المطبوعة سنة ١٨١١م حاول أن يجعل

---

١. العنكبوت (٢٩): ٦٩.

٢. سفر الملوك الأوّل ١٣: ١١ ـ ٣٠.

٣. سفر الملوك الأوّل ١٣: ٢٠ ـ ٢٢.

هذا النبيّ الساكن في بيت إيل من الكاذبين في أصل دعوى النبوّة، وأنّه لا حظّ له في الوحي والنبوّة الحقيقيّة؛ لأجل أن يتخلّص من الاعتراض عليهم بكذب النبيّ الحقيقي في التبليغ، فحرّف الفقرة العشرين من ثالث عشر الملوك الأوّل المذكور، وترجمها هكذا: «وبينما هما جالسان على المائدة يأكلان حتّى وردت نبوّة من عند الله إلى نبيّ الله الذي ردّه النبيّ الكاذب».

مع أنّ مقتضى الأصل العبراني، والكثير من التراجم العربيّة وغيرها، هو أنّ كلام الله الوارد في توبيخ رجل الله الذي جاء من يهوذا قد صار إلى الشيخ النبيّ الساكن في بيت إيل، الذي كذب على رجل الله. ونصّ الأصل العبراني هكذا:

ويهيهم يشبيم ال هشلحن ويهي دبر يهوه ال هنبيء

وكانا جالسين إلى المائدة وكان كلام الله إلى النبيّ

اشير اشيبو ويقرأ ال ايش هألوهيم اشير باء ميهوده لامر

الذي رده ودعا رجل إلاهنا الذي جاء من يهودا قائلاً

كه امر يهوه يعن كي مريت في يهوه

هكذا قال الله أداة تعليل أداة تعليل أيضاً عصيت فم ـ أي قول وما في معناه ـ الله.

إلى آخر التوبيخ لرجل الله، وهو ينادي بأنّ هذا الوحي والنبوّة قد كان إلى النبيّ الساكن فيبيت إيل، فزاد هذا المترجم على الأصل العبراني لفظ «يأكلان» ولفظ «النبيّ الكاذب» وبدّل المعنى إلى ما شاء.

هذا، وإنّ أَلِيشَع الرسول الذي ذكرت له المعجزات الباهرات في ثاني الملوك الثاني وما بعده إلى التاسع والثالث عشر قد ذكر عنه في الثامن من الملوك الثاني:

أنّ بَنْهَدَد ملك آرام إذ كان مريضاً أرسل حَزائِيل ومعه حمل أربعين جملاً من كلّ خيرات دمشق هديّة إلى أَلِيشَع النبيّ، ليسأله حَزائيل عن لسان بَنْهَدَد فيخبره أَلِيشَع بواسطة الوحي هل يشفى من مرضه؟ فقال له أَلِيشَع: وقل له: شِفاءً تُشْفَى وقد أراني الربّ أنّه موتاً يَمُوت[١].

١. سفر الملوك الثاني ٨: ٧ ـ ١١.

وقال إشَعْياء في شأن بعض الأنبياء: «إنّهم ضلّوا بالخمر وابتلعتهم وتاهوا من المسكر حتّى ضلّوا بالرؤيا وقلقوا في القضاء»[١].

ومن الواضح أنّ ضلال النبيّ في الرؤيا التي هي نبوّته مستلزم للكذب في التبليغ، بل نقول: إنّ ضلال النبيّ في النبوّة أولى بعدم الجواز من الكذب في التبليغ. وإنّ قلقه في القضاء ـ الذي هو عبارة عن تبليغ حكم الله للمتخاصمين ـ إنّما هو الكذب والخطأ في التبليغ.

وإنّ حَزْقِيال الرسول قد ذكر عنه في السادس والعشرين من حَزْقِيال:

أنّه ذكر عن قول السيّد الربّ أنّه يجلب على صور نَبُوخَذْراصَّر ملك بابل فيهدم أبراجها...، ويقتل شعبها بالسيف، وينهبون ثروتها، ويغنمون تجارتها، ويهدّون أسوارها، ويهدمون بيوتها البهيجة، ويضعون حجارتها وخشبها وترابها في وسط المياه[٢].

وقد ذكر بعد هذا في التاسع والعشرين عن كلام الربّ ما يدلّ على أنّه لم يقع مقتضى الوعد السابق، وأنّ نَبُوخَذراصَّر ملك بابل استخدم جيشه خدمة شديدة على صور. ولم تكن له ولا لجيشه أُجرة من صور لأجل خدمته التي خدم بها عليها. لذلك هكذا قال السيّد الربّ:

هاأنا أبذل له أرض مصرفيأخذ ثروتها وينهب غنيمتها فتكون أُجرةً لجيشه، بل أعطيته أرض مصر لأجل شغله الذي خدم[٣].

فإن قلت: إنّ المتكلّف قد ذكر عن التواريخ ما يقتضي صدق النبوّة الأُولى والثانية[٤].

قلت: قد رأينا اعتماده في ذلك على نقل الكتابيّين مثل يوسيفوس، وبريدو، وجيروم، أنّ نَبُوخَذراصَّر استولى على صور كما في النبوّة الأُولى. ولكن لو سامحناه

---

١. سفر إشَعْياء ٢٨: ٧.

٢. سفر حَزْقِيال ٢٦: ٧ ـ ١٣.

٣. سفر حَزْقِيال ٢٩: ١٩ ـ ٢٠.

٤. الهداية ٢: ١٤٤ ـ ١٤٧.

في صحّة هذا النقل وما تكلّفه في هذا المقام، لكان فيما ذكره شهادة صريحة كافية في كذب هذه النبوّة المتضمّنة لكون نَبُوخَذراصَّر وجيشه ينهبون ثروة صور ويغنمون تجارتها[١]؛ فإنّه اعترف لإصلاح النبوّة الثانية بأنّ نبوخذراصَّر لم يجن من صور فوائد تذكر[٢]، وأنّ ثروتها نزفت من طول الحصار. ونقل عن جيروم ما حاصله:

> إنّ أهل صور لمّا رأوا طول الحصار، نقلوا كلّ ما كان ثميناً من ذهب وفضّة وثياب، وكلّ ما عند أشرافهم من الأمتعة الثمينة إلى المراكب، وذهبوا به إلى الجزائر، فلمّا فتحها نَبُوخَذراصَّر لم يجد فيها شيئاً يقوم مقام أتعابه[٣]. انتهى.

فأين صار مع ذلك دعوى النبوّة وتبليغ الرسول بأنّ نَبُوخذراصَّر وجيشه ينهبون ثروة صور ويغنمون تجارتها؟ وأين تكون التجارة المغتنمة مع حصار ثلاث عشرة سنة، ونزوف الثروة ونقل الذهب والفضّة والأمتعة الثمينة إلى الجزائر؟

وحاصل ما عند المتكلّف في هذا المقام هو أنّ الرسول لم يكذب في تبليغه بكلّ ما قال في شأن صور، وإنّما ظهر الكذب في أمرين لم يقعا، وهما نهب ثروتها، وغنيمة تجارتها، والكذب بهذين الأمرين سهل وإن كانا هما العمدة في هذا المقام؛ فإنّ باقي النبوّات هاهنا قد تمّت بفضل الله، على ما يقول يوسيفوس وأمثاله.

وأنّ المسيح قد ذكر عنه في ثاني عشر متّى:

> حينئذٍ أجاب قوم من الكَتَبة والفريسيّين قائلين: يا معلّم، نريدأن نرى منك آية. فأجاب وقال لهم: جيل شِرّير وفاسق يطلب آية، ولا تُعطى له آية، إلّا آية يونان النبيّ؛ لأنّه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيّام وثلاث ليال، هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيّام وثلاث ليال[٤]. انتهى.

---

١. سفر حَزْقِيال ٢٦: ١٢.
٢. سفر حَزْقِيال ٢٩: ١٨.
٣. انظر إلى الهداية ٢: ١٤٥ س ١٦ و ١٤٦ س ٢.
٤. إنجيل متّى ١٢: ٣٨ ـ ٤٠.

وأنّ الأناجيل الأربعة لتكذّب هذا الكلام في أمرين:

[الأمر] الأوّل: ما عن قول المسيح: «جيل شِرّير وفاسق يطلب آية، ولا تُعطَى له إلّا آية يونان النبيّ» فإنّه يكذّبه ما ذكره متّى بعد ذلك من وقوع الآيات والمعجزات من المسيح[١]. ونقل لوقا هذا الكلام عن المسيح أيضاً[٢]. وإنّه ليكذّبه بما ذكره بعد ذلك من وقوع الآيات والمعجزات[٣].

وأيضاً في ثامن مرقس: فخرج إليه الفريسيّون وابتدأوا يحاورونه طالبين منه آية من السماء لكي يجرّبوه، فتنهّد بروحه وقال: «لماذا يطلب هذا الجيل آيةً؟ الحقَّ أقول لكم: لن يُعطَى هذا الجيل آية»[٤]. وإنّه ليكذّبه بما ذكره بعد ذلك من الآيات والمعجزات[٥].

ويكذّبه أيضاً ما ذكره يوحنّا من إحيائه لعازر من الموت، وقد كان ذلك في أواخر أمر المسيح قريب الفصح الذي هجم به اليهود عليه[٦].

ويكذّبه أيضاً ما ذكر في أعمال الرسل أيضاً من ظهور المعجزات والآيات من الرسل لليهود[٧]. انظر أقلّاً إلى أوائل الثاني والثالث[٨] من الأعمال، وخصوص الثالثة والأربعين من الثاني.

وعلى كلّ حال لا ينفكّ القائلون بكون الأناجيل والأعمال كتب وحي وإلهام عن لزوم كذب الرسول على الوحي؛ لأنّه إن كان الكلام المنسوب للمسيح صادقاً، لزم كذب الرسل متّى ومرقس ولوقا ويوحنّا على الوحي فيما ذكروا وقوعه بعد ذلك من الآيات، وإن صدقوا في ذلك فالعكس.

الأمر الثاني: قوله: «هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيّام وثلاث

---

١. إنجيل متّى ١٤: ٤ـ٣٦، و١٥: ٢٨ ـ ٣٢، و١٧: ١ ـ ٦ و١٤ ـ ١٩، و٢٠: ٢٩ ـ ٣٤ و٢١: ١٩، و٢٧: ٤٥ و٥١ ـ ٥٥.

٢ و٣. إنجيل لوقا ١١: ٢٩ و١٣: ١١ ـ ١٤، و١٤: ٢ ـ ٥، و١٧: ١١ ـ ١٥، و١٨: ٣٥ ـ ٤٣، و٢٢: ٥٠ و٥١.

٤ و٥. إنجيل مرقس ٨: ١١ ـ ٢٠ و٢٢ ـ ٢٦، و٩: ٢ ـ ٥ و١٤ ـ ٢٨، و١٠: ٤٦ ـ ٥٢، و١١: ١٣ و١٤.

٦. إنجيل يوحنّا ١١ و١٢ و١٣.

٧. العدد ٢ ـ ١١.

٨. العدد ٧ ـ ١٠.

ليال». فإنّه يكذّبه ما في أُخريات الأناجيل الأربعة من أنّ المسيح أُنزل عن الصليب مساء يوم الجمعة عند استعداد اليهود للسبت، ووضع في القبر والسبت يلوح، وقام من القبر حيّاً في صبح الأحد. فلم يكن بقاؤه على هذا في قلب الأرض إلّا ليلتين ويوماً تامّاً وجزءين قليلين من يومين[١].

فاختر أيّ الأمرين يكون كذباً في التبليغ، أو نقول: إنّ الكذب من متّى الرسول بقوله: «ثلاث ليال». أو يقال: إنّها زيادة وتحريف في إنجيله وليست من وحيه.

قلنا: كيف وإنجيله متواتر النقل بزعم النصارى، ولم يوضع على هاتين الكلمتين حتّى الآن علامة اختلاف النسخ.

ومن الظرائف أنّ المتكلّف قد أطال الكلام وجهد في التكلّف فلم يقدر أن يتكلّف إلّا بدعوى توجيه اسم الثلاثة أيّام على اليوم التامّ هو يوم السبت والجزءين القليلين من اليومين المحيطين به وهما آخر يوم الجمعة وأوّل يوم الأحد، ولكنّه لم يستطع ـ ولن يستطيع هو ولا غيره ـ أن يتشبّث بحيلة لتدبير أمر الثلاث ليال وإن صرف الكلام عنها إلى الثلاثة أيّام[٢]. مع أنّ الجزء الأخير من يوم الجمعة، والجزء الأوّل من يوم الأحد، لا يصلح كلّ منهما لقلّته ـ المقاربة للعدم ـ أن يعبّر عنه باليوم، حتّى يقال: «ثلاثة أيّام»[٣].

وعن بولس ـ الرسول العظيم عند النصارى ـ في خامس عشر كورنثوس الأُولى، بعد ذكر قيامة الأموات وبيان كيفيّتها والبرهان على إمكان وقوعها، ما لفظه:

هو ذا سرّ أقوله لكم لا نرقد كلّنا ولكن كلّنا نتغيّر ـ وعن النسخة اليونانيّة: كلّنا لا نرقد ـ في لحظة في طرفة عين عند البُوق الأخير فإنّه سَيُبَوِّقُ ويُقام الأموات عَدِيمي فسادٍ ونحن نتغيّر[٤].

---

١. إنجيل متّى ٢٧: ٥٧ـ٦٣، و ٢٨: ١؛ و إنجيل مرقس ١٥: ٤٢، و ١٦: ١ و ٢؛ و إنجيل لوقا ٢٣: ٥٣ و ٥٤، و ٢٤: ١؛ و إنجيل يوحنّا ١٩: ٣١ و ٤٢، و ٢٠: ١.

٢. الهداية ٢: ٢١٥ ـ ٢١٨.

٣. انظر إنجيل لوقا ٢٤: ١؛ و إنجيل يوحنّا ٢٠: ١.

٤. رسالة بولس الأُولى إلى أهل كورنتوس ١٥: ٥١ ـ ٥٢.

وعنه في رابع تسالونيكي الأُولى:

فإنّا نقول لكم هذا بكلمة الربّ إنّنا نحن الأحياء الباقين إلى مجيء الربّ لا نسبق الراقدين؛ لأنّ الربّ نفسه بهتاف بصوت رئيس ملائكة وبوق الله سوف ينزل من السماء والأموات في المسيح سيقومون أوّلاً. ثمّ نحن الأحياء الباقين سنخطف جميعاً معهم في الحسب لملاقاة الربّ في الهواء وهكذا نكون كلّ حين مع الربّ[١].

وليت شعري أين هذا الوعد السرّي لأهل كورنثوش؟ وأين ما قيل بكلمة الربّ لأهل تسالونيكي؟ أو ليس قد رقدوا جميعاً هم وبولس رقدة طحنهم فيها البلاء، وتداولت عليها القرون؟

وقد أطال المتكلّف في محاولة التخلّص من هذه الورطة، وكثّر بالشواهد التي لادخل لها بخياله. وخلاصة ما يتشبّث به هو أنّ قول بولس: «نحن» و «نرقد» و«كلّنا» و«نتغيّر» و«إنّنا»، ونحوها ممّا هو للمتكلّم لا يراد منه إلّا الأحياء الموجودين عند القيامة ولو بعد آلاف من السنين، لا يكون فيهم بولس المتكلّم والحاضرين من أهل كورنثوش وتسالونيكي[٢].

فنقول له: أيجوز أن يكون كلام الوحي وبيان الرسل، وكشفهم للناس عن أسرار الملكوت والمعارف النظريّة، جارياً على غير مجرى كلام العقلاء في محاوراتهم، وعلى وجه يعدّ فيه غلطاً في بيان المراد؟ فمن هم الذين عناهم بقوله: «لا نرقد كلّنا»، أو: «كلّنا لا نرقد ولكن كلّنا نتغيّر؟» وكذا قوله: «ونحن نتغير؟» أترى يصحّ في الكلام أن يكون المتكلّم خارجاً عن الحكم في هذه الأخبار؟ ويصحّ للمتكلّم أن يقول: نحن الأحياء الباقين إلى مجيء الربّ وهو والحاضرون ليس منهم؟

وأمّا استشهاد المتكلّف بقوله عليه الصلاة والسلام: «نحن ـ معاشر الأنبياء ـ

١. رسالة بولس الأُولى إلى أهل تسالونيكي ٤: ١٥ ـ ١٧.

٢. الهداية ٢: ٢٢٦ ـ ٢٣٠.

لا نورّث»[1] وقولهم: «نحن ـ العرب ـ نكرم الضيف»[2]، فإنّما هو خلط وتشبّث واهٍ، أفلا ترى أنّه لا يصحّ في الكلام لمن لا يصف نفسه بالنبوّة أن يقول: نحن معاشرَ الأنبياء؟ وكذا لا يصحّ للعجمي أن يقول: نحن معاشرَ العرب.

ولنفرض المثال على نهج الممثّل له، فنفرض الحكم بعدم التوريث من الآثار الخاصّة بالمتّصف بالنبوّة عند موته وفي أوان ثبوت الحكم، ولا يثبت لمن كان في أوان الحكم منسلخاً عن وصف النبوّة، كما أنّ عدم سبق الراقدين والاختطاف في السحب من الآثار الخاصّة بمن كان حيّاً حين القيامة، ولا يثبت لمن كان في أوان القيامة منسلخاً عن ذلك. وعلى هذا فهل يصحّ أن يقول: «نحن ـ معاشر الأنبياء ـ لا نورّث» إلّا من يريد إدخال نفسه في موضوع الحكم وهم الأنبياء المتّصفون بالنبوّة في أوان الموت وتعلّق الحكم، دون من يفرض انسلاخه عن وصف النبوّة في أوان تعلّق الحكم وقبله بمدّة.

وأمّا قولهم: «نحن ـ معاشر العرب ـ نكرم الضيف» فمن المعلوم أنّها قضيّة نوعيّة غالبيّة؛ لشهادة الوجدان بأنّ منهم من لا يكرم الضيف. فلا تقاس عليها كلمات بولس التي هي قضايا كلّيّة لاستيعاب الأفراد. ومع ذلك لا يصحّ بل يقبح ويستهجن من العربي البخيل الذي لا يكرم الضيف قوله: «نحن ـ معاشرَ العرب ـ نكرم الضيف».

ولقد ألجأنا إلى هذا التعمّق بيان الخلط في الأمثلة، وإعطاء بعض القارئين حقّهم من اكتشاف الحقائق بالتحقيق.

وحيث اتّضح لك الخلف في هذه المواعيد المنقولة عن حَزْقِيال والمسيح وبولس، كان ذلك من الكذب في التبليغ عن الله بحكم التوراة. ففي الثامن عشر من التثنية:

وأمّا النبيّ الذي يُطغِي فيتكلّم باسمي كلاماً لم أُوصِهِ أن يتكلّم به أو الذي يتكلّم باسم آلهة أُخرى فيموت ذلك النبيّ ـ أي يقتل ـ وإن قلتَ في قلبك: كيف نعرف

١. صحيح مسلم ٣: ١٣٧٨، كتاب الجهاد، باب ١٥ حكم الفيء، ح ٤٩، باختلاف في اللفظ.

٢. الهداية ٢: ٢٢٧ س ١٠.

الكلام الذي لم يتكلّم به الربّ. فما تكلّم به النبيّ باسم الربّ ولم يَحدُث ولم يَصِرْ فهو الكلام الذي لم يتكلّم به الربّ بل بطُغيانٍ تكلّم به النبيّ[1]. انتهى.

ولو خلع الناس العذار بالتأويل بمثل ما تكلّفه المتكلّف في مثل هذه المقامات، لما عُرِف كذب خبر من الأخبار، ولبطلت علامة التوراة على كذب مدّعي النبوّة على الله في التبليغ وكانت لغواً، فإنّه يمكن للسان المتغلّب على الجَنان والوجدان أن يتلاعب في كلّ كلام بمثل هذه التأويلات.

وإذا وعيت ما ذكرنا، فماذاترى أهل الكتاب يقولون؟ أفتراهم يرجعون عمّا سلّموه من دليل العقل على عصمة النبيّ في التبليغ ويقولون: إنّ النبيَّ الساكن في بيت إيـل واليشع وحَزْقِيال والمسيح وبولس ومتّى ومرقس ولوقا ويوحنّا رسلُ حقّ، ولا يضرّ في ذلك وقوع الكذب منهم في التبليغ، أم يقولون: إنّ هذا الذي نسب في العهدين إلى هؤلاء ممّا يلزم منه الكذب في التبليغ عن الله، مكذوب عليهم، مدسوس في الكتب الإلهاميّة؟

الباب الثاني من المقدّمة الثامنة
في تحقيق الحال في نسبة المعاصي والذنوب إلى الأنبياء
في الكتب المنسوبة إلى الإلهام، وما ينبغي أن يقال في ذلك

وفي هذا الباب أيضاً فصول:

الفصل الأوّل: في ذكر آدم وما يقال في شأنه

أمّا نبوّته ففي القرآن الكريم بقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

وأمّا ما جاء في شأنه، فقد قال الله تعالى له كما في سورة البقرة: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾[2]. وفي سورة طه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[3].

فنقول: إنّ النهي قديكون مولويّاً تحريميّاً يستحقّ مخالفُه الذمَّ والعقاب على مخالفة مولاه التي هي المعصية القبيحة.

وقد يكون مولويّاً على وجه الكراهة والتنزيه مرخّصاً في مخالفته التي تسمّى أيضاً

---

١. آل عمران (٣): ٣٣.

٢. البقرة (٢): ٣٥ـ٣٦.

٣. طه (٢٠): ١٢١.

معصية إمّا مجازاً، وإمّا لأنّ اسم المعصية أعمّ منها ومن مخالفة النهي التحريمي القبيحة.

وقد يكون إرشاديّاً كنواهي الطبيب للمريض التي لا يترتّب على مخالفتها إلّا الوقوع في المشقّة التي أرشد إلى التجنّب عنها بالنهي. ولا يترتّب على هذا النهي من حيث مخالفة المولى ذمّ ولا عقاب ولا لوم ولا قبح، وإنّما اللوم على إلقاء النفس في المشقّة التي أرشد بالنهي إلى اجتنابها. وتسمّى هذه المخالفة أيضاً معصية إمّا مجازاً، وإمّا لأنّ اسم المعصية أعمّ منها ومن القسمين الأوّلين من المخالفة. وحينئذٍ فدلالة العقل والنقل على عصمة النبيّ تكون قرينة على أنّ المراد من معصية آدم هي مخالفة النهي التنزيهيّ الكراهي أو النهيّ الإرشاديّ.

وممّا يرشد إلى كون النهي لآدم إرشاديّاً قوله تعالى في سورة طه: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۞ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۞ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[1].

فإنّ التحذير والتخويف لآدم من عداوة إبليس، بإخراجه من راحة الجنّة ونعيمها إلى التعب والجوع والظمأ ومقاساة شقاء العيش، لَيُرشِد ويقرّب إلى الذهن أنّ هذه هي العاقبة المحذورة من عداوة إبليس لآدم، لا إيقاعه في قبح مخالفة نهي الله التحريمي ووبال ذنب المعصية وغضب الله. ولو كانت هذه الأُمور الأخيرة هي العاقبة المحذورة، لكان ذكرها أنسب بالتحذير، وأدخل في الزجر عن المنهيّ عنه، وأتمّ في الحجّة والبيان. وقد يشهد له قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾[2]. حيث لم يقل جلّ شأنه: فأزلّهما الشيطان فأوقعهما في قبح المخالفة والذنب واستحقاق عقاب الله وغضبه. ولو كان ذلك لازماً لكان أولى بالذكر.

ومن هذا النحو من التحذير المذكور في القرآن ينكشف أنّ وصف آدم بالظلم

---

١. طه (٢٠): ١١٧ ـ ١١٩.

٢. البقرة (٢): ٣٦.

والغواية في أكله من الشجرة، إنّما هو لاغتراره بقول إبليس، وظـلمه لنـفسه بسـبب إخراجها من نعيم الجنّة إلى شقاء التعيُّش وعنائه، لا بسبب إيقاعها في عقاب التحريم، وغضب المخالفة للّه. فليس من الظلم القبيح الذي يمنع من نيل عهد الله، كما تقدّم في دلالة القرآن على العصمة.

وأمّا قوله تعالى حكاية عن آدم وحوّاء في سورة الأعراف: ﴿رَبَّنَا ظَـلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[1]. فقد بيّنّا وجه ظلمه لنفسه، وأنّه ليس من نحو ظلم النفس بإيقاعها في قبح الذنب ونكال العقاب.

وأمّا طلب المغفرة وحصول الخسران بعدمها، فلا ينافي ما قـدّمنا، ولا يـلزم مـنه الوقوع في الحرام؛ لأنّ العبد العارف ـ خصوصاً إذا كان من الأنبياء ـ ليودّ أن تكون كلّ أفعاله وتروكه موافقة لأمر الله ونهيه، سواء كـانا عـلى جـهة الحـتم أو الرجـحان أو الإرشاد. فإن اتّفق وقوعه في متابعة الميل الإنساني بغير المعصية القبيحة، وجد فـي نفسه أنّه قد خسر الفوز في المرتبة المرغوبة له وحاد عن جادّة الصدّيقين وزلّ عـن مقام المقرّبين، فيفزع إلى الله مولاه في طلب المغفرة والرحمة والتوبة ليعود ببركتها إلى مقامه الرفيع. كما نفزع نحن معاشر عبيد العصا إلى التوبة عند ارتكاب الذنب العظيم، لأجل التخلّص من العقاب ونكال الغضب. وعلى مثل ما ذكرنا جاء قوله في سـورة البقرة: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2].

وأمّا قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِـنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّـٰـهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَـئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَـٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ۞ فَلَمَّآ ءَاتَـٰـهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَـٰـهُمَا فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[3].

فإنّ نسبة الشرك فيه لآدم مبنيّة على ما يذكره بعض المفسّرين من قصّة تسمية آدم

---

١. الأعراف (٧): ٢٣.

٢. البقرة (٢): ٣٧.

٣. الأعراف (٧): ١٨٩ ـ ١٩٠.

وحوّاء لولدهما بعبد الحارث ـ أي إبليس ـ إجابةً لاقتراحه ذلك عليهما [١].

وإنّ سَوق الآيات ليأبى ذلك؛ فإنّها لو كانت واردة على هذه القصّة، لكان الذي ينبغي أن يقال فيها: فلمّا أتاهما صالحاً جعلا له شريكاً فيه فتعالى الله عمّا يشركان؛ لأنّه لم يكن الشريك بحسب القصّة إلّا واحداً وهو الحارث ـ إبليس ـ ولم يكن المشرك بحسبها إلّا اثنين وهما آدم وحوّاء وبحسبها أيضاً لا يعرف الوجه الصحيح في العدول عن قوله تعالى «فيه» إلى قوله تعالى: ﴿فِيمَآ ءَاتَـٰهُمَا﴾ مع أنّه قد جاء عن الرضا ـ وهو الإمام الثامن من أهل البيت الذين هم أحد الثقلين اللذَين لا يفترقان ولا يضلّ من تمسّك بهما ـ في تفسير الآية ما معناه: أنّ المراد بالصالح هو نوع الذّريّة التامّة الخلقة على أحسن التقويم، لا خصوص ولد واحد. فلمّا آتاهما صالحاً من الذّريّة المشتملة على صنفين ذكراناً وإناثاً جعل ذانك الصنفان من الذكران والإناث لله شركاء من الأصنام، وسائر المخلوقات التي جعلوها بضلالهم آلهة مع الله فيما آتاهما من النعم والأموال والأولاد وغيرهما، فقال جلّ شأنه بحسب كثرة المعنى المراد من الصالح و الضمير المثنّى، اللذين هما عبارة عن صنفي الذكور والإناث: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٢].

وليس في هذا الوجه من التفسير ما هو خلاف الظاهر البدوي إلّا رجوع الضمير المثنّى في ﴿جَعَلَا﴾ و﴿ءَاتَـٰهُمَا﴾ التي بعدها على اسم الجنس الذي هو ﴿صَـٰلِحًا﴾ باعتبار اشتماله على صنفين. وإلّا كون السياق يوهم ابتداءً كون المرجع لضميري ﴿جَعَلَا﴾ و﴿ءَاتَـٰهُمَا﴾ هو النفس الواحدة مع زوجها. وهذه المخالفة للظاهر البدوي هيّنة بالنسبة لتلك المحاذير التي نجدها على الوجه الأوّل من تنزيل الآيتين على ما يدّعى من القصّة ـ كما ذكرناه ـ فتكون تلك المحاذير قرينة واضحة على أنّ الظاهر هو ما ذكرنا معناه عن الإمام الرضا عليه السلام.

ويشهد لذلك أيضاً تعقيبه بقوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [٣].

---

١. جامع البيان (تفسير الطبري) ٦: ٩٩ رواية قتادة عن الحسن.

٢. نور الثقلين ٢: ١٠٧، ح ٣٩٧.

٣. الأعراف (٧): ١٩١.

حيث أوضح أنّ الشركاء في الآية هم جماعة من المخلوقين لا خصوص إبليس، كما يدّعى في الآية. بل يوضّحه الالتفات بالتوبيخ إلى المقصود بالضمير في ﴿جَعَلَا﴾ و﴿ءَاتَىٰهُمَا﴾ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[١].

ويكشف عن قوله في سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[٢] إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾[٣] إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[٤] فإنّ التدبّر في هذا كلّه يرشد بأوضح إرشاد إلى أنّ الموصوف بالشرك والمعنّف عليه إنّما هم المخلوقون من النفس الواحدة، وإن اختلف التعبير عنهم بالخطاب والغيبة، والتثنية باعتبار صنفيهم، والجمع باعتبار كثرة المعنى. كلّ ذلك بحسب ما يقتضيه صوغ البلاغة للكلام. ولو تنزّلنا عن هذا كلّه، فلا أقلّ من أن يكون احتمالاً مساوياً للوجه الأوّل، فلا تبقى في الآية السابقة دلالة على نسبة الشرك لآدم.

هذا كلّه مع أنّ الرواية التي تشبّث بها في تفسير الآية لقصّة نسبة الشرك لآدم إنّما هي رواية قتادة عن الحسن عن سمرة، وإنّ سندها لمطعون فيه من وجوه أيسرها أنّ الحسن وقتادة لم يحتفلا بهذه الرواية ولم يفسّرا الآية على مقتضاها، كما حكاه عنهما في مجمع البيان[٥]، وعن الحسن في تنزيه الأنبياء للمرتضى[٦].

وبهذا كلّه تعرف خبط المتكلّف وتحامله على القرآن ومُبَلّغهِ؛ حيث ادّعى جازماً أنّ رسول الله ﷺ نسب إلى آدم في القرآن خطيئة أُخرى وهي الشرك، متشبّثاً بهذه الرواية لتفسير الآية[٧].

---

١. الأعراف (٧): ١٩٤.
٢. الأنعام (٦): ٩٨.
٣. الأنعام (٦): ١٠٠.
٤. الأنعام (٦): ١٠٢.
٥. مجمع البيان ٤: ٥٠٦.
٦. تنزيه الأنبياء: ٥٣.
٧. الهداية ١: ١١.

الفصل الثاني: في ذكر نوح وما قيل في شأنه

أمّا نبوّته ورسالته في القرآن، فقد تكرّر ذكرها، ويكفي منه قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[١].

وفي سادس التكوين: «كان نوح رجلاً بارّاً كاملاً في أجياله، وسار نوح مع الله، وقال الله لنوح»[٢]. وفي أُولى السابع: «وقال الربّ لنوح»[٣]. وفي الثامن: «وكلّم الله نوحاً، وبنى نوح مذبحاً للربّ»[٤]. [و]في حادي عشر رسالة العبرانيّين: «بالإيمان نُوح لمّا أُوحي إليه عن أمورٍ لم تُرَ بعدُ»[٥]. وفي ثامن رسالة بطرس الثانية: «بل إنّما حفظ الله نوحاً ثامِناً كارِزاً للبرّ»[٦].

وأمّا ما يقال في شأنه، فقد دعا على قومه بالضلال ـ كما حكاه الله تعالى في سورة نوح عن قوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلاً﴾[٧] ـ فيقال: إنّ هذا خلاف الوظيفة النبويّة؛ فإنّ الرسول المبعوث لهدى الخلق وصلاحهم لا يجوز له الدعاء عليهم، مهما كانوا بالفساد والانحراف عن الله وسبيل الحقّ.

قلنا: ليس الضلال المدعوّ به ما ذكر، بل المراد منه إضاعة طريق الرشد والتدبير في أُمورهم وعوائدهم، ليشتغلوا بحيرتهم في شؤونهم عن أذى الخلق وإضلالهم عن الحقّ. فهو دعاء عليهم بالعقوبة الدنيويّة لأجل صلاح غيرهم؛ فإنّ الضلال هو مطلق الإضاعة والتِيه عن الطريق المطلوب، وتختلف أنحاء أفراده التي تراد منه باعتبار الأمر المضيَّع والطريق الذي ضُلّ عنه. ومن ذلك قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ

١. هود (١١): ٢٥.

٢. سفر التكوين ٦: ٩ و ١٣.

٣. سفر التكوين ٧: ١.

٤. سفر التكوين ٨: ١٥ و ٢٠.

٥. رسالة بولس إلى العبرانيّين ١١: ٧.

٦. رسالة بطرس الثانية ٨: ٥.

٧. نوح (٧١): ٢٤.

إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾[١]. ولم تقم قرينة على أنّ المراد هاهنا بالضلال المدعوّ به هو الضلال عن الله وسبيل الحقّ، بل إنّ قرينة العقل قاطعة بأنّ المراد منه غير هذا. بل لو صدر هذا الكلام والدعاء من سائر الأتقياء المحبّين للخير وصلاح العباد وقلّة الفساد واهتداء الخلق ـ فضلاً عن الرسل ـ لكان صدوره منهم قرينة على إرادة غير المعنى المدّعى.

وأمّا دعاؤه على كفّار قومه بالهلاك ـ كما حكاه الله جل شأنه في سورة نوح: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ۞ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[٢] ـ فقد أبدى وجهه وحكمته لما علمه من عند الله في شأنهم بالعلم النبويّ من سوء عاقبتهم، فكان من الحكمة والوظيفة النبويّة أن يدعو عليهم، كما اقتضت الحكمة الإلهيّة إهلاكهم بالطوفان.

وأمّا ما حكاه الله في أمره في سورة هود بقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ۞ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾[٣] فإنّه غير قادح بمقامه النبوي ووظيفة رسالته أصلاً؛ فإنّ غاية ما هناك سؤاله عن وجه الحكمة في غرق ولده مع سبق وعد الله له بنجاة أهله، معترفاً في السؤال لله بأنّه أحكم الحاكمين وأنّ وعده الحقّ. فأبان الله له وجه الحكمة بأنّ الموعود بنجاتهم هم المؤمنون من أهله الذين يحسن أن يُضافوا إليه لاهتدائهم بهداه، وأنّ ولده الغريق ليس من أهله الموعود بنجاتهم، أو أنّه لا يليق أن يعدّ من أهل بيته؛ لأنّه عمل غير صالح ليس على هدى أبيه. ثمّ وعظه الله على سؤاله عن الحكمة؛ لأنّ الأَولى بعلوّ مقامه هو التسليم والتفويض لحكمة الله إجمالاً، سيّما مع عرفانه بأنّ الله أحكم الحاكمين. فأناب إلى الله من فعله خلاف الأَولى، وخاف الانحطاط به عن مراتب الصدّيقين ومقامات المقرّبين، وقال ـ كما حكاه الله عنه ـ: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ

١. البقرة (٢): ٢٨٢.
٢. نوح (٧١): ٢٦ ـ ٢٧.
٣. هود (١١): ٤٥ ـ ٤٦.

لِي وَتَرْحَمْنِيَ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[١] للفوز بالمراتب العالية.

وإذا تدبّرت ما ذكرنا ظهر لك خلل أقوال المتكلّف[٢].

[الخمر والعهدان]

وأمّا [ما] في تاسع التكوين: «وشَرِب نوح من الخمر، فسَكِر وتَعرَّى داخلَ خِبائه»[٣]، فنقول فيه: قد روي مستفيضاً عن أهل البيت عن النبيّ صلوات الله عليهم: «أنّ الخمر ما حلّت في دين قطّ»[٤]. ويدلّ العقل بأوضح دلالة على أنّ شربها والسكر بها ـ الذي هو رأس الخلاعة والتهتّك والشرور والمفاسد والخروج عن حدود الإنسانيّة ـ منافٍ لوظيفة النبيّ الداعي إلى الهدى والكمال والصلاح وحفظ الشرف، خصوصاً وقد حفظ الله نوحاً كارِزاً للبرّ[٥]. وحينئذٍ فلابدّ من القول بأنّ قصّة شرب نوح للخمر وسكره، ليست من الوحي والإلهام؛ لما بيّنّاه من لزوم عصمة النبيّ.

ومن الظرائف اضطراب كلام المتكلّف في هذا المقام[٦]، ولو أنّه التزم بما ادّعاه من أنّ الله لم ينزل على القدماء قبل موسى شريعة، بل اصطلح القدماء على عادات للجريان عليها في هذه الدنيا[٧]، فقال هاهنا بمقتضاه: «إنّه لم تكن في زمن نوح شريعة بتحريم الخمر، فلم يفعل نوح بشربها خطيئة» لاستراح هذا المتكلّف.

فمن اضطرابه قوله:

لا ننكر أنّ شرب الخمر حرام وقوله: فأنت ترى أنّها كانت جائزة، والتوراة

---

١. هود (١١): ٤٧.

٢. الهداية ١: ١٤ و ١٥.

٣. سفر التكوين ٩: ٢١.

٤. الكافي ٦: ٣٩٥، باب أنّ الخمر لم تزل محرّمة، ح ١؛ تهذيب الأحكام ٩: ١٠٢، ح ٤٤٣؛ بصائر الدرجات: ٢٤٠، ح ٣. وكلّها باختلاف في اللفظ.

٥. رسالة بطرس الثانية ٨: ٥.

٦. الهداية ١: ١٣ ـ ١٨.

٧. المصدر ٤: ١٦٨.

والإنجيل ناطقان بأنّها حرام قطعاً، وشربها نوح دلالة على ضعف الطبيعة البشريّة[١].

فنقول له: أنت يا ذا الذي تقصر الحقائق على ما في العهدين، وإذ لا تجد فيهما ما تذكره نبوّة القرآن تصول عليه صولة المتحمّس، من أين لك من العهدين أنّ الخمر كانت محرّمة على عهد نوح، خصوصاً وقد ادّعيت غفلة منك أو إغفالاً أنّ الله لم ينزل شريعة على القدماء؟ وكيف تتفوّه وتقول: «قد استفاق نوح من سكره ولم يعد إلى هذه الخطيئه؟»[٢]. قل عن أيّ كتاب إلهامي تنقل ذلك؟ أفتدَّعي أنت الإلهام لنفسك؟ أم جاءك نوح وتاب على يدك من شربه للخمر؟

وأمّا قولك: «فأنت ترى أنّها كانت جائزة، والتوراة والإنجيل ناطقان بأنّها حرام قطعاً»[٣] فلماذا غفلت أو تغافلت عن اضطراب التوراة والإنجيل في هذا الشأن؟ فإنّهما وإن وجد في مضامينهما ما يعطي حرمتها وقبحها، سيّما بالنسبة للأنبياء، كما سنسجّله إن شاء الله في المقدّمة العاشرة في موانع النبوة[٤]، ولكن فيهما ما يناقض ذلك وينقض عليك قولك هذا.

قل فما معنى الأمر في شريعة تقريب القرابين أن يسكبوا معها سَكِيب خمر للربّ[٥]. وسكيب مسكر للربّ[٦]. وأكّد حكم السكيب في التاسع والعشرين من العدد وغيره أكثر من عشر مرّات؟ وكيف يكون الحرام قرباناً لله؟! وكيف يأمر الله شعبه بأن يعدّوا للقرابين شيئاً محرّماً وجوده مجلبة للغواية والشرور والفساد؟! بل الرحمة وحكمة إصلاح الناس تقتضيان الأمر بإعدامها عن أعينهم، خصوصاً بني إسرائيل الذين لا حاجز لهم من تقواهم عن التمرّد على الله، كما عرفت في المقدّمة الخامسة[٧].

---

١. الهداية ١: ١٣.
٢. المصدر: ١٨ س ١٦.
٣. المصدر: ١٣.
٤. يأتي في ص ٢١٧ ـ ٢٢٠.
٥. انظر أقلاً سفر الخروج ٢٩: ٤٠؛ سفر اللاويّين ٢٣: ١٣؛ سفر العدد ١٥: ٥.
٦. سفر العدد ٢٨: ٧.
٧. تقدّم في ص ٣٧ ـ ٥٣.

وأيضاً ما معنى دعاء موسى على بني إسرائيل إن لم يعملوا بوصايا الله بقوله في الثامن والعشرين من التثنية: «كُروماً تَغرِس وتشتَغِل، وخمراً لا تَشرَب ولا تجني؛ لأنّ الدودَ يأكلها [1] ولا يبقي لك خمراً ولا قمحاً ولا زيتاً»[2]؟

وأيضاً ما معنى دعائه لهم بالبركة في قوله في الثالث والثلاثين من التثنية: «تكون عين يعقوب إلى أرضِ حنطةٍ وخمرٍ وسماؤه تقطر نَدَىً»[3]؟

فهل يكون هذا كلّه مع كون الخمر محرّمة؟ أو ليس يعطي هذا أنّها من النعم المباحة ومتاعهم الشهيّ، حتّى يُدعَى عليهم بفقدانها ويدعى لهم بوجدانها؟ ومامعنى ما يذكر من أنّ داود النبيّ قسم على كلّ واحد من رجال بني إسرائيل رغيفَ خبز وكأسَ خمر وقُرصَ زبيب[4]؟ وما وجه إهداء زِقّ الخمرِ إلى داود[5]؟ وما وجهُ إسكاره لأُورِيّا[6]؟ أفلا يصحّ الاحتجاج بذلك لجواز شرب الخمر، كما ينقل عن المسيح الاحتجاج لجواز أكل تلاميذه من الزرع في يوم السبت، بأكل داود من خبز التقدمة الذي لا يحلّ إلّا للكهنة[7]؟

وأيضاً ما معنى المنقول من جلوس المسيح ووالدته وتلاميذه في قانا الجليل في مجلس العرس الذي تسكب فيه الخمر وتدار الراح في الأقداح، حتّى يفعل السكر بالألباب ما يفعل، وينال من العقول ما ينال، ولم بكفِ ذلك حتّى طلبت منه والدته إذ نفد الخمر أن يصنع لهم بمعجزة خمراً، فعمل لهم ستّة أجران من الخمر الجيّد وسُقوا منه، وكان ذلك بعد أن اعتمد من يوحنّا بمعموديّة التوبة، ونزل عليه الروح القدس، وتبعه أندرواس وبطرس وننثائيل وفيلبس[8]؟

---

١ و٢. سفر التثنية ٢٨: ٣٩و٥١.

٣. سفر التثنية ٣٣: ٢٨.

٤. سفر صموئيل الثاني ٦: ١٩؛ سفر أخبار الأيّام الأوّل ٦: ٣.

٥. سفر صموئيل الثاني ١٦: ١.

٦. سفر صموئيل الثاني ١١: ١٣.

٧. إنجيل متّى ١٢: ١ ـ ٥.

٨. لم أجده في إنجيل متّى كما ذكر المؤلّف، وهو في إنجيل يوحنّا ٢: ٣ ـ ١١.

وأيضاً ما معنى المنقول عن كلام المسيح في شأن جيله في سابع لوقا:

يُشبِهُون أولاداً جالسين في السوق يُنادُون بعضُهم بعضاً ويقولون: زَمَّرْنا لكم فلم تَرقُصوا، نُحْنالكم فلم تَبْكُوا؛ لأنّه جاء يوحنّا المعمدان لا يأكل خبزاً ولا يشرب خمراً فتقولون: به شيطان جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب فتقولون: هوذا إنسان أكول وشِرّيب خمر[١]؟

ونحوه في حادي عشر متّى[٢].

أو ليس صريح هذا الكلام وفحواه أنّ المسيح ـ وحاشاه ـ كثير الشـرب للـخمر المسكر، بخلاف يوحنّا؟

وأيضاً ما معنى المنقول من قوله لتلاميذه، بعد أن شرب من الكأس وأعطاها لهم: «وأقول لكم من الآن: لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً في مَلَكُوت أبي»[٣]؟ حيث عبَّر عن الخمر في هذا الكلام بعد أن شربها تعبير الشِرِّيب المغرم بها المُوَدِّع لها المُتَألِّم على فراقها.

وأيضاً ما معنى المنقول عن الرسل من حصرهم اللازم على الأُمم باجتناب ماذُبح للأصنام والدم والمخنوق والزنى[٤]؟

وإن اقترحت فوق هذا من صراحة العهدين، ففي ثاني عشر التثنية:

لايحلّ لك أن تأكل في أبوابك عُشْرَ حنطتك وخمرك وزيتك، بل أمام الربّ إلهك تأكلها في المكان الذي يختاره الربّ[٥].

وفي رابع عشر التثنية:

وتأكل أمام الربّ إلهك في المكان الذي يختارهُ ليحلّ اسمه فيه عُشْر حـنطتك وخمرك وزيتِك... ولكن إذا طال عليك الطريق حتّى لا تقدِر أن تحمِلَه... فـبعه

---

١. إنجيل لوقا ٧: ٣٢ ـ ٣٤.

٢. إنجيل متّى ١١: ١٩.

٣. إنجيل متّى ٢٦: ٢٩؛ إنجيل مرقس ١٤: ٢٥؛ إنجيل لوقا ٢٢: ١٨.

٤. أعمال الرسل ١٥: ٢٩.

٥. سفر التثنية ١٢: ١٧ ـ ١٨.

بفضّة وصُرَّ الفضّة في يدك واذهب إلى المكان الذي يختاره الربّ إلهك، وأنـفق الفضّة في كلّ ما تشتهي نفسك من البقر والغنم والخمر والمسكر، وكلّ ما تطلب منك نفسك، وكل هناك أمام الربّ إلهك وافرح أنت وبيتُك[١].

حتّى جرى اليهود بعد رجوعهم من سبي بابل على تقديم رفائع الخمر وعُشر الخمر إلى بيت المقدس حسب الشريعة[٢].

فإن قلت: لا أكتفي بهذه الصراحة حتّى يحضر الإله في مجلس الشرب، ويسقي الناس الخمر بمجلس أنبيائه ورسله.

قلت: إنّ مزاعمك تقتضي وقوع ذلك؛ فإنّ الذي زعمت في مقدّمة الجزء الأوّل من كتابك وغيرها أنّ الإله الذي توشّح الطبيعة البشريّة ليرفع قدرها، قد ذكر الكتاب الذي تُحامي عن الخدشة في إلهاميّته أنّه قد جلس في قانا الجليل فـي مـجلس الشـرب والسكر هو وعدّة من رسله، وسقى الناس زيادة على خمرهم إذ عمل لهم بمعجزة ستّة أجران من الخمر[٣]. اللهمّ إنّي أعوذ بقدسك وجلال وجهك من التعرّض لمثل هذا لغير الجدل الذي تدعو إليه ضـرورة الوقت ومـعارضة فـلتات الأوهـام، إرشـاداً لعـبادك المغرورين إلى الهدى والصواب.

فأقول للمتكلّف ليعتبر السامع: أفتقول: إنّ التوراة والإنجيل ناطقان بأنّ الخمر حرام قطعاً، ويكون كلّ هذا فيهما، أم تقول: إنّ هذا كلّه مدسوس في العهدين ليس من الوحي وكلام النبوّة في شيء، أم تقول: إنّ العهدين غير خاليين من التناقض والاضطراب والتهافت؟

وأمّا قول المتكلّف:

أمّا المسيح فلم يشرب ـ أي من الخمر ـ إلّا شيئاً لا يعتدّ به في عيد الفصح مرّة في السنة، حسب شريعة موسى[٤].

---

١. سفر التثنية ١٤: ٢٣ ـ ٢٦.

٢. انظر سفر نحميا ١٠: ٣٧ و ٣٩، و ١٣: ١٢.

٣. إنجيل يوحنّا ٢: ٣ ـ ١١.

٤. الهداية ١: ١٤.

فهو قول مخالف للأناجيل الرائجة في دلالتها على أنّ المسيح ـ وحاشاه ـ شِرّيب خمر، كما تقدّم: أي كثير الشرب لها، وكونه حضر مجلس العرس المعقود لشرب الخمر وعربدة السكر، هو وعدّة من تلاميذه. وزادت في الطنبور نغمة إذ ذكرت أنّه عمل لهم بطلب والدته ستّة أجران من الخمر الجيّد وحاشا قدسه من هذا كلّه.

وأيضاً أين يوجد من شريعة موسى حكم شرب الخمر في عيد الفصح؟ أو ليست التوراة الرائجة، هي التي يزعمون أنّها كتاب شريعة موسى وأنّ كلّ ما لم يذكر فيها لا حقيقة له؟

وأمّا قول المتكلّف عقيب كلامه المتقدّم: «فكان كلّ واحد من بني إسرائيل يشرب شيئاً طفيفاً لا يعتدّ به في هذا العيد، تذكاراً لمراحمه تعالى».

فيحقّ أن يقال فيه: إنّ سكر بني إسرائيل ـ الذي استغاث منه إشَعْياء النبيّ في الثامن والعشرين من كتابه، وذكر أنّ الأنبياء والكهنة ابتلعتهم الخمر وتاهوا من المسكر حتّى ضلّوا في الرؤيا وقلقوا في القضاء[1] ـ أيضاً كان كلّه تذكاراً لمراحمه تعالى. وعبد بنو إسرائيل العجل تذكاراً لمراحمه تعالى. وزنوا ببنات مُوآب وذبحوا لآلهتهنّ تذكاراً لمراحمه تعالى . وعبدوا البَعْل والعَشْتارُوت وآلهة الكَنعانيّين وغيرهم تذكاراً لمراحمه تعالى. وذبحوا أولادهم للأصنام تذكاراً لمراحمه تعالى. وجعلوا بيوت المأبونين عند بيت الربّ تذكاراً لمراحمه تعالى. وخرّبوا بيت المقدس ونجّسوه تذكاراً لمراحمه تعالى. وتمادوا على ارتداداتهم وأحوالهم ـ المذكورة في المقدّمة الخامسة ـ تذكاراً لمراحمه تعالى.

[تلويث قدس خاتم المرسلين بنسبة شرب الخمر]

وأظرف من هذا كلّه أنّ المتكلّف كان شاعراً بما في العهدين من تلويث قدس الأنبياء ـ وخصوص المسيح ـ بشرب الخمر، فحاول أن يموّه على البسطاء المغفّلين، ويلوّث قدس خاتم المرسلين بشربها، فتشبّث لذلك بأخبار آحاد لم يتحقّق سندها

---

١. سفر إشَعْياء ٢٨: ٧.

ولم يفهم مدلولها، ولو أنّها صحّت وكانت لها مداخلة في أُصول الدين، لكانت أجنبيّة عن مقصوده الممتنع عليه، فقال:

إنّ محمّداً شرب الخمر، وذكر عن ابن عبّاس أنّ رسول اللهﷺ أتى السقاية في مكّة وقال: «اسقوني من هذا». فقال العبّاس: ألا نسقيك ممّا في البيوت؟ فقالﷺ: «لا، ولكن اسقوني ممّا يشرب منه الناس». فأُتي بقدح من نبيذ فذاقه فقطّب. ثمّ قال: «هلمّوا وصبّوا فيه الماء» ثمّ قال: «زد فيه مرّة أو مرّتين أو ثلاثاً» ثمّ قال: «إذا صنع أحد منكم هكذا، فاصنعوا به هكذا»[1].

وذكر عن أبي مسعود أنّ رسول اللهﷺ عطش وهو يطوف بالبيت فأُتي بنبيذ من السقاية فشمّه، ثمّ دعا بذنوب من ماء زمزم ـ أي دلو ـ فصبّ عليه ثمّ شربه. فقال له رجل: أحرام هذا يا رسول الله؟ فقال: «لا»[2].

وقد غفل المتكلّف أو تغافل عن أنّ اسم النبيذ مأخوذ من النَّبْذ وهو الطرح. قد كان النبيذ على قسمين:

أحدهما: أن يطرح التمر أو الزبيب في الماء في الأواني التي تصبر على التمادي إلى أن يبلغ حدّ الإسكار، كأواني الدبا، وهو القرع اليابس. والمُـزَفَّت، وهـي أوانٍ تُـطلَى بالزِفت. والحنتمة، وهي أوانٍ خزفيّة تُدهَن بالقلي، ونحوها فيترك زماناً طويلاً إلى أن يبلغ حدّ الإسكار.

وثانيهما: أنّ ماء الحجاز كان مرّاً مضرّاً فيطرح فيه ـ لمداواة طعمه وطـبعه ـ مـا يتمكّن الأعرابي منه في ذلك الزمان، وهو قليل من التمر، فإن ترقّى فالزبيب بمقدار الكفّ أو أقلّ، يطرحونه في السقاء غدوة فيشربونه عشيّاً، ويطرحونه عشيّاً فيشربونه غدوةً، حينما يؤثّر طعم التمر أو الزبيب في الماء حلاوةً ما.

وقد تضافرت الأخبار الكثيرة بأنّ رسول اللهﷺ كان ينهى عن نبيذ الدبا والمزفّت والحنتمة[3]، بسبب أنّه يصبر عليه حتّى يبلغ حدّ الإسكار. ويرخّص في نبيذ الأسقية،

١ و٢. المصنّف لابن أبي شيبة ٥: ٤٨٥ ـ ٤٨٦، باب ٧، ح ٢ و٣.

٣. الكافي ٦: ٤١٨، باب الظروف، ح ١ و ٣؛ تهذيب الأحكام ٩: ١١٥، ح ٤٩٩.

وهو أن يُطرح في السقاء كفّ ونحوه من التمر أو الزبيب، فيشرب في يومه أو صبيحة ليلته، حينما يطيب طعم الماء بحلاوة التمر أو الزبيب؛ لأنّ أسقية البيوت لا تحتمل أن تشغل زماناً طويلاً بالنبيذ، ولا تقوى على بقائه إلى أن يختمر ويتعفّن ويبلغ حدّ الإسكار. انظر إلى مسند أحمد[1] وغيره من كتب الحديث.

فعلى المتكلّف في تشبّثه بما ذكر من الحديثين ـ إن صحّا في الجامعة الإسلاميّة ـ أنّ يعيّن دلالتهما على أنّ النبيذ المذكور فيهما كان من القسم المسكر المخمّر، لا الذي ذكرنا أنّه يطرح فيه قليل من التمر أو الزبيب لمحض تطييب طعم الماء، على عادة أهل الحجاز.

ونحن نقول: إنّ المتعيّن كون النبيذ فيهما من هذا القسم لا القسم المسكر؛ لوجوه:

أوّلها: أنّه لو كانت في مكّة مصانع للنبيذ المسكر كمصانع أوروبّا، لما وسعت كفاية الأُلوف العديدة من الحجيج في الأيّام الكثيرة، وهو يُعطَى مجّاناً لهم. وكيف يَقوَى العبّاس على ذلك؟

وثانيها: أنّ السقاية في مكّة كانت لا رواء الحجيج من العطش، لا أنّها حانوت خمّار.

وثالثها: أنّ هذه الواقعة إن كانت فإنّما تكون بعد فتح مكّة، في أواخر أيّام النبيّ ﷺ. ومقتضى الأخبار التي يذكرها المتكلّف أنّ الخمر حرّمت في أوائل الهجرة[2]. وفيما ذكره عن ابن مسعود أنّ رسول الله ﷺ قال فيما شربه: إنّه ليس بحرام، مع أنّ حرمة النبيذ المسكر كانت حينئذٍ مقرّرة معلومة في الإسلام.

ورابعها ـ الذي يكشف الحجاب ـ: ما صحّ نقله عن جعفر الصادق عليه السلام ـ وهو الإمام السادس من أهل البيت ـ حيث قال في نبيذ السقاية: إنّ العبّاس كانت له حَبَلَة ـ وهي الكَرْم ـ فكان ينقع الزبيب غدوة فيشربونه بالعشيّ، وينقعه بالعشيّ ويشربونه غدوة، يريد أن يكسِر به غِلَظَ الماء على الناس[3].

وأمّا سرّ تقطيبه صلوات الله عليه في رواية ابن عبّاس، فليس لأنّ النبيذ الذي أُعطي

---

١. مسند أحمد ١: ٤٥٦، الرقم ٢٤٩٥، و ٤٨٠، الرقم ٢٦٤٥.

٢. الهداية ١: ٢٣ ـ ٢٤.

٣. الكافي ٦: ٤٠٨، باب أنّ رسول الله ﷺ حرّم كلّ مسكر، ح ٧؛ تهذيب الأحكام ٩: ١١١، ح ٤٨٤.

له كان من القسم المسكر، بل لأنّ حلاوة التمر والزبيب كانت زائدة على المتعارف من نبيذ الأسقية؛ فإنّ الحلاوة إذا ظهر أثرها مع مرارة الماء كانت من المهوِّعات، فزاد عليها من الماء إلى أن ردّها إلى النحو المتعارف. وأرشدهم إلى أنّ هذا هو الذي ينبغي أن يكون عليه هذا النحو من المشروب لإصلاح طعم الماء. ولو تنزّلنا وفرضنا أنّ النبيذ المذكور في الروايتين كان من القسم المسكر، لكانتا دليلاً على أنّه صلوات الله عليه كان يعاف المسكر ويشمئزّ ويقطّب وجهه الشريف منه، ولم يشربه حتّى أخرجه عن موضوعه وصورته بإراقة الماء الكثير عليه.

أفبهذا يتشبّث الكاتب ويقول بملء فمه ومَهْوَى قلمه: إنّ رسول الله ﷺ شرب الخمر؟ [١]

وقد فات المتكلّف الشنب؛ فإنّ في أخبار الآحاد التي لا تقيم لها الجامعة الإسلاميّة وزناً ما يساعفه على مقصوده بعض المساعفة، فقد روي في مسند أحمد أنّ رجلاً كان إذا قدم المدينة أهدى لرسول الله ﷺ خمراً، فقدم مرّة ومعه زقّ خمر ليهديه إلى رسول الله ﷺ فقيل له: إنّ الخمر قد حرّمت[٢]. ولكن ماذا يعمل الوهم من هذا الخبر في مقابلة متواترات الآثار ومعلومات السير بأنّ قدس رسول الله لا تحوم حوله هذه الأوهام. وقد جاء عنه صلوات الله عليه في مستفيض الحديث من طريق أهل البيت قوله ﷺ: أوّل مانهاني عنه ربّي شرب الخمر وعبادة الأوثان[٣].

وكفاك أنّ مشركي قريش والعرب قد تمحّلوا في تكذيب رسول الله وكابروا الوجدانَ وغالطوا العيانَ بدعواهم أنّه صلوات الله عليه مجنون، ولو أنّه صلوات الله عليه كان يمكن أن يُرمى بشرب الخمر والمسكر، لتيسّر لهم أن يقولوا بلا مكابرة للوجدان: إنّ ادّعاءه ﷺ للرسالة والوحي إنّما هو من سَورة الخمر وعربدة السكر وخيالات الخُمار. ولكنّه كان صلوات الله عليه ولم يكن لقائل فيه مَغْمَز.

فياذا الرشد والفكر الحرّ الذي لم يستأسر للعصبيّة والتقليد، سألتك بفضيلة الصدق

---

١. الهداية ١: ١٣.

٢. مسند أحمد ١: ٥٩١، الرقم ٣٣٦٣.

٣. أمالي الصدوق: ٣٣٩، المجلس ٦٥، ح ١.

وشرف النفس، هل كان من الرشد وأدب المكاتب أن يتغاضى هذا المتكلّف عما لوّثت به الكتب الإلهاميّة في نحلته قدس الأنبياء وخصوص المسيح بشرب الخمر وحضور مجلس السكر صريحاً، ويتشبّث لتلويث قدس رسول الله بهذه الأوهام؟!

ولقد شذّ بنا الكلام عن وضع المقدّمة، ولكنّه بفضل الله لم يشذّ عن إحقاق الحقّ والهدى إلى الرشد.

الفصل الثالث: في شأن إبراهيم وما قيل فيه

أمّا رسالته ففي القرآن الكريم بقوله تعالى في سورة الحديد: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾[١] وقوله تعالى في سورة مريم: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[٢] وقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[٣].

وأمّا دينه وإيمانه، فيكفي فيه من القرآن قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٤].

وأمّا كتابه وبعض مضامينه، فقد أشار إليه بقوله تعالى في سورة النجم: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾[٥]. وفي سورة الأعلى بعد ذكر بعض المضامين العالية: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[٦].

وفي ثاني عشر التكوين:

وقال الربّ لأبرامَ: اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أُرِيكَ. فأجعلَكَ أُمّةً عظيمةً وأُباركِك وأُعظّم اسمَك وتكون بركة ـ ومقتضى

١. الحديد (٥٧): ٢٦.

٢. مريم (١٩): ٤١.

٣. البقرة (٢): ١٢٤.

٤. الأنعام (٦): ١٦١.

٥. النجم (٥٣): ٣٦ ـ ٣٧.

٦. الأعلى (٨٧): ١٨ ـ ١٩.

الأصل العبراني: وكن بركة ـ وأُبارك مباركيك ولاعِنُك ألعنه وتتبارَك فيك جميع قبائل الأُمم[١].

وفي سابع الأعمال عن قول أستفانوس: «إنّ هذا الخطاب كان حينما كان إبراهيم بين النهرين في أرض الكلدانيّين قبلما سكن هاران»[٢].

وفي سابع عشر التكوين: «وقال الله لإبراهيم وجعل له شريعة الختان وعهدَه ولذُرّيّته وخدمه وعبيده»[٣].

وفي الثامن عشر من قول الله: «لأنّي عرفته لكي يوصي بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الربّ ليعملوا برّاً وعدلاً»[٤]. وهذا هو حقيقة الرسالة في هذا المقام.

ويوضّح أمرها ما في السادس والعشرين من التكوين عن قول الله لإسحاق: «من أجل أنّ إبراهيم سمع لقولي و حفظ ما يحفظ لي أوامري وفرائضي وشرائعي»[٥].

وفي العشرين من التكوين عن قول الله لأبي مالك: «إنّ إبراهيم نبيّ»[٦].

وفي العهدين: «خليل الله»[٧].

وأمّا ما ذكر في شأنه، فقد قال الله في القرآن الكريم في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[٨].

---

١. سفر التكوين ١٢: ١ ـ ٣.

٢. أعمال الرسل ٧: ٢ ـ ٤.

٣. سفر التكوين ١٧: ٩ ـ ١٤.

٤. سفر التكوين ١٨: ١٩.

٥. سفر التكوين ٢٦: ٥.

٦. سفر التكوين ٢٠: ٧.

٧. سفر أخبار الأيّام الثاني ٢٠: ٧؛ سفر إشَعْياء ٤١: ٨؛ رسالة يعقوب ٢: ٢٣.

٨. الأنعام (٦): ٧٥ ـ ٧٨.

قال المتكلّف: «إنّ عبارة القرآن ناطقة بوقوعه ـ يعني إبراهيم ـ في عبادة الأصنام»[١].

[إبراهيم في القرآن والتوراة]

فأقول: إنّ الآيات واضحة الدلالة على أنّ رؤية إبراهيم للكواكب وملكوت السماوات والأرض، كانت أوّل رؤية منه لها، فقال ما ذكره القرآن.

فإمّا أن يُعتَمد في ذلك على ما روي من أنّ أُمّه ولدته في مغارة خوفاً عليه من النمرود، فلمّا ترعرع خرج من المغارة فرأى الكوكب[٢] ... إلى آخر المذكور.

أو أنّها أوّل رؤية كانت في ابتداء تمييزه حال طفوليّته الذي التفت به إلى عظمة شأن العالم العلوي وأجرامه وفضيلة إشراقها ونورها؛ فإنّ الله علم منه أنّ فطرته السليمة في أوّل تمييزه قد أشعرته بأنّ له إلهاً صانعاً وربّاً معبوداً، ولكنّه بعد لم يوصله التدرّب بالنظر والتقدّم بالتمييز إلى حقّ المعرفة ليقف عندها على اليقين، فرحمه الله ولطف به وأراه ملكوت السماوات والأرض، ليكون بالتدبّر والتدرّب في النظر من الموقنين بالله. فصار ينظر عند رؤيتها بالنظر الصائب، ويسير متدرّجاً إلى حقّ المعرفة على جادّة الصواب، فأدرك فضل العالم العلوي على السفلي، ثمّ أدرك فضل النيّر على غيره. فإذ رأى الكوكب النيّر وقفت به الطفوليّة وعدم التقدّم بالتمييز عنده، فلمّا أفَلَ الكوكب سدّده فكرُه فقال: لا أُحبّ الآفلين، ولا يكون الإله متغيّراً. ولمّا رأى القمر بازغاً مشرقاً يفوق نورُه نورَ الكوكب، وقفت به الطفوليّة أيضاً عنده، فلمّا أفَلَ أدرك أنّه ضالّ في نظره، فطلب الهدى من إلهه. فلمّا رأى الشمس بازغةً بنورها الباهر، وقفت به الطفوليّة أيضاً، فلمّا أفَلَت أوصله التدبّر إلى الحقّ اليقين من العرفان وخالص الإيمان، حتّى لم يمض له يومان من أوّل تمييز الطفوليّة.

ويمكن أن يكون وقوفه المذكور وقوفَ شكّ وحيرة واستعلام، فيكون قوله: ﴿هَـٰذَا رَبِّى﴾ على سبيل الاستفهام وقد أُسقط حرف الاستفهام من الآيات جرياً على المتعارف

١. الهداية ١: ٢٠.

٢. جامع البيان (تفسير الطبري) ٧: ١٦٣.

من لسان العرب، كما يشهد له الكثير من شعرهم ونثرهم.

والأقرب أنّ وقوفه المذكور كان وقوف فرض وتقدير إلى أن يحصل له من النظر ما يكشف عن الحقّ المبين.

وعلى كلّ حال لم يقع من إبراهيم الشرك القبيح المعاقَب عليه، حتّى لو قلنا بأنّ ما ذكرناه في شأنه كان في زمان مهلة النظر عند أوّل التكليف بالمعرفة؛ فإنّ الإنسان لم يخلق عارفاً بالله من أوّل أمره، بل جعل الله له النظر لتحصل له فضيلة الجهاد في سبيله.

فإن قلت: من أين لك هذه الوجوه في الآيات؟ وهل هي إلّا احتمال وتخمين؟

قلت: يدلّ عليها سَوق الآيات، والمتكرّر في القرآن من قوله تعالى في وصف إبراهيم ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1].

ثمّ أقول: هب أنّ هذه الوجوه احتمالات لادليل عليها، ولكن مع قيامها كيف يتّجه للمتكلّف أن يقول غير متأثّم: «إنّ عبارة القرآن ناطقة بوقوع إبراهيم في عبادة الأصنام».

وقال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾[2].

فقال المتكلّف في هذا الشأن: «القرآن ناطق بأنّه ـ يعني إبراهيم ـ شكّ في قدرة الله»[3].

أقول: ليت شعري أين سمعُ المتكلّف وبصرُه وقلبه عن قول إبراهيم: ﴿بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾؟ أفيشكّ عاقل بأنّه إذا اجتمع العقل والحسّ على أمر كان أوقعَ في النفس وأثبتَ في الاعتقاد وأدخلَ في الاطمئنان من المعقول الصرف! وصريح الآية أنّ إبراهيم كان يطلب هذه المرتبة من الاطمئنان والإيمان الكامل، وإن كان إيمانه بقدرة

---

١. البقرة (٢): ١٣٥، آل عمران (٣): ٦٧ و ٩٥. و آيات أُخر كثيرة. انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادّة «المشركين» ص ٣٨٠ ـ ٣٨١.

٢. البقرة (٢) : ٢٦٠.

٣. الهداية ١: ٢٠ س ٤.

الله ثابتاً. ولأجل إيمانه وخلوص نيّته في طلب الاطمئنان وأكمل أفراد الإيمان أعطاه الله مراده، فقال تعالى له: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾[1] الآية.

فانظر ياذا الرشد والفكر الحرّ إلى ما ذكرناه في القرآن الكريم، وإلى ما في الخامس عشر من التكوين:

وقال له ـ أي الله لإبراهيم ـ: أنا الربّ الذي أخرَجك من أُور الكلدانيّين ليعطيك هذه الأرض لترثها، فقال: أيّها السيّد الربّ بماذا أعلم أنّي أرِثها[2].

وقل: أيّ المقامين أولى بأن يكون شكّاً في قدرة الله وصدقه في وعده؟ فهل هو ما ذكر في القرآن الكريم من طلب إبراهيم الاطمئنان وأعلى مراتب الإيمان، زيادة على إيمانه المطلوب في شأن المعاد العظيم أمره، أم هو ما ذكر في التوراة في شأن إعطاء الله أرض الكنعانيّين لإبراهيم ليرثها، فقال إبراهيم: «بماذا أعلم أنّي أرثها»؟ فإنّه صريح في أنّه لايحصل له العلم بمجرّد قول الله، بل يحتاج في ذلك إلى شاهد يوجب له العلم بقدرة الله على ذلك أو صدقه في وعده، مع أنّ إعطاء الأرض لقوم بدل آخرين أمر سهل على التصديق.

ثمّ انظر أيضاً ـ استطراداً وتتميماً لمتعلّقات المقام ـ في انتظام البرهان المذكور في القرآن على إحياء الموتى لأجل اطمئنان إبراهيم، ومناسبته للمبرهن عليه بقوله تعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾[3] حيث أقام جلّ شأنه الحجّة الحسّيّة على إحياء الموتى بعد تفرّق أوصالهم، بإحياء الطيور بعد موتها وتفرّق أوصالها، على النحو العجيب والإعجاز الباهر.

وأمعِن النظر في البرهان المذكور في خامس عشر التكوين ليحصل العلم لإبراهيم بصدق وعد الله له بأنّه يرث أرض كنعان وقدرته على ذلك:

فقال له: خذ عجلة ثلثيّة وعنزاً ثلثيّة وكبشاً ثلثيّاً ويمامة وحمامة. فأخذ هذه كلّها

---

١ و٣. البقرة (٢): ٢٦٠.

٢. سفر التكوين ١٥: ٧ ـ ٨.

وشقّها من الوسط، وجعل شقّ كلّ واحد مقابل صاحبه، وأمّا الطير فلم يشقّه، فنزلت الجوارح على الجثث فكان أبرام يزجرها [١].

وقل: ماذا يفهم من مداليل هذه الفقرات من حاصل أمر الله، وبرهانه على صدقه في وعده وقدرته؟ وأيّ نتيجة فيها مناسبة للمقام؟ أفلا تجدها حكاية بتراء لا يفهم لها أوّل من آخر ولا حاصل ولا فائدة؟ أفهكذا كلام الله العليم الحكيم!

هذا، وأمّا ما تشبّث به المتكلّف من الرواية عن قول رسول الله: «نحن أولى بالشكّ من إبراهيم» [٢] فيكفي في ردّها مخالفتها لنصّ الكتاب بإيمان إبراهيم في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [٣]. فهذه الرواية كلاشيء.

وقال الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۞ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [٤].

فقال المتكلّف: «ورد في القرآن أنّه ـ يعني إبراهيم ـ كذب» [٥].

قلنا: إنّ قول إبراهيم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ لم يخرج مخرج القطع والإخبار الجدّي، بل هو للتوبيخ والتبكيت؛ إذ هو معلّق على قوله: ﴿إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾. وحاصله توبيخ المشركين على عبادة الأصنام، ومعناه أنّ أصنامكم إن كانوا ينطقون ويملكون حَراكاً فقد فعله كبيرهم؛ إذ لا وجه لنسبة هذا الفعل إليّ دونه مع عدم المشاهدة. وإن كانوا جماداً فلم تعبدون جماداً لا ينطق؟ ومن المعلوم أنّ الخبر المعلّق على أمر يعلم المتكلّم والمخاطب أنّه غير واقع، ليس خبراً جدّياً حتّى يقال: إنّه صدق أو كذب.

فإن قلت: إنّ هذا احتمال محض في الآية.

---

١. سفر التكوين ١٥: ٩ ـ ١١.

٢. الهداية ١: ٢٠ س ٧. والرواية في صحيح مسلم ١: ١٣٣، الباب ٦٩، ح ٢٣٨.

٣. البقرة (٢): ٢٦٠.

٤. الأنبياء (٢١): ٦٢ ـ ٦٣.

٥. الهداية ١: ٢٠ س ٧.

قلت أوّلاً: كونه احتمالاً كافٍ في بطلان قول المتكلّف: «ورد في القرآن أنّ إبراهيم كذب».

وثانياً: إنّ دلالة العقل والنقل على عصمة النبيّ تعيّن دلالة الآية عليه وكونه المراد منها، خصوصاً مع صلاحية التركيب بدون تجوّز أو خروج عن القانون.

وأمّا الرواية التي ذكرها المتكلّف في كذب إبراهيم ثلاث مرّات[١]، فلا يصحّ بها الجدل للمسلمين لما ذكرناه في المقدّمة السابعة.

وقال الله تعالى حكاية عن إبراهيم في سورة الصافّات: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ۞ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾[٢] وقد تشبّث المتكلّف هاهنا برواية استنتج منها أنّ إبراهيم فعل حراماً بنظره في علم النجوم، وكذب بقوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾[٣].

ولا يخفى أنّ الرواية لا يصحّ بها الجدل للمسلمين في جامعتهم بحكم المقدّمة السابعة.

أمّا الآية الأُولى، فلا تدلّ إلّا على أنّ إبراهيم نظر نظرة في النجوم، لا في علمها الذي لا يعلم أنّه هل كان في زمانه محرّماً حتّى عليه أم لا؟ ولعلّما كان نظره في النجوم نظر تفكّر وتأمّل في شأنه، كما هو المعتاد للمتفكّرين في شؤونهم من نظرهم إلى السماء وإلى الأرض ونحو ذلك، كما يحكى عن المسيح لمّا أتاه اليهود بالزانية ليرجمها انحنى إلى الأسفل وكان يكتب بإصبعه على الأرض[٤].

وأمّا قوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ فمن أين يعلم من القرآن أنّه كان كذباً؟ ولماذا لا يحمل على حقيقته؟

وفي الثاني عشر والعشرين من التكوين: «أنّ إبراهيم قال عن سارة امرأته: إنّها أُخته»[٥]. لكنّ العشرين من التكوين عن قول إبراهيم: «وبالحقيقة أيضاً هي أُختي ابنة

---

١. صحيح مسلم ٤: ١٨٤، كتاب الفضائل، الباب ٤١، ح ٢٣٧١.

٢. الصافّات (٣٧): ٨٨ ـ ٨٩.

٣. الهداية ١: ٢٠.

٤. إنجيل يوحنّا ٨: ٦.

٥. سفر التكوين ١٢: ١٣ ـ ١٩، ٢٠: ٢.

أبي غير أنّها ليست ابنة أُمّي فصارت لي زوجة»[١].

وعلى ظاهر هذا لم يكذب بقوله: «إنّها أُخته». نعم قوله: «إنّها أُخته» وسكوته عن جهة الزوجيّة، خصوصاً مع شهادة المقام بإنكار كونها امرأته وتعريضها لطمع الغير فيها، يمكن أن يكون ممّا أباحته ضرورة الوقت لإبراهيم حفظاً لنفسه، أو أنّه كِذبٌ على الوحي لعصمة إبراهيم.

الفصل الرابع: في ذكر إسحاق وما جاء في شأنه

أمّا نبوّته فيكفي فيها من القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة مريم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾[٢] وفي سورة النساء: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾[٣].

وفي السادس والعشرين من التكوين أنّ إسحاق ظهر له الله وكلّمه بما كلّمه[٤].

وأمّا ما ذكر في شأنه، ففي السادس والعشرين من التكوين أنّه قال عن امرأته: «إنّها أُخته»[٥]. وهو خلاف الواقع؛ لأنّها بنت ابن عمّه بتوئيل ابن ناحور من مَلكة بنت هاران[٦]. وكان هذا القول منه مخافة من القتل، فيمكن أن يكون جائزاً لضرورة الوقت، ويمكن أن يكون كذباً على الوحي؛ لما ذكرناه من عصمة النبيّ.

وعلى هذا فلا وجه للوقيعة بقدس إسحاق لأجل هذا؛ لإمكان أن يكون مباحاً لضرورة الوقت. ولماذا لا يكون ذلك في أقلّ الأمر احتمالاً مانعاً لأهل الكتاب عن الإقدام على قداسة الأنبياء الصالحين؟ أفلا ترى ما نقله في إظهار الحقّ عن القسّيس وليم اسمت من علماء بروتستنت في كتابه المسمّ بـطريق الأولياء وكيف قد أطال

---

١. سفر التكوين ٢٠: ١٢.

٢. مريم (١٩): ٤٩.

٣. النساء (٤): ١٦٣.

٤. سفر التكوين ٢٦: ٢ و ٢٤.

٥. سفر التكوين ٢٦: ٧.

٦. سفر التكوين ١١: ٢٩ و ٢٥: ٢٠.

لسانه على إبراهيم وإسحاق من أجل ما نقل عنهما من قولهما عن امرأتيهما أنّهما أُختاهما.

فقال في شأن إبراهيم:

لعلّ إبراهيم لمّا أنكر كون سارة زوجة له في المرّة الأُولى عزم في قلبه أنّه لا يصدر منه مثل هذا الذنب، لكنّه وقع في شبكة الشيطان السابقة مرّة أُخرى بسبب الغفلة[١].

وقال في شأن إسحاق ص ١٦٨: «زلَّ إيمان إسحاق؛ لأنّه قال لزوجته: إنّها أُخته»[٢].

وص ١٦٩:

يا أسفا أنّه لا يوجد كمال في واحد من بني آدم غير الواحد العديم النظير، والعجب أنّ شبكة الشيطان التي وقع فيها إبراهيم وقع فيها إسحاق أيضاً، وقال عن زوجته: إنّها أُخته فيا أسفا أنّ أمثال هؤلاء المقرّبين عند الله يحتاجون إلى الوعظ[٣].

وقال المتكلّف في شأن إبراهيم:

ولا ينكر أنّه ترك الأولى؛ لضعف الطبيعة البشريّة، فالمولى سبحانه وتعالى هو الكامل وحده، والنقص ملازم لكلّ إنسان مهما كان[٤].

وقال في شأن إسحاق:

فإذا كان هذا حال خليل الله وأنّه لم يسلم من الكذب، فلا عجب إذا وقع إسحاق في ذات هذه الخطيئة، فلم يقو على التجربة؛ لضعف الطبيعة البشريّة[٥].

فأقول: ليت شعري إذ بنوا على صحّة هذه القصص، وأنّها من الوحي الصادق، فلماذا لم يحتملوا أنّ مثل هذا الكذب كان على وجه من الضرورة بحيث يكون مباحاً أو واجباً على مثل إبراهيم وإسحاق، حفظاً من الهلكة والقتل لنفس النبيّ الذي يُفدى بجملة الناس؟

---

١. إظهار الحقّ ٤: ١٢١٨.

٢ و٣. المصدر: ١٢٢٤.

٤. الهداية ١: ١٩.

٥. المصدر: ٢١.

هب أنّه لا يجوز مثله في شرعنا، ولكن لماذا لا يكون مباحاً في شرع إبراهيم وإسحاق، خصوصاً مع قولهم: لم تكن شريعة للقدماء قبل موسى، فينحصر تحريمه عليهم بحكم العقل بقبح الكذب، وأنّ قبحه مع الضرورة وخوف القتل على النبيّ غير معلوم؟ ولماذا لا يحتملون ذلك فيتّقون الله من الوقيعة في قدس الأنبياء؟

أفيقولون: إنّ الكذب بحسب كلّ حال وكلّ شريعة لا يمكن أن يكون غير قبيح، وجائزاً ـ أو واجباً ـ لأجل بعض الضرورات والدواعي الراجحة؟

إذن فكيف أمر الله موسى وشيوخ بني إسرائيل ـ بمقتضى نقل التوراة الرائجة ـ أن يكذبوا على فرعون، ويقولون له: إنّ إله العبرانيّين التقانا فالآن نذهب سفر ثلاثة أيّام في البرّيّة ونذبح للربّ إلهنا؟[1] فعمل موسى بهذا الأمر، وزاد على قول الله بقوله: «لئلّا يصيبنا بالوباء أو بالسيف»[2]. وبقوله: «لأنّ لنا عيداً للربّ»[3]. مع أنّ الغرض الحقيقي والموعد بين الله وموسى غير هذا، بل هو ذهاب بني إسرائيل إلى أرض الموعد، أرض الكنعانيّين وما والاها، وخلاصهم من عبوديّة المصريّين[4].

وكأنّي بالمتكلّف وغيره يقول: إنّ الغرض من سفر الثلاثة أيّام ليس على ما هو المعروف من هذا التركيب، بل المراد منه السفر الذي تقطع مسافته بالسير المتوالي الدائم في اثنتين وسبعين ساعة مثلاً، وهو صادق على السفر إلى أرض الموعد؛ فإنّ أقرب أرض الكنعانيّين إلى رعمسيس ـ منزل بني إسرائيل في مصر ـ لا يزيد مسافته عنها على الستّين فرسخاً ـ أي مائة وثمانين ميلاً اعتياديّاً ـ بكثير.

قلت: لئن سامحناهم في صدق ذلك، وجاز من الله وموسى أن يريدا هذا الغرض المعمّى من هذه العبارة البعيدة عنه جدّاً في المحاورات، لأجل التعمية على فرعون وإن فهم من الكلام ما هو المتعارف منه ممّا يخالف المراد. فلماذا لا يجوز لإسحاق أن

---

١. سفر الخروج ٣: ١٨.
٢. سفر الخروج ٥: ٣.
٣. سفر الخروج ١٠: ٩.
٤. انظر أقلاً إلى سفر الخروج ٣: ٨ و ١٧.

يعمّي مراده بقوله عن امرأته: «إنّها أُخته؟» ويريد أنّها أُخته من حيث القبيلة والاتّصال بالنسب، كما سمّي الأدوميّ أخاً للإسرائيليّ باعتبار اجتماعهما في النسب بعيسو ويعقوب في إسحاق[١].

دع هذا وقل: كيف جاز للمسيح أن يقول لإخوته حيث لم يكونوا يؤمنون به: اصعدوا أنتم إلى هذا العيد، أنا لست أصعد بعد إلى هذا العيد؛ لأنّ وقتي لم يكمل بعد. ثمّ صعد إلى ذلك العيد بالخفاء؟[٢]

وأمّا قول طريق الأولياء: «لا يوجد كمال في واحد من بني آدم غير الواحد العديم النظير».

فأقول فيه: ويا أسفا، ويا ليت كتبكم المنسوبة إلى الإلهام تركت قدس هذا الواحد عن التلويث، كما سنذكر بعضه في الفصل الخامس عشر في عصمة المسيح.

وفي السابع والعشرين من التكوين: «أنّ يعقوب أحضر لإسحاق أبيه خمراً فشرب»[٣].

أقول: قد تقدّم في الفصل الثاني في عصمة نوح ما يتعلّق باضطراب المتكلّف، وتناقض العهدين في مسألة شرب الخمر[٤].

فإن قال المتكلّف هنا كما قال في شأن نوح: «إنّ إسحاق شرب الخمر ولمّا أفاق تاب من هذه الخطيئة ولم يعد».

قلنا له: يا أيّها الكاتب الماهر، أين توجد توبة إسحاق من العهدين؟

الفصل الخامس: في نبوّة يعقوب وما قيل في شأنه

أمّا نبوّته فيكفي فيها من القرآن الكريم النصّ عليها مع نبوّة أبيه إسحاق، كما تقدّم في أوّل الفصل السابق.

---

١. سفر التثنية ٢٣: ٧.

٢. إنجيل يوحنّا ٧: ١ ـ ١١.

٣. سفر التكوين ٢٧: ٢٥.

٤. تقدّم في ص ٩٠ ـ ٩٩.

وفي الخامس والثلاثين من التكوين: «قال الله ليعقوب... وظهر الله ليعقوب... وسمّاه إسرائيل. وقال له»[١].

وأمّا ما ذكر في شأنه ففي السابع والعشرين من التكوين ما ملخّصه:

أنّ إسحاق أمر عيسو ـ ابنه البكر ـ... أن يذهب إلى البرّيّة ويتصيّد له صيداً ويصنع له أطعمة كما يحبّ؛ ليباركه قبل أن يموت... فلمّا ذهب قام يعقوب بمشورة أُمّه رفقة وأخذ من الغنم جَدْيَي معز وصنع لأبيه طعاماً، ولبس ثياب عيسو الفاخرة، وألبس يديه وملاسة عنقه جلود جَدْيَي المعز، ليزوّر على أبيه أنّ رقبته ويديه مشعرة على ما كانت عليه رقبة عيسو ويداه. وتقدّم لأبيه وقال كذباً: أنا عيسو بكرك، قد فعلت كما كلّمتني، قم اجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك... وأحضر له خمراً فشرب. وقال إسحاق: هل أنت هو ابني عيسو؟ فقال يعقوب: أنا هو. فباركه إسحاق، ومن جملة البركة أن دعا له بكثرة الحنطة والخمر[٢] فاستعمل يعقوب ـ بمقتضى التوراة الرائجة ـ هذا الخداع والتزوير، وكذب على أبيه أكثر من أربع مرّات حتّى أوقعه مع كبر سنّه وذهاب بصره في أذى الارتعاد العظيم جدّاً حيث علم بالخديعة[٣].

أقول: قد قدّمنا لك في الباب الأوّل من هذه المقدّمة ما يدلّ بأوضح دلالة على أنّ مثل هذه المخادعة والتزوير والكذب المتكرّر على الأب النبيّ العاجز الكالّ البصر، مناقضة لورود النبوّة على يعقوب، خصوصاً مع دلالة هذا العمل المذكور عنه على ضعف الإيمان والمعرفة بالله بسبب البناء على أنّ بركات الله ـ التي هي من مفاتيح النبوّة وسلسلة عهده مع إبراهيم ـ تُستَلَب من الله ونبيّه إسحاق بمثل هذه المخادعات والتزويرات القبيحة.

فلابدّ من القول بكون هذه الحكاية ليست من الوحي ولا صادقة، مضافاً إلى

---

١. سفر التكوين ٣٥: ١ و ٩ ـ ١١، وكذلك سفر التكوين ٢٨: ١٣.

٢. سفر التكوين ٣٥: ١ و ٩ و ١٠.

٣. سفر التكوين ٢٧: ٧ ـ ٣٣.

سخافتها في نفسها، ومنافاتها لجلال الله الحكيم الغنيّ علّام الغيوب؛ لأنّه إن فـرضت هذه البركة وما يتبعها من الشؤون العظيمة مقدّرة من الله ليعقوب ـ كـما عـن وحـي مَلاخي عن قول الله: «أحببت يعقوب وأبغضت عيسو»[١]. وكما عن الوحي لأُمّهما من قول الربّ لها وهي حبلى بهما: «إنّ الكبير يكون عبداً للصغير»[٢] ـ سألنا أهل العقول السليمة أنّه هل يصحّ في حكمة علّام الغيوب أن يقدّر هذه البركة التي هي زمام النبوّة أو نفسها لمن تنسب له هذه المخادعات والتزويرات والأكاذيب، الناشئة عن ضـعف الإيمان والمعرفة بالله أو عدمهما، كما ذكرنا؟ مع أنّ اللسان الكاذب مكرهة للـربّ[٣]. وكراهة الربّ شفتا كذب[٤]. وكيف يجتمع هذا مع كون الله أحبّ يعقوب؟ وأيـضاً فـي التاسع عشر من الأمثال: «المتكلّم بالأكاذيب لا ينجو، المتكلّم بالأكاذيب يهلك»[٥]. قل: فكيف قدّرت له هذه البركة العظيمة[٦]؟

هذا، وإن فرض أنّ أمر هذه البركة موكول إلى جعل إسحاق، وأنّها تكون حـيثما يجعلها سواء كان مخدوعاً أو مختاراً. سألنا أيضاً أهل العقول السليمة: كيف يوكل الله العليم الحكيم أمر هذه البركة مع عظيم شأنها إلى جعل إسحاق، مع أنّ إسـحاق أراد وعزم وجزم على أن يجعلها لعيسو مبغوض الله، ثمّ جعلها توهّماً وانخداعاً بـالكذب ليعقوب بتوهّم أنّه عيسو، فاتّبع الله إسحاق على وهمه؟ أفيعجز الله عن جعل البركة في محلّها، ولا يعلم حيث يجعل رسالته؟

أفيغفل العاقل عن كون هذه القـصّة خـرافـة مـخالفة للـعقل، مـجعولة مكـذوبة على الوحي؟

---

١. سفر ملاخي ١: ٢ و ٣.

٢. سفر التكوين ٢٥: ٢٣؛ رسالة بولس إلى أهل رومية ٩: ١١ و ١٢.

٣. سفر الأمثال ٦: ١٦ و ١٧.

٤. سفر الأمثال ١٢: ٢٢.

٥. سفر الأمثال ١٩: ٥ و ٩.

٦. سفر التكوين ٢٧: ٢٧ ـ ٣٠.

الفصل السادس: في نبوّة يوسف وما جاء في شأنه

أمّا نبوّته، فيدلّ عليها من القرآن الكريم ذكر الله له في عداد الأنبياء الذين فضّلهم على العالمين من ذرّيّة إبراهيم[١]. ونصّ على نبوّتهم بقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾[٢].

وأمّا ما جاء في شأنه، فقد قال الله تعالى في سورة يوسف في شأنه مع امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾[٣].

فقال المتكلّف:

إنّ القرآن نسب ليوسف ما هو منزّه عنه بقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ أي قصدت مخالطته وقصد مخالطتها[٤].

قلت أوّلاً: من أين للمتكلّف أنّ المراد قصد مخالطتها؟ ولماذا لا يكون المراد أنّه همّ بها ضرباً، ونحو ذلك من وجوه المدافعة عن قداسته؟

وثانياً: أنّ قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ معلّق على عدم رؤيته لبرهان ربّه الذي هو العصمة. فمعنى الآية أنّه لو لا أن رأى برهان ربّه وكان معصوماً لَهَمَّ بها، لأجل وجود الدواعي الكثيرة من شبابه وجمال المرأة ورغبتها فيه، وخلوّ المكان وأُلفتها.

ولعلّ المتكلّف إنّما لم يذكر في نقله للآية تتمّتها وهو قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ لأجل التفاته إلى أنّ التتمّة تنقض غرضه، خصوصاً ما في التتمّة من قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[٥] سيّما وقد حكى الله عنه قبل الآية المذكورة قوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾[٦]

---

١. انظر سورة الأنعام (٦): ٨٤ـ٨٦.

٢. الأنعام (٦): ٨٩.

٣. يوسف (١٢): ٢٤.

٤. الهداية ١: ٥.

٥. يوسف (١٢): ٢٤.

٦. يوسف (١٢): ٢٣.

وحكى جلّ شأنه عن المرأة ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾[١]. ﴿أَنَا رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[٢] فصراحة القرآن تدلّ على نزاهة يوسف في هذه الحادثة مطلقاً.

الفصل السابع: في رسالة موسى وما قيل في شأنه

أمّا رسالته في القرآن الكريم، فغنيّة عن البيان ويكفي ممّا يدلّ على بعثته ورسالته وكتابه ومعجزاته ودعوته، ما اقتصّه الله جلّ شأنه في سورة الأعراف[٣].

ولا حاجة إلى بيان رسالته من العهدين، فإنّها العنوان والأساس لهما.

وأمّا ما قيل في شأنه، فقد قال الله جلّ اسمه في شأنه في سورة القصص: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٤].

فقال المتكلّف:

> فقتل القبطي مع أنّه لم يكن ذلك مباحاً له، ولم يكن قتله على سبيل الخطأ بل كان قتل عمد وعدوان؛ لقوله: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ وقوله في سورة الشعراء: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[٥].

أقول: لا يخفى أنّ بني إسرائيل حينئذٍ كانوا مؤمنين بالله موحّدين له يعرفونه باسمه المقدّس. أهْيَهِ الذي أَهْيَهْ. ويَهْوَهْ إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب وهم شعب الله[٦]. وأبناء

---

١. يوسف (١٢): ٣٢.

٢. يوسف (١٢): ٥١.

٣. الأعراف (٧): ١٠١ ـ ١٥٥.

٤. القصص (٢٨): ١٥ ـ ١٦.

٥. الهداية ١: ١٤، والآية ٢٠ من سورة الشعراء (٢٦).

٦. العدد ١٤: ٦، ٧.

الله: أي أولياؤه[١]. وكان المصريّون مشركين يعبدون البهائم[٢]. فلمّا رأى موسى الذي من شيعته في الدين مع الذي من عدوّه في الدين يقتتلان، حسن منه دفاع المشرك عن الموحّد فوكزه فقضى عليه.

ولا يتبيّن من الآية أنّه وكزه ليقتله، بل سوقها يعطي أنّه أراد به مجرّد الضرب للدفاع فصادف قتله خطأً، فيجوز في نفس الواقعة أن يكون دفاع موسى للقبطي جائزاً، ويجوز أيضاً أن يكون قتله جائزاً، ولو لأجل دفاع عابد الوثن عن الموحّد، خصوصاً والعادة تقضي أن يكون القبطي هو الظالم المعتدي؛ لكون بني إسرائيل حينئذٍ تحت عبوديّة المصريّين القاسية.

وهذا الدفاع والقتل كان على حين غفلة من أهل المدينة، يمكن ستره في وقته بحيث لا يتعقّبه ضرر فعليّ ليكون حراماً من هذه الجهة. ولكن كان الأفضل لموسى تركه ستراً على نفسه المقدّسة ـ أو على بني إسرائيل ـ من تجسّس المصريّين وتهمتهم، أو إخبار الإسرائيلي، إذا غضب وساء خلقه فلمّا مات القبطي وعلم موسى أنّه وقع في خلاف الأفضل قال: ﴿هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ يعني إغواء المصري على العدوان، أو إغواء الإسرائيلي على المقاومة، أو إقدامه على خلاف الأفضل ليثير الشيطان شرّ المصريّين على بني إسرائيل، فقال على وتيرة الصدّيقين الذين يفزعون من تركهم الأفضل: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَـلَمْتُ نَـفْسِى فَـاغْفِرْ لِـى﴾ ليعود إلى مقامه الرفيع، فغفر له.

وأمّا قوله: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذاً وَأَنَا مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ فلا دلالة فيه على أنّه فعل حراماً؛ لأنّا قد قدّمنا في الفصل الثاني من عصمة نوح[٣] أنّ المعنى الموضوع له لفظ الضلال ـ بل والمستعمل فيه ـ غير مختصّ بمعصية الله ومخالفة أمره ونهيه اللازمين، بل هو إضاعة الطريق، ويختلف باختلاف متعلّقه. ومن الواضح أنّ النبيّ بعد أن يهديه الله بنور النبوّة

---

١. سفر الخروج ٤: ٢٣.

٢. سفر الخروج ٨: ٢٦.

٣. تقدّم في ص ٨٨ ـ ٩٩.

إلى الحقّ اليقين، ويكشف له بمشاهداتها عن أسرار اللاهوت والملكوت يرى أنّه كان قبلها كالميّت الذي أحياه الله، والجماد الذي نَعَشَه بروح القدس، فيحقّ له أن يصف حاله فيما قبلها بالضلال الذى هو إضاعة الطريق عمّا اهتدى إليه بنور الوحي.

فالظاهر من سَوق الآية وما قبلها أنّ موسى لمّا أخبر فرعون بأنّه رسول ربّ العالمين، وأمره بأن يرسل معه بني إسرائيل، ألقى عليه فرعون جملة من الكلام تتضمّن أمرين:

أحدهما: الامتنان عليه بتربيتهم وإيوائهم له.

وثانيهما: التهكّم على دعواه الرسالة وإنكارها بأنّهم هم الذين ربّوه من الطفوليّة، ولبث فيما بينهم سنين من عمره، وآخر أمره كفر نعمتهم وفعل فعل الأشرار فقتل منهم نفساً، فمتى جاءته النبوّة؟

فأجاب موسى عليه السلام بما معناه أنّي في آخر مكثي معكم حينما فعلت الفعلة وقتلت النفس لم أكن رسولاً، بل كنت من الضالّين عن هدى الرسالة إلى الحقّ اليقين ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وأمّا التربية والمكث بينكم، فقد كان ذلك من آثار استعباد كم القاسي لقومي المؤمنين أولاد الأنبياء ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[١].

وهب أنّ ما ذكرناه مع وضوحه احتمالاً في الآيات والواقعة، فلماذا لا يمنع المتكلّف من أن يقول جازماً: إنّ قتل موسى للقبطي لم يكن مباحاً ولم يكن خطأً، بل كان قتل عَمد وعدوان؟ وقال الله تعالى في سورة الشعراء حكاية عن موسى لمّا أرسله إلى فرعون: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ * وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾[٢].

١. الشعراء (٢٦): ٢١ ـ ٢٢.

٢. الشعراء (٢٦): ١٢ ـ ١٥.

فقال المتكلّف:

إنّ هذا يدلّ على أنّه لمّا أمر الله موسى، اعتذرعن التوجّه بسبب العقدة التي في لسانه وقتلهِ أحد المصريّين، فطلب من المولى أن يرسل إلى أخيه هارون بأن يبلّغ الرسالة. والقصّة مأخوذة من التوراة وإنّما دأب القرآن الاستخفاف بالخطايا فلم يذكر غضب الله على موسى كما ذكرته التوراة، فموسى ترك الأفضل[١].

أقول: ليس في الآيات شيء من الدلالة على اعتذار موسى عن التوجّه إلى ما أرسل إليه، وإنّما كان كلامه هذا حرصاً على حصول الغرض من رسالته، وطلباً لليقين بحصوله بإبداء الموانع منه. ولم يطلب تحويل الرسالة عنه إلى هارون؛ إذ لا دلالة في قوله: ﴿أَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾ على طلب الاستبدال به، بل غاية ما يدلّ على طلب الرسالة لهارون. وإنّ الموارد الأُخَر من القرآن لتشهد بأنّه طلب الرسالة لهارون معه ؛ ليكون ذلك أنجح لحصول الغرض. فقد حكى الله عنه في سورة القصص قوله: ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾[٢] وفي سورة طه: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَـٰرُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾[٣] ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾[٤].

بل يدلّ في خصوص المورد ما تقدّم من قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي لا تخف من القتل، ولا يصلون إليك بسوء ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ فإنّ قوله تعالى: ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ دالّ بواسطة الفاء التفريعيّة على أنّ الأمر بذهابهما معاً إجابة لمطلوب موسى وإيتاءً لسؤله، بقوله: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾ وكاشفٌ عن أنَّ المطلوب لموسى هو إرسال هارون معه لا الاستبدال بهِ.

ولئن تنزّلنا قلنا لذي المعرفة: أفلا يكون ما ذكرنا في دلالة الآيات احتمالاً يمنع المتكلّف عن جزمه في دعواه؟

---

١. الهداية ١: ١٤.

٢. القصص (٢٨): ٣٤ ـ ٣٥.

٣. طه (٢٠): ٢٩ ـ ٣٢.

٤. طه (٢٠): ٣٦.

ولكنّه قد امتلأ سمعه وقلبه من صراحة التوراة الرائجة في نقلها استعفاء موسى من الرسالة بلسان غير ليّن ولا موافق للأدب، فصار يحمل ذلك على عاتق القرآن. وحاشا وكلّا.

ففي رابع الخروج:

فقال موسى للربّ: استمع أيّها السيّد. لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أوّل أمس ولا من حين كلّمت عبدك. بل أنا ثقيل الفم واللسان. فقال له الربّ: من صنع للإنسان فماً، أو من يصنع أخرسَ أو أصمَّ أو بصيراً أو أعمى، أما هو أنا الربّ. فالآن اذهب و أنا أكون مع فمك، وأُعلّمك ما تتكلّم به فقال: استمع أيّها السيّد، أرسل بيد من ترسل فَحمِيَ غضبُ الربّ على موسى وقال: أليس هارون اللاوي أخاك؟ أنا أعلم أنّه هو يتكلّم... إلى آخره[1].

وإنّك لترى أنّ سوقَ الكلام القولُ المنسوب إلى موسى أخيراً: «استمع أيّها السيّد، أرسل بيد من ترسل» يعطي ما معناه أنّي لا أعتمد على هذا الوعد، ولا أُصغي إلى هذه الحجّة، بل اختر لرسالتك رسولاً غيري. وحقّ أن يَحمِيَ غضب الله لذلك. اللهمّ إنّي أعوذ بك أن أنسب مثل هذا لقدس رسولك وكليمك موسى، وأن أنسب لجلال وجهك أن ترسل من يردّ عليك بمثل هذا الردّ.

وأمّا قول المتكلّف فيما تقدّم من كلامه: «إنّما دأب القرآن الاستخفاف بالذنوب».

فنقول فيه: إنّ القرآن الكريم كلام الله العليم الحكيم، لم يجر على مجرى العهدين الرائجين في الوقيعة بقدس موسى والأنبياء، ونسبة فضائح الذنوب والكفر إليهم، كما سنذكر بعضه في هذه المقدّمة إن شاء الله. ولم يكن القرآن ليجمع على العقل والنقل بين المتناقضين، وهما الرسالة وقبائح الذنوب.

وأمّا قوله: «إنّ موسى ترك الأفضل» فهو من الظرائف أفما ذكر عنه في التوراة في خطابه مع الله يعدّ من ترك الأفضل؟ أو أنّ ترك الأفضل يستدعي غضب الله؟ ولعلّ المتكلّف سمع من المسلمين بلفظ ترك الأفضل ولم يصل إلى حقيقة المراد منه.

---

١. سفر الخروج ٤: ١٠ ـ ١٤.

وأمّا ما ورد في القرآن الكريم في سورة الكهف في الحكاية عن شأن موسى والرجل الذي آتاه الله شيئاً مِن علم الغيب من قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[2] فقد حاول المتكلّف أن يجعل فيه قدحاً بقدس موسى، وأنّى له ذلك؟[3]

ولنكشف نقاب الغفلة عن وجه هذه الآيات، فلا يذهب عليك أنّ الله جلّت عظمته وعظمت آلاؤه، قد قسم رحمته وفضله على عباده حسبما اقتضته حكمته في خلقه، فأنعم على هذا العبد الصالح ـ الذي يقال: إنّه الخضر ـ بشيء من علم الغيب وأسرار الحقائق. وأنعم على موسى كليمه فخصّه في ذلك العصر بسيادة الرسالة بالشريعة، وحقائق العرفان بالله، وقوانين السياسة المدنيّة والسيطرة على تربية الناس وتأديبهم على ذلك، بالدعوة إليه والإجراء له حسب فرصة الوقت من الإجراء بالقول والفعل، وعلى حكمة التمدّن من مراعاة ظاهر الحال، وحجبه عن علم الغيب الذي لا مسيس له بحكمة وظيفته.

فلمّا اجتمع موسى مع ذلك العبد الصالح طلب منه أن يُطلِعه على شطر ممّا منحه الله من علم الغيب، ولم يَتواطآ على أن يكون كلّ ذلك بأسرار الأفعال الجارية بحسب ظواهرها على خلاف الشريعة التي جعل تبليغها وسيطرتها لموسى. فكان العبد الصالح يفعل الأفعال على مقتضى حقائقها وأسرارها الغيبيّة، وكان موسى يعترض فيها على مقتضى وظيفته في القوانين الشرعيّة والسياسات المدنيّة.

ولم يظهر من القرآن أنّ موسى كان مذعناً بعصمة ذلك العبد الصالح في جميع أفعاله عن الخطإ والجهل؛ ليكون الاعتراض من موسى عليه منافياً للإذعان بعصمته، فيسوغ لموسى السكوت عمّا يخالف ظاهره الشريعة إلى أن يخبره بسرّه الغيبي. ولم يظهر من

---

١. الكهف (١٨): ٦٥.

٢. الكهف (١٨): ٨٢.

٣. الهداية ١: ٤٢.

القرآن أنّ ذلك الرجل كان رسولاً واجب العصمة. نعم يظهر من القرآن أنّ موسى كان معتقداً بصدقه في دعواه بأنّ ما صدر من أفعاله المشار إليها، إنّما هو لكشف غيبي ووصول إلى حقائقها، لا لغفلة أو خطإ في شريعتها.

هذا، ويجوز أن يكون اعتراض موسى على وجه الاستعلام عن الحقيقة والاستكشاف لغيبها. ويكون قوله: ﴿شَيْئًا إِمْرًا﴾[1] و ﴿شَيْئًا نُكْرًا﴾[2] إنّما هو بحسب مزاعم الناس الذين لا يعلمون بحقيقة الرجل واطّلاعه على بعض الغيب، فلا ينبغي لغير المتسرّع في غفلاته أن يتوهّم في دلالة الآيات شيئاً من القدح بقدس موسى.

ثمّ قال المتكلّف في هذا المقام:

والظاهر أنّ محمّداً أخذ هذه القصّة من أقوال أهل عصره أومن خرافات اليهود؛ فإنّه لا وجود لها في التوراة التي هي أقدم كتاب في الدنيا[3].

قلت: من أين للمتكلّف حصر الحقائق والوقائع التاريخيّة بما ذكر في التوراة؟ ومن أين له أنّ التوراة أقدم كتاب في الدنيا؟ أفتقبل هذه الدعاوي الكبيرة بلا برهان مقبول؟ وكأنّ المتكلّف لا ينزّه القرآن من الخرافات حتّى يذكر ما في التوراة من خوف الله من آدم أن يأكل من شجرة الحياة لأنّه صار مثلَ الله في معرفة الخير والشرّ[4]، وأكل الملائكة من الزبد واللبن والعجل الذي قدّمه لهم إبراهيم[5]، ومصارعة يعقوب مع الله حتّى أنّه لم يقدر على يعقوب، فطلب منه أن يطلقه، فلم يطلقه حتّى باركه[6]، ومخادعة صفورة لله حين التقى موسى وطلب أن يقتله بعد أن أرسله ووعده[7]. وفي هذا المقدار كفاية؛ فإنّ الإكثار منه يخرج عن حدّ البحث إلى سوء القالة.

---

١. الكهف (١٨): ٧١.

٢. الكهف (١٨): ٧٤.

٣. الهداية ١: ٤٢.

٤. انظر سفر التكوين ٣: ٢٢.

٥. سفر التكوين ١٨: ١٨.

٦. انظر سفر التكوين ٣٢: ٢٢ ـ ٣٠.

٧. انظر سفر الخروج ٤: ٢٤ ـ ٢٧.

وأمّا قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾[١] فلم يكن قول موسى فيه لسحرة فرعون إذناً في السحر أو بعثاً عليه؛ ليكون قد فعل حراماً بذلك، كما زعم المتكلّف، بل إنّما حقيقته اختياره التأخّر في إلقائه العصا عمّا صمّموا عليه من السحر بإلقاء حبالهم وعصيّهم، كما يفيده قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ أي ما أنتم مصمّمون على القائه، حيث جمعهم فرعون ليقابلوا بسحرهم معجزة موسى.

ويكشف عن ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ۝ قَالَ أَلْقُواْ﴾[٢] وفي سورة طه: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ﴾[٣].

وإنّا لنسأل المتكلّف: من أين أخذ قوله: «قال علماء الإسلام: إنّه أذن لهم في السحر، وإنّ السحر كان جائزاً؟».

ولا تقل للمتكلّف: إنّ العهد القديم يذكر عن إيليّا النبيّ أنّه أمر أنبياء البعل ـ صنم ـ أن يذبحوا له محرقة ويدعوا باسم آلهتهم، ففعلوا ذلك باقتراحه حسب العادة في عبادة المشركين من الصباح إلى الظهر قائلين: «يا بعل أجبنا». كلّ ذلك بمحضر إيليّا وبني إسرائيل. وزاد إيليّا على ذلك بقوله: «ادعوا بصوتٍ عالٍ؛ لأنّه إله لعلّه نائم» ونحو ذلك. كلّ هذا ليظهر لهم معجزته[٤].

لأنّا نقول لك أوّلاً: لا قياس بين الأمرين؛ فإنّ موسى لم يأذن بمقتضى القرآن بالسحر، ولا اقترحه ابتداءً، ولا بعث عليه ـ كما ذكرنا ـ بخلاف ما يذكره العهد القديم عن إيليّا من أنّه هو المقترح للعبادة الشركيّة للبعل والباعث عليها فسمّاه إلهاً.

وثانياً: إنّ المتكلّف لا يتحاشى في هذا الحال عن أن يقول: نعم إنّ إيليّا أخطأ هاهنا،

---

١. الشعراء (٢٦): ٤٣.

٢. الأعراف (٧): ١١٥ ـ ١١٦.

٣. طه (٢٠): ٦٥ ـ ٦٦.

٤. سفر الملوك الأوّل ١٨: ٢٣ ـ ٣٠.

وتحمّل إثم العبادة الشركيّة، وفعل خلاف الأفضل دلالة على ضعف الطبيعة البشريّة، كهارون وسليمان وغيرهما من الأنبياء.

وأمّا قوله تعالى في شأن موسى في سورة الأعراف: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾[١] فلم يعيّن القرآن أنّ أخذ موسى رأس أخيه و جرّه إليه كان على وجه الإهانة والإذلال في التعزير، بحسب متعارف ذلك الوقت في بني إسرائيل، بل يجوز أن يكون بحسب المتعارف من أحوال بني إسرائيل من أهون أوضاع العتاب؛ فإنّ العهدين ليوضّحان بنقلهما لسِيَر بني إسرائيل أنّهم كان عندهم تمزيق الثياب عندالغضب والتألّم بمنزلة الحولقة، والتمرّغ على الأرض بمنزلة الاسترجاع[٢]. وقد كان موسى حينئذٍ حريّاً بالغضب لله إذ شاهد ذلك الأمر العظيم من قومه.

وإنّ المتكلّف جعل ماذكره القرآن من فعل موسى مع هارون من فعل السفهاء[٣].

[التوراة وموسى عليه السلام]

وانظر أنت إلى ما نذكره في هذا الفصل ممّا نسبته التوراة الرائجة لموسى في خطابه مع الله، وقل: إنّه كخطاب من يكون؟

وفي خامس الخروج: «فرجع إلى الربّ وقال: يا سيّدي لماذا أسأت إلى هذا الشعب؟ لماذا أرسلتني؟»[٤].

وفي الثاني والثلاثين إذ عبد بنو إسرائيل العجل نسب إلى موسى أنّه قال لله: «والآن

---

١. الأعراف (٧): ١٥٠.

٢. انظر أقلاًّ إلى السقوط على الأرض وتمزيق الثياب من أنبيائهم وملوكهم الذين هم أولى بالوقار والتحمّل: سفر التكوين ٧: ٢٩ و ٣٤؛ سفر العدد ١٤: ٥ و ٦ و ١٦: ٤ و ٢٢ و ٤٥ و ٢٠: ٦؛ سفر يشوع ٧: ٦ و ٢٠؛ سفر صموئيل الثاني ١: ١١ و ٣: ٣١ و ١٣: ٣١؛ سفر الملوك الثاني ٢: ١٢ و ٥: ٧ و ١٩: ١ و ٢٢: ١١؛ سفر الخروج ١١: ١؛ إنجيل متى ٢٦: ٦٥.

٣. الهداية ٢: ٥٦ س ٤.

٤. سفر الخروج ٥: ٢٢.

إن غفرت خطيئتهم وإلّا فامْحُني من كتابك الذي كتبت»[١].

وفي حادي عشر العدد:

فقال موسى للربّ: لماذا أسأت إلى عبدك... حتّى أنّك وضعت ثقل جميع هذا الشعب عليّ؟ لعلّي حبلت بجميع هذا الشعب أو لعلّي ولدته حتّى تقول: احمله في حضنك... فإن كنت تفعل بي هذا فاقتلني قتلاً[٢].

ولمّا وعده الله بقول التوراة عند ذلك أن يخفّف عنه ثقل بني إسرائيل ويطعمهم اللحم شهراً من الزمان.

فقال موسى: ستّمائة ألف هو الشعب الذي أنا في وسطه، وأنت قلت: أُعطيهم لحماً ليأكلوا شهراً من الزمان. أيذبح [لهم] غنم وبقر ليكفيهم أم يجمع لهم كلّ سمك البحر ليكفيهم؟ فقال الربّ لموسى: هل تقصر يد الربّ الآن ترى يوافيك كلامي أم لا[٣]؟ انتهى.

فانظر يا ذا المعرفة واللسان ولحن المحاورات ومواقع الأدب والجرأة والطلب والشكّ والتهكّم والسخريّة وسوء الأدب في الكلام والتفت إلى مواقع هذا الكلام المنسوب لموسى مع الله، وحاشاه.

وانظر أين الأقوال الأخيرة من قول الله في القرآن الكريم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[٤] أفقول إبراهيم هذا مع اعترافه بالإيمان وطلبه لاطمئنان قلبه بانضمام الحسّ إلى العقل يكون شكّاً في قدرة الله، أم هذا القول المنسوب صدوره لموسى بعد ما رأى من آيات الله العظيمة في مصر وبعد خروجهم منها ما رأى، سيّما وقد رأى كيف أنزل الله عليهم المنّ في بريّة سين قبل ورودهم بريّة سيناء، حسب كفاية بني إسرائيل وزيادة[٥]؟ وبمقتضى التوراة أنّ هذا الكلام المنسوب

---

١. سفر الخروج: ٣٢: ٣٢.

٢. سفر العدد ١١: ١١ـ ١٥.

٣. سفر العدد ١١: ٢١ـ ٢٣.

٤. البقرة (٢): ٢٦٠.

٥. سفر الخروج ١٦: ١ـ ٦.

لموسى كان في قَبَرُوت هَتَّأَوَة، إذ اشتهى بنو إسرائيل اللحم بعد أشهر من نزول المنّ[١].

ثمّ انظر أيّها الفطن إلى أنّه هل تليق هذه الأقوال والمخاطبات لله العظيم بوظائف الأنبياء المرسلين لأجل ردع الناس عن مثل هذه الجرأة على الله، وتعريفهم عظمة الله، وحكمته وقدرته، وتعليمهم أنّ أوامره نعمة، وتكاليفه لطف، ونبوّته عناية ورحمة، ورسالته فضل منه، وتحمّل مشقّاتها عبادة وجهاد في سبيله، وأنّ الذي يُمحَى من كتابه من الهالكين؟

وذكرت التوراة أيضاً عن قول الله في شأن موسى وهارون: «أنّهما لم يؤمنا بالله»[٢]. وعصيا قوله[٣]. وخاناه[٤]. حتّى أنّ موسى فرط بشَفَتَيه[٥].

وليت شعري ماذا فَرَطَ بشفتيه، وحاشاه؟

ومع هذا كلّه والمتكلّف يقول ويكتب: «أمّا التوراة فلم تذكر ـ يعني في شأن موسى ـ سوى أنّه اعتذر بثقل لسانه»[٦].

ولعلّه يقول أيضاً: إنّ اعتذار موسى كان بألين الكلام وأحسنه أدباً؟ فيا لهفاه على الناس لو كانت رسل الله إليهم ودعاتهم إلى الحقّ وأدلاّؤهم إلى الله وهداتهم إلى الرشد على مثل هذه الصفات، وحاشا لله من ذلك.

الفصل الثامن: في رسالة هارون وما ذكر في شأنه

أمّا رسالته في القرآن الكريم، فيكفي فيها قوله تعالى في سورة مريم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا﴾[٧] وفي سورة قد أفلح: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ﴾[٨].

---

١. سفر العدد ١١: ٤ ـ ٣٤.

٢. سفر العدد ٢٠: ١٢.

٣. سفر العدد ٢٧: ١٤.

٤. سفر التثنية ٣٢: ٥١.

٥. سفر المزامير ١٠٦: ٣٣.

٦. الهداية ١: ٤٢ س ١٨.

٧. مريم (١٩): ٥٣.

٨. المؤمنون (٢٣): ٤٥.

وأمّا في العهدين، ففي السابع من الخروج: فقال الربّ لموسى: انظر أنا جعلتك إلهاً لفرعون وهارون أخوك يكون نبيّك[١]. ولئن أبيت هذا فيكفي من التوراة صراحتها بأنّ الله كلّم هارون في أُمور الشريعة ولوازم الرسالة مع موسى ومنفرداً، ففيها ما لفظه: «وكلّم الله موسى وهارون. وقال الله لموسى وهارون». ما يزيد على ثلاثة عشر مورداً[٢]. وكلّم الربّ هارون[٣]. وقال الربّ لهارون[٤].

وفي الثاني عشر من صموئيل الأوّل: «أرسل الربّ موسى وهارون»[٥].

وفي المزمور الخامس بعد المائة: «أرسل موسى عبده وهارون الذي اختاره»[٦].

وفي المزمور السادس بعد المائة: «وهارون قدّوس الربّ»[٧]. وفي التوراة أنّه ظهرت على يده معجزة عصاه[٨]. وأنّه صنع الآيات أمام عيون الشعب[٩].

وأمّا ما ذكر في شأنه، فقد ذكرنا عن التوراة قولها في شأنه وشأن موسى قولها: إنّهما لم يؤمنا بالله وعصياه. وخاناه[١٠].

وفي الثاني والثلاثين من الخروج:

> ولمّا رأى الشعب أنّ موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا... فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وائتوني بها، فنزع كلّ الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها [إلى] هارون. فأخذ ذلك من أيديهم وصوّره بالإزميل

---

١. سفر الخروج ٧: ١.

٢. انظر أقلاً سفر الخروج ٧: ٨ و ١٢: ٤٣؛ سفر اللاويّين ١١: ١.

٣. سفر اللاويّين ١٠: ٨.

٤. سفر العدد ١٨: ١ و ٨ و ٢٠.

٥. سفر صموئيل الأوّل ١٢: ٨.

٦. سفر المزامير ١٠٥: ٢٦.

٧. سفر المزامير ١٠٦: ١٦.

٨. ويكفي من ذلك سفر الخروج ٧: ١٠ و ٢٠.

٩. سفر الخروج ٤: ٣٠.

١٠. تقدّم في ص ١٢٣.

وصنعه عجلاً مسبوكاً. فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر. فلمّا نظر هارون بنى مذبحاً أمامه وقال: غداً عيد الربّ. فبكّروا في الصباح وأصعدوا محرقات وقدّموا ذبائح[1].

فأقول: وإنّ ما تذكره التوراة ـ من صنع هارون العجل إجابة لطلب بنى إسرائيل منه أن يصنع لهم آلهة ، لهو بمنزلة الإخبار القولي الصريح بأنّ العجل إلههم، وبمنزلة الدعوة الصريحة إلى عبادته.

وزاد على ذلك في الصراحة بأن بنى مذبحاً أمام العجل ونادى بالعيد على الرسم المألوف للعبادة، بل إنّ بناه للمذبح ونداءه للعيد عبادة منه في الظاهر للعجل الذي تبانوا على أنّه إلههم، فإذا كان الاعتقاد في هذا المقام موافقاً للقول والعمل، كان القول والعمل عبادة ظاهراً وواقعاً، وإن كان الاعتقاد مخالفاً لهما كانا عبادة منه في محض الظاهر، وينضمّ إلى قبحها قبح الإضلال للناس وحملهم على الشرك بالله، كفعل إبليس.

وعلى كلّ حال فالتوراة الرائجة صريحة في أنّ هارون ـ وحاشاه ـ صنع العجل ليتّخذه بنو إسرائيل إلهاً لهم وعبده وأمر بعبادته، ولم تتعرّض لبيان أنّ اعتقاده كان مخالفاً للظاهر.

وقد أنكر المتكلّف على صاحب السيف الحميدي قوله: «ورد في سفر الخروج أنّ هارون صوّر العجل وعبده، وأمر بني إسرائيل بعبادته»[2]. فجعل المتكلّف هذا القول افتراءً على هارون فرية كبرى.

فأقول أوّلاً: لايخفى ـ حتّى على الغبيّ ـ أنّ صاحب السيف الحميدي كان باعتراضه منزّهاً لهارون والتوراة الحقيقيّة عن هذه النسب، بل يقول: إنّ هذه الأقوال افتراء على هارون قدّوس الله، وعلى التوراة الحقيقيّة كتاب الله.

وثانياً: إنّ قول التوراة الرائجة: «فلمّا نظر هارون بنى مذبحاً أمامه ونادى غداً عيد

---

١. سفر الخروج ٣٢: ١ ـ ٦.

٢. الهداية ١: ٣٥.

الربّ» قدبتره المتكلّف عند نقله لهذا المقام؛ ليموّه اعتذاره البارد بأنّ هارون طلب من بني إسرائيل أقراط الذهب ليصرفهم ويماطلهم في مطلوبهم إلى أن يأتي موسى. أجل فلماذا فعل وصنع العجل الذي أراده إلهاً؟ أو ليس اللازم على المؤمن ـ فضلاً عن النبيّ الرسول ـ أن يبذل نفسه وما يعزّ عليه في المحاماة عن التوحيد؟ ولماذا لمّا سمعهم يقولون عنه: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر، ورأى عكوفهم عليه على أنّه إله، بنى مذبحاً أمامه ودعا للعيد؟ وأنّ المتكلّف هل يحصر العبادة بوضع خاصّ أو قول خاصّ، أوليس من الواضح أنّ أَولاها وأظهرها القول والإعلام بأنّ هذا إله، ثمّ التطوّع له وترتيب آثار الأُلوهيّة؟ وقد نسبت التوراة الرائجة كلّ هذا لهارون.

فيا أيّها الذين لايجوّزون كذب النبيّ في التبليغ، ولا يجوّزون على الله أن يرسل النبيّ الكاذب في تبليغه، كيف جوّزتم على النبيّ الرسول أن يصنع وثناً لمن يدعوه إلهاً؟! ويدعو إلى الشرك بالله وعبادة الأوثان، ويعين عليهما بفعله، وجعلتم ماتضمّن ذلك من الوحي والإلهام؟!

وليت شعري كيف يجتمع هذا الذي تذكره التوراة في شأن هارون، مع ماذكرته قبل ذلك من تكليم الله لموسى في شأن هارون أيضاً، وزيادة عنايته به في استخدامه زيادة على النبوّة والرسالة بتوظيفه للكهنوت والرئاسة الدينيّة للتقديس وتكفير الخطايا وتعليم الشريعة وسدانة خيمة الاجتماع؟! وزاد في العناية بالتفصيل الضافي لثياب كهنوته للمجد والبهاء وتلوينها وتزيينها وترصيعها. وكان هذا التكليم المطنب على طور سيناء في صعود موسى، الذي تذكر التوراة أنّ هارون صنع في أثنائه العجل إلهاً لبني إسرائيل وعبده ودعا لعبادته حينما أبطأ موسى في النزول من الجبل[١].

وأسأل المتكلّف: هل كان الله يعلم حينئذٍ بما يصنعه هارون من العجل وعبادته والدعوة إليها وتساهل معه، أو تقول غير ذلك؟ تعالى الله علوّاً كبيراً.

وكيف، ثمّ كيف يجوّز العقل والعقلاء أن يرسل الله رسولاً ويوظّفه لخدمته في

---

١. انظر إلى سفر الخروج ٤: ١٢ ـ ٣٢ و ٩ و ٢٨ بتمامهما.

الوظائف العظيمة وحفظ شريعته، ويؤيّده بإظهار عنايته به، مع أنّ ذلك الرجل يساعد على الضلال والشرك، ثمّ يظهره أو يعتقده ويدعو إليه ويغوي المؤمنين؟! أترى أنّ واحداً من ملوك الدنيا يعتني هذه العناية بمن يعلم أنّه يضلّ رعيّته ويهيّىء لهم التمرّد على شريعته وسلطانه؟ أو ليس أهون من ذلك أن يكون الرسول موحّداً في الظاهر والباطن، محافظاً على التوحيد والدعوة إليه، ولكنّه يكذب قليلاً أو كثيراً في تبليغ الأحكام التي لا تضرّ بأصل الإيمان وجوهر الشريعة؟

ومن الظرائف فرار بعضهم ـ كصاحب ميزان الحقّ ـ إلى إنكار نبوّة هارون ورسالته، فكابر في ذلك ما ذكرنا من صراحة العهدين.

ولقد صرف المتكلّف فيما نحن فيه كلاماً كثيراً لا ينفعه حتّى في المغالطة[1]. واستشهد أيضاً حيرة منه بآيات كثيرة من القرآن الكريم تنقض عليه بصراحتها غرضه، ومنها: قول الله ـ جلّ اسمه ـ في سورة طه[2]. وآخرها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى * قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾[3].

أفترى المتكلّف توهّم من هذه الآيات ـ وخصوص الأخيرة ـ أنّ معناها أنّ هارون صنع العجل إلهاً لبني إسرائيل وإجابة لطلبهم ذلك منه، وبنى مذبحاً ودعا إلى العيد؟ ثمّ إنّ المتكلّف لمّا شعر بارتباكه في هذا المقام، ولم يجد من طول كلامه طائلاً، فرّ إلى الانتقاد بوهمه على القرآن ورسول الله، ونسب الخلط والغلط بتسمية صانع العجل المذكور بالسامري، وجعلها من الجهل التامّ بالتأريخ وبعلم توقيع البلدان[4]. وادّعى بغفلته أنّه لم يكن في عصر موسى شيء يقال: سامرة ولا سامري[5].

١. انظر إلى الهداية ١: ٣٦ و ٣٧.
٢. طه (٢٠): ٨٧ ـ ٩١.
٣. طه (٢٠): ٩٠ ـ ٩١.
٤. الهداية ١: ٣٧.
٥. المصدر ٢: ٥٥.

فأقول: والذي دعا المتكلّف إلى هذا التهوّر والإقدام ما في السادس عشر من الملوك الأوّل ـ في التراجم العربيّة الجديدة ـ في ذكر عمري ملك إسرائيل الذي ملك بعد سليمان بن داود بخمسين سنة تقريباً:

واشترى جبل السامرة من شامر بوزنتين من الفضّة وبنى على الجبل ودعا المدينة التي بناها باسم شامر... السامرة[1].

فأضاف المتكلّف إلى ذلك بوهمه مقدّمتين:

إحداهما: أنّه لم يقع في خلق الله في جميع الأمكنة والأزمنة منشأ للتسمية بالسامري حتّى بنى عُمْرِي مدينته المذكورة.

وثانيتهما: أنّ القرآن تبع في تسميته صانع العجل بالسامري، لما ذكرناه عن الملوك الأوّل.

وإنّ دعوى هاتين المقدّمتين لتحتاج إلى الإلهام، ولعلّ المتكلّف يدّعيه.

ولم يختصّ بهذا بل سبقه إليه المتعرّب فادّعى أنّه لايمكن أن يكون في بني إسرائيل على عهد موسى سامري وأنّ هذا النعت لم ينعت به إلّا بعد جلاء بابل[2].

إذا سمعت هذا فاعلم أنّه كلّ ما جاء في العهد القديم من اسم السامرة المذكورة فإنّما لفظه في الأصل العبراني «شمرون». وعلى ذلك جرت النسخة الفارسيّة المطبوعة في أدن برغ سنة ١٨٤٥ و ١٨٤٦ م حتّى في العهد الجديد الذي ترجمه هنري مارتن. وعليه أيضاً جرت النسخة العربيّة المطبوعة سنة ١٨١١ م في العهد القديم منها، والترجمة العبرانيّة للعهد الجديد. وجرت على نهج الأصل العبراني للعهد القديم فسمّت السامري «شمروني» والسامري «شمرونيت» والسامريّين «شمرونيم»[3]. ولا بدّ أن يتّضح لك من ذلك أنّ سامرة وسامر تعريب «شمرون» في اللغة العبرانيّة. وسامري تعريب «شمروني»، وسامريّين تعريب «شمرونيم».

---

١. سفر الملوك الأوّل ١٦: ٢٤.

٢. ذيل مقالة في الإسلام: ٥٠.

٣. انظر أقلاً إنجيل متّى ١٠: ٥؛ إنجيل يوحنّا ٤: ٤ و ٩ و ٨: ٤٨.

وحينئذٍ فاعلم أنّه لا ينحصر وجه التسمية بالسامري بالنسبة إلى ما بناه عُمْرِي بعد زمان سليمان، بل إنّ من المدن التي افتتحها يوشع بن نون ووقعت في سهم سبط زَبُـولون مدينة شمرون، وكان لها ملك، فلابدّ أن تكون موجودة في عصر موسى؛ لقرب الزمان[1]. فيكون تعريبها سامرة والمنسوب إليها سامري. وهذا كافٍ في جهل المتكلّف والمتعرّب.

ويبقى السؤال على كثير من تراجم العهدين بالعربيّة، وهو أنّه لماذا عرّبوا شمرون مدينة عمري بالسامرة، وتركوا في التعريب شمرون التي افتتحها يوشع في تراجمهم على حالها؟ دع هذا فحقيقة الحال أنّ من أولاد يسّاكر بن يعقوب من اسمه شمرون[2]. وكان بنوه من عشائر بني إسرائيل المعدودين في الجند على عهد موسى. وسمّيت عشيرتهم في الأصل العبراني هشمرونيم[3]. وبمقتضى ما ذكرنا من التعريب يكون اسمهم في العربيّة السامريّين، وواحدهم سامري.

ولئن تهازل المتكلّف معجباً بعلمه ومعارفه وقال: «لا نعلم من أين أتى هذا السامري؟ هل نزل من السماء، أم طلع من الأرض؟»[4].

قلنا: إنّا لنعذرك في مبلغ اطّلاعك وتهوّراتك، ونخبرك بمقتضى العهد القديم أنّه جاء من سبط يسّاكر من عشيرة هشمرونيم باللفظ العبراني، والسامريّين بالعربي.

الفصل التاسع: في رسالة أيّوب وما ذكر في شأنه

أمّا نبوّته ورسالته في القرآن الكريم، فيكفي فيها أن عدّه الله في عداد من أوحى إليهم من الرسل المبشّرين والمنذرين، لتقوم بهم الحجّة[5]. وجاء في شأنه قوله تعالى في سورة ص: ﴿إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[6].

---

١. انظر إلى سفر يشوع ١١: ١ و ١٢: ٢٠ و ١٩: ١٥.

٢. سفر التكوين ٤٦: ١٣؛ سفر العدد ٢٦: ٢٤؛ سفر الأيّام الأوّل ٧: ٢١.

٣. سفر العدد ٤٦: ٤.

٤. الهداية: ١: ٣٧.

٥. انظر إلى سورة النساء (٤): ١٦١ ـ ١٦٣.

٦. ص (٣٨): ٤٤.

وأمّا نبوّته في العهدين، فقد تكرّر ذكر تكليم الله له ووحيه إليه[١] وما يدلّ على أنّه كان عظيماً عندالله يخلص نفسه ببرّه[٢]. وأنّه ليس مثله في الأرض رجل كامل ومستقيم يتّقي الله ويحيد عن الشرّ[٣]. وفي الخامس من رسالة يعقوب: «قد سمعتم صبر أيّوب»[٤].

ومع ذلك جاء عنه في العهد القديم من الاعتراض على أمر الله، والضجر من ابتلائه، وسوء الأدب في الاعتراض على الله والتألّم من الوعظ والإرشاد، ما لا ينبغي أن يصدر من أجهل جهّال الأشرار. فقيل عنه: إنّه جعل القضاء ظلماً بكلام بلا معرفة[٥]. وصار يطلب المحاكمة مع الله[٦]. ويعرّض بنسبة الظلم إليه تعالى الله عن ذلك[٧]. وأنّ الله نزع حقّه[٨]. ولفّق فوق إثمه[٩]. وانظر الكلام المنسوب له في السفر المسمّى باسمه تجد العجب العجيب[١٠].

فهل يجتمع صدق هذا النقل عنه مع صدق المنقول في رسالة يعقوب: «قد سمعتم صبر أيّوب»؟ وهل يجتمع هذا مع النبوّة والرسالة التي من مهمّات مقاصدها قطع مادّة هذا الفساد؟

الفصل العاشر: في نبوّة داود وما ذكر في شأنه

أمّا نبوّته في القرآن الكريم، فيكفي فيها قوله تعالى في سورة بني إسرائيل:

١. انظر إلى سفر أيّوب ٣٨: ١ و ٤٠: ١ و ٦ و ٤٢: ٧.

٢. سفر حَزْقِيال ١٤: ١٤ و ٢٠.

٣. سفر أيّوب ١: ٨ و ٢: ٣.

٤. رسالة يعقوب ٥: ١١.

٥. سفر أيّوب ٨: ٢.

٦. سفر أيّوب ١٩: ٧، و ٢٣: ٣ـ٩.

٧. سفر أيّوب ١٠: ٣، و ١٩: ٧.

٨. سفر أيّوب ٢٧: ٢.

٩. سفر أيّوب ١٤: ٧.

١٠. انظر أقلاً سفر أيّوب ٩: ٢١ ـ ٢٤ و ٢٨ ـ ٣٥، و ١٠: ١ ـ ٨.

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[١]. وعدّه في جملة الرسل الموحى إليهم[٢].

وأمّا في العهدين، ففي الثالث والعشرين من صموئيل الثاني: وَحْيُ داودَ بنِ يَسَّي وَوَحيُ الرجل القائم في العُلاَ. روح الربّ تَكلّم بي وكَلِمَتُه على لساني. قال إله إسرائيل إليَّ تَكلّم صَخرةُ إسرائيل[٣].

وفي ثاني عشر مرقس: «لأنّ داود يدعوه بالروح القدس ربّاً»[٤].

وفي ثاني الأعمال صرّح ما عن بطرس بأنّ داود كان نبيّاً[٥].

وفي أوّل رسالة العبرانيّين المنسوبة إلى بولس استشهد بفقرات عديدة من المزامير وجعلها قول الله[٦].

وأمّا ما ذكر في شأنه، ففي القرآن الكريم في سورة ص: ﴿وَهَلْ أَتَـٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ... * إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ... وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾[٧].

قال المتكلّف: «كلّ من أُوتي ذرّة من الفهم جزم بأنّ هذه الأقوال مأخوذة من التوراة»[٨].

يعني أنّها مأخوذة من الحادي عشر من صموئيل الثاني؛ حيث ذكر فيه: أنّ داود

١. الإسراء (١٧): ٥٥.
٢. كما في سورة النساء (٤): ١٦١ ـ ١٦٣؛ انظر إلى سورة الأنعام (٦): ٨٤ ـ ٩٠.
٣. سفر صموئيل الثاني ٢٣: ١ ـ ٣.
٤. إنجيل مرقس ١٢: ٣٦ نحوه في إنجيل متّى ٢٢: ٤٣.
٥. سفر أعمال الرسل ٢: ٣٠.
٦. رسالة بولس إلى العبرانيّين ١.
٧. ص (٣٨): ٢١ ـ ٢٤.
٨. الهداية ١: ٤٧.

ـ وحاشاه ـ زنى بامرأة أُورِيّا الحِثّي... الذي هو من جنده المؤمنين، على علم بأنّها امرأة أُورِيّا وذات بعل، فحملت منه، وحاول أن يموّه حملها منه ويلصقه بأُورِيّا زوجها، ثمّ سعى في قتل أُورِيّا [١].

وقد تشبّث المتكلّف لدعوى مطابقة الآيات في المراد لما ذكرنا عن صموئيل الثاني بأقوال بعض المفسّرين؛ حيث ذكروا في تفسيرها نحو ماذكر في صموئيل من الزنى وإلقاء أُورِيّا للقتل [٢].

وقد قدّمنا في المقدّمة السابعة أنّ مثل هذه الأقوال لا تحتفل بها الجامعة الإسلاميّة ولا يصحّ الجدل بها، وأنّ التشبّث بها إنّما هو من ضيق الخناق، خصوصاً مع مصادمتها لحكم العقل بعصمة النبيّ، ومعارضتها بما حكاه المتكلّف [٣] عن تفسير النسفي وغيره من أنّ داود وقعت عينه على المرأة فأحبّها فسأل أُورِيّا النزول له عنها، فاستحيا أن يردّه ففعل فتزوّجها [٤]، وما نقله أيضاً [٥] ممّا روي عن عليّ عليه السلام أنّه قال: «من حدّثكم بحديث داود على ما يرويه القُصّاص، جلدته مائةً وستّين وهي حدّ الفرية على الأنبياء» [٦] فسمّى عليه السلام رواة ذلك قُصّاصاً وهم المعتمدون على الخرافات التأريخيّة، وصرّح بأنّه فرية على النبيّ.

وروى الراوندي في قصص الأنبياء عن الإمام السادس من أهل البيت جعفر بن محمّد عليهما السلام روايتين بهذا المضمون وتبرئة ساحة داود عن هذا الافتراء [٧].

فمن الوهم البيّن قول المتكلّف قبل ذكر الرواية عن عليّ عليه السلام: «إنّ عليّاً لم يكن زجره إنكاراً لحقيقة القصّة، بل لصرف الناس عن المثالب». وليت شعري ألم يفهم المتكلّف

---

١. سفر صموئيل الثاني ١١: ٢ ـ ١٧.
٢. الدرّ المنثور ٧: ١٥٥، ذيل الآيات ٢١ ـ ٢٤ من سورة ص (٣٨).
٣. الهداية ١: ٤٩.
٤. تفسير النسفي ١: ٣٦، ذيل الآيات ٢١ ـ ٢٤ من سورة ص (٣٨).
٥. الهداية ١: ٥٠.
٦. الكشّاف ٤: ٨١، ذيل الآية ٢١ من سورة ص (٣٨).
٧. قصص الأنبياء: ٢٠٣، ح ٢٦٣.

معنى قولهﷺ: «حدّ الفرية على الأنبياء»؟ ولم ينظر إلى معنى الفرية في كتب اللغة؟

هذا، وقد رويت أيضاً في تفسير الآيات روايات متعدّدة مختلفة المضمون، وكلّها معارضة لما ذكره أوّلاً عن المفسّرين، ومبرّئة بجامع مضمونها لداود عن الزنى وما بعده. فانظر إلى كتاب تنزيه الأنبياء للسيّد المرتضى ﵀[1].

فأقول: إنّ من كان له من الفهم ما يهديه إلى الصواب ليجزم بأنّ مدلول الآيات مباين للقصّة المذكورة في حادي عشر صموئيل الثاني؛ فإنّ دعوى أحد الخصمين إن كانت على سبيل المَثَل لفعل داود، كانت هي وجواب داود في القضاء بمقتضى القرآن يدلّان على أنّ الصورة محض الطلب والسؤال للنعجة، من دون أخذلها أو تصرّف بها قهراً أو اختلاساً، وبمقتضى قانون المَثَل في مطابقته للممثّل أن لا يكون داود تصرّف بامرأة أُورِيّا. وحيث إنّ الروايات المفسّرة للآيات ـ زيادة على تعارضها فيما بينها ـ لم يبلغ بعضها الحدّ الذي يصحّ الاعتماد عليه أو الجدل به، حسب القانون الذي ذكرناه في المقدّمة السابعة. فصواب القول في الآيات هو أنّها لا دلالة فيها على أنّ الخصمين من أيّ نوع كانا، ولا على أنّ محاكمتهما كانت صوريّة لأجل التوبيخ لداود، ولا على أنّه تسرّع في القضاء، ولا على أنّ فتنته وامتحانه بأيّ نحو كانا.

فمقتضى ظاهر اللفظ أنّ المخاصمة غير صوريّة. ومقتضى أنّ داود آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب[2]، وأنّه عن أحكام الله لم يَمِل؛ لأنّ الله هو علّمه ولم ينس شريعة الله، ولم يضلّ عن وصاياه[3]، هو أنّه لم يتسرّع في الحكم ولم يجر على غير قانونه الشرعي.

وأمّا فتنته، فيجوز في معناها أن يكون داود قد امتحنه الله بدخول الخصوم من غير الموضع المعتاد للدخول، ومخاصمتهم في أمر غير مهمّ كثيراً، حتّى فزع وفكّر في ذلك وأنّه ما عسى أن يكون هذا الأمر فشغل بفزعه وفكره زماناً عن وظيفته وطريقته في محراب العبادة من النوافل والتسابيح المندوبة، فخرّ راكعاً مسارعة إلى وظيفته، وأناب

---

١. تنزيه الأنبياء: ١٥٣ ـ ١٥٩.

٢. كما في سورة ص (٣٨): ١٩.

٣. سفر المزامير ١١٩: ١٠٩ ـ ١١٢.

إلى الله عمّا يعدّه في تقواه واجتهاده في العبادة زلّة من زلّات المتّقين، فطلب من الله المغفرة والعود إلى مقامه الرفيع ومنزلة الصدّيقين، فقال الله جلّ شأنه في أثر الآيات: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾[1]. وكيف يكون له عند الله زلفى وحسن مآب إذا كان قد اتّبع هواه مدّة من الزمان ـ كما يزعمون ـ إلى الزنى بذات البعل وتسبيبه قتل زوجها؟ وقد قال الله له: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[2].

وإنّ هاتين الآيتين الأخيرتين يتحصّل منهما برهان استثنائي على أنّ داود لم يتّبع الهوى فلم يفعل خطيئة. وتقريره هو أنّ كلّ من يتّبع الهوى له عذاب شديد بحكم الآية الأخيرة، لكن داود ليس له عذاب شديد، بل له عند الله زلفى وحسن مآب بحكم الآية التي قبلها، فينتج بالبداهة أنّ داود لم يتّبع الهوى، فكيف تفسّر الآيات السابقة، أو يتوهّم في معناها ما يناقض هذه النتيجة؟!

وإذا تدبّرت هذا كلّه، عرفت صواب الشيخ السنوسي و جرأة المتكلّف عليه[3]. وسيعلمون غداً مَن أصحاب الصراط السويّ ومَن اهتدى[4].

وفي المزمور المائة والتاسع عشر:

من كلّ طريق شرّ منعت رجلي لكي أحفظ كلامك. عن أحكامك لم أمِلْ؛ لأنّك أنت علّمتني. أمّا وصاياك فلم أضلّ عنها[5].

وليت شعري كيف يجتمع هذا المنسوب إلى الإلهام والوحي مع ما سنذكره من العهدين ممّا يشدّد القدح في قدس داود؟! وكيف لا يتناقضان؟! وكيف يكون التناقض؟!

---

١. ص (٣٨): ٢٥.

٢. ص (٣٨): ٢٦.

٣. الهداية ١: ٥٣ س ١٦.

٤. تضمين الآية ١٣٥ من سورة طه (٢٠).

٥. سفر المزامير ١١٩: ١٠١، ١٠٢، ١١٠.

ففي الحادي عشر من صموئيل الثاني:

وكان في وقت المساء أنّ داود قام عن سريره وتمشّى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحمّ، وكانت المرأة جميلة جدّاً. فأرسل داود وسأل عنها فقال واحد: أليست هذه بَتْشَبَع بنت أَلِيعامَ امرأة أُورِيّا الحِثّي؟ فأرسل داود رُسُلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مُطَهَّرَة من طَمْثِها، ثمّ رجعت إلى بيتها. وحَبِلت فأرسلت وأخبرت داود وقالت: إنّي حبلى[١].

فأرسل داود على أُورِيّا وجاء به من الحرب وأمره أن يذهب إلى بيته، وغرضه أن يقارب أُورِيّا امرأته فيتموّه أمر الحمل، فلم يمض أُورِيّا إلى بيته مواساة لأصحابه المتجرّدين للحرب في سبيل الله مع تابوت الله. ولمّامضى أُورِيّا إلى الحرب كتب داود إلى رئيس جيشه أن يجعلوا أُورِيّا في وجه الحرب الشديدة ويرجعوا من ورائه ليقتل، ففعلوا وقتل أُورِيّا وأُخبر داود بموته فأرسل إلى امرأته المذكورة فضمّها إلى بيته فولدت له ولداً من حمل ذلك الزنى[٢].

فأرسل الله ناثان النبيّ إلى داود وقال له: قد كان في مدينة رجلان واحد فقير له نعجة واحدة عزيزة عليه، وآخر غنيّ له غنم وبقر كثيرة جدّاً، فأخذ الغنيّ نعجة الفقير وهيّأها لضيفه، فقال داود: يقتل هذا الرجل ويردّ على الفقير النعجة أربعة أضعاف ـ وفي النسخة السبعينيّة: سبعة أضعاف ـ فأخبره ناثان بأنّ هذا مثل له، ووبّخه عن قول الله على أفعاله، وأنّ الله سيكافئه ويسلّط عليه من أهل بيته من يزني بنسائه قدّام جميع إسرائيل، وأخبره بأنّ الولد المولود له من هذا الزنى سيموت. ولمّا مرض الولد صام داود لأجله وطلب من الله شفاءه، وبات مضطجعاً على الأرض ولم يأكل خبزاً[٣].

وقد نسب إلى داود هاهنا خطيئة أُخرى، وهو حكمه على أخذ النعجة بخلاف شريعة التوراة، إذ قد جمع عليه بين القتل وغرامة أربعة أضعاف النعجة ـ أو سبعة ـ لأنّه

١. سفر صموئيل الثاني ١١: ٢ ـ ٥.
٢. سفر صموئيل الثاني ١١: ٦ ـ ٢٧.
٣. سفر صموئيل الثاني ١٢: ١ ـ ١٨.

إن كان قد سرقها غرم أربعة أضعافها، ولكن لا يهدر دمه مطلقاً، إلّا إذا وجد ينقب فضرب ومات فانّه ليس له دم، ولكن إن أشرقت عليه الشمس فله دم[١]. وأمّا إن كان قد غصبها فليس عليه إلّا أن يعوّض عنها ويزيد عليها خُمْس العوض، ويكفّر بكبش صحيح ذبيحة إثم[٢].

وأيضاً قد نسب له مع أَبْشَالُوم ابنه ما ينجرّ إلى الخطيئة والتساهل في تأديبات الشريعة وحدودها مع الأشرار المفسدين في الأرض، لمحض الهوى وحبّ الولد[٣].

الفصل الحادي عشر: في نبوّة سليمان وما ذكر في شأنه

أمّا نبوّته في القرآن الكريم، فقد ذكره الله جلّ اسمه في عداد الأنبياء من ذرّيّة إبراهيم في سورة الأنعام[٤]. وقال تعالى بعد تعدادهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾[٥]. وذكره أيضاً في سورة النساء في عداد الرسل الموحى إليهم المصرَّح برسالتهم[٦].

وأمّا في العهدين، ففي الثالث من الملوك الأوّل، والأوّل من الأيّام الثاني: «تراءى الله لسليمان وقال له: اسأل ماذا أعطيك»[٧].

وفي العهدين أيضاً: فقال الله لسليمان[٨].

وفي السابع من الأيّام الثاني ما حاصله: «أنّ الله تراءى ثانياً لسليمان وقال له: قد سمعت صلاتك»[٩].

---

١. سفر الخروج ٢٢: ١ و ٢.

٢. سفر اللاويّين ٦: ١ ـ ٨.

٣. انظر سفر صموئيل الثاني ١٥ و ١٨: ٣٣.

٤. الأنعام (٦): ٨٤.

٥. الأنعام (٦): ٨٩.

٦. النساء (٤): ١٦٢ ـ ١٦٤.

٧. سفر الملوك الأوّل ٣: ٥؛ سفر الأيّام الثاني ١: ٧.

٨. سفر الملوك الأوّل ٣: ١١ و ١٢؛ سفر الأيّام الثاني ١: ١١.

٩. سفر الأيّام الثاني ٧: ١٢.

وفي سادس الملوك الأوّل: «وكان كلام الربّ إلى سليمان»[١].

وفي الثامن والعشرين من الأيّام الأوّل عن قول داود عن قول الله له: «وقال إنّ سليمان ابنك هو يبني بيتي وديارى؛ لأنّي اخترته لي ابناً وأنا أكون له أباً»[٢]. ونحوه في الثاني والعشرين من الأيّام الأوّل[٣]. وسابع صموئيل الثاني[٤].

وأمّا ما ذكر في شأنه، ففي القرآن الكريم في سورة ص: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَـٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾[٥].

قال المتكلّف:

> قد ورد في القرآن ما يفيد أنّه اشتغل بالأُمور الدنيويّة التي ألهته عن عبادة الله، والآيات دالّة على أنّ الخيل ألهته عن الصلاة[٦].

أقول: لا ينبغي أن ينكر أن اقتناء سليمان للخيل واختياره لأحوالها كان من الخير الراجح؛ لأنّ اقتناءها كان بمقتضى الحال لتثبيت مملكة الإيمان، والاستعداد لدفاع طغيان الوثنيّين وعدوانهم. وربّما يدلّ عليه قوله: ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ فلا وجه للقطع بأنّه كان من اللهو الدنيوي ـ كما توهّمه المتكلّف ـ بل هو على ما ذكرناه نحو من أنحاء العبادة، ومقدّمات المحافظة على الموحّدين والجهاد في سبيل الله.

ومن أين في دلالة الآيات ما يفيد أنّه اشتغل بالنظر إلى الخيل عن عبادة واجبة حتّى فات وقتها، ليكون قد أذنب وفعل قبيحاً؟

---

١. سفر الملوك الأوّل ٦: ١١.
٢. سفر الأيّام الأوّل ٢٨: ٦.
٣. سفر الأيّام الأوّل ٢٢: ٩ و ١٠.
٤. العدد ١٤.
٥. ص (٣٨): ٣٠ ـ ٣٣.
٦. الهداية ١: ٤٣.

فلماذا لم يحتمل المتكلّف أنّ ذكر الربّ في الآية كان من التسابيح المندوبة التي يجوز تركها وان كان عمداً، فضلاً عن الاشتغال عنها بخير آخر؟ ولكنّها لمّا كانت من وظائف سليمان المعتادة في ذلك الوقت، أسف على فوات وظيفتها بسبب ما يمكن تحويله إلى وقت آخر.

ويمكن أن يكون معنى باقي الآيات ـ إن لم يكن هو الظاهر منها ـ أنّ سليمان ردّ الخيل إلى محالّها ليدرك وقت الوظيفة من الذكر المعتاد له. ولمّا توارت بالحجاب وفات وقت الوظيفة، قال: ردّوا الخيل عليّ ليعود إليّ الخير الأوّل، فطفق يمسح بسوقها وأعناقها لأحد أمرين: إمّا لأنّه أحبّ أن يتواضع لله ويعمل عمل المتولّين لخدمة الخيل وسُوّاسِها. وإمّا لأن يتألّفها ليتمكّن منها وتجري على إرادته عند الركوب.

وكيف كان فإنّ قول الله جلّ اسمه عند صدر القصّة في شأن سليمان: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ مانع عن حملها على وجه يقتضي وقوع سليمان في المعصية.

وقال الله تعالى في سورة ص أيضاً: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ۞ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾[١].

فقال المتكلّف: «إنّ هذه العبارات دالّة بصراحة اللفظ على وقوعه ـ أي سليمان ـ في الخطيئة»[٢].

أقول: إنّ من معاني الفتنة هو الامتحان والابتلاء، وقد اقتضت الحكمة ابتلاء سليمان فألقى على كرسيّه جسداً فشغله ذلك عن تسابيحه المندوبة ووظائفه المعتادة، ولم يفعل بذلك ذنباً ولو تركها عمداً وابتداءً. ولكن اجتهاد الأنبياء في العبادة يأبى ذلك، بل يعدّونه من الخسران، وأسباب عدم الترقّي بالطاعة إلى المراتب السامية. فساء سليمان ذلك وأناب إلى ربّه واستغفره لتقصيره عن وظيفته، الذي يعدّه الصدّيقون من الزلل ونقصان الربح، فغفر الله له. ولعلّ ما ناله بالإنابة إلى الله أفضل ممّا فاته.

---

١. ص (٣٨): ٣٤ ـ ٣٥.

٢. الهداية ١: ٤٥.

وممّا ينبغي الاعتبار به أنّ المتكلّف تقوّل على القرآن وهذه الآيات فقال غير متحرّج حتّى من انتقاد الناس: «إنّه ورد في القرآن أنّ سليمان سمح بعبادة الأصنام في بيته»[١]. وتشبّث لكلّ ما ادّعاه هاهنا كعادته بأخبار بعض القصّاص[٢]، وإنّه ليعلم أنّ جمهور المسلمين والجامعة الإسلاميّة لا يحتفلون بها.

وإنّه لحقّ أن يقال له: ما ذا تصنع؟ أو ما سمعت المثل: ولن يُصلِح العطّار ما أفسد الدهر[٣]. فإنّ في الحادي عشر من الملوك الأوّل:

وكان في زمان شيخوخة سليمان أنّ نساءه أَمَلْنَ قلبه وراء آلهة أُخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الربّ إلهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان وراء عَشْتارُوت آلهة الصَيدُونيّين ومَلْكُوم رجس العَمُّونيّين. وعمل سليمان الشرّ في عيني الربّ ولم يتبع الربّ تماماً كداود أبيه، حينئذٍ بنى سليمان مرتفعة لكَمُوش رجس المُوآبيين على الجبل الذي تجاه أُورشلِيم ولمُولَك رجس بني عَمُّون[٤].

وليت شعري هل عبادة الأوثان إلّا أن يذهب وراءها، ويعمل لها مثل ما يعمله عبدتها لها كبناء المرتفعات ونحوه؟ وإنّ المتكلّف قد هوّن هذا الأمر، فقال: «ذكر في التوراة أنّ النساء الغريبات أملن قلب سليمان حتّى بنى لآلهتهنّ المرتفعات»[٥].

ومن الاتّفاق الظريف أنّ في العهدين كلمة تنقل عن قول الله قد لازمتها العاقبة غير المحمودة، وهي كلمة «الابن» ففي رابع الخروج: «يقول الربّ: إسرائيل ابني البكر. أَطلِق ابني ليعبُدَني»[٦]. فكان عاقبة ذلك أنّ هؤلاء الذين قيل فيهم هذا قد تقلّبوا في

---

١. الهداية ١: ٤٣.

٢. انظر إلى الهداية ١: ٤٤ و ٤٥.

٣. هذا جزء من شعر، هو كما يلي:

عجوز تمنّت أن تعودَ صبيّةً ... وقد نحل الجنبانِ واحدَوْدَبَ الظَهرُ
فراحت إلى العطّار تبغي شبابها ... ولن يصلح العطّار ما أفسد الدهرُ

انظر بلاغات النساء، لابن طيفور: ١٠٠، باختلاف.

٤. سفر الملوك الأوّل ١١: ٤ ـ ٧؛ انظر إلى سفر الملوك الثاني ٢٣: ١٣.

٥. الهداية ١: ٤٣.

٦. سفر الخروج ٤: ٢٢ ـ ٢٣.

شركهم ما شاؤوا، كما سمعت في المقدّمة الخامسة.

وفي الثامن والعشرين من الأيّام الأوّل في شأن سليمان: «اخترته لي ابناً وأنا أكون له أباً»[١]. ويقول الحادي عشر من الملوك الأوّل: «إنّ هذا المختار مال قلبه إلى الأوثان وذهب وراءها وعمل لها ما يعمله عبّادها»[٢].

وفي ثالث متّى في شأن المسيح: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سُرِرْت»[٣]. فكانت العاقبة ممّن ينتمي إليه أن يقول: إنّ الله ذو أقانيم ثلاثة، فهو واحد وثلاثة.

هذا، وقد نسب الحادي عشر من الملوك الأوّل إلى سليمان غير هذا من المعاصي الكثيرة ومخالفات الشريعة:

منها: تزوّجه بسبعمائة امرأة واتّخاذه ثلاثمائة من السراري[٤]. وقد حرّمت التوراة على ملك بني إسرائيل كثرة النساء[٥].

ومنها: تزوّجه بالوثنيّات وقد حرّمته التوراة أيضاً[٦]. ولابدّ حينئذٍ من أن تكون مقاربة المرأة التي حرّم التزوّج بها من قسم الزنى المحرّم في التوراة[٧].

وعلى هذا فقد نسب إلى سليمان كثرة الزنى في كثير من عمره الشريف، وذلك من حين تجاوزه المقدار الموظّف له في الشريعة من النساء، ومن حين تزوّجه بالمشركات.

فلينظر العاقل أنّه هل يجوز في حكمة الله ولطفه أن يكون مثل من تُنسَب له هذه الأُمور نبيّاً بعث لإرشاد الخلق، واختاره الله ابناً له، وأوحى إليه مثل كتاب الأمثال والجامعة المعدودين من كتب الوحي؟

---

١. العدد ٦.

٢. سفر الملوك الأوّل ١١: ٥ ـ ٨.

٣. إنجيل متّى ٣: ١٧.

٤. سفر الملوك الأوّل ١١: ٣.

٥. سفر التثنية ١٧: ٧.

٦. سفر الخروج ٣٤: ١٦؛ سفر التثنية ٧: ٣ و ٤.

٧. سفر الخروج ٢٠: ١٤؛ سفر التثنية ٥: ١٨.

الفصل الثاني عشر: في نبوّة اليسع وما ذكر في شأنه

أمّا نبوّته في القرآن الكريم، فقد ذكره في عداد الأنبياء الذين صرّح بنبوّتهم في سورة الأنعام[١]. وفي مقام آخر ظاهر في أنّه لتعداد الأنبياء في سورة ص[٢].

وأمّا في العهدين، فقد صرّح بنبوّته في أوّل التاسع من الملوك الثاني.

وأمّا ما ذكر في شأنه، ففي الثامن من الملوك الثاني:

أنّ بَنْهَدَد ملك آرام كان مريضاً فأرسل حزائيل مع هديّة إلى أَلِيشَع ليسأله عن كلام الله أنّه هل يشفى من مرضه؟ فقال له أَلِيشَع: اذهب وقل له: شفاء تشفى وقد أراني الربّ أنّه يموت موتاً[٣].

وقد نسب إلى أَلِيشَع في ذلك صريح الكذب على الوحي وكلام الله.

وفي السادس من الملوك الثاني ما حاصله: أنّ أَلِيشَع كذب على الجيش الذي أرسله في طلبه ملك آرام ثلاث كذبات لم تلجئ إليها الضرورة[٤].

كما ألجأت إسحاق إلى قوله عن امرأته: «إنّها أُخته».

الفصل الثالث عشر: في نبوّة إرْمِيا وما ذكر في شأنه

أمّا نبوّته، ففي صريح السادس والثلاثين من الأيّام الثاني[٥]، وثامن متّى[٦]. وفي هذا المقدار كفاية لأهل الكتاب.

وأمّا ما ذكر في شأنه ففي العهدين في رابع كتابه المسمّى إرْمِيا عن قوله:

فقلت: آه يا سيّدُ الربّ حقّاً إنّك خِداعاً خادَعْتَ هذا الشعب وأُورشَليم قائلاً:

---

١. الأنعام (٦): ٨٦ ـ ٨٩.

٢. ص (٣٨): ٤٨.

٣. سفر الملوك الثاني ٨: ٧ ـ ١٠.

٤. سفر الملوك الثاني ٦: ١٩.

٥. سفر الأيّام الثاني ٣٦: ١٢.

٦. إنجيل متّى ٨: ١٧.

يكون سلام وقد بلغ السيفُ النفسَ[١].

أقول: وليت شعري ما ذا يقول المتكلّف في هذا المقام؟ أيقول: إنّ الله جلّ شأنه متّصف بهذا؟ تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

أم يقولون: إنّ هذا النبيّ ـ الموحى إليه بكثير من الغيب، والمرسل لموعظة بني إسرائيل وإرشادهم ـ لا معرفة له بالله، ولم يسمع عن التوراة أقلّاً قولها: «إنّ الله ليس إنساناً فيكذب؟»[٢] وفي خامس عشر صموئيل الأوّل: «ونصيح إسرائيل لا يكذب»[٣].

أم يقولون: إنّ هذا النبيّ إن شاء يسبّ الله ويصفه بالكذب والخداع، لينكشف للناس علم الله وغناه وحكمته في إرساله؟

ولا أقلّ من أن يكون هذا الكلام المعدود من الإلهام كذباً في تبليغ الناس وإرشادهم إلى المعارف الحقّة، إذ نسب هذه الصفة إلى الله تعالى.

أم يقولون: إنّ هذا الكلام وما يجري مجراه مكذوب على الأنبياء، مدسوس في كتب الوحي، من تصرّف الضُلّال، أو من عَيْث[٤] الجهل؟ فليعتبر ذو الرشد.

الفصل الرابع عشر: في نبوّة حَزْقِيال وما ذكر في شأنه

أمّا نبوّته، فضروريّة عند أهل الكتاب، والكتاب المنسوب إليه المشتمل في أواخره على تبليغ الشريعة معدود من الكتب الإلهاميّة الصادرة عن الوحي وكلام الله عند عامّة أهل الكتاب، ما عدابقيّة السامريّين.

وأمّا ما ذكر في شأنه، فقد قدّمنا عنه أنّه أخبر في السادس والعشرين من حَزْقِيال عن قول السيّد الربّ في شأن تخريب نَبُوخُذراصَّر لصور ونهبه لثروتها وغنيمته لتجارتها[٥]، بتفصيل طويل الذيل.

---

١. سفر إرميا ٤: ١٠.

٢. سفر العدد ٢٣: ١٩.

٣. سفر صموئيل الأوّل ١٥: ٢٩.

٤. العيْث: الإفساد. الصحاح ١: ٢٨٧، «ع ي ث».

٥. سفر حَزْقِيال ٢٦.

ثمّ ذكر عنه في التاسع والعشرين عن كلام الربّ أنّ نَبُوخَذراصَّـر لم تكـن له ولا لجيشه أُجرة من صور، وأنّ الله عوّضه عنها بمصر[١]. فراجع[٢]. وافرض صحّة ما تكلّفه المتكلّف، ومع ذلك تجد ما لا بدّ من أن يكون كذباً في التبليغ عن الله.

الفصل الخامس عشر: في رسالة المسيح وما قيل في شأنه

أمّا رسالته في القرآن الكريم، فيكفي قول الله جلّ شأنه في سـورة النسـاء: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾[٣].

وقوله جلّ شأنه في سورة المائدة: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾[٤].

وأمّا رسالته في العهد الجديد، فلا تحتاج إلى ذكر.

وأمّا ما أُدّعِي في العهد الجديد من إشارة العهد القديم إليه وإلى نبوّته، فسيأتي إن شاء الله إيضاح أنّ بعضها لا وجود له في العهد القديم، وبعضها لا يمكن انطباقه عليه، وبعضها نصّ في سليمان بن داود، وبعضها رموز تنطبق على غيره كما تنطبق عليه، بل لعلّ انطباقها على غيره أولى.

وأمّا ما ذكر في شأنه فأُمور:

الأوّل: أنّ في سابع لوقا، وحادي عشر متّى ما يتضمّن اعتراف المسيح ـ وحاشاه ـ بأنّه شرّيب خمر[٥]، أي كثير الشرب لها.

---

١. سفر حَزْقِيال ٢٩.

٢. تقدّم في ص ٧٦.

٣. النساء (٤): ١٧١.

٤. المائدة (٥): ٧٥.

٥. إنجيل لوقا ٧: ٣٤؛ إنجيل متّى ١١: ١٩.

وفي السادس والعشرين من متّى ورابع عشر مرقس، والثاني والعشرين من لوقا، ما يتضمّن أنّه ـ حاشاه ـ شرب الخمر وقال قول المودّع لها المتأسّف على فراقها[١].

وفي ثاني يوحنّا أنّه ـ وحاشاه ـ حضر هو وتلاميذه في قانا الجليل مجلس العرس الذي تُشرَب فيه الخمر، ولمّا فرغت الخمر صنع لهم بطلب أُمّه ستّة أجْرانٍ من الخمر الجيّد، فسقوا منه[٢].

وليت شعري ما يصنع المتكلّف وغيره بهذا إذا كانت الخمر حراماً قطعاً كما اعترف به المتكلّف[٣] وكذا سقيها، كما في ثاني حبقوق[٤]، وكما سنوضّحه إن شاء الله في موانع النبوّة وبيان حرمتها خصوصاً على الأنبياء؟

الثاني: قد قدّمنا في الفصل الرابع من الباب الثاني من هذه المقدّمة[٥]، أنّه قد ذكر عن قول المسيح في شأن معاصريه: «جيل شرّير وفاسق يطلب آية ولا تعطى له آية إلّا آية يُونان النبيّ»[٦].

الحقَّ أقول لكم: لن يعطى هذا الجيل آية[٧]. وذكرنا أنّ كلّ واحد من هؤلاء الثلاثة يذكر في إنجيله ما يكذّب هذا القول المنسوب إلى المسيح، بنقله صدور الآيات بعد ذلك، ويكذّبه أيضاً يوحنّا بواقعة إحياء ألِعازر.

ويلزم من ذلك: إمّا نسبة الكذب إلى المسيح، وحاشاه، أو كذب أصحاب الأناجيل فيما نقلوه من صدور الآيات بعد ذلك، أو كذبهم في نسبة هذا الكلام إلى المسيح، أو كذب غيرهم في نسبة ذلك إليهم.

---

١. إنجيل متّى ٢٦: ٢٧ ـ ٣٠؛ إنجيل مرقس ١٤: ٢٣ ـ ٢٦؛ إنجيل لوقا ٢٢: ١٧ و ١٨.

٢. إنجيل يوحنّا ٢: ١ ـ ١٢.

٣. الهداية ١: ١٣.

٤. سفر حبقوق ٢: ١٥.

٥. تقدّم في ص ٧٨ في الفصل الرابع من الباب الأوّل.

٦. إنجيل متّى ١٢: ٣٩؛ إنجيل لوقا ١١: ٢٩.

٧. إنجيل مرقس ٨: ١٢.

وأيضاً ذكر عن قول المسيح: «لأنّه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيّام وثلاث ليال هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيّام وثلاث ليال»[١]. مع أنّ مقتضى الأناجيل الأربعة أنّه لم يبق في قلب الأرض إلّا ليلتين وهما ليلة السبت وليلة الأحد، ويوماً كاملاً وهو يوم السبت، وشيئاً يسيراً من يوم الجمعة، وشيئاً يسيراً لا يذكر من يوم الأحد. فاختر لمن تنسب الكذب في هذا الأمر.

وأيضاً في سابع يوحنّا أنّ المسيح إذ كان في الجليل قريباً من عيد المظالّ قال له إخوته أن يذهب إلى اليهوديّة ليرى تلاميذه أعماله، فقال لهم: اصعدوا أنتم إلى هذا العيد أنا لست أصعد بعد إلى هذا العيد؛ لأنّ وقتي لم يكمل بعد. قال لهم هذا ومكث في الجليل. ولمّا كان إخوته قد صعدوا صعد هو أيضاً إلى العيد[٢].

وأيضاً في حادي عشر متّى عن قول المسيح في شأن يوحنّا المعمدان: «وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليّا المزمع أن يأتي»[٣]. مع أنّ في أوّل إنجيل يوحنّا في شأن يوحنّا المعمدان: «فسألوا إذاً ماذا؟ إيليّا أنت؟ فقال: لست أنا»[٤]. وينتج من هذين النقلين نسبة الكذب إلى أحد النبيّين: إمّا إلى المسيح بقوله: «إنّ يوحنّا هو إيليّا المزمع أن يأتي». وإمّا إلى يوحنّا بقوله: إنّه ليس إيليّا. مع أنّه نقل عن قول المسيح في شأن يوحنّا: «إنّه نبيّ وأعظم من نبيّ»[٥].

الثالث: في ثامن يوحنّا عن قول المسيح إذ قال له الفرّيسيّون: أنت تشهد لنفسك وشهادتك ليست حقّاً، حيث قال: «وأيضاً في ناموسكم مكتوب شهادة رجلين حقّ. أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الأبُ الذي أرسلني»[٦]. وقد نسبوا إلى قدسه بهذا الكلام تمام الجهل بحكم التوراة ومعرفة المكتوب وحكم القضاء شرعاً وعرفاً؛ فإنّ المدّعي

---

١. إنجيل متّى ١٢: ٤٠.
٢. إنجيل يوحنّا ٧: ٨ ـ ١٠.
٣. إنجيل متّى ١١: ١٤.
٤. إنجيل يوحنّا ١: ٢١.
٥. إنجيل متّى ١١: ٩.
٦. إنجيل يوحنّا ٨: ١٧ ـ ١٨.

لا يكون أحد الشهود ألبتّة حتّى عند الأوباش.

الرابع: في ثالث عشر يوحنّا بعد أن ذكر إخبار المسيح بأنّ واحداً من تلاميذه سيُسلِمه:

وكان متّكئاً في حضن يَسُوع واحد من تلاميذه كان يَسُوع يحبّه. فأومأ إليه سِمْعان بُطْرُس أن يسأل من عسى أن يكون الذي قال عنه. فاتّكأ ذاك على صدر يسوع وقال [له]: يا سيّد من هو؟[١] انتهى.

واعلم أنّ قوله: «كان مُتَّكِئاً» معناه أنّه كان جالساً. وشواهده من العهد الجديد كثيرة[٢]. ولا تظنّ أنّ هذا التلميذ كان ابن أربع سنين أو ثلاث حتّى لا يقبح اتّكاؤه وجلوسه في حضن المسيح، بل يدلّك الحادي والعشرون من يوحنّا على أنّه هو يُوحنّا بن زَبْدِي الذي ينسب إليه هذا الإنجيل[٣]. وأنّه قبل اتّكائه وجلوسه في حضن المسيح بنحو ثلاث سنين، كان يصطاد السمك مع أبيه وأخيه، ويعمل في السفينة ويصلح الشباك[٤]. فلا بدّ وأن يكون حين ما يُدّعى من جلوسه في حضن المسيح واتّكائه على صدره شابّاً في ريعان الشباب وغضارته.

فانظر يا ذا الرشد والفهم الحرّ، واعتبر في أحوال البشر ونزاهة الأولياء وعفافهم، وقل: هل يجوز على قدس المسيح أن يُجلِس في حضنه شابّاً غضّاً في محفل من التلاميذ، ويعطيه وجهاً حتّى إذا أراد أن يكلّمه اتّكأ على صدره، كتغنّج الفتاة المعجبة بجمالها المعتمدة على شغف زوجها بها؟ أفهذا وضع رسول مرشد إلى الهدى والعفاف أم وضع ...؟

غفرانك اللهمّ ممّا ذكرت، فإنّي أردت إرشاد الجاهل وتنبيه الغافل، وتنزيه مسيحك المقدّس ورسولك المكرّم، ليحيا من حيّ عن بيّنة.

---

١. إنجيل يوحنّا ١٣: ٢٣ ـ ٢٥.

٢. انظر أقلّاً إلى إنجيل يوحنّا ٢: ١ ـ ١٠؛ إنجيل متّى ١٤: ١٩ و ١٥: ٣٥؛ إنجيل مرقس ٦: ٣٩؛ إنجيل لوقا ٩: ١٤ و ١٥؛ إنجيل يوحنّا ٦: ١٠ و ١١.

٣. إنجيل يوحنّا ٢١: ٢٠ ـ ٢٥.

٤. إنجيل متّى ٤: ٢١ و ٢٢؛ إنجيل مرقس ١: ١٩ و ٢٠.

الخامس: في عاشر يوحنّا في شأن المسيح:

أجابه اليهود قائلين: لسنا نرجمك لأجل عمل حسن، بل لأجل تجدِيف؛ فإنّك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً.

أجابهم يسوع: أليس مكتوباً في ناموسكم: أنا قلت: إنّكم آلهة. إن قال: آلهة لأُولئك الذين صارت إليهم كلمة الله ولا يمكن أن ينقض المكتوب. فالذي قدّسه الأب وأرسله إلى العالم، أتقولون له: إنّك تُجدّف؟ لأنّي قلت: إنّي ابن الله[١]. انتهى.

فأقول في هذا الكلام وفرض نسبته إلى المسيح ـ وحاشاه ـ: إن كان هذا الاحتجاج بما في الناموس جدلاً من المسيح لليهود وإسكاتاً بما في ناموسهم، لزم أن يكون في ناموسهم ما ليس من الإلهام، بل هو كذب عليه، فجادلهم به المسيح إلزاماً لهم وانتقاداً عليهم، وهذا من شواهد التحريف الذي ادّعيناه.

وإن كان برهاناً من المسيح، لزم أن يكون معتقداً مصدّقاً بتعدّد الآلهة وكثرتهم. وحينئذٍ أين يكون ما في التوراة: «ولا تذكروا اسم آلهة أُخرى ولا يُسمع من فمك»[٢]. لا يكن لك آلهة أُخرى أمامي[٣]. لتعلم أنّ الربّ هو الإله ليس آخر سواه. فاعلم اليوم وردّد في قلبك أنّ الربّ هو الإله في السماء من فوق وعلى الأرض من أسفل ليس سواه[٤]. أنا هو الربّ وليس إله معي[٥].

وفي السابع عشر من الأيّام الأوّل: «يا ربّ ليس مثلك ولا إله غيرك»[٦].

وفي المزمور الثامن عشر: «لأنّه من هو إله غير الربّ»[٧].

---

١. إنجيل يوحنّا ١٠: ٣٣ـ٣٦.
٢. سفر الخروج ٢٣: ١٣.
٣. سفر التثنية ٥: ٧.
٤. سفر التثنية ٤: ٣٥ و ٣٩.
٥. سفر التثنية ٣٢: ٣٩.
٦. سفر الأيّام الأوّل ١٧: ٢٠.
٧. سفر المزامير ١٨: ٣١.

وفي الرابع والأربعين من إشَعْياء:

هكذا يقول الربّ ملك بني إسرائيل وفاديه ربّ الجنود: أنا الأوّل وأنا الآخر ولا إله غيري. هل يوجد إله غيري[١].

إلى غير ذلك من العهدين.

وكيف أمكن أن ينقض هذا كلّه ويقال بتعدّد الآلهة ولا يمكن أن ينقض قول المزامير: أنا قلت: إنّكم آلهة[٢]، ولا يصرف عن ظاهره المدّعى لأجل دلالة العقل والنقل على توحيد الإله؟!

هذا كلّه مع أنّ المزمور الثاني والثمانين المتضمّن لهذه الفقرة ظاهر بسَوقه ـ فضلاً عن قرينة العقل ـ في أنّ هذه الفقرة مسوقة للإنكار لا للإخبار، ففيه:

حتّى متى تقضون جوراً وترفعون وجوه الأشرار سِلَاهْ. اقضوا للذليل ولليتيم أنصِفوا المسكين والبائس. نجّوا المسكين، والفقير من يدالأشرار أنقذوا. لا يعلمون ولا يفهمون في الظلمة يتمشّون تتزعزع كلّ أُسس الأرض. أنا قلت: إنّكم آلهة وبنوا العليّ كلّكم. لكن مثل الناس تموتون وكأحد الرؤساء تسقطون. قم يا الله دِنِ الأرض لأنّك أنت تمتلك الأُمم[٣]. انتهى.

فتأمّل في أوّل هذا الكلام وآخره وسَوقه، وحصّل بفهمك الحرّ معناه. ثمّ تنبّه إلى أنّ العهدين مع ما تضمّنا من توحيد الإله ـ كما سمعت بعضه، وستسمع إن شاء الله في محالّه باقيه ـ ومع نهي التوراة عن ذكر اسم آلهة أُخرى وأن لا يسمع ذلك من الفم، قد ذكر فيها: أنّ موسى إله لهارون[٤]. وإله لفرعون[٥]. وفي العهد الجديد ما سمعت من أنّ الذين صارت لهم كلمة الله آلهة[٦].

---

١. سفر إشَعْياء ٤٤: ٦ و ٨.

٢. سفر المزامير ٨٢: ٦.

٣. سفر المزامير ٨٢: ٢ ـ ٨.

٤. سفر الخروج ٤: ١٦.

٥. سفر الخروج ٧: ١.

٦. إنجيل يوحنّا ١٠: ٣٥.

أوَ يرضى ذو الفكر السليم أن يكون هذا كلّه من الوحـي الإلهـيّ، أو كـما يـقول المتكلّف: «تنزيل العليم الحكيم»[١]؟

وأمّا رسل العهد الجديد فقد مرّ عليك في أواخر المقدّمة الخامسة شيء ممّا وصمهم به كتابهم. فتبصّر أيّها العاقل فيما ذكرنا عن العهدين في شأن أنبيائهما، وانـظر نـظر الطالب للحقّ الراغب في السعادة الخائف من الهلكة، فهل ترى ذلك كـلّه يـمكن أن يكون من الوحي الإلهي وتنزيل العليم الحكيم؟ فإنّ الله عليك رقيب.

[المتكلّف والسؤال عليه في الفداءُ]

وللمتكلّف كلام قد آن أوان التعرّض له قال:

> إنّ الله ﷻ المذكور في التوراة قدّوس طاهر يعاقب على أقلّ خطيئة، بخلاف الإله المذكور عندهم ـ يعني المسلمين ـ فإنّه يتساهل بالخطايا ويـغفرها وحـاشا لله الحقّ من ذلك؛ فإنّ عدله وقداسته يستلزمان عقاب أصغر الخطايا مـا لم يكـفّر عنها بالذبيحة[٢].

أقول: أنا بفضل الله وبركة الإسلام دين الحقّ لنـبرئ قـلوبنا وألسـنتنا وأقـلامنا وننزّهها عن فرض تعدّد الآلهة. ولكنّا نقول: إنّ الله الذي لا إله إلّا هـو العـليم الغـنيّ الحكيم اللطيف الخبير، اختار من خلقه ـ بلطفه وحكمته وعلمه بعباده ـ رسلاً مطهّرين مقدّسين بَرَرَةً مبرَّئين عن الأرجاس والقبائح ليكونوا أدلّاء على معرفته، وهـداةً إلى الحقّ، وقدوةً للخلق، باعثين لهم بما تقتضيه الحكمة الإلهـيّة ومـصلحة الوقت عـلى التقوى والصلاح ليعرفوا الحقّ وينكروا الباطل، ويهتدوا بهداهـم إلى الرشـد والعـدل والصلاح فينالوا سعادة الدارين.

فإن صدر من هؤلاء الرسل المطهّرين من خلاف الأَولى والأفـضل، مـا يـرونه ـ لحسن معرفتهم بجلال الله ـ منافياً لما ينبغي للعبد العارف من الانقياد إلى مولاه، عدّوا

---

١. الهداية ١: ٣٨ وغيرها.

٢. المصدر: ٤٢ و ٤٣.

ذلك على أنفسهم زلّة تحطّهم عمّا يرغبون فيه من المقام الرفيع. وفزعوا ممّا صدر منهم إلى الله مولاهم بالتوبة وطلب المغفرة والرحمة وإن لم يفعلوا حراماً ويتركوا واجباً، فيغفر لهم ذلك ولا يحطّهم به عمّا يجتهدون له من رفيع المقام وحسن الزلفى؛ فإنّه أكرم مسؤول وأوسع مُعطٍ.

ونقول: إنّ الله ـ تقدّست أسماؤه ـ أعلى شأناً، وأوسع رحمة وعلماً، وأتقن حكمة ولطفاً من أن يرسل للغاية المذكورة من يكذب، أو يستعمل الخداع والتزوير، أو يستهين بالرسالة ومواعيد الله ويصفه بالإساءة، ويتحكّم عليه بالمغفرة لمن أشرك به، ويرضى بمحوه من كتابه، أو يصنع وثناً للعبادة ويعبده ويدعو لعبادته، أو يبرّر نفسه و يصف الله جلّ شأنه بالجور ويطلب المحاكمة معه، أو يزني بالمحصنات من نساء أصحابه المحامين عنه المجاهدين في سبيل الله، ويحاول أن يلصق ولد الزنى بغير أبيه، ويسعى في قتل الزوج. أو يتزوّج بالمشركات والنساء الكثيرة المحرّمة عليه في الشريعة، بحيث وقع في أغلب عمره بالزنى بهنّ، ومال قلبه إلى الشرك وذهب وراء آلهة أُخرى، وعظّم شعائر الأوثان ومعابدها، وهو معنى عبادتها. أومن يكذب في التبليغ عنه، أومن يسمّيه خدّاعاً، أومن هو شرّيب الخمر المحرّمة ويعين على شربها، ويكذب ويصدر منه ما لا يرضاه أُولو العفّة، ويقول بتعدّد الآلهة. تعالى الله عن ذلك وتقدّست رسله عن هذه الأوهام الباطلة.

وأمّا قول المتكلّف: «إنّ عدل الله وقداسته يستلزمان عقاب أصغر الخطايا ما لم يكفّر عنها بالذبيحة».

فنقول فيه أوّلاً: إنّ رحمة الله وغناه يقتضيان الغفران للتائب المنيب إذا وجده مولاه أهلاً لذلك، وأين يذهب العبد إلّا إلى مولاه الكريم الرحيم! نعم إن كانت الخطيئة من نحو الظلم للعباد كان مقتضى العدل أن لا يضيع حقّ المظلوم، وذلك لا ينافي المغفرة للتائب إذا كان أهلاً لها.

وثانياً: إن كان العدل والقداسة يستلزمان ما ذكره، فليوضّح لنا ـ هو أو غيره ـ وجهاً معقولاً لحلّ الذبيحة لعقدة هذه الملازمة. ثمّ إن أراد من الذبيحة ذبيحة العهد القديم،

فإنّ الله لغنيّ عن جميع العالم وعنها وعن رائحة السرور للربّ[١]. وإنّ كثرة المعاصي المنسوبة للأنبياء في العهدين ليناسب تكفيرهم عنها بالذبائح ما في أوّل إشَعْياء عن قول الله تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً: «اتَّخَمْتُ من مُحرَقات كِباش وشَحم مُسَمَّناتٍ»[٢].

وإن أراد ذبيحة العهد الجديد ـ أعني المسيح المصلوب بزعمه ـ سألناه أيضاً: كيف يعقل أن تنحلّ بهذه الذبيحة عقدة ما ذكره من الملازمة؟!

وأيضاً ما هو، ومن هو المانع لله عن جوده ورحمته بغفران خطايا التائب المنيب إلّا بالتكفير بالذبيحة؟

وأيضاً ما حاجة الله إلى الفداء والتكفير حتّى يجعل ابنه بزعمهم ـ تعالى عن ذلك ـ عرضة للإهانة والصلب والاستهزاء، كما يقول العهد الجديد، مع ما كان عليه المسيح بمقتضاه من الاضطراب والخوف والاكتئاب والبكاء، وطلبه من الله أن تعبر عنه كأس المنيّة؟[٣]

ومن الطرائف في مسألة الفداء أنّه لمّا كان من أقوال التوراة: ملعون من لا يقيم كلمات هذا الناموس ليعمل بها[٤].

جاء عن بولس في ثالث غلاطية: المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنةً لأجلنا؛ لأنّه مكتوب ملعون كلّ من عُلِّق على خَشَبة[٥]. انتهى.

أفليس للسائل أن يسأل عن الكيفيّة المعقولة لهذا الفداء والافتداء، و عن موافقته لعدل الله وقداسته المستلزمَين للعقاب على أصغر الخطايا، وعن كيفيّة كون المسيح ـ وحاشاه ـ لعنةً لأجلهم، وعن توقّف فدائهم على كونه ـ وحاشاه ـ لعنةً، مع الزعم بأنّه ابن الله جلّ شأنه والأُقنوم الثاني لله، بل الإله الذي تقمّص الطبيعة البشريّة ليرفع قدرها،

---

١. سفر اللاويّين ١: ٩ و ١٣ و ١٧.
٢. سفر إشَعْياء ١: ١١.
٣. انظر إنجيل متّى ٢٦: ٣٦ـ٤٦؛ انجيل مرقس ١٤: ٣٢ـ٤٢؛ إنجيل لوقا ٢٢: ٣٩ـ٤٥.
٤. سفر التثنية ٢٧: ٢٦.
٥. رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٣: ١٣.

وعن حسن ذلك وعدم منافاته لعدل الله وقداسته، وعن جواز ذلك بالنسبة لمن يزعمونه إلهاً، وعن مناسبة ذلك للمكتوب المشار إليه فإنّه في الحادي والعشرين من التثنية:

وإذا كان على إنسان خطيئة حقُّهاالموت فقُتِل وعَلَّقْتَه على خشبةٍ، فلاتَبِتْ جُثَّة على الخشبة بل تَدفِنهُ في ذلك اليومِ لأنّ المعلَّق ملعون من الله فلا تُنجّس أرضك؟[1] انتهى.

وانظر هل يسبّ المسيحَ أعداؤه أكثر من هذا؟

فإن قيل: إنّ هذا المكتوب المشار إليه غير هذا.

قلنا: هاهما العهدان بأيدينا، فأين يكون المكتوب المشار إليه فيهما؟

ولم يكتف المتكلّف بما ذكره هاهنا في سرّ الفداء، وخيَّل له وهمه أنّ هذا من الحقائق البيّنة والمعقولات الممكنة، التي ينشرح لها العقل بالقبول، فقال:

وإذا قيل: ما هي الغاية من تجسّده وصلبه؟ قلنا: إنّ الغاية هي أن يكفّر عن خطايا كلّ من يؤمن به؛ لأنّ الجميع أخطؤوا واحتاجوا إلى من يكفّر عن خطاياهم؛ لأنعنا إذا نظرنا إلى العالم رأينا أنّه لم يسلم أحد من اقتراف الخطيئة، وعقاب الخطيئة هو الموت في جهنّم إلى الأبد؛ لأنّ المولى سبحانه وتعالى طاهر قدّوس وعدله يستلزم عقاب الخطيئة بهذه الكيفيّة، فالمسيح احتمل في جسده ما كنّا نستوجبه من العقاب، ووفى ما كان علينا من الدين رحمة منه؛ لأنّ الله هكذا أحبّ العالم حتّى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كلّ من يؤمن، بل تكون له الحياة الأبديّة، فطريقة الخلاص موافقة للعدل الإلهي ولكمالات الله[2].

أقول: أو تدري من يريد بالمتجسّد المصلوب في كلامه هذا؟ هو من تكرّر في مزاعمه في كتابه بأنّه الإله الذي تقمّص الطبيعة البشريّة ليرفع قدرها.

فإن أردت الإيضاح قال لك: هو أُقنوم الابن.

---

١. سفر التثنية ٢١: ٢٢ ـ ٢٣.

٢. الهداية ٢: ٢٩٠ و ٢٩١.

فإن قلت: وما أُقنوم الابن؟

قال لك: إنّ الله واحد، والأقانيم ثلاثة: الأب، والابن، والروح القدس. والثلاثة هم واحد، فالله واحد ثلاثة.

فإن قلت: كيف يكون الواحد ثلاثة؟ ومن الباذل ومن المبذول إذا كان الثلاثة واحداً؟ ومن المصلوب ومن المتجسّد؟

قال لك: اسكت ولا تكثر في سؤالك؛ فإنّ هذه الأُمور لا يدركها العقل، وليست من وظيفته، بل تؤخذ من تعليم القسوس المؤيَّدين بروح القدس بلا تعقّل لها، فقد قال بولس الرسول:

> لأنّه إذ كان العالم في حكمة الله لم يعرف الله بالحكمة استحسن الله أن يخلّص المؤمنين بجهالة الكرازة ... لأنّ جهالة الله أحكم من الناس وضعف الله أقوى من الناس[١].

فإن قلت له: إذا كان عقاب الخطيئة هو الموت في جهنّم إلى الأبد؛ لأنّ المولى سبحانه وتعالى طاهر قدّوس وعدله يستلزم عقاب الخطيئة بهذه الكيفيّة، والمسيح احتمل في جسده ما كنّا نستوجبه من العقاب ووفى ما كان علينا من الدَين رحمة منه. أفكان الوفاء أو المحتمل عنّا من نحو العقاب الذي استوجبناه والدَين الذي كان علينا، وهو الموت في جهنّم إلى الأبد، وننسب هذا إلى المسيح الفادي، أم هو من غير هذا النحو؟

فإن كان من غير هذا النحو، سألنا: كيف وأنت تقول: إنّ عدل الله الطاهر القدّوس يستلزم العقاب بهذه الكيفيّة؟

وأيضاً أفلا يكون هذا الوفاء من المخادعة الجزافيّة؟

وأيضاً إذا كان هذا الفداء من الابن رحمةً منه، أفلم يكن عند الأب شيء من هذه الرحمة ليغفر لنا بدون تحمّل ابنه لعقاب الخطيئة؟

---

١. رسالة بولس الأُولى إلى أهل كورنتوس ١: ٢١ و ٢٥.

وأيضاً من هو الأب؟ ومن هو الابن؟ وأنت تقول: إنّ الثلاثة واحد، وبالنتيجة يرجع الكلام إلى أنّ الأب تحمّل ما تقول، ولازم قولك أنّه تحمّل الموت الأبديّ في جهنّم!

قلت: سيقول لك المتكلّف: هذا كلام تجديف، فإنّا نبشّر: لا بحكمة كلام لئلّا يتعطّل صليب المسيح[1]. فإنّ الكتاب يقول: صار المسيح لعنة لأجلنا، كما سمعت.

فإن قلت: إنّ لي على هذا الكلام وما ذكرته سابقاً من نحوه سؤالات كثيرة.

قلت: أوَ عليّ عهدة الجواب في مثل هذا؟ وإنّي سائل مثلك، وقد أجبتك عن البعض بما أعلمه من حالهم ومقالهم وكتبهم، فجاهد في الله يَهدِكَ إلى سبيله.

ونتيجة ما تقدّم أنّ العقل والنقل دالّان بأوضح دلالة على لزوم عصمة الرسول عن الخطايا والقبائح والتمرّد على الله، فلا يجتمع للكتاب المنسوب للوحي والإلهام أن يصرّح برسالة شخص ونبوّته، ثمّ ينسب بصراحته له الفعل القبيح عقلاً أو شرعاً. ودونك القرآن فهل تجد فيه ما هو صريح في نسبة الفعل الحرام أو ترك الواجب أو فعل القبيح إلى من صرّح برسالته خصوصاً، وقد نبّهناك على معاني ألفاظه ومرامي مقاصده ودلائل شواهده. ولئن وجد فيه ما يوهم ذلك ابتداءً، فإنّ قرينة العقل والنقل ـ وخصوص القرائن المتّصلة ـ لتكبح ذلك الوهم وتصرف عنه إيهام اللفظ.

وأمّا العهدان، فكم وكم ترى في صريحهما من نسبة الخطايا الكبائر ومفظعات الجرائم إلى من صرّحا بنبوّتهم ورسالتهم ونزول الوحي للتبليغ عليهم. ولا يجتمع لهما الصدق في وصفهم بالرسالة ونزول الوحي عليهم للتبليغ، ونسبتهم إلى ما ذكراه من الخطايا، كما شرحنا بعضه في فصول هذا الباب؛ فإنّ بداهة العقل والنقل لتحكم بكذبهما في أحد الأمرين لامحالة، فاختر لنفسك فإن اخترت كذبهما في وصف هؤلاء بالرسالة، لزم كذبهما على الوحي بأجمعهما؛ لأنَّ مدارهما على رسالة موسى والمسيح وهما العمدة في محلّ الكلام.

---

١. رسالة بولس الأُولى إلى أهل كورنتوس ١: ١٧.

الفصل السادس عشر: في عصمة خاتم المرسلين محمّدﷺ وما يتعلّق بها

اعلم أنّ المتكلّف حاول أن يلوّث قدس رسول اللهﷺ بعبادة الأصنام قبل النبوّة والميل إلى ذلك بعدها، فتشبّث لذلك بآراء فاسدة، وروايات آحاد مضطربة متعارضة محفوفة بأسباب الوهن والخلل، وصار يحمل على ذلك بتشهّيه واقتراحه بعض الآيات التي لا ربط لمدلولها بمراده، وسوّد بذلك وجه ستّ صحائف[1].

وجاء في خلال ذلك بما يشوّه وجه التحقيق ويشين شرف الكاتب، وما ضرّه لو فاز مع ذلك بحسن الأدب أقلّاً؟ فاستدلّ لعبادة الأصنام بقوله تعالى في سورة الضحى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ﴾[2] وقال: «فهذه العبارة ناطقة بأنّه كان على عبادة أهله وعشيرته».

أقول: هل ترى المتكلّف يدّعي أنّ معنى الضلال في اللغة هو عبادة الأوثان، أو عبادة ما يعبده الأهل والعشيرة؟ أو ليس يعلم كلّ مترعرع باللسان العربي أنّ معنى الضلال مساوق لمعنى التِيه وإضاعة الطريق؟ ويختلف المراد منه باعتبار متعلّقه، فيقال: ضلَّ الرجل عن التوحيد: إذا عبد غير الله. وضلَّ عن الشريعة: إذا جهل أحكامها أو خالفها. وضلَّ عن الجادّة: إذا تاه. وضلَّ عن الصواب: إذا خبط وخلط. وضلَّ عن الرشد: إذا تحيّر في أُموره. وضدّ الضلال هو الهدى، ويختلف المراد منه أيضاً باعتبار متعلّقه على نهج ما تقدّم. فعلى المتكلّف إن أراد أن لا يضلّ في الدعوى أن يبيّن المراد بالضلال من صريح لفظ الآية، حتّى يدّعي أنّ العبارة ناطقة بمدّعاه.

بل نقول: لماذا لا يكون المراد من الآية: ووجدك قبل النبوّة وإعلان الوحي ضالاًّ عمّا أُوحِي إليك من الشريعة المتكفّلة لأحسن التهذيب والتكميل وأتقن النظام للدين والدنيا، فهداك الله إليها بنور النبوّة وإعلام الوحي، ودفع عنك الحيرة فيما كنت تطلبه من الهدى إلى شريعة الحقّ لتحمل عليها الناس؟ وما المرجّح لما يدّعيه المتكلّف على هذا لولا الهوى؟

---

١. انظر الهداية ١: ٦٠ ـ ٦٥.

٢. الضحى (٩٣): ٧.

ولماذا يخلط بين الدين والشريعة؟ فإنّ الخلاف الذي ذكره عن جامع الجوامع[١] إنّما هو باعتبار الاختلاف بين شريعة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام من حيث الناسخ والمنسوخ في الأحكام العمليّة، ولا اختلاف في دين هؤلاء ولا غيرهم من الأنبياء من حيث التوحيد والمعارف اللاهوتيّة أصلاً، ولم يقل ذو رشد باختلافهم في ذلك.

ثمّ قال المتكلّف:

من أقوى الأدلّة على حيدانه ـ يعني رسول الله صلى الله عليه وآله ـ عن عبادة الحقّ وميله إلى الأصنام، هو مدحه لآلهة قريش وتقديم العبادة لها[٢].

[حقيقة قصّة الغرانيق]

أقول: المنشأ في تشبّث المتكلّف في ذلك هي الرواية المقطوعة الفاحشة الاضطراب، المشوّشة في نقلها وألفاظها حيث أرسلها بعض المفسّرين. وهو أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قرأ في سورة النجم في مجلس لقريش فلمّا بلغ قول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّـٰتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰٓ﴾[٣] قرأ بعده: تلك الغرانيق العُلى وإنّ شفاعتهنّ لترتجى. فلمّا سمعت قريش ذلك فرحوا به، ومضى رسول الله في قراءته فقرأ السورة كلّها، وسجد في آخرها وسجد المسلمون بسجوده، وسجد جميع من في المسجد من المشركين، وقد سرَّهم ما سمعوا[٤].

وكأنّ المتكلّف يذعن بصدق هذه الحكاية أكثر من إذعانه بصدق ما في العهدين، حتّى عدّها من أقوى الأدلّة. وكأن لم يشعر بأنّ أهل العلم والدراية والنظر من المسلمين قد جبهوا هذه الحكاية بالردّ.

وسمّاها السيّد المرتضى خرافة[٥].

---

١. راجع جوامع الجامع ٤: ٥٠٥.
٢. الهداية ١: ٦١.
٣. النجم (٥٣): ١٩ و ٢٠.
٤. الدرّ المنثور ٦: ٦٥، ذيل الآية ٥٢ من سورة الحجّ (٢٢).
٥. تنزيه الأنبياء: ١٨١.

وقال النسفي: «إنّ القول بها غير مرضيّ»[١].

وفي تفسير الخازن:

> إنّ العلماء وهّنوا أصل القصّة، وذلك أنّه لم يروها أحد من أهل الصحّة، ولا أسندها ثقة بسند صحيح أو سليم متّصل، وإنّما رواها المفسّرون والمؤرّخون المولَعون بكلّ غريب، والملفّقون من الصحف كلّ صحيح وسقيم. والذي يدلّ على ضعف هذه القصّة اضطراب رواتها وانقطاع سندها واختلاف ألفاظها[٢]. انتهى كلامه.

أمّا ضعف سندها، فمن جهات كثيرة معروفة في فنّ الدراية ومعرفة الرجال، لا يسع المقام إحصاءها. وأمّا انقطاع سندها، فأقلّه أنّه لا يتجاوز في طرقه عن التابعين ومن دونهم إلّا إلى ابن عبّاس، مع أنّه لم يكن مولوداً في الوقت المجعول للقصّة، أو كان ابن سنتين أو ثلاث.

وأمّا اضطرابها، فقد جاء نقلها المضطرب على وجوه:

١. إنّ النبيّ حين قرأها كان يصلّي.

٢. وإنّه كان جالساً في نادي قومه.

٣. حدّث نفسه بها فجرت على لسانه.

٤. كان يصلّي عند المقام فنعس، فألقى الشيطان ذلك على لسانه فتكلّم بها، فتعلّق بها المشركون وحفظوها.

٥. إنّ الشيطان أخبرهم بأنّ نبيّ الله قد قرأها.

٦. إنّ رسول الله لم يتنبّه لذلك حتّى أمسى وأتاه جبريل فقرأ عليه في جملة السورة ما ألقاه الشيطان فقال جبريل: ما جئتك بهذا، فأوحى الله إلى رسوله ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾[٣] الآية. فما زال مهموماً مغموماً حتّى نزل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾[٤] الآية.

---

١. تفسير النسفي ٣: ٣١٣، ذيل الآية ١٩ و ٢٠ من سورة النجم (٥٣).

٢. تفسير الخازن ٣: ٣١٣، ذيل الآية ١٩ و ٢٠ من سورة النجم (٥٣).

٣. الإسراء (١٧): ٧٣.

٤. الحجّ (٢٢): ٥٢.

٧. إنّه سها فقرأها ففرح المشركون بذلك. فقال: لا، إنّما كان ذلك من الشيطان.

٨. أنّه علق يتلوهافنزل جبرائيل فنسخها.

٩. قرأها بعد قوله تعالى: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾[1].

١٠. قرأها بعد قوله تعالى: ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾[2].

١١. إنّه تنبّه لها عند قراءتها وقبل إكمال السورة، ففزع وجزع فأوحى الله إليه الآية السادسة والعشرين من السورة ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾[3] الآية.

١٢. لم يتنبّه حتّى أتمّ السورة، وسجد المشركون، وحملوه فاشتدّوا به بين قُطْرَي مكّة يقولون: نبيّ بني عبد مناف.

١٣. جاء في لفظها: إنّهنّ لَفِي الغَرانِيقِ العُلَى وإنّ شفاعَتَهُنَّ لَتُرتَجَى.

١٤. تِلكَ الغرانِيقُ العُلى وإنّ شفاعتَهُنَّ لَتُرتَجَى.

١٥. إنّ تلك الغَرانِيق العُلى منها الشفاعةُ تُرتَجى.

١٦. تلك الغرانيقُ العُلى من الشفاعة تُرتَجَى.

١٧. إنّهنَّ الغرانيقُ العُلَى.

١٨. إنّ شفاعتَهُنَّ تُرتَجَى.

١٩. وإنّهنَّ لَهُنَّ الغِرانِيقُ العُلَى وإنّ شفاعَتهنّ لَهِي التي تُرتَجى.

٢٠. تلك الغرانيقُ العُلى وشفاعتُهنَّ تُرتَضَى ومثلُهنّ لا يُنْسَى.

٢١. وهي الغرانيقُ العُلى شفاعتُهنَّ تُرجَى.

٢٢. وإنّ شفاعتها لتُرجَى وإنّها لَمَعَ الغَرانيقِ العُلى.

٢٣. تلك إذاً في الغرانِيقِ العُلى تلك إذاً شفاعةٌ تُرجَى.

٢٤. تلك الغَرانِقَةُ العُلى وإنّ شفاعَتَهُنَّ تُرتَجى.

ويزيد الاضطراب في رواية هذه القصّة ما في بعض نقلها من أنّ الله عـزّى نـبيّه وفرّج عنه بقوله تعالى في سورة الحجّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا

١ ـ ٣. النجم (٥٣): ٢٠ و ٢٢ و ٢٦.

تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1].

فذكروا عن رواية ابن عبّاس في سبب نزولها:

١. أنّ رسول اللهﷺ تمنّى من الله أن يقارب بينه وبين قومه، فألقى الشيطان على لسانه ما كان يحدّث به نفسه ويتمنّاه[2].

٢. عن ابن عبّاس أيضاً أنّ أُمنية رسول الله هو إسلام قومه[3].

٣. كان يتمنّى كفّ أذاهم.

٤. تمنّى من الله أن لا يأتيه شيء يفرّق عنه قريشاً. وعلى هذا فالتمنّي والأُمنية من أفعال القلب.

٥. عن ابن عبّاس أيضاً: إذا حدّث ألقى الشيطان في حديثه[4].

٦. عن ابن عبّاس أيضاً وغيره: تمنّى: تلا وقرأ، والأُمنيّة: التلاوة والقراءة[5].

٧. عن مجاهد: تمنّى: تكلّم، وأُمنيته: كلامه[6].

٨. لم يذكر تمنّي النبيّﷺ في بعض الروايات عن ابن عباس وغيره، ولذا فسّروا «تمنّى» بـ« تلا» وأُمنِيَّتِه بـ«تلاوتَه» واستشهد المفسّرون بقول حسّان:

تـــمنّى كـتابَ الله أوّل لـيـلـه وآخره لاقى حِمامَ المـقادِرِ[7]

وقول الآخر:

تـــمنّى كـتاب الله آخـر لـيـلـه تَمَنِّيَ داودَ الزَبُورَ على رِسْـلِ[8]

---

١. الحجّ (٢٢): ٥٢.

٢. تفسير الطبري ٩: ١٧٥، ح ٢٥٣٢٨، ذيل الآية ٥٢ من الحجّ.

٣. الدرّ المنثور ٦: ٦٥، ذيل الآية ٥٢ من الحجّ.

٤. تفسير الطبري ٩: ١٧٧، ح ٢٥٣٣٦، ذيل الآية ٥٢ من الحجّ.

٥. المصدر: ١٧٨، ح ٢٥٣٣٩، ذيل الآية ٥٢ من الحجّ.

٦. الدرّ المنثور ٦: ٦٩، ذيل الآية ٥٢ من الحجّ.

٧. البيت لكعب بن مالك، النهاية لابن الأثير ٤: ٣٦٧؛ مقاييس اللغة ٥: ٢٧٧، «م ن ى» ونسبه إلى حسّان بن ثابت.

٨. لسان العرب ١٥: ٢٩٤، «م ن ى».

وهذا بعض الاضطراب والاختلاف في أُمّهات المطالب من رواية هذه القصّة. ولو استقصينا الاختلاف في الألفاظ والمعاني، لأدّى طول الكلام إلى الملل، وخرج الكتاب عن موضوعه، فانظر أقلّاً إلى الدرّ المنثور تفسير السيوطي[١]. وإنّ فيما ذكرنا كفايةً لمعرفتك أنّ الحقّ أبلج، والباطل لجلج.

[تفسير الآية]

ثمّ لنعطف الكلام إلى تطبيق الآية على المدّعى من القصّة، فنقول:

أمّا على تفسير التمنّي والأُمنيّة فيها بالإرادة القلبيّة، فلا تصلح لأن تكون تعزية عن الحزن من أجل القول الذي ألقاه الشيطان ـ كما يزعم ـ لو فرضت مطابقتها لما ذكروه من تمنّي رسول الله ﷺ.

وأمّا إذا جعلنا الأُمنيّة بمعنى المُتَمَنَّى، وهو الشيء الذي يتمنّاه الإنسان، فلا يطابق قوله تعالى: ﴿إلّا ... أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ بعض المطابقة إلّا ما ذكر من أنّ الأُمنيّة كانت إسلام قومه ﷺ؛ فإنّ معنى ألقى الشيطان في المتمنّي هو أن يدخل فيه ما يضرّه ويُشَوِّشه.

بل نقول: إنّ معنى قوله تعالى: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ لابدّ أن يكون لتركيبه معنى واحد عرفي مقرّر، وهو ما يرجع إلى موافقة المتمنَّى أو مخالفته.

وعلى كلّ حال لا يطابق جميع ما قيل في بيان الأُمنيّة. وهي:

١. أن يقارب الله بينه وبين قومه.

٢. إسلام قومه.

٣. كفّ أذاهم.

٤. لا يأتيه من الوحي شيء يفرّقهم عنه.

وأمّا تفسير التمنّي والأُمنيّة بالتلاوة، فهو شيء غريب لم يسمع له شاهد إلّا شاذّ يقال: إنّه لحسّان. فلا يحسن حمل القرآن على لغة هذا شأنها.

---

١. الدرّ المنثور ٦: ٦٥ ـ ٧٠، ذيل الآية ٥٢ من الحجّ.

وأيضاً إنّ المرويّ عن ابن عبّاس وابن الزبير أنّ سورة الحجّ التي فيها هذه الآية مدنيّة من دون استثناء لهذه الآية[١]، أفلا يعارض هذا ما روي من أنّ الآية نزلت في مكّة في مساء واقعة الغرانيق[٢] وفي حينها تعزية لرسول الله من أجلها؛ لأنّه كان به رحيماً؟

أم تقول: إنّ الله الرحيم برسوله، اللطيف بعباده أخّر تعزية رسوله عن ورطة الغرانيق، ولم ينزل فيها الآية المذكورة إلّا بعد مدّة من السنين، تنقّل في الأمكنة وتقلّب في الأحوال التي فات بها مقام التعزية، والتدارك.

دع هذا كلّه وقل: كيف يذعن عاقل بصدق هذه الحكاية، خصوصاً على مزاعم المتكلّف، مع مناقضتها لما في خصوص المقام من سورة النجم، في التنديد بالأصنام وبيان كونها باطلة، بقوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[٣]؟!

وإنّ هذه الآية لتوضّح أنّ حكاية الغرانيق وسجود المشركين في آخر السورة مع رسول الله سروراً بمدح آلهتهم، إنّما هي تلفيق من غير تدبّر. أفترى المشركين يسجدون في آخر السورة فرحين مسرورين بعد ما سمعوا من التنديد بآلهتهم والتسفيه لهم بقوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾ الآية. أفلم يكونوا أهل اللسان والمعرفة بمحاورته؟ أفتراهم لا يفهمون مواقع الكلام مثل ...؟

على أنّ هذه الحكاية بأصلها وفروعها والاستشهاد لها مخالفة لنصّ القرآن في نفس سورة النجم بقوله تعالى في شأن رسول الله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[٤].

---

١. المصدر: ٣، مقدّمة تفسير سورة الحجّ.

٢. أسباب النزول: ٢٠٨.

٣. النجم (٥٣): ٢٣.

٤. النجم (٥٣): ٣ ـ ٤.

فإن قلت: إذاً فما يكون المعنى في الآية المذكورة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾[١]. الآية؟

قلنا ـ والله أعلم ـ: الظاهر هو أن يكون المراد من الأُمنيّة هو الشيء المتمنَّى، كما هو الاستعمال الشائع في الشعروالنثر. كما أنّ الظاهر من التمنّي المنسوب إلى الرسول والنبيّ ـ كما يشهد به سَوق الآيات ـ هو أن يكون ما يناسب وظيفتهما، وهو تمنّي ظهور الهدى في الناس، وانطماس الغواية والهوى، وتأييد شريعة الحقّ ونحو ذلك فيلقي الشيطان بغوايته بين الناس في هذا المتمنّي الصالح ما يُشَوِّشه ويكون فتنة للذين في قلوبهم مرض، كما ألقى بين أُمّة موسى من الضلال والغواية ما ألقى. وألقى بين أتباع المسيح ما أوجب ارتداد كثير منهم، وشكّ خواصّهم فيه، واضطرابهم في التعاليم وأحكام الشريعة بعده، كما مرّ عليك شرحه في المقدّمة الخامسة. وألقى بين قوم رسول الله ما أهاجهم على تكذيبه وحربه، وبين أُمّته ما أوجب الخلاف وظهور البدع. فينسخ الله بنور الهدى غياهب الضلال وغواية الشيطان، فيسفر للعقول السليمة صبح الحقّ، ثمّ يحكم الله آياته ويؤيّد حجّته بإرسال الرسل أو تسديد جامعة الدين القيّم. وإذا نوّرت فكرك بما ذكرناه عرفت شطط المتكلّف[٢].

ورطات المتكلّف

وإذا تبصّرت بما شرحناه، فلا تعجب من المتكلّف إذ جعل قصّة الغرانيق السخيفة من أقوى أدلّته، فإنّه قد أبدع في التحقيق وحريّة الضمير حيث قارن بين هذه القصّة، وبين ما جاء في العهد القديم في شأن سليمان بن داود، فقال:

> لم يظهر نبيّ من الأنبياء الصادقين مثل هذا التلاعب ومسايرة الناس على شركهم وعبادتهم الكاذبة، ولا مناسبة بين خطيئته ـ يعني قدس رسول الله، وخرافة الغرانيق ـ وبين خطيئة سيّدنا سليمان، فسيّدنا سليمان أباح لبعض نسائه

---

١. الحجّ (٢٢): ٥٢.

٢. الهداية ٣: ١٦٩ و ٢: ٩٧.

الأجنبيّات عبادة آلهتهنّ ولم يقع هو في هذه العبادة[١]. انتهى.

وينبغي له أن يقول أيضاً تتميماً لكلامه ـ وأستغفر الله ـ: ولا مناسبة أيضاً بينها وبين خطيئة سيّدنا هارون، فسيّدنا هارون بقول التوراة صنع العجل إلهاً يعبده بنو إسرائيل، وبنى مذبحاً أمامه ونادى: غداً عيد للربّ.

فأقول في شرح بعض كلامه: إنّك قد سمعت حكاية الغرانيق، وهي القصّة التي تزداد بزعم المتكلّف قوّة إلى قوّة بانقطاع سندها وضعفه، وتناقض مضامين رواياتها، وتلوّنها، وعدم التئام آية التمنّي معها، ومناقضة آية الأسماء والوحي لها، وتكذيب العلماء المحقّقين لها، وتسميتهم لها خرافة، إلى غير ذلك.

وفي العهد القديم ـ الذي هو عند المتكلّف كتاب وحي إلهيّ وكلام الله السميع العليم ـ ما نصّه:

> إنّ سليمان أمات نساؤه المشركات قلبه وراء آلهة أُخرى فذهب وراء عَشْتارُوت إلهة الصَيْدُونيّين ومَلْكُوم رجس العَمُّونيّين، وعمل الشرّ في عيني الربّ، ولم يتبع الربّ تماماً كداود أبيه، وبنى... المرتفعات قبالة أُورشليم... لعَشْتاروت رجاسة الصيدونيّين ولِكَمُوش رجاسة المُوآبيّين ولِمَلْكُوم كراهة بني عَمّون[٢].

أفتقول: إنّ في هذا شيئاً من الشرك؟

فإنّ المتكلّف يقول: ـ حاشا وكلّا ـ: بل غاية الأمر أنّ سليمان أباح لبعض نسائه عبادة آلهتهنّ.

وماذا تقول للمتكلّف لو قال لك: إنّ هذه الإباحة من وظائف الأنبياء والعدل مع النساء الأجنبيّات؟

وما عساك تقول في سليمان وقد نصّ عليه العهد القديم عن قول الله: «إنّ سليمان هو يبني بيتي وديارى لأنّي اخترته لي ابناً وأنا أكون له أباً»[٣].

---

١. الهداية ١: ٦٣ س ١٩.

٢. انظر إلى سفر الملوك الأوّل ١١: ٤ ـ ٨؛ سفر الملوك الثاني ٢٣: ١٣.

٣. سفر الأيّام الأوّل ٢٨: ٦.

والمتكلّف يقول:

إنّه من كبار الأنبياء، فلا يضرّ في ذلك أنّه ذهب وراء آلهة أُخرى، وعمل الشرّ، ولم يتبع الربّ، وبنى مرتفعات الأوثان[١].

فليعتبر ذو الرشد والبصيرة.

ثمّ قال المتكلّف:

كان محمّد لا يستنكف عن التعبّد بآلهة قومه للتقرّب منهم، ثمّ ينقلب عليها لمّا يرى عدم الفوز بمرغوبه، فورد في سورة بني إسرائيل ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾[٢] وذكر في سبب نزولها ثلاث روايات أو أربع متعارضة متناقضة كلّ واحدة تذكر سبباً مبايناً لما تذكره الأُخرى، وكلّها تنسب إلى ابن عبّاس. انظر إلى الدرّ المنثور[٣] وتفسير الخازن[٤و٥].

وأقول: وتزيد على ذلك في التعارض والتناقض رواية محمّد بن كعب القرضي[٦] أنّها نزلت في أثناء سورة النجم في قصّة الغرانيق المتقدّم ذكرها.

ويا عجباً كيف يتشبّث أحد بمثل هذه المتناقضات، ويحاول أن يموّه أمرها؟! اللهمّ إلّا أن يكون لا يبالي بما يقول وما يقال فيه.

وإنّ المتكلّف لم يذكر الآية التي بعد هذه الآية لأجل أنّه شعر بأنّها تنقض غرضه الفاسد بمدلولها، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً﴾[٧].

وإنّ الذي ينبغي تحصيله من معنى الآيتين ـ بمقتضى لفظهما والنظر في مقتضى الحال ـ من الأُمور المعلومة من حال رسول الله ﷺ وقريش، هو أنّه لمّا اشتدّت وطأة

---

١. الهداية ١: ١٢٢.

٢. الإسراء (١٧): ٧٣.

٣. الدرّ المنثور ٥: ٣١٨، ذيل الآية ٧٣ من الإسراء.

٤. تفسير الخازن ٣: ١٨٤؛ ذيل الآية ٧٣ من الإسراء.

٥. الهداية ١: ٦٤.

٦. الدرّ المنثور ٥: ٣١٨، ذيل الآية ٧٣ من الإسراء.

٧. الإسراء (١٧): ٧٤.

رسول الله عليهم بالدعوة والتنديد بآلهتهم والتسفيه لهم في عبادتها، حتّى اهتدى جملة منهم ومال إليه من لم تُعْمِه العصبيّة، صاروا يريدون منه الملائمة معهم والكفّ عن الدعوة والتعرّض لآلهتهم، ويتوسّلون إلى ذلك مرّة بالمشاغبة، ومرّة بالاضطهاد، ومرّة بالاستشفاع بأبي طالب وغيره. وغرضهم من ذلك بزعمهم الفاسد أن ينجرّ تركه لهم عن الدعوة وتبليغ الوحي إلى التساهل منه والموافقة على أهوائهم التي هي افتراء على الله. فربّما خطر على فكر رسول الله ﷺ احتمال الصلاح في متاركتهم زماناً قليلاً استصلاحاً لهم وسياسة في الهدى وتلطّفاً في تحصيل الغرض، فسدّده الله إلى صواب وثبّته على الجدّ في الدعوة والدوام عليها، وأنزل عليه الآيتين المذكورتين[1] تعريضاً بإصرار المشركين والامتنان عليه بتسديده إلى الصواب في كلّ حال.

وحاصل الآيتين أنّ المشركين قد كادوا باختلاف وسائلهم في طلب المتاركة من رسول الله، ليَحْصلَ لهم ما توهّموه من الغرض الفاسد، وهي الموافقة لأهوائهم أخيراً، وقاربوا بذلك أن يفتنوه باحتمال الصلاح في المتاركة والكفّ شيئاً قليلاً عن الدوام في الدعوة التي أمره الوحي بها، فسدّده الله وثبّته على أنّ الصلاح إنّما هو بالدوام على الدعوة ولو لا هذا التثبيت لكاد رسول الله أن يركن إليهم شيئاً قليلاً من المتاركة لاحتمال الصلاح والنجاح. فلم يكن المشركون ليفتنوه ولكن كادوا، ولم يركن رسول الله إليهم شيئاً قليلاً ولكن كاد.

فأين منطوق الآيتين ومرماهما من مقصود المتكلّف المُحال؟ وكيف لا يقبح الاستشهاد بالأُولى منهما على أنّ رسول الله لا يستنكف عن التعبّد بآلهة قومه؟! أفيجري في الوهم أنّ القرآن يسمّي التعبّد بآلهة المشركين شيئاً قليلاً؟

وقد ترقّى المتكلّف فصار يدّعي أسباب النزول حسب هواه ومشتهاه، فصار يدّعي أنّ بعض ما روي في سبب نزول الآية المتقدّمة هو السبب في نزول قوله تعالى في سورة بني إسرائيل: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾[2].

---

١. أي الآيتان ٧٣ و ٧٤ من سورة الإسراء (١٧).

٢. الإسراء (١٧): ٣٩.

مع أنّه لم يرد في ذلك عن المفسّرين ـ الذين عرفت حالهم ـ في تفسير الآية شيء من هذه الأوهام. على أنّ صريح السوق فيما قبل هذه الآية وما بعدها، ينادي بأنّها كأخواتها واردة لتعليم الناس وصايا الله من قبيل إيّاكِ أعني واسمعي ياجارة[١]. انظر إلى اطّراد الوصايا في هذه السورة من الآية الثانية والعشرين إلى الخامسة والأربعين، حيث قال الله جلّ اسمه: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾[٢].

أفيقول المتكلّف: إنّ الأمر بالإحسان بالوالدين كان المقصود منه رسول الله، مع أنّه لم يدرك حياة أبويه؟ كلّا بل إنّ السَوق الجاري في هذه الآيات كالسَوق الجاري في كثير من خطاب التوراة وخصوص العشرين من الخروج: لا يكن لك آلهة أُخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً[٣]. وكذا الثالث والعشرين من الخروج، والرابع والثلاثين[٤]. وغير ذلك ؛ فراجع.

ثمّ قال المتكلّف:

لمّا كان المشركون يرون منه ميلاً إلى آلهتهم كانوا يطلبون منه أن يذكر شفاعتها، فكان كثيراً ما يجيب دعوتهم ثمّ يرجع عن ذلك ويدّعي أنّ الله نهاه، فورد في سورة الأحزاب ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۞ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[٥] فلو لم يقترف ذنباً لما نُهي عنه[٦].

أقول: ومن الطرائف دعوى المتكلّف أنّ المشركين كانوا يرون ميلاً من رسول الله

---

١. جمهرة الأمثال ١: ٣٠.

٢. الإسراء (١٧): ٢٢ و ٢٣.

٣. سفر الخروج ٢٠: ٣ و ٤ ـ ١٧.

٤. سفر الخروج ٢٣ و ٣٤: ١١ ـ ٢٧.

٥. الأحزاب (٣٣): ١ ـ ٢.

٦. الهداية ١: ٦٥.

إلى آلهتهم. وليت شعري هل وجدوا خصماً دائم المثابرة لآلهتهم مثل رسول الله، فلا توحشه في ذلك وحدة، ولا يصدّه عنه اضطهاد، ولا تميله عنه المطامع، كما لا يخفى ذلك على العدوّ والصديق ؟

وأظرف من ذلك دعوى المتكلّف أنّ رسول الله كان كثيراً ما يجيب دعوة قريش إلى شركهم. وهل وجد في الناس ضدّاً مقاوماً للوثنيّة مثل رسول الله؟ وإنّ المتكلّف ليعلم أنّه لا يوافقه على هذه الخرافة أحد من الناس، ولذا التجأ فيها إلى الاحتجاج الذي لا يخفى حتّى عليه وَهْنُه وسخافته بقوله: «فلو لم يقترف ذنباً لما نُهِي عنه». أفيقول: إنّ وصايا الشريعة ونواهيها لا تكون إلّا بعد الوقوع في الذنب؟ أفلم يتدبّر في شريعة التوراة؟ أفلم يتدبّر في شرائع الملوك؟ أفلم يتدبّر في أحكام الموالي؟

وأظرف من ذلك نقضه بنفسه لهذا التوهّم حيث قال في تتميم دعواه بزعمه:

روي أنّ أباسفيان وعكرمة ابن أبي جهل وأبا الأعور السلمي قَدِموا في الموادعة التي كانت بينه وبينهم، وقام معهم ابن أُبيّ ومعتب بن قشير والجدّ بن القيس فقال له: ارفض ذكر آلهتنا وقل: إنّ لها شفاعة وندعك وربّك[١]. فادّعى أنّ الله أنزل عليه ذلك.

فهل ترى المتكلّف لم يشعر أنّ هذه الرواية تنقض غرضه، لصراحتها بأنّ رسول الله قد جبههم في هذه الآيات بالردّ، وآيسهم من أمانيهم الكاذبة؟

وفي تفسير البغوي أنّه شقّ على النبيّ قولهم، وأمر عمر أن يخرجهم[٢].

وفي تفسير النسفي همَّ أن يقتلهم، فنزلت ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾[٣] يعني في قتلِهم ونقض العهد[٤].

ولعلّه لو قيل للمتكلّف: إذاً فمن يشهد لك على مدّعاك؟ لقال: أليس في قرآنكم

---

١. أسباب النزول، للواحدي: ٢٣٦.

٢. معالم التنزيل (تفسير البغوي) ٣: ٥٠٥، ذيل الآية ١ ـ ٢ من الأحزاب.

٣. الأحزاب (٣٣): ١.

٤. تفسير النسفي ٣: ٤٨١، ذيل الآية السابقة، وفيه: «فهمّ المسلمون بقتلهم».

مكتوب شهادة رجلين حقّ؟ أنا هو الشاهد لنفسي، ويشهد لي التعصّب الذي يغريني ويورّطني فإنّ من أوضح المعلومات التي لا يسترها غبار التزوير والتلفيق أنّ رسول الله كان أثقل الناس وطأةً على الأصنام، وأشدّهم ذمّاً لها وعيباً لعبدتها وتسفيهاً لأحلامهم، لا يفتر عن ذلك ولا يُداهِن، بل كان هذا هو العنوان لنهضته والقانون الأساسي لدعوته، حتّى عاداه في محض ذلك القريب والبعيد، ولاقى من الاضطهاد ما لاقى.

ثمّ قال المتكلّف:

وممّا يشبه هذه الحادثة قوله في سورة الزمر: ﴿لَـئِنْ أَشْـرَكْتَ لَـيَحْبَطَنَّ عَـمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـسِرِينَ﴾[1].

أقول: كأنّ المتكلّف قد منّاه وهمُه بإحراز الموفّقيّة في المنقولات والمحسوسات، حتّى صار يعتمد على الحدس والتخمين.

أو تراه لم يشعر بأنّ صدر الآية الذي حذفه ممّا ينقض مرامه؟ فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَـئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[2] الآية. وإنّ الآية لتنادي بصراحتها أنّ هذا الخطاب قد خوطب به رسول الله كما خوطب به كلّ من قبله من الأنبياء الموحى إليهم. أفيقول: إنّ خطاب الأنبياء بذلك كان ممّا يشبه هذه الحادثة؟

أو لم يتدبّر ما في هذه السورة الشريفة من التشديد والتفنّن في زجر المشركين عن شركهم، وتوبيخهم وبيان ضلالهم فيه وفي المحاماة عنه والدعوة إليه؟

فمرّة يزجرهم الله بالحجّة عليهم بالتجائهم بمقتضى فطرتهم إلى ناحية التوحيد حينما يضايقهم الضرّ، ثمّ يرجعون إلى ضلالهم وإضلالهم في الرفاهية، كما في الآية الثامنة[3].

ومرّة باعترافهم بأنّ الخالق القادر هو الله مع عجز الأنداد عن النفع والضرّ، كما في الآية التاسعة والثلاثين[4].

---

١ ـ ٤. الزمر (٣٩): ٦٥، ٨، ٣٨.

ومرّة بضرب المثل فيما يشهد به الوجدان من اختلال النظام بالشركة والشركاء، كما في الآية الثلاثين[١].

ومرّة يوبّخهم ويقطع آمالهم ويخيب أطماعهم، بتلقين رسول الله إعلامهم بما أمره به من التوحيد وترك الأنداد، وبيان النكال المعدّ للمشركين، والبشرى للمؤمنين، كما في الآية الرابعة عشرة إلى الآية الثانية والعشرين[٢].

ومرّةً بتلقينه توبيخهم والإنكار عليهم بطمعهم في الموافقة لهم على الشرك، وآيسهم من أوهام أطماعهم بتلقينه أنّ الله قد توعّده وجميع الأنبياء قبله بالوعيد العظيم الشديد على الشرك، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۞ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾[٣] الآية. فجاء الخطاب في هذه الآية لرسول الله، وإعلامه بما أُوحي إليه وإلى الأنبياء الذين من قبله مجيء الحجّة والبرهان على مضمون الآية التي قبلها، وهو الإنكار على المشركين فيما يدعونه إليه وتجهيلهم فيه. بل والبرهان على التوحيد ونفي الأنداد المتقدّم في مضامين الآيات التي قبلها. فأين المتكلّف عن التبصّر بهدى سورة الزمر ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[٤]؟

ثمّ قال المتكلّف في شأن رسول الله ﷺ:

> وكما أنّه كان يُقدم على المنكر المنهيّ عنه، كان يتأخّر عن أداء المأمور به؛ لأنّه كان يخشى بأس قومه. ولمّا كان يرى أنّ موافقتهم لم تأت بفائدة ولا ثمرة، كان يتخلّص من ذلك بأن يدّعي أنّ الله زجره، فورد في سورة المائدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[٥]. وعن الحسن أنّ الله لمّا بعث رسوله ضاق ذرعاً وعلم أنّ في الناس من يكذّبه، فقال هذه العبارة[٦].

---

١. الزمر (٣٩): ٢٩.

٢ ـ ٣. الزمر (٣٩): ١٤ ـ ٢٠، ٦٤ ـ ٦٥.

٤. محمّد ﷺ (٤٧): ٢٤.

٥. المائدة (٥): ٦٧.

٦. الدرّ المنثور ٣: ١١٦، ذيل الآية ٦٧ من المائدة.

أقول: أمّا رواية الحسن ـ فزيادة على كونها معارضة مقطوعة السند ـ مردودة بأنّ هذه الآية من سورة المائدة التي هي مدنيّة من آخر ما نزل من القرآن حينما أظهر الله دينه، وكسرت دعوةُ الحقّ شوكةَ الشرك، وأخمدت نائرةَ المشركين، فلا ربط لها بأصل البعثة وتكذيب المشركين، بل إنّ صريح الآية ومراماها يناديان بأنّها تحثّ على أمر هو غير أصل الدعوة، وتعظّم أمره ببيان أنّ تركه بمنزلة ترك التبليغ لأصل الدعوة، وإلّا فأيّ معنى لقوله: فإن لم تبلّغ أصل الدعوة فما بلّغت أصل الدعوة؟!

وإن سألت عن مرمى الآية وقصدها، قلنا: لا يمتنع أن يكون رسول الله قد يؤمر بأمر سياسي وتدبير اجتماعي وقانون إصلاحي غير متعلّق بحادثة وقتيّة يفوت الغرض منها بتأخير البيان. ولا يكون في الوحي به تضييق بتعجيل التبليغ، فيتربّص رسول الله في تبليغه فرصة التأثير، ويراعي في تأخيره سياسة الفائدة ومجال التنفيذ وعدم التشويش، مراعاةً لحكمة الوظيفة، واعتماداً على توسعة الإطلاق، فيأتيه بيان التضييق والتعجيل بصورة الحثّ والتشديد إشعاراً للعباد بأهمّيّة ذلك الأمر، وتنويهاً بكبير شأنه في السياسة الدينيّة ونظام المدنيّة وانتظام الجامعة.

فلماذا لا يحمل المتكلّف الآية على هذا الوجه الواضح؟ ولماذا يميل مع الهوى ويعتلّ بالقيل؟

بل لنا أن نقول: إنّ المأمور به إذا كان عظيم الأثر في النظام العامّ، كبير الفائدة في الاجتماع والجامعة، فقد تقتضي الحكمة في الإشعار بأهمّيّته والسياسة في تنفيذه وإجرائه ـ وتثبيته في القلوب وجلبها إليه كما هو حقّه ـ أن يقرن الله الوحي به إلى الرسول المبلّغ له بالحثّ والتشديد على تعجيل تبليغه ابتداءً ومن دون سابقة له في الوحي، فيجري الحثّ عليه على نحو فلسفي سياسي في براعة البيان، ليكشف عن حسن أثره في الدين ومدخليّته في الجامعة.

والشيعة من المسلمين يقولون: إنّ الآية نزلت في أمر رسول الله بنصب عليٍّ خليفةً على أُمّته من بعده، وأخذ العهد له من الأُمّة بذلك، وبالبناء عليه يتّضح انطباق الآية وحسن مرماها.

[تزوّج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش]

ثمّ إنّ المتكلّف والمتعرّب قد تعرّضا لشأن تزوّج رسول الله بزينب بنت جحش التي كانت عند مولاه زيد بن حارثة، فاستفزّهما ما فيهما إلى أن جاء في كلامهما بما يقبح حتّى منهما [١]، فراجعه فإنّ الأوراق لأشرف من أن يسوّد وجهها بنقله.

وهاك خلاصة الأمر في القضيّة: لا يخفى أنّ زيداً كان غلاماً لرسول الله، فجاء أبوه حارثة ليفكّه من الرقّ ويأخذه، فأبى زيد أن يتّبعه رغبة في خدمة رسول الله لما رآه من برّه وعظيم شأنه. فشكر له رسول الله ذلك وأعتقه، وعامله في البرّ معاملة الابن حتّى دعاه الناس زيد بن محمّد، وزوّجه زينب بنت جحش، ثمّ طلّقها زيد، ولمّا انقضت عدّتها تزوّجها رسول الله حسب قوانين الشريعة المقدّسة.

فاسأل المتكلّف والمتعرّب وأشباههما عن السبب في جرأتهما على رسول الله في ذلك؟

فإن كان لأجل تزوّجه بالمطلّقة حيث منع العهد الجديد الرائج من أصل الطلاق والتزوّج بالمطلّقة، فهو حجّة متهافتة وتعليل عليل لا يليق بعوامّ الناس فضلاً عن وحي الله للمسيح.

قلنا: من ذا الذي يوجب على رسول الله أن تكون أعماله وشريعته على مقتضى العهد الجديد الرائج؟ ولا سيّما في هذا الحكم الذي قد تلجلج العهد الجديد بحجّته، وتدافعت أقواله في نسخ مشروعيّته، حتّى رفض تعليمه هذا عقلاء أتباعه في هذه الأعصار المتنوّرة، فجعلوا الطلاق شريعة متّبعة كما يشهد به الإحصاء؛ لأجل ما وجدوه في منع الطلاق ـ من الضرر الباهظ بنظام المدنيّة والاجتماع، وصفاء العيش وانتظام أمر العائلة، وحسن الأخلاق والعدل والحرّيّة ـ من أقبح القيود.

وإن كان السبب هو تزوّجه صلوات الله عليه بمطلّقة من يُدعَى ابنه؛ لأنّها تكون محرّمة عليه بتّاً وإن لم يكن ابناً حقيقيّاً.

---

١. الهداية ١: ٦٦ ـ ٦٨؛ مقالة في الإسلام ـ التذييلات التي ضمن المقالة ـ: ٦٥.

قلنا: من حرّم ذلك؟ وفي أيّ شريعة جاء تحريمه؟ هذه التوراة والعهد الجديد الرائجان، وشريعة اليهود وشريعة النصارى.

فإن قالا: إنّه محرّم بشريعة مشركي الجاهليّة.

قلنا: لا نضايق من يرضى لنفسه أن يتشبّث بمثل هذه الواهيات. ولكن أليس رسول الله قد جاء ليجعل شرائع الجاهليّة وعاداتها الوخيمة تحت قدميه، ويجري بشريعة الحقّ كلّ الأُمور على حقائقها؟ فلماذا لا يصدّ المتكلّف شيء ممّا يصدّ أدباء الكتّاب، حتّى كتب في هذا المقام أكثر من ثلاث مرّات أنّ رسول الله أخذ امرأة ابنه؟

هذا، وإن كان السبب هو مقدّمات التزويج.

قلنا: لم يذكر فيها القرآن الكريم إلّا قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾[١].

وأمّا الروايات المضطربة المختلفة، فقد اقتصروا في الصحاح عن أنس على أنّ زيداً جاء يشكو زينب إلى رسول الله، وآل الأمر إلى طلاقها[٢].

وفي رواية أبي سعيد عن زينب قالت: زوّجني منه رسول الله فأخذته بلساني فشكاني إلى رسول الله[٣]. الحديث.

وفي رواية قتادة أنّ زيداً جاء رسول الله فقال له: إنّ زينب قد اشتدّ لسانها عليّ[٤].

فهل ترى في هذه المقدّمات شيئاً ينتقدبه؟

وقد أرسل المتكلّف حسب أمانته وغرضه أنّ رسول الله أتى زيداً ذات يوم لحاجة فأبصر زينب في درع وخمار وكانت جميلة، فوقعت في نفسه وأعجبه حسنها

١. الأحزاب (٣٣): ٣٧.

٢. السنن الكبير ٧: ٥٧.

٣. المعجم الكبير ٢٤: ٤٠.

٤. تفسير عبد الرزاق الصنعاني ٣: ١١٧، ذيل الآية ٣٧ من الأحزاب.

فقال: سبحان مقلّب القلوب، وانصرف[١].

مع أنّه قد جاء في رواية محمّد بن يحيى بن حبان أنّ رسول الله لمّا رأى زينب فجأةً أعرض عنها ورجع[٢].

وفي رواية الطبري: وكان على الباب ستر من شعر فرفعت الريح الستر[٣].

ونقول: لو تنازلنا وأعملنا أخبار الآحاد فيما يتعلّق بأُصول الدين، وأغمضنا عن اضطراب هذه الرواية واختلافها، وقبلنا ما أرسله المتكلّف، لقلنا: ماذا على النبيّ وغيره إذا وقع نظره اتّفاقاً ومن دون قصد على امرأة أجنبيّة؟ وما ذا عليه إذا عرف بهذا الاتّفاق حُسنَ الحَسَن وقُبحَ القبيح ووقع في نفسه موقعه؟ وما ذا عليه لو التفت إلى قدرة الله على التصرّف بالقلوب؟ أيشترط في النبيّ أن يكون في مثل هذه الموارد ينقلب الحسنُ في عينه قبيحاً؟

وإنّ المحرّمَ القبيحَ هو النظر إلى الأجنبيّات رِيبةً وتلذّذاً، وهو معنى قول الإنجيل الرائج: «كلّ من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بقلبه»[٤]. وكذا معنى: «إذا أعثرتك عينك ويدك»[٥].

ورطات المتكلّف

وقد تورّط في هذا المقام بمقايساته فقال:

> نعم إنّ داود وقع في خطيئة الزنى، ولكن يوجد فرق جسيم بين الأمرين، فلم يأخذ داود امرأة ابنه[٦].

أقول: وقد كشف لنا بكلامه هذا عن أنّه لا منتهى لورطات الغفلة، ولا حدَّ لفلتات

١. الهداية ١: ٦٦.
٢. المستدرك على الصحيحين ٥: ٣٠، ح ٦٨٤٥.
٣. تفسير الطبري (جامع البيان) ٢٢: ١٠، ذيل الآية ٣٧ من الأحزاب.
٤. إنجيل متّى ٥: ٢٨.
٥. إنجيل متّى ٥: ٢٩.
٦. الهداية ١: ٦٦ س ٩.

العصبيّة. فلنصوّر لك هذه القصّة على الرواية التي اشتهاها المتكلّف، ونذكر لك القصّة التي قُرِف[١] بها داود ملخّصة من التفصيل الذي ذكر في العهد القديم كتاب إلهامهم. وقايس أنت بينهما، واحكم ولو ببعض إنصافك ووجدانك، فنقول:

جاء في بعض الروايات المضطربة أنّ رسول الله أتى بيت زيد غلامه ومعتقه، فوقعت عينه على امرأته، فوقعت في نفسه وأعجبته، وأشعر بذلك فطلّقها زيد[٢] ـ وقل: طمعاً ببرّ رسول الله وشكراً عليه. بل قل: مصانعةً لدنياه. بل قل: باستدعاءٍ من رسول الله ـ فلمّا انقضت عدّتها تزوّجها رسول الله حسب تسويغ شريعته المقدّسة. ولا تقل: بأمر من الله، ولا لأجل الحكمة التي سنبيّنها إن شاء الله في مبحث النسخ.

وجاء في العهد القديم الذي هو كتاب وحي وإلهام عند أهل الكتاب:

أنّ داود تمشّى على السطح فرأى امرأة أُورِيّا تستحمّ، فسأل عنها فأُخبر أنّها امرأة أُورِيّا. ومَن أُورِيّا؟ هو أحد رجاله المؤمنين بالله، الغازين للجهاد في سبيل الله، مع تابوت الله، لنصرة دين الله. فهي في الحقيقة وديعة في حمى داود وظلّ جواره وأمن رعايته. فأرسل عليها وواقعها، فحبلت وأخبرته بالحبل، فأحضر زوجها من الحرب ليدخل على امرأته، فيلتصق به ذلك الحمل الذي هو من الزنى، وأسكره أيضاً لهذا الغرض، فأبى ذلك المؤمن المجاهد الناصح أن يستريح إلى أهله ويأنس بهم، وذلك ليواسي تابوت الله والمجاهدين في سبيله، فتوصّل داود إلى قتله، بأن أمر قائد العسكر أن يجعله في وجه الحرب الشديدة، ويرجعوا عنه لكي يُضرَب ويموت، ففعلوا، وجاهد أُورِيّا صابراً محتسباً حتّى قُتِل فسرّ قتله داود، وضمّ امرأته إلى بيته، وولدت له من ذلك الحمل ولداً، ولمّا مرض ذلك الولد جزع حتّى بات مضطجعاً على الأرض باكياً لم يأكل ولم يشرب[٣].

فدونك المقايسة التي تورّط بها المتكلّف.

---

١. قُرِف: اتُّهِم وعِيب. الصحاح ٤: ١٤١٥، «ق ر ف».

٢. راجع الدرّ المنثور ٦: ٦١٢ ـ ٦١٣، ذيل الآية ٣٧ من الأحزاب.

٣. سفر صموئيل الثاني ١١ و ١٢.

ثمّ إنّ له في هذا المقام وللمتعرّب كلاماً يفضي استقصاؤه إلى طول مملّ[١]. وغايته أنّهما وجدا في أنفسهما بعض القدرة على تلفيق بعض الألفاظ، فتكلّما حسب ما تنضح به آنيتهما من دون نظر إلى العاقبة. وأقلّ ما فيه أنّهما فتحا به باباً قبيحاً، ولم يشعرا بأنّ خصمهم ممّن لم يلقّنه دين الإسلام طهارة المسيح وبراءته من بوادر العهد الجديد، ليقول ويقول إذا رأى ما في سابع لوقا في شأن المسيح:

وإذا امرأةً في المدينة كانت خاطئة، إذ علمت أنّه متّكئ في بيت الفرّيسي. جاءت بقارورة طيب. ووقفت عند قدميه من ورائه باكية، وابتدأت تبلّ قدميه بالدموع، وكانت تمسحها بشعر رأسها وتقبّل قدميه وتدهنهما بالطيب[٢].

ولا سيما إذا سمع اعتراض الفرّيسي والجواب المحكيّ عن المسيح؛ فإنّه لينمّق من ذلك روماناً عشقيّاً، ومقامة وجديّة وصاليّة، يوشّيها من مرامي ألفاظ القصّة، ورموز شواهدها بمغازلات صبابيّة، ومطارحات شوقيّة وِداديّة، وإشارات غراميّة، لم يقف العرجيّ وابن أبي ربيعة موقفها، ولم يحظ امرؤ القيس بمثلها، ولم يبح القيسان ببثّها، ولم يصل نشيد الإنشاد إلى رموز محاوراتها. ولودّ أن يكون قُسّاً إذ فتح إنجيل لوقا للسيّدات باب هذه التوبة. فأين تذهب الأحلام وتشذّ العقول؟!

ثمّ انظر [إلى كلام المتكلّف] تجد العجب من الإصرار على الغيّ[٣].

فإن سألت عن معنى الآية الشريفة، فحاصلها: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ يا رسول الله ﴿لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالخَلق السَويّ، والإسلام وسائر النِعَم العِظام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالبرّ والعِتق ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في شكواك منها، أو بحسن معاشرتك لها عند إمساكك إيّاها، ولا يحملك كلامها معك على أن تجور عليها زيادة على التأديب المشروع ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ﴾ يا رسول الله ﴿مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ فقد أعلمك أنّ زينب تكون من أزواجك، ولا بدّ من أن يكون ذلك ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أن يقولوا جرياً على عوائد

١. ذيل مقالة في الإسلام: ٦٥.
٢. إنجيل لوقا ٧: ٣٧ و ٣٨.
٣. الهداية ٣: ٤٨.

الجاهليّة وضلالاً وزوراً: إنّ رسول الله أخذ امرأة ابنه، مع أنّ الناس لا ينبغي أن تخشاهم، فإنّهم لا يضرّونك بجهلهم ولا يحطّون من شرف منزلتك بأغاليطهم، ولا يُضِلّون من سدّده الله بالهدى ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ فإنّه هو المالك للنفع والضرّ، وهو الذي يُحقّ الحقّ بكلماته ويتصرّف في عباده بقدرته ومشيئته وحكمته ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ إبطالاً لأضاليل الجاهليّة، وعوائدهم الفاسدة في معاملتهم الأدعياء معاملة الأبناء الحقيقيّين، وتثبيتاً للناس على شريعة الحقّ اقتداءً بك ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾[١] وفارقوهنّ عن رغبة واختيار في طلاقهنّ.

هذا معنى ما ورد عن أهل البيت في تفسير الآية[٢]، ولا أقلّ من أن يكون احتمالاً في معناها يكبح أغراض المغرضين.

حديث الإفك

وممّا ينبغي استطراده من هذا النحو أيضاً تعرّض المتكلّف[٣] والمتعرّب[٤] لحديث الإفك، إلّا أنّ المتعرّب قد كشف عن مخبئه وأبدى نضحَه لما في آنيته، وإن كان عيالاً في كلّ ما جاء به على بعض افتراء اليهود والوثنيّين في شأن ولادة المسيح الطاهرة، ويزيدون عليه بأنّ شواهد العادة الطبيعيّة تعضدهم وظواهر الأحوال تساعدهم، بحيث يباين ما يقولونه لحديث الإفك مباينة العادات الطبيعيّة لجزاف التهم. مضافاً إلى أنّ أصل حديث الإفك وتهمته الشخصيّة غير معلوم، وإنّما جاء برواية الآحاد التي لا تفيد علماً، وأنّ القرآن الكريم لم يعيّن لها مورداً خاصّاً وإنّما جاء بعنوان عامّ. ولو عرضنا الأمرين على اليهود والوثنيّين، لقال أهل الشرف والنفوس

١. الأحزاب (٣٣): ٣٧.
٢. انظر التبيان ٨: ٣١٢، ذيل الآية ٣٧ من الأحزاب.
٣. الهداية ١: ٦٨.
٤. ذيل مقالة في الإسلام: ٥٦ ـ ٦١.

الحرّة في حديث الإفك: لا يسوغ لنا الإقدام على التهمة والتخمين، وإنّ الاعتبار ليساعد فيه على البراءة.

هذا، وإنّ الوحي الصادق الإلهي الرادع عن سوء التهم، والقاهر ببيان قدرة الله على خلاف العادات الطبيعيّة، والمكذّب بنفوذ مشيئته لشواهد الحال، قد أعلمنا بفضل الله ولطفه بالطهارة والبراءة في المقامين، والله الهادي إلى سواء السبيل.

وأمّا هزء المتكلّف والمتعرّب في هذا المقام، واعتراضهما على الإطناب في تشديد النكير والموعظة في آيات الإفك، فهما معذوران فيه، إلّا إذا نبّههما الراصِدون بروحانيّتهم لسياسة الاجتماع والمدنيّة، المكتشفون بوصول عقولهم أسباب الائتلاف وارتباط العواطف وحفظ الشرف وناموس العفّة، وفهّموهما أنّ أضرَّ شي ء في ذلك هو الإقدام على التُهَم في الأعراض؛ فإنّ الكلمة البادِرة من ذلك تفعل ما لا تفعله السيوف، وتجني ما لا تجنيه الحروب؛ فإنّها تثلم في شرف القبيلة ثلماً لا يتدارك، وتَسِمُ عمومهم بالعار وَسْماً لا ينمحي، وتحطّهم عن الكفاءة لأقرانهم ومَن دونَهم، وتصدُّ طالبي العفّة عن الرغبة في نسائهم، وتوقع بينهما العداوة، وتنشب الشرّ والعداوة بينهم وبين القاذف وقبيلته، وتلجئهم إلى قتل البريء، وتغرس البغضاء في العائلة، وتقطع علائق عواطفهم، وتجرّعهم غُصَص النَكَد والكَمَد، وتشتّت الشمل المجتمع، وتفرّق بين الطفل وأُمّه والوالد وولده والحبيب وحبيبه. إلى غير ذلك من المضارّ الفظيعة.

وإنّها لتنشأ عن كلمة يقدر عليها الكبير والصغير، والرجل والمرأة، والقويّ والضعيف، والشريف والوضيع، تتفلّت من ألسنة ضعفاء النفوس بأيسر غيظ وأدنى سبب، فيسرع انتشارها في الناس فلا يدركها كتمانٌ ولا يمحو أثرها حيلةٌ ولا تدبير، فلا يُرتَق فتقُها، ولا يُداوَى جرحها. وإنّها ممّا لا تصدّ عنه سلطة حاكم، ولا تردع عن بوادرها قدرة متسلّط، ولا سيطرة مؤدِّب، إلّا النواميس الروحيّة المكتسبة من التعاليم الإلهيّة.

فلا غرو إذاً إذا أطنب القرآن الكريم في الزجر عن ذلك، وأخذ في الردع عنه بمجامع أسباب التهذيب والتأديب، والتشديد في النكير، والتغليظ في العقوبة، والتلطّف في الموعظة. وإنّ هذا لمن إعجاز القرآن الذي لا يخفى إلّا على الغبيّ أو المتعصّب.

فنوّر فكرك، وخذ حظّك من التهذيب والكمال، بالنظر إلى سورة النور[١]. وإنّها ـ مع مافيها من جوامع الكلم، وبواهر الحكم في حفظ النظام وتهذيب الأخلاق، وفلسفة صون العائلة وإصلاحها ـ لم تبلغ ألفاظها ربع ما جاء في التوراة الرائجة في صيدلة البرص والقوبا. انظر إلى الثالث عشر والرابع عشر من اللاويّين، واسأل الحكماء والأطبّاء عن ذلك ما لم يكن فيهم كاهن.

ولقد أوجزنا وأجملنا في كشف أسرار الآيات الشريفة، وأخّرنا شرح ما تصل إليه عقولنا ـ بعون الله ـ من فوائدها إلى حين التعرّض لما في القرآن من الأخلاق الاجتماعيّة.

[نسبة الفظائع إلى الأنبياء]

ولا ألوم المتكلّف والمتعرّب فيما جاءا به في هذا المقام؛ فإنّهما قد أُشرِبَت قلوبهما طريقة العهدين الرائجين في نسبة الفظائع والفواضح إلى الأنبياء وعائلتهم، ونشر ذلك عن لسان الوحي[٢].

غفرانك اللهمّ تقدّست أنبياؤك الطاهرون، وكتب وحيك المطهّرة، وإنّما أردت بذلك أن يعتبر من يتوجّه إليك بنور هداك.

وأمّا تشهّي المتكلّف[٣] في تشبّثه بالرواية المضطربة في السبب لنزول قوله تعالى في أوّل سورة التحريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾[٤] فسيأتي إن شاء الله التعرّض له عند التعرّض لما في الآية الشريفة من الفوائد في نظم العائلة.

---

١. النور (٢٤): ٤ ـ ٢٦.

٢. انظر إلى سفر التكوين ١٢: ١٤ ـ ٢٠، و ١٩: ٣١ ـ ٣٨، و ٢٠: ٢ ـ ١٧، و ٢٦: ٧ ـ ١٢، و ٣٤: ١ ـ ٤، و ٣٥: ٢٢، و ٣٨: ١٣ ـ ٣٠، وإلى سفر القضاة ١١: ١ ـ ٣، و ١٤ ـ ٤٠، و ١٦ ـ ١ و ٤، وإلى سفر صموئيل الثاني ١١ و ١٢ و ١٣: ١ ـ ٢٢. وزادت النسخة السبعينيّة في الطنبور نغمة إذ ذكرت في هذه الحكاية الشنيعة أنّ داود لم يحزن روح امنون ابنه لأنّه أحبّه لأنّه بكره. وأيضاً ١٦: ٢٠ ـ ٢٣، وإلى سفر هوشع ١: ٢ ـ ٢: ٤، و ٣: ١ ـ ٤، وإلى إنجيل متّى ١: ٣ و ٥ و ٦، وإلى إنجيل لوقا ٧: ٣٧ و ٣٨، وإلى إنجيل يوحنّا ١٣: ٢٣ ـ ٢٦.

٣. الهداية ١: ٦٩.

٤. التحريم (٦٦): ١.

وقال المتكلّف:

من تأمّل تأريخ محمّد ظهر له أنّه اشتهر بالقسوة والحقد، فكان يغتال بالغدر والعدوان من عارضهُ إلى آخره[١].

أقول: وقد استشهد لذلك بما يروى من قصّة عصماء بنت مروان، وأبي عفك، وكعب بن الأشرف وبني قريظة، وأبي رافع.

وليت شعري هل تعدو وظيفة رسول الله المبعوث لإعلاء كلمة الحقّ وانتشار الصلاح، وقمع الفساد والمفسدين، أن يكون حسب إعلان الوحي شديد الوطأة على أعداء الله المفسدين في الأرض، الذين كانوا عثرةً في سبيل التوحيد وإعلاء كلمة الحقّ وحسن النظام؟! فكان إعدامهم بكلّ وسيلة من لوازم الإصلاح النبوي وأحسنه ما لا يثير فتنة ولا ينشب حرباً.

ولئن كان هذا من القسوة والحقد والعدوان، فيا لهفاه ويا أسفاه على موسى كليم الله! وماذا يقولون فيه إذ أمر بقتل ذكور الأطفال وموطوآت النساء من سبي مِدْيان، ولم يبقوا إلّا البنات الأطفال اللواتي لم يقربهنّ ذكر، وإنّما أبقوهنّ لانتفاعهم بهنّ لا رقّة عليهنّ[٢]. وقتل بأمره كلّ من في مدن سِيحُون من الرجال والنساء والأطفال[٣]. وكذا مملكة عُوج ملك بَاشَان[٤].

ويا لهفاه ويا أسفاه على يَشُوع بن نُون إذ قتلوا وحَرَّموا بأمره كلّ ما في مدينة أرِيحا من رجل وامرأة وشيخ وطفل حتّى الحيوانات[٥]. وكذا كلّ من في مدينة عاي ممّا عدا البهائم[٦]. وكلّ نفس بِمَقِيدَة، ولِبْنَة، ولَخِيش، وعَجْلُون، وحَبْرُون، ودَبير. وكلّ

١. الهداية ١: ٦٩.

٢. سفر العدد ٣١: ١٧ و ١٨.

٣. سفر التثنية ٢: ٣٤.

٤. سفر التثنية ٣: ٥ و ٦.

٥. سفر يشوع ٦: ١٧ و ٢١.

٦. سفر يشوع ٨: ٢٦ و ٢٧.

أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح[١]. وكذا حاصُور[٢]. ومع ذلك ينسب الأمر بهذا كلّه إلى الله، بل إنّه هو الذي شدّد قلوب المحاربين لبني إسرائيل من هـؤلاء، ليقع هذا الفعل بهم وبنسائهم وأطفالهم ولا تكون عليهم رأفة، ويُحَرَّموا ويبادوا كما أمر الربّ موسى[٣].

فإن قلت: إنّ التوراة قد أعلنت بحكمة هذا التحريم والإبادة، وهي المحافظة على أن لا يختلطوا مع بني إسرائيل، فيردّوهم أو يردّوا أبناءهم عن عبادة الله إلى عبادة آلهتهم[٤].

قلت أوّلاً: لئن جاز هذا كلّه بما فيه من العظائم، وصحّ من موسى ويوشع حذراً من العاقبة في المستقبل، وحماية للتوحيد من احتمال أن يغوي نسل هـؤلاء المبادين لبني إسرائيل ـ الذين عرفت في المقدّمة الخامسة أنّهم لم يستقرّوا على التوحيد في جيل من أجيالهم من زمان موسى إلى سبي بابل ـ فلماذا لا يجوز لرسول الله المبعوث لمحو الشرك وإعلاء كلمة الحقّ أن يطهّر الأرض من رجاسة فلان وفلان، وبني النضير الذين قد أسرفوا وأفرطوا في مقاومة الموحّدين والتوحيد بأقوالهم وأفعالهم وجرأتهم وبغيهم وغدرهم، ونكث العهد، ونصرة الشرك؟!

أفلم ينظر المتكلّف في السِيَر ليعرف ما جناه هؤلاء، وعلى الخصوص بني النضير الفَجَرة الذين أرادوا بغدرهم أن يؤيّدوا كلمة الشرك ويمكّنوا المشركين من قتل الموحّدين.

وثانياً: إنّ حكم التوراة الرائجة بالتحريم وإبادة كلّ نسمة حتّى الأطفال، مختصّ بسبعة شعوب: الحِثّيّين، والجِرجاشِيّين، والأُموريّين، والكَنْعانيّين، والفِرِزّيّين، والحِوّيّين، واليَبُوسِيّين[٥].

---

١. سفر يشوع ١٠: ٢٨ ـ ٤١.
٢. سفر يشوع ١١: ١١.
٣. سفر يشوع ١١: ٢٠.
٤. سفر التثنية ٧: ٣ و ٤، و ٢٠: ١٨.
٥. سفر التثنية ٧: ١ ـ ٥، و ٢٠: ١٦ ـ ١٨.

وأمّا غير هؤلاء الشعوب من المحاربين لبني إسرائيل، فإنّ نساءهم وأطفالهم وبهائمهم تكون غنيمة ولا يقتلون[١].

فنقول: إنّ المِدْيانيّين إن كانوا من الشعوب السبعة، فلماذا أبقى موسى من إناثهم الأبكار ـ اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر ـ اثنتين وثلاثين ألفاً؟[٢]

أفأمن موسى من أن يغوين بني إسرائيل ويرددنهم إلى عبادة غير الله؟ كيف لا وإنّ المِديانيات هنّ اللواتي أغوين بني إسرائيل في شطّيم، إذ زنوا بهنّ، وأكلوا من ذبائح آلهتهنّ، وسجدوا لها، وتعلّقوا ببعل فغور؟[٣]

وهل كان هذا منه محاباةً لبني إسرائيل حيث أعجبهم جمالهنّ وذاقوا لذّة الزنى بهنّ؟ ولئن كان هذا عن أمر الله فهاهنا يقول القائل ـ نحو ما قاله المتكلّف[٤] ـ: حاشا لله القدّوس الطاهر أن يصادق على العمل الشهواني المنبعث عن لذّة الزنى الموقع في الشرك.

هذا، وإن لم يكن المِديانيّون من الشعوب السبعة، فلماذا قتل موسى أطفالهم الذكور وهم يبلغون أُلوفاً عديدة، بمقتضى قياس الأبكار من الإناث؟

وأيضاً: كيف أقدم يشوع لأجل سرقة من الغنيمة فأحرق عخان وبنيه وبناته، مع أنّهم مؤمنون من نسل إبراهيم من بني إسرائيل شعب الله. وهب أنّ عخان سرق، فما ذنب البنين والبنات؟ وما ذنب حيواناته حتّى أحرقوها أيضاً هي وكلّ ماله؟[٥]

وأيضاً في العهد القديم أنّ صموئيل النبيّ أمر شاول أن يقتل عَمالِيق رجلاً وامرأة طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً جملاً وحماراً، انتقاماً وتشفّياً منهم لأجل ما عملوه ببني إسرائيل حين وقفوا لهم بالطريق عند صعودهم من مصر[٦]، بعد ما مضى ما يقرب من

---

١. سفر التثنية ٢٠: ١٢ ـ ١٥.

٢. سفر العدد ٣١: ٣٥.

٣. سفر العدد ٢٥: ١ ـ ١٨، و ٣١: ١٦.

٤. الهداية ١: ٦٦ س ١٣.

٥. سفر يشوع ٧: ٢٤ و ٢٥.

٦. سفر صموئيل الأوّل ١٥: ٢ و ٣.

أربعمائة وخمسين سنة. أفليس هذا من القسوة والحقد؟ وأعجب من هذا أنّ ذلك ينسب إلى أمر الله، وحاشا له أن يأمر بقتل الأطفال الذين لا ذنب لهم ولا تكليف عليهم، بفعل الغير قبل ما يزيد على أربعة قرون.

ورطات المتكلّف

فإنّه قد قابل بين قتل رسول الله لمن عدَّهم ـ وقد عرفت مظاهرتهم للشرك على التوحيد ـ وبين عفو داود عن قتل شاول ملك إسرائيل.

وهذا من المضحكات، فإنّ العهد القديم يقول: إنّ شاول رجل مؤمن موحّد قد تنبّأ مع الأنبياء، ومسحه الله ملكاً على إسرائيل لتخليصهم، فكان متجرّداً للجهاد في سبيل الله ونصرة التوحيد وكسر شوكة الشرك والمشركين. ويكفي في ارتداع داود عن قتله اعترافه بأنّه مسيح الربّ[١].

ولكن لماذا لم يذكر المتكلّف في المقابلة ما يذكره العهد القديم عن داود ـ وحاشاه ـ من غدره بأُورِيّا في زوجته ونفسه ذلك الغدر الفاحش؟ ولماذا لم يذكر ما يذكره كتابهم عن موسى ويشوع وصموئيل كما ذكرناه؟ وليت شعري ماذا ترى المتكلّف يقول في تقوّلاته لو لم يكن مثل ما ذكرنا في كتبه التي ينسبها إلى الوحي؟ أيقول: إنّه لم يطّلع عليها؟ كيف وقد كرّس نفسه مبشّراً في نحلته عالماً من الكتاب؟ أفلم ينظر في كتبه حتّى في المكتب الابتدائي؟ أيكون مثل هذا في هذا الجيل المتنوّر؟ ما عشت أراك الدهر عجباً.

دعوى الخطأ [في أعمال رسول الله ﷺ!؟]

ثمّ قال المتكلّف في شأن رسول الله ﷺ: «كثيراً مّا كان يخطىء في أعماله»[٢].

واستشهد لذلك بآيتين:

الأُولى: قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ

---

١. انظر سفر صموئيل الأوّل من ٩ ـ ٢٤.

٢. الهداية ١: ٧١.

فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأٓخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١].

وقد أرسل المتكلّف ـ حسب أمانته وترويج غرضه ـ في نزول الآية رواية مضمونها أنّ رسول الله أُتي بأُسارى بدروفيهم عمّه وابن عمّه، فاستشار أصحابه وأظهر في لوائح كلماته وأمثاله ميله إلى استحيائهم وفدائهم، فخيّر أصحابه فاختاروا الفداء، فنزلت هذه الآية.

أقول: ولئن تشهّى المتكلّف فيما أرسل روايته، فإنّ الرواية في هذا الشأن مضطربة ذات وجوه:

فعن أبي عبيدة قال: نزل جبرئيل على النبيّ ﷺ يوم بدر فقال: إنّ ربّك يخبرك إن شئت أن تقتل هؤلاء الأُسارى، وإن شئت أن تفادي بهم ويُقتَل من أصحابك مثلهم، فاستشار أصحابه فقالوا: نفاديهم فنتقوّى بهم، ويكرم الله بالشهادة من يشاء[٢].

وفي رواية أنّ رسول الله كان كارهاً لاستحياء المشركين وأخذ الفداء، حتّى رأى سعد بن معاذ كراهية ذلك في وجهه الشريف فرجّح له قتلهم[٣]، وكذا عمر بن الخطّاب[٤]، فاستحسن قولهما.

وفي رواية أُخرى: لمّا أمر رسول الله بقتل عقبة والنفر من الأُسارى، خافت الأنصار أن يأمر بقتلهم جميعاً، فقاموا إليه واستوهبوهم منه ليأخذوا منهم الفداء[٥].

وعلى كلّ حال فليس في صريح الآية ولا ظاهر سَوقها إنكار على رسول الله، ولا توبيخ على فعله، ولا تخطئة لعمله. وإنّما لفظها وسَوقها يعطي أنّ التوبيخ كان للأُمّة، حيث اختاروا عرض الحياة الدنيا من فداء الأُسارى، ولم يشدّدوا الوطأة على أعداء الله.

---

١. الأنفال (٨): ٦٧.

٢. المصنّف، لعبد الرزّاق ٥: ٢٠٩، ح ٩٤٠٢.

٣. التبيان ٥: ١٥٨، ذيل الآية ٦٨ من الأنفال (٨).

٤. أسباب النزول: ٢٤٣.

٥. تفسير القمّي ١: ٢٦٨ ـ ٢٦٩ ذيل الآية ٦٧ من الأنفال (٨).

فهي كقوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[١].

فإن قلت: فما ذكر النبيّ هاهنا؟

قلت: للإعلام بأنّ استحياء الأُسارى والفداء إنّما هو للنبيّ ووظيفته الخاصّة به، يجري فيها بحسب ما يراه من الأصلح والأولى والأنسب بالعزّة، وليس لأحد أن يتعدّى طوره بالتعرّض في ذلك فكانت هذه بياناً لمن له الوظيفة، وزجراً لمن يتداخل فيها فضولاً أو رغبة في المال.

هذا على مقتضى الرواية بأنّ الآية نزلت في الإبقاء على الأُسارى بعد أسرهم.

وأمّا إذا أعرضنا عن الرواية لكونها من الآحاد المضطربة لفظاً ومضموناً، فلا تفيد علماً ولا ظنّاً بسبب النزول، فلنا أن نقول: إنّ ظاهر الآية يقتضي كونها توبيخاً على نفس الأسر في أوّل الأمر، وترك قتل المأسورين في أوّل الظفربهم. وهذا أمر لا ربط له برسول الله ؛ لأنّه وقع في أمكنة متباعدة وأوقات مختلفة عند ما تشتّت المشركون بالهزيمة.

وأمّا ذكر النبيّ، فلبيان حكم الحرب الشرعيّة التي يقوم بها النبيّ لتأييد دعوته وإظهار شريعة الحقّ، والتوبيخ للمجاهدين بأنّ هذه الحرب لا ينبغي المجاهد أن يميل فيها إلى عَرَض الحياة الدنيا، وليست مثل سائر حروبكم المقصود منها الغلبة الوقتيّة ومطامع النهب وفداء الأُسارى.

وأمّا إضافة الأسرى إلى النبيّ، فلبيان علوّ شأنه، وأنّه أولى بأمرهم ؛ لأنّ سلطة الأسر والغلبة إنّما كانت ببركات رئاسته ودعوته ونجدته وشدّته في ذات الله واستجابة دعائه.

فإن قلت: إذا كانت المصلحة في عدم الأسر، بل الأولى إعدام الأُسارى وقتلهم، فلماذا لم يأمر رسول الله بقتلهم؟ ولماذا رضي للمسلمين باستحيائهم وأخذ الفداء؟

قلت: إنّ المصلحة وإن كانت كذلك أوّلاً وبالذات إذلالاً للشرك، وتثبيتاً لنيّات

---

١. النساء (٤): ٩٤.

المجاهدين على الشدّة في ذات الله وإعلاء كلمة التوحيد. ولكن لمّا عُلّقت آمالهم بفداء الأُسارى، وكان قتلهم جميعاً بعد سكون الحرب يعدّه المشركون من الغلظة والقسوة وسوء الولاية، فتستحكم بذلك عقدة الأضغان، ويشتدّ بذلك تكالب المشركين على الإسلام والمسلمين، صارت المصلحة بتسويغ أخذ الفداء تقوية للمجاهدين، وتثبيتاً لعزائمهم على الإقدام في الحرب، وتسكيناً لغوائل الأضغان والأحقاد، وصوناً لكرم أخلاق رسول الله عن شطط قول المشركين والمنافقين. ولعلّ هذا هو المراد من قوله تعالى في هذا المقام: ﴿لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾[١].

وأمّا الآية الثانية التي استشهدبها المتكلّف لدعواه، فهو قوله تعالى في سورة براءة: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾[٢] فاعلم أنّ ما بعدها من الآيات ـ من الرابعة والأربعين إلى الثامنة والأربعين ـ ليـنادي بأنّ صورة العتاب فيها على الإذن لم تكن لملامة لرسول الله ﷺ حتّى على ترك الأولى وإنّما حقيقتها ومرماها هو التوبيخ لهؤلاء القاعدين المستأذنين بنحو من لَحنِ الخطاب الموجّه لرسول الله، بياناً لضلالهم وموافقة إذنه صلوات الله عليه لهم للصواب والسداد من حيث المصلحة الجهاديّة. وليس في عدمها من الفائدة إلّا افتضاحهم عند رسول الله وعلمه بكذبهم في التعلّل بالمعاذير، وصدق الصادقين في الجهاد وفضيلتهم حيث أعدّوا له عُدّته.

فسَوق الآيات الخمس قرينة قاطعة على أنّ قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ بنحو لا ربط له بتقدّم الذنب، وإنّما هو جارٍ على النحو المتعارف في التلطّف والعناية في الخطاب، بتصديره بنحو من الدعاء والإكرام رفعاً لحزازة ما في أثنائه من صورة العتاب، وصرفاً لحزازته إلى من قصد به.

---

١. الأنفال (٨): ٦٨ ـ ٦٩.

٢. براءة ـ التوبة ـ (٩): ٤٣.

وبهذا تعرف ما في كلام المتكلّف حيث قال:

ومع ذلك فقالوا: إنّ الله عاتبه، ولو كان الإله الحقيقي هنا، لعاقبه أشدّ العقاب، ففي التوراة: لمّا أخذ عخان بعض الأشياء المحرّمة ضرب الله الأُمّة الإسرائيليّة بتمامها، وسلّط عليها من هزمها، ولمّا كان أحد ملوك بني إسرائيل يبقي واحداً من الذين أمر الله بإعدامهم عقاباً لهم على خطاياهم، كان يضربه ضربة شديدة، بخلاف الحال هنا. فإذا اقترف محمّد المنكر الذي يستوجب أشدّ عقاب وأنكى عذاب، يعاتبه الله ويلاطفه ويراعي خاطره، فأين عدل الله وقداسته؟[1]

أقول: قد أقام المتكلّف من حيث لا يشعر برهاناً على براءة رسول الله هاهنا من مخالفة أمر الله أو فعل ما لا يرضاه، وإلّا لعاقبه أشدّ العقاب. أ فتراه يقول: إنّ الإله الحقيقي غير حاضر هاهنا؟ وأنّه يشتهي أن يستهزئ بعدل الله وقداسته، كما يفتري على قدس رسوله. أو كما ينسب العهد القديم إلى الله القدّوس العادل أُموراً تنافي العدل والقداسة، ويمتنع صدورها من الله جلّ شأنه:

منها: أنّ عَخَان سرق من الغنيمة، فغضب الله على بني إسرائيل وسلّط عليهم الكفرة ونسب إليهم السرقة والخيانة، مع أنّ المقام ينادي بأنّ عامّة بني إسرائيل لم يكن لهم علم بذلك ليؤاخذوا بترك النهي عن المنكر. ومع ذلك فأُحرق عخان هو وبنوه وبناته وبهائمه وكلّ ماله بأمر الله، تعالى الله عن ذلك. ومقتضى العادة لا بدّ أن يكون في بنيه وبناته من هو طفل غير مكلّف، أو لا يعلم بالسرقة، أو ضعيف لا يقدر على النهي عن المنكر. فأيّ عدل يعاقب هؤلاء بذنب غيرهم؟![2]

ومنها: أنّ صموئيل النبيّ أمر شاول ملك إسرائيل عن أمر الله بأن يقتل عَمالِيق رجلاً وامرأة طفلاً ورضيعاً، عقاباً لما فعله أسلافهم قبل أربعمائة سنة تقريباً. وهب أنّ الكبار كفرة مستحقّون للقتل، فأين يكون قتل الأطفال والرضعان من العدل؟!

١. الهداية ١: ٧٢ ـ ٧٣.

٢. انظر سفر يشوع: ٧.

ومنها: أنّ العهد القديم نسب إلى داود ـ وحاشاه ـ في شأن أُورِيّا وامرأته ما هو من أعظم الخطايا وأشنعها، فكان عقابه أن سلّط عليه ابنه ليزني بنسائه. ومع ذلك يقول ناثان النبيّ لداود: «الربّ أيضاً قد نقل عنك خطيئتك لا تموت»[1].

فهل يقول المتكلّف هاهنا: أين عدل الله في عدم عقابه بالموت؟ وأين قداسته بعقابه بالزنى؟ تعالى الله عمّا يقولون.

ثمّ قال في شأن رسول الله:

> كان دأبه مراعاة صاحب الجاه والشوكة، وعدم الاكتراث بالمسكين والفقير، فمرّة قطّب في وجه الأعمى ولم يلتفت إليه مع أنّه كان آتياً ليتعلّم منه ديانته، ولمّا عرف أنّ هذا لا يليق ادّعى بأنّ الله وبّخه، فورد في سورة عبس ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ * وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ * أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ * فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ * وَهُوَ يَخۡشَىٰ * فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾[2] الخ. روي أنّ ابن أُمّ مكتوم أتى محمّداً وهو يتكلّم مع عظماء قريش، وقال: اقرأني وعلّمني ممّا علّمك الله، فلم يلتفت إليه وقال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد: إنّما اتّبعه الصبيان والسفلة، فعبس في وجهه وأعرض عنه.

أقول أمّا أوّلاً: فإنّ التشبّث بهذه الرواية لما يدّعيه باطل من وجوه:

أوّلها: كون الرواية من رواية الآحاد التي قد عرفت حالها.

ثانيها: كونها مقطوعة السند، فإنّ أقرب الرواة في سندها إلى الزمان الذي تنسب إليه الحكاية هما ابن عبّاس وعائشة، وهما في ذلك الزمان إمّا أن لا يكونا مولودين، أو أنّهما طفلان لا يميّزان شيئاً.

ثالثها: كونها مضطربة النقل.

فإنّه يروى عن عائشة تارةً أنّ رسول الله حين جاءه ابن أُمّ مكتوم كان عنده رجل

---

١. سفر صموئيل الثاني ١٢: ١٣.

٢. عبس (٨٠): ١ ـ ١٠.

من عظماء المشركين[١]، وتارة أنّه كان في مجلس في ناس من وجوه قريش منهم أبوجهل وعتبة بن ربيعة[٢]، وتارة أنّ اللذين كانا عنده عتبة وشيبة[٣].

وفي الرواية عن ابن عبّاس أنّه لقي عتبة والعبّاس وأبا جهل[٤].

وفي الرواية عن أنس: أُبيّ بن خلف[٥].

وفي الرواية عن أبي مالك: أُميّة بن خلف[٦].

وفي الرواية عن مجاهد: عتبة بن ربيعة وأُميّة بن خلف[٧].

وفي رواية أُخرى عنه أنّ رسول الله كان مستخلياً بصنديد من صناديد قريش[٨].

وفي الرواية عن الضحّاك: لقي رجلاً من أشراف قريش[٩].

وإنّ هذا الاضطراب ممّا يلحق الرواية بالخرافة.

رابعها: كونها معارضة بما هو أحسن منها طريقاً، فقد روي أنّ الذي عبس في وجه الأعمى ونزلت فيه الآيات هو غير رسول الله[١٠]. ويدلّ على ذلك قوله تعالى في السورة: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ فإنّه لا يصحّ أن يكون خطاباً لرسول الله ؛ لأنّ كلّ أحد يعلم أنّه لم يكن من وظيفة رسول الله ولا خُلُقه ولا عادته ولا همّته في الهدي أنّه لا يبالي بتزكّي أحد بالإسلام. كيف وقد كان أقصى همّته الدعوة إليه، خصوصاً لمن يقوى الدين بإسلامهم.

وليس كلّ خطاب في القرآن هو خطاب لرسول الله، فإنّ فيه ما لا شكّ بكونه خطاباً لغيره، كقوله تعالى في سورة القيامة المكّيّة: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾[١١].

خامسها: أنّ ما في الرواية ـ من سوء الخلق مع الأعمى ومداهنة قريش ـ مناقض لماهو المعروف من خُلق رسول الله ولا سيّما مع المسلم المسترشد. ومناقض أيضاً

---

١ ـ ٥. الدرّ المنثور ٨: ٤١٦ ـ ٤١٨، ذيل الآيات ١ ـ ١٠ من سورة عبس (٨٠).

٦ ـ ٩. كلّ هذه الصور للرواية في الدرّ المنثور ٨: ٤١٧ ـ ٤١٨، ذيل الآيات ١ ـ ١٠ من سورة عبس (٨٠).

١٠. راجع مجمع البيان ٥: ٤٣٧، ذيل الآيات ١ ـ ١٠ من سورة عبس (٨٠).

١١. القيامة (٧٥): ٣٤ ـ ٣٥.

لقوله تعالى في سورة القلم المكّيّة: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[١] ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[٢] وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[٣].

وأمّا ثانياً: فإنّا لو تنزّلنا مع المتكلّف وفرضنا صحّة ما تشبّث به من الرواية في نزول الآية، لما خرج كلامه عن كونه افتراءً على قدس رسول الله؛ فإنّ من يفرض أنّه أعرض مرّة عن الأعمى مراعاة لبعض المصالح فأدّبه الوحي. أو على زعم المتكلّف عرف أنّ هذا لا يليق فتداركه. هل يسوغ ممّن يتّقي فضيحة الافتراء أن يقول في شأنه: كان دأبه مراعاة صاحب الجاه والشوكة وعدم الاكتراث بالفقير والمسكين، فمرّة قطّب في وجه الأعمى؟!

وليت شعري ألم يسمع المتكلّف من قطعيّات السير والتواريخ هتافها بأنّ رسول الله ﷺ كان من أوّل أمره إلى آخر عمره يعدّ الفقراء والمساكين خير جليس، وأحسن أنيس، وأخصّ سمير، وأقرب بِطانة، حتّى ساء ذلك أهل الشرف وشقّ عليهم؟ أفلم يسمع من القرآن الكريم إطراءه بمدح خلق رسول الله؟ أفلم يسمع أقلّاً من الروايات التي تشبّث بها هاهنا أنّ رسول الله كان شديد الاعتناء بابن أُمّ مكتوم؛ لأنّ الله عاتبه فيه؟

ومن الطرائف أنّ المتكلّف أيّد مزاعمه هذه بما أرسل روايته حسب مشتهاه، من أنّ الأقرع وعيينة وجدا رسول الله جالسا مع صهيب وبلال وعمّار وخبّاب ونفر من ضعفاء المؤمنين، فحقروهم وقالوا لرسول الله: لو جلست في صدر المجلس ونفيت عنّا هؤلاء ورائحة جبابهم ـ وكانت لهم جباب صوف لها رائحة ليس عليهم غيرها ـ لجالسناك وأخذنا عنك، وإنّ وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبُد، فإذاً نحن جئناك فأقمهم عنّا فإذاً نحن فرغنا فأقعدهم حيث شئت. قال: نعم.

---

١. القلم (٦٨): ٤.
٢. القلم (٦٨): ٩.
٣. آل عمران (٣): ١٥٩.

قالوا فاكتب لنا بذلك عليك كتاباً. فأُتي بصحيفة ودعا عليّاً ليكتب، فنزل قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[١].

فأقول أمّا أوّلاً: كيف يجعل هذه الرواية مؤيّدة لما تَوَضّح بطلانه، فأين هو عن صراحتها بأنّ رسول الله كان يجلس مع هؤلاء كأحدهم، ولا يكون في مجلسه معهم صدر يختصّ به كعادة الأشراف، وأنّ انفصالهم عنه واختصاص بعض مجالسه بذوي الجاه كان متعسّراً يتوصّل طالبه إلى تحصيل قراره بكتابة الصحائف؟

فهل هذا شأن من دأبه مراعاة صاحب الجاه والشوكة وعدم الاكتراث بالمسكين؟ فأين الأفهام؟ وأين التمييز؟

وأمّا ثانياً: فإنّ هذه الرواية بسبب نزول هذه الآية ممّا لا يكاد أن يصحّ؛ لأنّها قد رويت مضطربة بوجوه متناقضة وأحوال متفاوتة؛ فإنّ ذكر الأقرع وعيينة وطلبهم من رسول الله مجالسته ليأخذوا عنه، وذكرهم لوفود العرب عليه، يقتضي أن تكون الواقعة في المدينة بعد فتح مكّة. وكذا رواية الزبير بن بكّار في أخبار المدينة[٢]، خصوصاً مع ذكر المؤلّفة قلوبهم فيها.

وعن ابن مسعود أنّ الذين طلبوا من رسول الله طرد الفقراء ليتبعوه هم الملأ من قريش[٣].

وعن عكرمة عدّ جماعة من قريش وأشراف الكفّار من عبد مناف، وأنّهم توسّطوا لطرد رسول الله للمساكين بأبي طالب، فأشار عمر بطردهم فنزلت الآية، فأقبل عمر معتذراً من مقالته[٤].

وهذا لا يكون إلّا في مكّة قبل الهجرة، إلى غير ذلك من الروايات المضطربة، التي يلزم أيضاً من ذكر سلمان الفارسي[٥] في بعضها كون الواقعة في المدينة.

---

١. مجمع البيان ٢: ٣٠٥ـ٣٠٦، ذيل الآية ٥٢ من سورة الأنعام (٦).

٢. لم أجد الكتاب.

٣ و ٤. تفسير الطبري ٧: ١٢٧، ذيل الآية ٥٢ من سورة الأنعام (٦).

٥. الدرّ المنثور ٣: ٢٧٤، ذيل الآية ٥٢ من سورة الأنعام (٦).

وأيضاً فقد روي من طرق كثيرة أنّ سورة الأنعام نزلت بمكّة جملة واحدة، فيكون ذلك منافياً لما يلزمه كون الآية نزلت في المدينة كمرسلة المتكلّف. ومنافياً أيضاً لما يلزمه كون الآية نزلت مستقلّة عن السورة لأجل سبب خاصّ، بل لعلّ جميع روايات النزول تذكر أنّ هذه الآية نزلت في مكّة أو غير المدينة، وأنّها نزلت في جملة السورة، فلا يبقى في روايات أسباب النزول مع اضطرابها ووهنها في نفسها رواية غير معارضة بما يكذّبها بمضمونه.

انظر أقلّاً إلى الدرّ المنثور تفسير السيوطي عند أوّل سورة الأنعام[١]، وعند تفسير الآية المذكورة[٢].

فالصواب أن يقال في الآية: إنّها نزلت لحسن التأديب وتهذيب الأخلاق، وخوطب بها النبيّ ﷺ ككثير من خطاب القرآن من باب إيّاك أعني واسمعي يا جارة، بل ككثير من خطاب التوراة.

ثمّ تعرّض المتكلّف لذكر آيات توهم صدور الذنب من رسول الله[٣].

وها نحن نذكرها ونذكر ما ينبغي أن يقال فيها:

الآية الأُولى: قوله تعالى في سورة الشرح: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۞ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾[٤] فنقول: إنّ الوِزر في اللغة هو ما يُثقِل ويُتعِب[٥]، وبهذا الاعتبار استُعِير للذنب اسم الوِزر، كما حسن أن يستعارللهمّ المجهد والغمّ الباهظ. ولقد كان رسول الله ﷺ قبل البعثة في أشدّ ما يكون من الغمّ والهمّ وأثقَلِه وأجهَدِه، لأجل ما يراه من ضلال الناس وأهوائهم المردية، وعوائدهم القبيحة، وعباداتهم الباطلة، ويتجرّع من ذلك غصص النكد، حتّى أنّه صلوات الله عليه كان لأجل ذلك يحبّ العزلة ويلازم غار الحراء مدّة

---

١. المصدر: ٢٤٣؛ مقدّمة تفسير السورة.

٢. المصدر: ٢٧٢ ـ ٢٧٦، ذيل الآية ٥٢ من سورة الأنعام (٦).

٣. الهداية ١: ٧٤ و ٧٥.

٤. الشرح (٩٤): ٢ ـ ٣.

٥. الصحاح ٢: ٨٤٥، «وزر».

من السنة، مستوحشاً من ضلال الناس معانياً لأعباء هذا الهمّ المبرّح، وعسر الحيرة، وضيق الصدر، منتظراً لفرج الله ولطفه ورحمته الواسعة، حتّى شرح الله صدره، ويسّر أمره، وفتح له باب الهدى والرحمة بالوحي، ووضع عنه أوزار الهمّ والعناء بالبعثة والرسالة بالدعوة إلى الحقّ. فوجد من ذلك انشراح الصدر، ورَوْح الهدى، وراحة الفرَج، ومسرّة اليُسر.

ويرشد إلى ذلك دلالة العقل والنقل على عصمة النبيّ، وكذا سَوق السورة في طرد الامتنان، بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أي بالوحي والنبوّة، بعد ما كان ضيّقاً بالهموم ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ أي ثقل الهمّ والغمّ ببركة الأمر بالدعوة ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أي بالرسالة وحقائق معارفها. ويوضّح ذلك تعليله المؤكّد بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[1] فإنّ هذا التعليل إنّما يناسب الفرج من الضيق، وتيسير الأُمور، وإزاحة ثقل الهمّ الباهظ، ولا مناسبة له مع غفران الذنوب. على أنّه لو كان ما ذكرناه احتمالاً مساوياً في الآية، لكفى في إبطال مزاعم المتكلّف.

الآية الثانية: قوله تعالى في خطاب رسول الله في سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[2] وإنّ سوق الآيات يأبى أن يكون المراد من الذنب فيها هو معصية الله، بل المتعيّن بمقتضى مناسبة السَوق أن يكون المراد ذنبه عند قريش والعرب، من أجل ما جاء به في دعوته الباهظة لأهوائهم الملاشية لدينهم الفاسد، وما قام به من الدفاع عن حوزة دين الحقّ بالحروب التي أرغمت آنافهم، وحطّتهم عن جبروتهم وطاغوتهم.

فإنّه لا مناسبة بين الفتح المبين وغفران الذنوب التي هي معصية الله؛ ليكون الفتح سبباً له، بل في السَوق والمناسبة شهادة قاطعة بأنّ هذا الفتح سبب لغفران ذنبه صلوات

١. الشرح (٩٤): ٥ ـ ٦.
٢. الفتح (٤٨): ١ ـ ٣.

الله عليه عند قريش والعرب؛ لما شاهدوه من عفوه وإحسانه ولطفه، وأيقنوا به في صدقه في دعوته، وَأنَّه على بيّنة من ربّه، وأنّ غرضه الشريف الحميد وراء دواعي الهوى وحبّ الرئاسة والسلطة والهوى في أمر الدين، وإلّا لشدّد في الانتقام والتشفّي.

وقد رأوه على شدّة ما جَنَوه عليه بضلالهم وطغيانهم وقبح معاملتهم له، قد أعرض عن أوتاره وثاراته التي عندهم، وفداها لكلمة التوحيد وملاشاة الأوثان، فصار بذلك أعدى أعدائه المحاربين له قبل الفتح يسير تحت ركابه ومَرفّ لوائه في حَوْمة الحرب ولَهَوات الموت، يقيه بنفسه ويجاهد بين يديه. انظر أقلّاً إلى سيرة غزوة حنين القريبة من الفتح.

فأتمّ الله نعمته على رسوله بهذا الفتح؛ إذ جمع له من شذّ عنه من قريش وغيرهم، الذين كانوا عثرةً في سبيل التوحيد والإسلام، وعقبةً دون المسجد الحرام. وهداه صراطاً مستقيماً إلى إقامة شعائر الحجّ، وسُنن أبيه إبراهيم، ونشر دين الحقّ، وبثّ الدعوة، ونصره الله نصراً عزيزاً انقادت به جزيرة العرب للتوحيد، وتخطّتها الدعوة إلى مملكتي فارس والروم.

ويمكن أن ينزَّل على هذا المعنى قوله تعالى في سورة المؤمن: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾[1] وكذا قوله تعالى في سورة محمّدﷺ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾[2].

ويمكن أن يكون تعليماً للأُمّة وإن كان الخطاب للرسول، كما قدّمناه في قوله تعالى في سورة بني إسرائيل: ﴿وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾[3] الآية.

ولو لم يكن في سَوق الآيات ما يدلّ على ما ذكرنا، للزم حملها عليه بقرينة دلالة العقل والنقل على عصمة الرسول.

---

١. المؤمن ـ غافر ـ (٤٠): ٥٥.

٢. محمّدﷺ (٤٧): ١٩.

٣. الإسراء (١٧): ٢٣.

وهب أنّ ما ذكرناه في الآيات احتمال محض، فـإنّه يكـفي فـي إبـطال تكـلّف المتكلّف[١]؛ إذ ليس في الآيات مثل صراحة العهدين بنسبة القبائح إلى الأنـبياء، كـما سمعت منه في هذه المقدّمة ما تمجّه الأسماع.

آداب القضاء

قال المتكلّف:

ونقول أيضاً: إنّه ـ يعني قدس رسول الله ﷺ ـ كان جائراً في أحكامه، ولمّا ظهر له انحرافه رجع عنه، كما ورد في سورة النساء: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِـٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا * وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٢] قال ابن عبّاس: نزلت هذه العبارة في رجل من الأنصار يقال له: طعمة، سرق درعاً من جار له: يقال له قتادة بن النعمان، وكانت الدرع في جراب فيه دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب حـتّى انـتهى إلى داره. ثـمّ خبأها عند رجل من اليهود يقال له: زيد بن السمين. فالتمست الدرع من عـند طعمة فحلف بالله ما أخذها وما له به من علم، فاتّبع أصحاب الدرع أثر الدقيق حتّى انتهى إلى منزل اليهودي فأخذوها منه، فقال اليهودي: دفعها إليّ طعمة.

زاد في الكشّاف: «وشهد له جماعة من اليهود، وجاء بنو ظفر قـوم طـعمة إلى محمّد وسألوه أن يجادل عن صاحبهم طعمة، فهمَّ محمّد ﷺ أن يعاقب اليهودي وأن يقطع يده» بلا حقّ. وهو حرام وعلى كلّ حال فهو مذنب، فلو لم يذنب، لما استغفر ربّه، ولو كان نبيّاً لعرف الحرامي الحقيقي من أوّل الأمر[٣].

أقول: هب القصّة على ما زاده في الكشّاف، وأنّه ليس فيه إلّا أنّ رسول الله همَّ أن يعاقب اليهودي، فنزلت عليه الآية قبل أن يفعل. فكيف يجترئ المتكلّف ويقول: «إنّه

---

١. الهداية ١: ٧٤ و ٧٥.

٢. النساء (٤): ١٠٥ ـ ١٠٦.

٣. الهداية ١: ٧٥.

كان جائراً في أحكامه»؟! فإنّ هذه الكلمة تقال فيمن تكرّر منه الجور في الأحكـام وكان عادة له.

ثمّ إنّ الكشّاف قال: «وقيل: إنّه همَّ أن يقطع يد اليهودي»[1] وهذا مشعر بأنّه لم يصحّ هذا القول عند الكشّاف. فلماذا يخون المتكلّف في النقل؟

وأيضاً: إنّ هذه القصّة قد تلوّنت رواياتها واضطربت اضطراباً شديداً يكشـف عـن كونها لا أصل لها، فقد جاء في رواياتها وجوه:

١. ما نقله المتكلّف أوّلاً.

٢. ما زاده الكشّاف.

٣. ما نسبه إلى القيل.

٤. إنّ المسروق منه رفاعة بن زيد، من مشربته «محلّ في الدار».

٥. عن ابن عبّاس أيضاً والحسن: نفر من الأنصار فـي بـعض الغـزوات سُـرقت درع لأحدهم.

٦. السارق بشير بن أُبيرق، دعاه رسول الله فأنكر ورمى بالسرقة لبيد بن سهل.

٧. رمى بها رجلاً من اليهود.

٨. بنو أُبيرق رموا بها لبيد بن سهل، رجل له صلاح وإسلام.

٩. طعمة بن أُبيرق استودعه رجل من اليهود درعاً ودفنها بـيده، فأخـذها طـعمة فألقاها في بيت أبي مليك الأنصاري.

١٠. طعمة سرق درعاً لعمّه كانت وديعة عندهم، فقدم بها على يهودي.

١١. طعمة استودعه رجل من الأنصار مشربة له فيها درع، فلمّا قدم لم يجد الدرع، فرمى بها طعمة يهوديّاً.

انظر إلى الدرّ المنثور[2] تجد ما ذكرناه من الاضطراب قليلاً مـن كـثير ومـع هـذا الاضطراب الفاحش لا يصحّ التشبّث بهذه القصّة لشيء.

---

١. الكشّاف ١: ٥٦١ ـ ٥٦٢، ذيل الآية ١٠٥ من النساء (٤).

٢. الدرّ المنثور ٢: ٦٧٠ ـ ٦٧٦، ذيل الآية ١٠٥ من النساء (٤).

فالآية الشريفة واردة في القضاء إشعاراً للعباد بأنّ الله أنزل على رسوله كتاباً يهديه إلى الحكم بالحقّ، وأدّب رسوله بآداب القضاء ليسمع من المتداعيين كلامهما، ويحكم بينهما بما أراه الله، ولا يكون طرفاً في المخاصمة، فلا يكون خصماً يخاصم الخائن ولا يجادل عنه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾[1].

وأمّا قول المتكلّف: «فلو لم يكن مذنباً لما استغفر من ربّه» فهو شطط ؛ لأنّه ليس في الآية الشريفة أنّ رسول الله استغفر عن ذنب فَعَلَه، وإنّما في الآية قوله تعالى ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾[2] فيجوز أن يكون الاستغفار المأمور به هو الاستغفار للمبطل من المتداعيين إشعاراً للعباد برفع أضغان التداعي، أو إشارة إلى أنّ مخاصَمة المبطِل الخائن خروج عن وظيفة القضاء وأمر يحتاج إلى الاستغفار، فما حال من يجادل عن الخائنين؟ كلّ ذلك ليتأدّب قضاة الأُمّة بهذه الآداب كما جاء قوله تعالى في خطاب رسول الله: ﴿وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾[3].

وأمّا قول المتكلّف: «ولو كان نبيّاً لعرف الحرامي الحقيقي من أوّل الأمر» فهو شطط أيضاً:

أمّا أوّلاً: فإنّ اضطراب رواية القصّة لا يسمح لها بشيء من الثبوت، حتّى يُبنى على أساسها.

وثانياً: من أين يلزم في النبيّ أن يكون عالماً بكلّ شيء من أوّل الأمر في الأحكام والموضوعات؟ بل إنّما يعلم بسبب إعلام الوحي.

أفلم ينظر المتكلّف في كتب وحيه أنّ يشوع النبيّ لم يكن يعلم بالسرقة من الغنيمة ولا بالسارق، حتّى أعلمه الوحي بالسرقة وعيّن عَخان بالقرعة، فاستنطقه

---

١. النساء (٤): ١٠٧.

٢. النساء (٤): ١٠٦.

٣. الإسراء (١٧): ٢٣.

فاعترف بالسرقة ودلّه على موضع دفنها؟ انظر سابع يشوع[١]. وأنّ موسى كليم الله لم يعلم أنّ جِلد وجهه صار يلمع في كلامه معه؟[٢]

وقد يشاء الله أن لا يعلم رسله ببعض الأشياء إلى آخر الأمر، ففي ثالث عشر مرقس: «وأمّا ذلك اليوم وتلك الساعة، فلا يعلم بها أحد، ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن إلّا الأب»[٣].

شطط الغرور

قال المتكلّف:

ارتاب محمّد في الله قال في القرآن: ﴿إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[٤] وقال أيضاً: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً﴾[٥] واستنتج علماء المسلمين من هاتين العبارتين أنّ محمّداً مثل الأُمّة في حقّ صدور المعصية منه. وتقدّم في الجزء الأوّل بعض أعماله. ومقتضى القانون ـ الذي وضعه المعترض وهو [أنّ] الشكّ في الإله كفر ـ أنَّ محمّداً ورد في القرآن أنّه شكّ وأشرك وخسر وكفر وافترى وامترى وضلَّ وجهل وكذب إلى غير ذلك[٦].

أقول: وقد تشبّث لهذه الجرأة على قدس رسول الله بما توهّمه من قوله تعالى في سورة يونس: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ـ أي في نبأ نوح وقومه ونبأ موسى وهارون مع فرعون ـ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾[٧] وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ * وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[٨]

١. يشوع ٧: ١٠ـ ١٥.
٢. سفر الخروج ٣٤: ٢٩.
٣. انجيل مرقس ١٣: ٣٢.
٤. الكهف (١٨): ١١٠.
٥. الإسراء (١٧): ٧٤.
٦. الهداية ٤: ٢٥١ و ٢٥٢.
٧ و٨. يونس (١٠): ٩٤ـ ٩٥.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[1] ونحو ذلك.

فأقول: أمّا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فلا يفيد سَوق الآية ولا لفظها إلّا تثبيت التوحيد، ورفع أوهام الغلوّ برسول الله. وتمام الآية ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ وأمّا قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً﴾ فقد قدّمنا لك في أوائل هذا الفصل دلالتها ومرماها، فراجع.

وأمّا قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ الآية. فإنّ «إنْ» الشرطيّة فيه للتعليق على فرض الشكّ، والمراد من تلقين الحجّة لرسول الله فيما أُوحي إليه، وإعلامه بأنّ ما أُوحي إليه في شأن نوح وقومه وموسى مذكور في الكتب التي لم تطّلع عليها أنت ولا قومك.

بل لنا أن نقول: إنّ صورة الخطاب وإن كانت لرسول الله، ولكنّ المقصود منه قومه الذين لا اطّلاع لهم على الكتب السابقة. ولا نجيب عن الآية الشريفة بأنّها مثل ما يحكي عنه قول المسيح: «إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي ليست حقّاً»[2]؛ لأنّه حكي عن قول المسيح شهادته لنفسه وقوله: «أنا هو الشاهد لنفسي»[3].

ولا دليل من القرآن على أنّ رسول الله شكّ فيما أنزل إليه، كما تدلّ التوراة الرائجة على أنّ موسى ـ وحاشاه ـ شكّ في وعدالله، وأجاب بالاستهزاء والسخريّة. كما ذكرناه في أواخر الفصل السابع في عصمة موسى؛ فراجعه[4].

وأمّا النواهي الواردة في القرآن الكريم عن الشرك والامتراء والجهل والمظاهرة للكافرين ونحو ذلك، فهي مثل ما تذكره التوراة من النواهي الواردة عن خطاب الله

---

١. يونس (١٠): ١٠٥ـ١٠٦.

٢. إنجيل يوحنّا ٥: ٣١.

٣. إنجيل يوحنّا ٨: ١٨.

٤. تقدّم في ص ١٢٢ـ١٢٣.

لموسى: لا يكن لك آلهة أُخرى أمامي. لا تسجد لهنّ ولا تعبدهنّ. لا تنطق باسم الربّ إلٰهك باطلاً. لا تقتل. لا تزن لا تسرق. لا تشهد على قريبك شهادة زور. لا تشته امرأة قريبك[١]. لا تضع يدك مع المنافق لتكون شاهدَ ظُلم. لا تتّبع الكثيرين إلى فعل الشرّ[٢].

فإنّ كلّ من له فهم مبرّأ عن رجاسة العصبيّة ورذيلة الغرور، يعلم أنّ الخطاب بهذه النواهي لا يدلّ على أنّ المخاطب قد كان فعل الشيء المنهيّ عنه، بل يعرف أنّها إذا خوطب بها النبيّ فهي لتأسيس الشريعة وبيان تعاليمها للأُمّة.

وقد بقي للمتكلّف ما هو من قبيل هذا ممّا يتشبّث له بأخبار الآحاد المضطربة المردودة في الجامعة. وقد أخّرنا التعرّض لها إلى المحالّ المناسبة لذكرها، على أنّ الناظر العارف يتّضح له وجه بطلانها ممّا شرحناه هاهنا، والله الموفّق.

وإنّ المتكلّف قد غالطه وهمه بأن يدرك مقصوده في التمويه بالتشبّث بأقوال بعض المفسّرين ونحوها، ممّا لا تقيم له الجامعة الإسلاميّة وزناً، فقال: «الشيطان قرين محمّد»[٣] وتشبّث بنقله عن بعض المفسّرين قولهم: «إنّه كان لرسول الله عدوّ من شياطين الجنّ كان يأتيه بصورة جبرائيل، وأنّه يسمّى الأبيض»[٤].

وليت شعري كيف ترى المتكلّف يصول ويتحمّس لوجاء في كتاب إلهامي عند المسلمين، أو سيرة تسالموا عليها، أنّ الشيطان تصرّف برسول الله، كما جاء في الأناجيل التي تسالم النصارى على إلهاميّتها في شأن المسيح ـ وحاشاه ـ من أنّه بعد أن اعتمد من يوحنّا بمعموديّة التوبة ـ وانفتحت السماوات، وأتاه روح الله وروح القدس مثل حمامة جسميّة، وصوت من السماء: هذا هو ابني الحبيب الذي سررت به. وامتلأ من الروح القدس ـ أصعده الروح إلى البرّيّة أربعين يوماً ليجرّب من إبليس. أو تدري ما معنى ذلك؟ هو أن يُرَوّض نفسه ويؤدّبها على مخالفة الشيطان وهوى النفس الذي

١. سفر الخروج ٢٠: ٣ ـ ١٧.
٢. سفر الخروج ٢٣: ١ و ٢.
٣. الهداية ٣: ٥.
٤. مشكل الآثار ١: ٣٠.

هو شبكته، لئلّا يقوى الشيطان عليه بالغواية.

فإن قلت: ما حاجة المسيح إلى التجربة من إبليس، والتأديب للنفس عن اتّباع الهوى، مع أنّ المتكلّف يزعم أنّه ابن الله، والأُقنوم الثاني، وهو والله واحد، والإله الذي تقمّص الطبيعة البشريّة ليرفع قدرها، بل الكلمة الذي كان عند الله وكان هو الله، كلّ شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء، فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس؟[١]

قلت: لا أدري، ومن ذا الذي يدري؟ فاستمع إلى تمام الكلام فإنّ الشيطان بعد تجربة الأربعين يوماً، أصعد المسيح إلى جبل عال، وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان. وقال له إبليس: أُعطيك هذا السلطان كلّه واسجد لي. ثمّ جاء به من البرّيّة إلى أُورشليم وأقامه على جناح الهيكل وقال له: إن كنت ابن الله فاطرح نفسك من هاهنا[٢].

فإن قلت: إنّ من كان في مزاعم المتكلّف وأصحابه بالمنزلة التي ذكرناها عنهم من الأُلوهيّة ولوازمها، كيف يطمع فيه إبليس أن يسجد له بعد تجربة أربعين يوماً؟! وإنّا لنرى أنّ من كان من الصالحين فيه شيء من النعمة والتوفيق الإلهي، لينّدحر عنه إبليس ولا يطمع في إغوائه إلّا بالاختلاس والمخادعة من ناحية التقوى. فكيف يطمع بالمسيح في السجود له؟!

وكيف لم يجبه المسيح ـ على مزاعم المتكلّف وأصحابه ـ بقوله: اخسأ يا شيطان فإنّي أنا الإله المستحقّ للسجود، ولي ملكوت كلّ الموجودات، وبي كان كلّ شيء، وبغيري لم يكن، فهي في قبضة سلطاني؟!

ولماذا أخفى هذه الحقيقة، والحال أنّه لم يكن معهما أحد من اليهود ليخاف منه؟ بل قال له: إنّه مكتوب للربّ إلٰهك تسجد وإيّاه تعبد.

ومن هو إله المسيح ومعبوده إذا كان المسيح إلٰهاً؟

---

١. إنجيل يوحنّا ١: ١ ـ ٥.

٢. إنجيل متّى ٤: ٣ ـ ١١؛ إنجيل لوقا ٤: ٣ ـ ١٣.

وكيف يتصرّف الشيطان بالإله فمرّة يصعده إلى جبل، ومرّة يأتي بـه مـن البـرّيّة ويقيمه على جناح الهيكل؟!

وكيف أراه كلّ المسكونة في لحظة من الزمان؟! أفلم يكن يراها مَن يُقال: إنّه إله؟ أفيكون الشيطان أقدر على ذلك من الإله؟

قلت: لا أدري، سل عمّا عندك في هذا الشأن ممّن يبشّر لا بحكمة كلام، ويقول: استحسن الله أن يخلّص المؤمنين بجهالة الكرازة[١]؛ فإنّا إذ قيّدنا العقل بالتمييز بين الممكن والممتنع، لم نستطع جواباً لسؤالك على موضوعه. واستمع لباقي الكلام ولا تقطع اطّراده؛ فإنّ نصّ الرابع من لوقا: «ولمّا أكمل إبليس كلّ تجربة ـ أي مع المسيح ـ فارقه إلى حين»[٢].

وفي النسخة المطبوعة سنة ١٨١١ م: «مضى عنه إلى زمان».

وفي ترجمة هنري مارتن بالفارسيّة: «مدّتى از وى جدا گشت».

وفي ترجمة بروس: «تا مدّتى از او جدا شد».

ولم يعلم من الأناجيل مقدار زمان المفارقة، ولعلّه كان يوماً، وأهملت الأناجيل ذكر الاقتران بعده، كما أهمل كلّ من الأناجيل كثيراً ممّا ذكره الآخر.

وفي سادس عشر متّى عن قول المسيح في شأن بطرس: «اذهب عنّي يا شيطان أنت مَعْثَرَة لي؛ لأنّك لا تهتمّ بما لله بل بما للناس»[٣] ونحوه في مر[قس][٤]. مع أنّ بطرس هو الرسول المعطى له بناء الكنيسة ومفاتيح ملكوت السماوات[٥] ورعاية الأُمّة[٦].

---

١. رسالة بولس الأُولى إلى أهل كورنثوس ١: ١٧ ـ ٢٦.
٢. إنجيل لوقا ٤: ١٣.
٣. إنجيل متّى ١٦: ٢٣.
٤. إنجيل مرقس ٨: ٣٣.
٥. إنجيل متّى ١٦: ١٧ ـ ٢٠.
٦. إنجيل يوحنّا ٢١: ١٥ ـ ١٧.

وفي الثاني والعشرين من لوقا عن قول المسيح لسِمعان بُطرس في شأن الصليب ومقدّماته والقيامة من القبر: «سِمْعان سِمْعان هو ذا الشيطان طلبكم لكي يُغَرْبِلَكم كالحنطة»[١].

وقد قدّمنا لك في المقدّمة الخامسة[٢] عن الأناجيل ما تذكره في شأن شكّهم بالمسيح عند حادثة الصليب، وعدم مواساتهم له بسهر ليلة، وتفرّقهم عنه، وتركهم له وحده، وإنكار بطرس له، وشكّهم جميعاً في قيامه من القبر. فإن راجعته واطّلعت على تفصيله، تعرف أنّ الأناجيل تقول في شأنهم: إنّه لم يبق في غربلة الشيطان لهم حبّة حنطة على الغربال، وإنّ لسان حالهاينشد في حقّهم:

مَخَضْتُ الوِطابَ على زُبْدة   فلم أُلفِ إلّا مَخِيضاً صُراحا[٣]

وفي الثاني عشر من كورنثوش الثانية عن قول بولس الرسول العظيم عند النصارى:

ولئلّا أرتفع بفرطِ الإعلانات أُعطِيتُ شوكة في الجسد ملاك الشيطان ليلطِمَني لئلّا ارتفع. من جهة هذا تضرّعت إلى الربّ ثلاث مرّات أن يفارقني[٤].

وفي ترجمة هنري مارتن بالفارسية:

و از اينجا كه مبادا از غايت مشاهده مغرور شوم نيشترى در جسم بجهت بى‌قرارى داده شد كه فرستاده شيطانست تا مرا مشت زند كه مبادا مغرور شوم.

وفي ترجمة بروس: «خارى در جسم من داده شد فرشته شيطان تا مرا لطمه زند مبادا زياده سر افرازى نمايم».

ثمّ انظر إلى الرابعة عشر من رابع غلاطية. وفي ثاني تسالونيكي الأُولى: «لذلك أردنا أن نأتي إليكم أنا بُولس مرّة ومرّتين وإنّما عاقنا الشيطان»[٥].

---

١. إنجيل لوقا ٢٢: ٣١.

٢. تقدّم في ص ٤٩ ـ ٥٠.

٣. لم أجد هذا البيت في المصادر التي بين يديّ.

٤. رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس ١٢: ٧ و ٨.

٥. رسالة بولس الأُولى إلى تسالونيكي ٢: ١٨.

فلو أنّ أحداً قال للمتكلّف: إنّ كتاب وحيكم يقول: إنّ بطرس شيطان، ويقول: الشيطان قرين بولس، لما تعدّى حدّه في الجدل. وحاشا المسيح وحواريّيه ممّا نقلناه عن كتب المتكلّف، ولكن انظر إلى المتكلّف كيف يتغاضى عمّا ذكر فيها وهو يقول: إنّها كلام الله السميع العليم، ويتشبّث للبهتان على قدس رسول الله بأقوال من لا يُتّبع قوله في الدين والجامعة الإسلاميّة. ولو تألّف من أمثاله ألف ألف مجمع، فلا يعدو مثل كلامه هذا أن يكون عند الجامعة خرافة مردودة.

المقدّمة التاسعة

في بيان ما تثبت به الرسالة، وتقوم به لله على الناس الحجّة، وبيان ما يلزم فيها وما لا يلزم

يلزم فيها أن تكون مقتضية لتصديق المدعوّين بالرسالة وإيمانهم بصدق مدّعيها بحسب حالهم ووقتهم،كافية في الاحتجاج عليهم، قاطعة لمعاذيرهم.

ويلزم أيضاً أن تكون معلومة عند الدعوة وطلب التصديق:

إمّا بأن تكون سابقة في الزمان ولكنّها معلومة، أو يمكن تحصيل العلم بها للمدعوّين. كما لو نصّ الرسول السابق المسلّم الرسالة عند المدعوّين بالنصّ الصريح المشخّص المعيّن على رسالة المدّعي، وكان ذلك النصّ معلوماً عند المدعوّين، أو يمكن لهم تحصيل العلم به عند الفحص، بشرط أن لا يكون محتملاً للاشتباه والاشتراك، وإلّا فلا حجّة فيه.

وإمّا أن تكون سابقة في الزمان على الدعوة مستمرّة إلى حينها كما لو كفت أحوال مدّعي الرسالة أخلاقه الحميدة في الشهادة على صدقه في دعواه، للمشاهد لها وغيره الذي يمكنه تحصيل العلم بها.

وإمّا أن تَحدُث[1] عند الدعوة وطلب التصديق حسب ما تقتضيه الحكمة، بشرط أن

---

١. أي الحجّة.

تكون معلومة للمدعوّين، أو يمكنهم تحصيل العلم بها.

وإذا تبصّرنا بهدى العقل، وتصفّحنا الكتب المنسوبة إلى الإلهام، وجدناهما لا يسمحان بأن نتشهّى ونقترح على الحجّة المذكورة أن تكون علّة تامّة لتصديق كافّة المدعوّين وإيمانهم فعلاً؛ لأنّ في الناس من المتعصّبين من واقعوا أنفسهم في أسر العصبيّة وعبوديّتها، ونبذوا عقولهم وراء ظهورهم، فلا ينتفعون بها؛ ومن المقلّدين من أماتوا بداء التقليد قلوبهم، وأعموا عيون بصائرهم. وهؤلاء لا يستضيئون بنور عقولهم، ولا يوجّهون نظرهم إلى طلب الحقّ ليهتدوا إليه ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾[١].

وانظر إلى العهدين فكم ترى في نقلهما من هؤلاء أُمماً لم تنفع فيهم بواهر المعجزات المتكرّرة والآيات المتظافرة مهما بلغت، فلا يجدي معهم إلّا أن يصرِف الله نفوسهم بقدرته القاهرة إلى الإيمان، ويلجئهم بغير اختيار منهم عليه، ويطبعهم عليه كما يطبع الحجر الأبيض على البياض. وهذا خلاف ما جرت عليه حكمة الله في خلقه لعباده.

ولا يسمحان[٢] أيضاً بأن نقترح في الحجّة على الرسالة أن تكون دائماً من قسم الفعل المعجز الخارق للعادة؛ فإنّ ذلك غير لازم، بل يكفي نصّ الرسول المسلّم الرسالة عند المدعوّين، على رسالة الرسول الذي يدعوهم، نصّاً معيّناً مشخّصاً لا يحتمل الاشتراك والاشتباه. وذلك لأجل حكم العقل بعصمة الرسول في التبليغ، فعصمة الرسول الناصّ حجّة كافية في تصديق الرسول المنصوص عليه وصدقه بدعواه الرسالة.

ويكفي أيضاً أن يكون مدّعي الرسالة على نحو يمتاز به عن سائر البشر، في تهذيب جميع أخلاقه واستجماعه لصفات الكمال، وطهارته عن جميع الرذائل والنقائص، منزّهاً عن الميل مع الهوى مبرّءاً عن الإثم والتخلّق والتصنّع والتزوير؛ فإنّ هذا كاف في الحجّة على صدقه، ومقتضٍ لأن يؤمن به من لم تُعْمِ العصبيّة عينيه، أو يصمّ التقليد أُذنيه.

---

١. الأعراف (٧): ١٤٦.

٢. أي هدي العقل، والكتب المنسوبة إلى الإلهام.

وإن قلت: إنّ ذلك من نحو المعجز الخارق لعادة الطبيعة البشريّة، فلا نضايقك فيما تقول. وبمقتضى العهد الجديد أنّ إيمان الناس بيوحنّا المعمدان كان على أحد هذين الوجهين، حتّى أقبل عليه جمهور اليهود وغيرهم مصغين لبشائره ووعظه، معتمدين منه بمعموديّة التوبة. ففي عاشر يوحنّا: أنّ يوحنّا ـ المعمدان ـ لم يفعل آية واحدة[١]. مع أنّه عن قول المسيح: نبيّ وأعظم من نبيّ[٢]. ومرسل من الله[٣]. وليس في الناس نبيّ أعظم منه[٤]. وكان جميع الشعب من بني إسرائيل ما عدا من كان يأكل الدنيا باسم الدين واثقين بأنّه نبيّ[٥].

وأنّ إيمانهم لا بدّ أن يكون على أحد الوجهين:

إمّا لأجل نصّ أبيه زَكَريّا عليه بأنّه نبيّ الله العليّ[٦].

وإمّا لأجل ما كان عليه يوحنّا من تهذيب الأخلاق، واجتماع صفات الكمال، وحسن جدّه واجتهاده في خدمة الله، وإرشاد عباده إلى الهدى والتوبة والطاعة، وكونه القدوة في جميع الكمالات وشرف النفس وطهارة العفّة.

وإنّ كثيراً من أنبياء العهد القديم قد أذعن الناس بنبوّتهم، وأصغوا إلى تبليغهم عن الله، مع أنّه لم يذكر في العهدين أنّ ذلك كان مقترناً بفعل المعجز أو النصّ المشخّص، اللذين هما حجّة أيضاً على الرسالة. فتصفّح العهدين في حال صَمُوئيل، وداود، وسليمان، وإشَعْياء، وإرميا، وحَزْقِيال، وهُوشَع، ويُوئيل، وعامُوس، وعُوبِديا، ويونان، وميخا، وناحُوم، وحَبَقُوق، وصَفَنْيا، وحَجّي، وزَكريّا، وملاخي.

وتبصّر في أنّ العهدين قد ذكرا من غير هؤلاء جملة من الأنبياء واستقصيا في ذكر معجزاتهم.

---

١. إنجيل يوحنّا ١٠: ٤١.

٢. إنجيل متّى ١١: ٩؛ إنجيل لوقا ٧: ٢٦.

٣. إنجيل يوحنّا ١: ٦.

٤. إنجيل لوقا ٧: ٢٨.

٥. انظر إنجيل لوقا ٢٠: ٦؛ إنجيل مرقس ١١: ٣٢.

٦. إنجيل لوقا ١: ٧٦.

فإن قلت: إنّ الكثير ـ أو الكلّ ـ من هؤلاء المذكورين قد ذكر العهدان في شأنهم أنّهم قد تنبّؤوا عن الوحي بأُمور من الغيب، فوقعت في المستقبل على نحو ما أخبروا، وهذا من نحو المعجز.

قلت: لماذا نسيت أنّ الحجّة التي هي محلّ الكلام، إنّما هو ما كان مقتضياً لتصديق الناس في أوّل أمر التبليغ وطلب التصديق، وإنّ الذي تذكره ـ لو صحّ ـ فإنّما ينكشف كونه معجزاً بعد وقوع ما أخبروا به على طبق الخبر. وإنّ البعض الكثير ممّا تشير إليه إنّما تبيّن صدقه بمقتضى العهدين ـ وانتفى عنه احتمال الكذب ـ بعد موت النبيّ الذي أخبر به بمدّة، أو بمئات من السنين. والبعض الآخر إنّما تبيّن صدقه بمقتضى العهدين، وانتفى عنه احتمال الكذب بعد سنين من أوّل الدعوة وطلب التصديق. ومثل هذا لا يكون حجّة على الرسالة لمن يطلب منهم التصديق في أوّل التبليغ، ولا يكون حينئذٍ مقتضياً لتصديقهم وإيمانهم. وإنّه حينئذٍ لمردّد بين كونه دالاً على صدق مدّعي الرسالة في دعواه إذا وقع المخبربه، وبين كونه دالاًعلى كذبه فيها إذا لم يقع كما أعطت التوراة علامة على ذلك[١].

ولا يسمح العقل والنقل أيضاً أن نقترح كون الحجّة على الرسالة مشاهدة لكلّ المدعوّين، أو المطلوب منه الإيمان بذلك الرسول، وإن كانوا أجيالاً عديدة؛ فإنّ المدار على حصول العلم بها على النحو الذي تكون به حجّة كافية للرسالة؛ فإنّه لا يجد العقل فرقاً في كونها حجّة بين كونها معلومة بالحسّ أو بالنقل المتواتر.

وعلى ذلك جرت حجج رسل العهدين؛ فإنّ معجزات موسى إنّما شاهدها جيله من بني إسرائيل، مع أنّ الإيمان به كان مطلوباً من أجيالهم. على أنّه من البعيد عادة أن يكون جميع بني إسرائيل ـ رجالاً ونساءً ـ قد شاهدوا معجزات موسى حينما كان الإيمان مطلوباً منهم.

وإنّ معجزات المسيح حتّى إشباعه الخمسة آلاف من قليل الخبز والسمك، إنّما

١. سفر التثنية ١٨: ٢١ و ٢٢.

كانت مشاهدة لبعض الناس في سوريا، مع أنّ الإيمان به كان مطلوباً من جميع الناس في شرق الأرض وغربها.

نعم، لا ننكر أنّ المعجزات يختلف حالها بالنقل المتواتر:

فإنّ منها: ما لا يشكّ من نقلت له في كونها معجزة، كانشقاق البحر الأحمر لبني إسرائيل، وعبورهم على اليابسة والماء عن يمينهم ويسارهم، مع غرق فرعون وجنوده على أثرهم.

ومنها: ما تختلج فيه الشكوك ولو تواتر نقل أصله، وذلك مثل ما في ثالث يوحنّا من جعل المسيح الماء خمراً[١]. وما في سابع لوقا من إحياء المسيح ابن الأرملة في نايين من الموت[٢]. وما في حادي عشر يوحنّا من إحياء المسيح لعازر من الموت[٣].

فإنّ هذه المقامات الثلاثة معرض للشكوك واحتمال التصنّع والتواطؤ فيها. ولا يرتفع الشكّ في واقعة قلب الماء خمراً إلّا بأن يخبر جماعة يبلغ عددهم حدّ التواتر المفيد للعلم، ويبيّنوا أنّهم شاهدوا الماء في الأجران، وأنّه انقلب في الحال خمراً مسكراً من دون مداخلة عمل أو تصرّف. ولا يرتفع الشكّ أيضاً في واقعتي إحياء الميّتين المذكورين إلّا بإخبار جماعة يبلغ عددهم حدّ التواتر المفيد للعلم، وهم من العارفين المميّزين بين الموت وغيره كالأطبّاء ونحوهم، ويشهدون بأنّهم شاهدوا موت الميّتين يقيناً ولم يكن يحتمل التصنّع والإغماء ونحوه، أو يخبروا في واقعة لعازر بأنّهم شاهدوه منتفخاً منتناً بانتفاخ الأموات ونتنهم، ثمّ أحياه المسيح بعد ذلك.

فإن قلت: إذا كان بعض الذين تشملهم دعوة الرسول لم يشاهد المعجز والحجّة على الرسالة، ولم يحصل له العلم به من النقل وإن جدّ واجتهد بالفحص. أو علم بمبدئه لكنّه ليس من أهل التمييز بين كونه من قسم المعجز أو من قسم السحر أو من قسم المهارة في الصناعة، كما يشتبه على البربري الوحشي إذ رأى الفونغراف أنّه هل هو من

---

١. بل في إنجيل يوحنّا ٢: ٤ـ ٨.

٢. العدد ١٢ ـ ١٥.

٣. العدد ١ ـ ٤٤.

المعجز أو من السحر أو من ممكنات الصناعة؟ فهل من كان على أحد هذه الأحوال مكلّف بالإيمان بذلك الرسول ومعاقب على عدمه، أو هو غير مكلّف ولا معاقب؟

قلت أوّلاً: أمّا مثال البربري الوحشي، فيمكن له تحصيل العلم والتمييز بالرجوع إلى أهل الخبرة والتمييز، الذين يركن إليهم في أُموره، ويطمئنّ بهم في معلوماته، على وجه يعلم ويميّز كون الشيء المشار إليه معجزاً، أو سحراً، أو من ممكنات الصناعات البديعة.

وثانياً: إنّ في هذا المقام مخادعات للشيطان، ومغالطات للهوى، ومخالسات للعصبيّة ومَعْثَرات للتقليد، قد ضلّ بسببها كثير من الناس. فمن فرض أنّه لم يقصّر بجدّه في طلب الحقّ، ولم يصدّه عنه انقياده إلى الشيطان أو الهوى أو العصبيّة أو التقليد، وإنّما حجبه عن الوصول إلى الحقّ قصوره وإن صدق في الجدّ مبلغ جهده في طلبه، فهذا الإنسان غير معاقب، والله من ورائه محيط، وهو بكلّ شيء عليم، لا يكلّف نفساً إلّا وسعها.

ولا يسمح العقل والنقل أيضاً بأن نقترح على المعجز كونه من نحو خاصّ؛ لأنّ الغرض منه هو كونه دالّاً على صدق الرسول وحجّةً على الناس، وأيّ نحو منه كان وافياً بهذا الغرض، صحّ في الحكمة أن يكون حجّةً على الرسالة. فانظر إلى ما تضمّنه العهدان من اختلاف معجزات أنبيائهما وشواهدهم على الرسالة، كمعجزات موسى لبني إسرائيل ولفرعون، ومعجزات إيليّا، وأليشَع، والمسيح. بل قد توجب الحكمة الإلٰهيّة اختلافَها مراعاةً لمصلحة الوقت، وحال المدعوّين بحسب أزمانهم وأحوالهم ومعرفتهم.

ولا يسمحان[١] أيضاً بأن نشترط في المعجز أن يكون معتضداً بالإشارة من النبيّ السابق؛ لأنّ هذا الشرط يلزم منه بطلان النبوّات بأجمعها؛ فإنّ النبوّة الأُولى منها لا إشارة إليها؛ إذ ليس قبلها نبوّة، فتبطل؛ فيبطل ما بعدها من النبوّات. ولا تنفعها الإشارة من النبوّة التي بعدها؛ لأنّ مقتضى هذا الشرط أنّ النبوّات المتأخّرة لا تثبت لكي تنفع إشارتها، حتّى يثبت ما قبلها بماله من الشروط.

---

١. أي العقل والنقل.

ويكفي من العهدين في الدلالة على بطلان هذا الاشتراط، ما دلَّ منها على كفاية المعجز في الدلالة على النبوّة والرسالة. ففي رابع الخروج أنّ الله جعل لموسى آية العصا واليد البيضاء حجّة لرسالته على بني إسرائيل ومقتضية لإيمانهم به[١]. وقد كفى ذلك وآمن لأجله بنو إسرائيل[٢].

وفي خامس يوحنّا عن قول المسيح:

لأنّ الأعمال التي أعطاني الأب لأُكمّلها هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أنّ الأب قد أرسلني[٣].

وفي ثاني الأعمال عن قول بطرس:

يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوّات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم كما أنّكم أيضاً تعلمون[٤].

ولا يسمح العقل والنقل أيضاً بأن نقترح على المعجز أن لا يصدر إلّا بعد الطلب والاقتراح؛ لأنّ الغرض منه ـ على نحو الغرض من النصّ وإعجاز كمالات الرسول ـ إنّما هو اقتضاؤه لإيمان المدعوّين، كما ذكرنا، وهذا الغرض يحصل مع تقدّمه على طلب المدعوّين؛ فإنّه قد تقتضي الحكمة تقدّمه تعظيماً لشأن الرسول وبياناً لكرامته على الله.

وفي ثاني يوحنّا في حديث قلب المسيح للماء بمعجزة خمراً: «هذه بداءة الآيات التي فعلها يسوع في قَانا الجليل وأظهر مجده فآمن به تلاميذه»[٥]. ولم تكن بطلب المدعوّين لأجل التصديق، وإنّما كانت بطلب أُمّه.

ولا يسمحان بأن نقترح على المعجز أن يصدر عند كلّ طلب واقتراح؛ فإنّ الطالب

١. سفر الخروج ٤: ١ ـ ١٠.

٢. سفر الخروج ٤: ٣٠ و ٣١.

٣. إنجيل يوحنّا ٥: ٣٦.

٤. أعمال الرسل ٢: ٢٢.

٥. إنجيل يوحنّا ٢: ١١.

للحقّ بصدق النيّة يكفيه العلم بالمعجز الأوّل، كما قدّمنا. وأمّا المتمرّد المستهزئ فإنّه لا فائدة في صدور المعجز ثانياً إجابةً لاقتراحه وتشهّيه، ولا غاية إلّا جعل آيات الله عرضةً للمستهزئين، وهذا خلاف الحكمة في المعجز. ففي سادس عشر متّى عن قول المسيح لمّا جاءه الفرّيسيّون والصَدُوقيّون فسألوه أن يريهم آية من السماء: «جيل شِرّير فاسِق يلتمس آية ولا تُعطَى له آية إلّا آية يُونانَ النبيّ»[١].

ولا يسمحان بأن نقترح على الرسول أن يكون قادراً مختاراً على فعل الآيات والمعجزات متى شاء ومتى طُلِبت منه؛ لأنّه إنسان لا يقدر بطبيعته إلّا على ما يقدر عليه سائر البشر. وأمّا أمر الآيات فبيد الله يجريها على ما تقتضيه حكمته البالغة.

وفي خامس يوحنّا: «فأجاب يسوع وقال لهم: الحقّ الحقّ أقول، لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً»[٢]. «أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً»[٣].

وفي سادس مرقس في شأن المسيح في وطنه: «ولم يقدر أن يصنع هناك ولا قوّةً واحدة»[٤].

المعجز ما هو؟

فالمعجز هو ما يظهره الله على يد رسوله من الفعل الخارق للعادة، بحيث يعجز عنه سائر البشر بما عندهم من دقائق الفلسفة والحذاقة في الصناعة والمهارة في الفنون، وبذلك يُعرَف أنّ الله هو الذي أظهره بقدرته الباهرة على يد الرسول تصديقاً لرسالته.

وأمّا شهادته بصدق الرسول في دعواه الرسالة، فهي من المرتكزات في الأذهان ـ كما لا يخفى ـ وعليه كافّة أهل الملل القائلين بالنبوّات. وإنّا ـ معاشر المسلمين ـ قد بيّنّا وجه ارتكازه في الأذهان؛ إذ قد أوضحنا البرهان في أُصولنا على أنّ الله لا يظهر

١. انجيل متّى ١٦: ٤؛ انظر إنجيل مرقس ٨: ١١ و ١٢، و إنجيل لوقا ١١: ١١ و ٢٩.

٢. إنجيل يوحنّا ٥: ١٩.

٣. إنجيل يوحنّا ٥: ٣٠.

٤. إنجيل مرقس ٦: ٥.

المعجز المذكور على يد الكاذب بدعوى الرسالة؛ لامتناع ذلك في عادة الله بحسب حكمته وغناه وقدسه جلّ شأنه؛ لأنّ إظهار المعجز على يد الكاذب بدعوى الرسالة قبيح، ويمتنع صدور القبيح من الله القدّوس الغنيّ الحكيم العليم.

وإلى الآن لم أطّلع على ما عند أهل الكتاب من البرهان العقليّ على ذلك، وإنّ الاحتجاج له بالكتاب المنسوب إلى الإلهام لا يفيد شيئاً، وذلك لتوقّف ثبوت الإلهاميّة للكتاب على ثبوت الرسالة، وهي متوقّفة على معرفة الوجه لشهادة المعجز على صدق دعوى الرسالة.

على أنّ كتب العهدين وإن ذكرت في بعض مضامينها شهادة المعجز على الرسالة، لكن في بعض مضامينها ما يعارض ذلك ويشوّش بيانه ويكدّر صَفوَه. فإنّهما قد سمّيا المعجز بالآية، والقوّة، والأُعجوبة[١]. ومع ذلك قد نسبا صدور الآية والأُعجوبة والقوّة إلى الكاذبين بدعوى النبوّة، وإلى الداعي للشرك، وإلى الدجّال الأثيم[٢].

فإن قلت: ومضافاً إلى ذلك قد ورد في التوراة أنّ سحرة مصر وعرّافيها قد طرحوا عِصِيّهم فصارت ثعابين كما فعل هارون[٣]. وفعلوا أيضاً بسحرهم مثل ما فعل هارون فأصعدوا الضفادع على أرض مصر[٤]. وغاية الأمر أنّهم لم يقدروا أن يخرجوا البعوض من أرض مصر، وأنّ عصا هارون ابتلعت عصيّهم.

فكيف يعرف الناس أنّ فعل موسى وهارون كان من المعجز الخارج عن طاقة البشر بما عندهم من الحكمة والفلسفة، وأنّه فعل الله لأجل تصديقهما بدعوى الرسالة؟! وكيف يكون حجّةً من الله على صدق دعوى الرسالة؟! وهل يختلج في أذهان الناس في مسابقة هذا الميدان إلّا أنّ موسى كان أحذق وأتقن من السحرة والعرّافين في

---

١. انظر أقلاً إلى سفر الخروج ٤: ٨ و ٧: ٣؛ إنجيل يوحنّا ٢: ١١؛ سفر أعمال الرسل ٢: ٢٢؛ الرسالة إلى العبرانيّين ٢: ٤.

٢. انظر أقلاً إلى سفر التثنية ١٣: ١ و ٢؛ إنجيل متّى ٢٤: ٢٤؛ إنجيل مرقس ١٣: ٢٢؛ الرسالة الثانية إلى أهل تسالونيكي ٢: ٩.

٣. سفر التكوين ٧: ١١ و ١٢.

٤. سفر التكوين ٨: ٦ و ٧.

الحكمة وفنّ السحر؟ وقد جاء في العهد الجديد عن اسْتِفانُوس المملوء من الروح القدس أنّ موسى بواسطة تربيته في بيت فرعون تهذّب بكلّ حكمة المصريّين، وكان مقتدراً في الأقوال والأعمال[١].

قلت: أعَلَيَّ تحمّل ثقل ما في العهدين الرائجين؟ أم قد ضمنت لك صحّة جميع ما فيهما؟ فسل وقل: ما هو المائِز بين المعجز الذي هو الحجّة على الرسالة، وبين السحر؟ لكي أقول لك: إنّ المعجز هو ما كان على نحو يعترف غير العميان بالعصبيّة والتقليد بأنّه من الله لا من السحر ونحوه وإن قال المتعصّبون أو المقلّدون مكابرةً وجهلاً وعناداً: إنّه سحر. ويختلف ذلك بحسب اختلاف الناس في وقتهم ومحلّهم ومعارفهم.

قال المتكلّف:

> المعجزة هي أمر خارق للعادة، داعية إلى الخير والسعادة. يلزم أن تكون نافعة ومفيدة أو كما قال السيّد الجرجاني: داعية إلى الخير والسعادة[٢]. فمثل كلام الجمادات ـ ككلام الحصى والرمّان والعنب وأُسكفّة الباب وحيطان البيت ـ وكلام الشجر، وشهادة الذئب لمحمّدﷺ بالنبوّة وكلام الظبية ليست بمعجزة؛ فإنّه لا فائدة للإنسان منها، وهي جديرة بأن تدرج في سلك الخرافات[٣].

أقول أوّلاً: قد قال المتكلّف: «لا ننكر أنّ شرب الخمر حرام والتوراة والإنجيل ناطقان بأنّها حرام قطعاً»[٤].

وجاء في ثاني يوحنّا:

> أنّ المسيح كان في مجلس العرس، ولمّا نفد خمرهم استدعت منه أُمّه أن يصنع لهم بمعجزة خمراً ـ لئلّا تتعطّل عبادة السكر، ولا تحصل سكتة في عربدته

---

١. سفر أعمال الرسل ٧: ٢٢.

٢. التعريفات: ٢٣١، الرقم ١٦٥٤.

٣. الهداية ١: ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

٤. المصدر: ١٣.

وهذيانه وفواحش آثاره ـ فعمل لهم ستّة أجران من الخمر الجيّد وكان ذلك بدء الآيات منه، فآمن به تلاميذه[١].

فينتج من كلام المتكلّف هذا، وكلام يوحنّا وحكايته، أنّه لا يلزم في المعجزة أن تكون داعية إلى الخير والسعادة، بل يجوز أن تكون مضرّة في الشريعة منتهكة لحرمتها مضطهدة لصلاحها، داعية إلى مثل فواحش السكر وشرور مجالسه المنعقدة له، لتزيد في عربدته وتقوّي انبعاث مفاسده وقبائحه، ويقوم الهرج والمرج من تتابع السكر واستحكام آثاره ـ المعهود قبحها ـ على ساقٍ. ولكنّ المتكلّف ينسى، أو لا يدري بما يقول وما في كتب إلهامه.

وليت شعري ما الذي يريده المتكلّف من منفعة المعجزة وفائدتها، أكثر من كونها مقتضية لاهتداء الخلق إلى صدق الدعوة وبِرّ الإيمان، وهو معنى كونها داعية إلى الخير والسعادة. وكلّ ما عدّده من معاجز رسول الله من كلام الحصى إلى كلام الظبية يفيد بإعجازه الصريح الباهر هذه الفائدة، ويمنح ببركته هذه المنفعة على أكمل الوجوه؛ إذ لا يحتمل فيه التصنّع والتواطؤ كدعوى إحياء الميّت من دون أن يبلى بالموت.

وليت شعري ما الذي أراده بقوله: «إذ لا فائدة للإنسان منها»؟ أتراه يريد من فائدة المعجزة للإنسان أن تكون مثل إبقاء مجلس العرس وإدامة شرب الخمر، لتأخذ شدّة السكر من العقول مأخذها، وتؤثّر حدّته ماتؤثّر من مفاسدها؟

وعليه فأيّة فائدة إذن في لعن المسيح لشجرة التين حتّى يبست في الحال إذ لم يجد فيها ثمراً يسدّ جوعه؟ وهل فيها إلّا الضرر على مالكها إن كانت مملوكة، أو على الفقراء والعابرين إن كانت من المباحات[٢]؟

وأيّة فائدة في صيرورة يد موسى برصاء؟ وأيّة فائدة في صيرورة عصا موسى حية[٣]؟

---

١. إنجيل يوحنّا ٢: ٢ ـ ١٢.

٢. انظر إنجيل متّى ٢١: ١٨ ـ ٢٣؛ إنجيل مرقس ١١: ١٢ ـ ٢٤.

٣. انظر إلى سفر الخروج ٤: ٢ و ٣ و ٦ و ٨ و ٣٠.

وأيّة فائدة للإنسان في أنّ عصا هارون أخرجت فروخاً وأزهرت زهراً وأنضجت لوزاً[١]؟

وأيّة فائدة للإنسان في تكلّم أتان بَلْعام ومراجعته في الجواب[٢].

وليت المتكلّف ـ إذ كتب كتابه ـ كان له بعض الإلمام بكتب إلهامه، أو أنّه يظنّ أنّ في الناس من يكون له اطّلاع عليها، أو أنّه كان يحذر من عاقبة ما يقوله، أو أنّه احتشم الحقائق الإلهيّة والمآثر النبويّة، فعرف قدره ولم يوجّه إليها بضاعته من الجرأة واللسان البذيء!

المقدّمة العاشرة

في ذكر الموانع للنبوّة والرسالة الشاهدة على كذب ادّعائها

وهي أُمور:

[المانع] الأوّل: أن ينصّ النبيّ المعلوم النبوّة على كذب المدّعي للنبوّة والرسالة. فإنّ تصديق هذا المدّعي تكذيب للنبيّ المعلوم النبوّة في تبليغه لكذب هذا المدّعي، وهو غير جائز بالعقل والنقل واتّفاق الملّيّين القائلين بالنبوّات.

ومثل هذا أن ينصّ النبيّ المعلوم النبوّة على أن لا يكون نبيّ من هذه القبيلة، أو من هذا الصنف، أو في الزمان الفلاني، ويكون مدّعي النبوّة من هذه الأقسام.

ومثله أن ينصّ على انحصار النبوّة بهذه القبيلة، أو بهذا الصنف، أو بهذه البلاد، أو بهذا الزمان، ويكون مدّعي النبوّة من غيرها.

المانع الثاني: أن يعطي النبيّ المعلوم النبوّة علامة على كذب دعوى النبوّة، وتنطبق تلك العلامة على مدّعيها.

المانع الثالث: أن يعترف مدّعي النبوّة ويخبر بنبوّة شخص، وينصّ هذا الشخص على كذب ذلك المدّعي للنبوّة في دعواه لها؛ لأنّه إن كان هذا الشخص نبيّاً حقّاً فقد نصّ على كذب مدّعي النبوّة، فيلزم تصديقه في ذلك. وإن لم يكن هذا الشخص نبيّاً، فقد كذب مدّعي النبوّة في التبليغ عن الله بإخباره بنبوّة هذا الشخص، والعقل وإجماع أهل الملل حاكمان بأنّه لا يكذب النبيّ في التبليغ.

المانع الرابع: أن يكون مدّعي النبوّة فاعلاً للإثم، وماهو قبيح في العقل أو في الشريعة التي يتديّن بها؛ لما قدّمناه في الفصل الثالث من المقدّمة الثامنة[١] من دلالة العقل والنقل على لزوم عصمة النبيّ، ومن جملة ذلك أن لا يظهر عليه الكذب المحرّم في تعاليمه وأقواله واستشهاداته.

المانع الخامس: أن لا يأتي في دعوته بما هو مخالف للعقل، ومنه الدعوة إلى الشرك وتعدّد الآلهة وعبادة غير الله؛ فإنّ العقل لا يذعن بنبوّة من هو على خلاف هداه وبديهيِّ حكمه، ويجحدها أشدّ الجحود. وإنّا إن لم نتّبع موازين العقل، فقد أضعنا رشدنا، وضللنا عن السبيل الهادي إلى الله ورسله وكتبه والمعارف الحقّة. وهل وراء العقل إلّا الجهل؟ وهل بعد الحقّ إلّا الضلال المبين؟

المانع السادس: تناقض تعاليمه في بيان الحقائق، وتناقض احتجاجه لها بنحو لا يكون من النسخ للحكم السابق؛ فإنّ اللازم من ذلك كذبه في التبليغ في أحد الأمرين المتناقضين وجهله في وجه الاحتجاج للأُمور الإلهيّة.

المانع السابع: شرب الخمر ـ أُمّ الشرور والقبائح والتهتّك والخلاعة ـ المنافية لوظيفة الرسول وسفارته من قبل الله على الخلق، لهداهم وتكميلهم وتهذيبهم وإصلاح مدنيّتهم وأخلاقهم، كما يدلّ عليه اعتبار العقل وتظافر النقل.

ففي القرآن الكريم في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾[٢].

وفي سورة البقرة: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[٣] أي الخَمْر والمَيْسِر.

وفي ثاني حَبَقُوق: «وحقّاً إنّ الخمر غادرة»[٤].

وفي رابع هُوشَع: «الزنى والخمر والسُلافةُ تَخلب القلبَ»[٥].

---

١. تقدّم في ص ٦٨ ـ ٧١.

٢. المائدة (٥): ٩١.

٣. البقرة (٢): ٢١٩.

٤. سفر حبقوق ٢: ٥.

٥. سفر هوشع ٤: ١١.

وفي العشرين من الأمثال: «الخمر مستهزئة المسكر عجّاج، ومن يترنّح بهما فليس بحكيم»[١].

وفي الثالث والعشرين منه: «لا تكن بين شِرّيبي الخمر»[٢].

لمن الويل؟ لمن الشقاء؟ لمن المُخاصَمات؟ لمن الكَرْب؟ لمن الجُرح بلا سبب؟ لمن ازْمِهرار العينين؟ للذين يُدمِنُون الخمر الذين يدخلون حبابَها في طلب الشراب الممزوج. لا تنظر إلى الخمر إذا إحمرّت حين تُظهِر حبابَها في الكأس وساغت مُرَقْرِقَةً. في الآخر تَلسَع كالحيّة وتَلدَغ كالأُفْعُوان. عيناك تنظران الأجنبيّات وقلبك ينطِق بأُمور ملتوية. وتكون كمضطجع في قلب البحر أو كمضطجع على رأس سارِيَة. يقول ضربوني ولم أتَوَجَّع، لقد لَكَأُوني ولم أعرف، متى أستيقظ أعود أطلبها بعد[٣].

وفي خامس إشَعْياء:

ويل للمبَكِّرين صباحاً يتبعون المُسكِر، للمتأخِّرين في العَتَمَة تَنهبُهم الخمر. ويل للأبطال على شُرب الخمر، ولذي القدرة على مزجِ المسكر[٤].

وفي الثامن والعشرين منه:

ويل لإكليلِ فَخرِ سُكارى أفْرايم... المضروبين بالخمر... ولكن هؤلاء أيضاً ضلّوا بالخمر وتاهوا بالمسكر، الكاهن والنبيّ ترنّحا بالمسكر ابتلعتهما الخمر تاها من المسكر ضلّا في الرؤيا قَلِقا في القضاء[٥].

وانظر إلى تاسع عشر التكوين[٦]، وتبصّر فيما جنته الخمر بزعمهم على لوط البارّ[٧]. ممّا تقشعرّ منه الجلود وتشمئزّ منه حتّى نفوس الفسّاق.

---

١. سفر الأمثال ٢٠: ١.
٢. سفر الأمثال ٢٣: ٢٠.
٣. سفر الأمثال ٢٣: ٢٩ـ ٣٥.
٤. سفر إشَعْياء ٥: ١١ و ٢٢.
٥. سفر إشَعْياء ٢٨: ١ـ ٧.
٦. سفر التكوين ١٩: ٣٠ـ ٣٨.
٧. رسالة بطرس الثانية ٢: ٧ و ٨.

وفي الحادي والعشرين [من] التثنية: إنّ كون الولد سكّيراً من معايبه التي يشتكي بها والده عند شيوخ المدينة، ليرجموه حتّى يموت وينزع الشرّ[١].

وفي عاشر اللاويّين:

وكلّم الربّ هارون قائلاً: خمراً ومُسكِراً لا تشرب أنت وبنوك معك عند دخولكم إلى خيمة الاجتماع لكي لا تموتوا، فَرضاً دهريّاً في أجيالكم، وللتمييز بين المقدَّس والمحلّل والنجس والطاهر، ولتعليم بني إسرائيل جميع الفرائض التي كلّمهم الربّ بها بيد موسى[٢].

وفي أوّل لوقا عن قول ملاك الربّ لزكَريّا في تمجيد ابنه يُوحنّا المعْمَدان ومدحه: «لأنّه يكون عظيماً أمام الربّ وخمراً ومسكراً لا يشرب»[٣].

وفي خامس أَفَسُس: «ولا تَسكَروا بالخمر الذي فيه الخلاعةُ بل امتلئوا بالروح»[٤].

وتأمّل في أنّ العهد القديم قد أمر بأنّ النذير لله لا يشرب خمراً ولا مسكراً وكلّ ما يعمل من جفنة الخمر، بل أمر الامرأة الحاملة بالنذير بذلك[٥].

---

١. سفر التثنية ٢١: ٢٠ ـ ٢١.

٢. سفر اللاويّين ١٠: ٨ ـ ١١.

٣. إنجيل لوقا ١: ١٥.

٤. رسالة إلى أهل أفسس ٥: ١٨.

٥. انظر سفر العدد ٦: ٣ و ٤؛ سفر القضاة ١٣: ١٤.

المقدّمة الحادية عشرة

في وجوب النظر في دعوى الرسالة

ليعرف أمرها من حيث الصدق، فيجب الإيمان بها. أو الكذب، فيجب جحودها. أو يبقى أمرها مردّداً مجهول الحال، فيجب العمل على ما يقتضيه العقل وطريقة العقلاء في مثل هذه الموارد.

ولعمري إنّ هذا المقام لهو الذي يرفع به الشيطان راية الغواية ويستنهض جنده، ويعدّ عُدَّته، ويُرَتِّب جيشه، فيجعل الغفلة على مقدّمته، والعصبيّة على ميمنته، والتقليدَ على ميسرته، وحبَّ الراحة على القلب، وحبَّ الدنيا في الكَمِين، والميلَ مع الهوى جاسوسه، فيستخدم النفسَ الأمّارةَ وزيراً على هذا الجند؛ لأنّه طالما استسلس قيادُها لغوايته وجرّبها في طاعته. أعاننا الله وجميع الراغبين في الحقّ على مكائد الشيطان ومخادعاته، وهدانا بنور العقل وبصيرة الهدى إلى الصواب، إنّه أرحم الراحمين.

اعلم ـ هداك الله إلى الحقّ اليقين، وكفاك شرّ الشيطان اللعين ـ أنّه إذا قام مدّعي النبوّة والرسالة، ودعا إلى الإيمان به وقبول ما يدّعيه من الوحي، وأخبر أنّ عدم الإيمان به مستلزم لوبال الضلال، وموجب لأليم العقاب وشديد النكال، فلا شكّ أنّ هذه الدعوى قبل النظر في الشواهد والموانع محتملة للصدق والكذب، فيقع المدعوّ حينئذٍ بين أخطار ثلاثة:

لأنّه إن تسرّع إلى تصديقها من دون نظر وتثبّت في أمرها، كان مخاطراً في ذلك؛

لاحتمال كذبها في الواقع، ولخوف ضرر الضلال بالإيمان بها واتّباع تعاليمها الفاسدة الكاذبة التي تُعمِي عن الحقّ.

وإن تسرّع إلى تكذيبها من دون نظر وتثبّت في أمرها، كان مخاطراً أيضاً في ذلك؛ لاحتمال صدقها في الواقع، ولخوف الضلال بجحود الرسالة الحقّة، والعقاب الشديد عليه وحرمانه بركة الإيمان بها، ومنافع تعاليمها وإصلاحها وتكميلها، وسعادة تقريبها إلى الله والفوز العظيم.

وإن بقي متردّداً فيها، متوقّفاً في شأنها من دون نظر وتثبّت في أمرها، كان أيضاً مخاطراً؛ لاحتمال صدقها في الواقع، ولخوف العقاب على عدم الإيمان بها وحرمانه وخسرانه ما ذكرنا من منافعها العظيمة.

فلا رافع لهذه المخاطرات ولا مُؤمِّن من مخاوفها العظيمة إلّا اتّباع هدى العقل والاستضاءة بنوره، في الجدّ والاجتهاد بالبحث والنظر في أمرها، بشرط مراقبة النفس في معاثر الميل مع الهوى، والرغبة في الدين المألوف، وغوايات العصبيّة وعمايات التقليد، مع حسن التجرّد في الجهاد، والتحذّر عن هذه المعاثر. فيجب على المدعوّ حينئذٍ ـ بحكم العقل وطريقة العقلاء ـ إعمال النظر في أمر ما دُعي إليه بالنحو الذي ذكرناه، ليتخلّص من هذه المخاطرات، ويرفع الضرر عن نفسه التي هي أعزّ الأنفس وأكرمها عليه، فضلاً عن جلب النفع لها. فإنّه إن تثبّت بهذا النحو من النظر الصادق كان فائزاً بالسعادة إن أصاب، ومعذوراً بحكم الشرع والعقل إن أخطأ، وآمناً من العقاب بحكم العقل والشرع؛ فإنّه لا يكلّف الله نفساً إلّا وسعها.

فصل فيما يتعلّق بكيفيّة النظر

لا يخفى أنّه لا يجتمع في الواقع ونفس الأمر شاهد الرسالة مع المانع منها، فإذا اجتمعا في الظاهر تبيّن كذب الكاشف عن أحدهما أو عنهما كليهما. وأنّ الكاشف عنهما: إمّا أن يكون هو الحسّ فيهما معاً، وإمّا أن يكون هو النقل فيهما معاً، وإمّا أن يكون هو النقل في أحدهما والحسّ في الآخر.

وإنّ الذي يهمّ عموم الناس بعد رحلة خاتم المرسلين إلى سعادة الآخرة، إنّما هو الكاشف النقلي في شأن الأنبياء الذين تنسب إليهم الدعوة إلى دينهم وشرائعهم الواردة في إصلاح البشر في أمر دنياهم وآخرتهم، فلابدّ وأن يكون الكاشف النقليّ هو النقل المتواتر المفيد للعلم، فإنّ غيره ممّا لا يفيد العلم لا حظّ له في المداخلة والحكومة في أُصول الدين المبنيّة على الاعتقاد واليقين.

النقل المتواتر المفيد لليقين هو إخبار جماعة يذعن العقل ـ المبرّأ عن غواية العصبيّة وعماية التقليد ـ بأنّهم لم يتواطؤوا على الكذب. وإذا كان النقل متعدّد الطبقات، فلا بدّ من أن يكون متواتراً في جميع طبقاته على هذا النحو، ليكون مفيداً لليقين وإلّا فلا.

وليعلم الطالب للحقّ ـ الراغب في الهدى، الحريص على نجاته ودفع المخاطرات العظيمة والمخاوف المهلكة عن نفسه ـ أنّه إذا بلغته دعوة الرسالة إلى الإيمان بها واتّباع شريعتها والاهتداء بتعاليمها، كان عليه أن يفحص جهد قدرته عن النقل لشواهد تلك الرسالة وموانعها من معدنه وأهل خبرته.

وليلتفت إلى أنّه لا ينبغي أن يعتمد في أمر الشواهد على من يحرص بتعصّبه على إخفائها حتّى يُلبِسها بتَمْوِيهِه ثوب الاستحالة والامتناع، أو من يحرص بتعصّبه لدعواها حتّى يُفرِغَها بتلفيقِه في قالب بَداهة الوجدان.

ولا يعتمد أيضاً في أمر الموانع على من يدعوه الحسد والعناد إلى تخييلها بأباطيله للعيان، أو من يدعوه الهوى إلى سترها بحجب الكتمان، بل ليعتبر لتأييد الشواهد باعتراف الخصوم بنحو منها، وليعتبر لتأييد الموانع بالتزام جامعة الأتباع بما يؤول إليها.

ثمّ ليتثبّت في أمر النقل ويدقّق في جميع طبقاته، لئلّا يكون فيها ما يمنع من كونه متواتراً. ويحقّق في سائر منقولات هذا النقل لئلّا يكون فيها ما يلزم منه كذبه وفساده، ويكشف بنحو إجمالي عن فساد دعوى التواتر فيه.

وليحقّق في شأن المنقول من الشاهد للرسالة والمانع منها، حسب قانون العقل الذي ذكرناه، لئلّا يشتبه عليه الشاهد بما ليس بشاهد، والمانع وما ليس بمانع.

وليحذر كلّ الحذر في هذا المقام العظيم كلّه من مخادعات الشيطان، ومهاجمات جنوده التي ذكرناها، بل يتجرّد لمقاومة الشيطان محافظاً على حدود مَنَعَتِه[١]؛ فإنّ ميل الإنسان مع الهوى قد دلَّ الشيطان على جميع عوراته التي يؤخذ منها.

فإن قصّر الإنسان فيما شرحناه، فأزلَّ الشيطان عن الحقّ في مقام النظر قدمَه، وثناه عن الهدى، فلا يلومنّ إلّا نفسه حيث استحقّ بتقصيره العقاب العظيم واستوجب الحرمان، وقرّت بضلاله وهلاكه عينُ الشيطان، ذلك هو الخسران المبين. أعاذنا الله من ذلك وكلّ طالب للهدى ودين الحقّ، إنّه وليّ التوفيق.

فإن ثبتت عنده نبوّة النبيّ، فَلْيُعِد النظر لأخذه بشريعته وتعاليمه فيهما، ليميّز بين الحقّ منهما وبين ما زوّره تلاعب الأيّام عليهما. ثمّ يميّز بين ما هو الثابت في حقّه منهما، وبين ما هو منسوخ بشريعة صادقة من نبوّة لاحقة، ليعرف بصدق النظر ما هو حكم الله الفعلي في حقّه، فيتعبّد لله به، ويطلب صلاحه وسعادته في الدارين بسببه.

فصل في أُنموذج النظر ـ حسبما شرحنا من قوانينه ـ تمريناً للذهن

إنّا قد حاولنا إثبات النبوّات وكتبها وشرائعها بحججها، من غير توقّف لثبوت نبوّة أو ثبوت آثارها على تصديق النبوّة التي بعدها، فوجّهنا النظر إلى نبوّة الأنبياء الذين هم قبل موسى، فلم نجد لدعواهم النبوّة وحجّتها ولا لشرائعهم ولا لكتبهم أثراً يعتدّ به في غير النبوّات التي بعدهم، ولئن كان لها أثر عند أهل الملل من بعد موسى فإنّما هو من نبوّاتهم وكتبها.

فوجّهنا النظر إلى نبوّة موسى وكتابه وشريعته، وما حدث بعده من النبوّات والكتب والشرائع، فنظرنا أوّلاً في رسالة موسى وكتابه وشريعته، فوجدنا معاصرينا من اليهود متّفقين في نقلهم على أنّ موسى ادّعى الرسالة من الله وظهرت على يده المعجزات العظيمة، وأنزل الله عليه كتاب التوراة وبعثه بالشريعة، وأنّ التوراة الدارجة الآن هو

١. المَنَعَة: العِزّ. الصحاح ٣: ١٢٨٧، «م ن ع».

الكتاب المنزل من الله عليه لبيان الشريعة وغيرها.

وهم متّفقون أيضاً على أنّ هذه النقول قد تلقّوها متواترة في أجيالهم وطبقاتهم يداً عن يد، إلى الجيل السامعين من موسى دعوى الرسالة المشاهدين لمعجزاته. ويؤيّد نقلَ اليهود المعاصرين ومن قاربهم نقلُ طبقات المسلمين وطبقات النصارى عن طبقات اليهود، ولكنّه منقطع ينتهي في أثناء سلسلة التواتر إلى طبقات اليهود دون غيرهم.

وذلك ظاهر، فإنّ المسلمين أوّلهم من العرب والعجم وجملة من الأُمم الذين ينكرون نبوّة موسى ومعجزاته، وكذا النصارى في أُممهم. بل نقول: إنّ نقل المسلمين والنصارى لمعجزات موسى إنّما أصله وحقيقة مأخذه إنّما هو الاعتماد على نبوّاتهم، ولذا ترى المسلمين لا يعرفون من معجزات موسى إلّا ما جاء في القرآن الكريم. فينحصر حصول التواتر بنقل اليهود. وعلى كلّ حال فإنّ نقل اليهود يمكن باعتبار كثرتهم في أجيالهم أن يكون من المتواتر مالم يمنع من ذلك مانع، أو نجد فيه ما يكذّبه ويشهد بعدم كونه من النقل المتواتر.

فوجّهنا نظرنا إلى الفحص، وابتدأنا بالنظر في الموانع، فوجدنا في عاشر يوحنّا عن قول المسيح ما يقدح بعمومه في رسالة موسى ورعايته للأُمّة، ويصمه بالعيب المانع من النبوّة، فإنّه بعد ما ذكر الرعاية الحميدة والاختلاس قال: «الحقّ الحقّ أقول لكم: إنّي أنا باب الخراف. جميع الذين أتوا قبلي هم سرّاق ولصوص»[1]. انتهى.

إلّا أنّه يكفي في دفع هذا المانع توقّف منعه على ثبوت نبوّة المسيح، والعلم بأنّ هذا المنقولَ من قوله. بل يكفي في بطلانه عجالةً أنّه جاء في الأناجيل عن أقوال المسيح ما يناقضه في شأن موسى، ويكفي من ذلك صراحتها بكون المسيح متّبعاً لشريعة موسى، عاملاً بالفِصح وأعياد التوراة، آمراً باتّباع أقوال الكتبة؛ لأنّهم جلسوا على كرسيّ موسى[2]،

---

١. إنجيل يوحنّا ١٠: ٧ ـ ٨.

٢. إنجيل متّى ٢٣: ٢.

جاعلاً قول التوراة من عند الله وتكليم الله لموسى وقول الربّ[١].

فصرفنا النظر إلى تعاليم موسى لعلّما يوجد فيها شيء من الموانع، فنظرنا في سند التوراة الدارجة التي هي بنقل اليهود كتاب تعاليمه، فوجدناها مساوية لدعوى موسى للرسالة، وظهور المعجز على يده، في اتّفاق اليهود ودعواهم التواتر على أنّ جميعها كتاب موسى عن الوحي، وأنّهم قد تسلّموا نقلها متواتراً عن أجيالهم يداً بيد إلى الجيل المعاصرين لموسى.

فأحرزنا من ذلك أنّ هذا النقل المتّحد في الأمرين، لا يمكن أن يذعن بتواتره في بعض منقولاته، مع كذبه في المنقول الآخر، فلزمنا في مقام النظر التفحّص عن هذه المنقولات، إذ لعلّما يوجد فيها من الموانع ما هو مساو في السند لصورة الحجّة، فلا يبقى اعتماد على هذا النقل المتساوي فيهما.

وإذ تفحّصنا وجدنا في تعليم التوراة عن قول الله: «لا تذكروا اسم آلهة أُخرى ولا يسمع من فمك»[٢]. لتعلم أنّ الربّ هو الإله ليس آخر سواه[٣]. أنا أنا هو وليس إله معي[٤].

ووجدنا أيضاً في التوراة عن قول موسى عن قول الله: «إنّ موسى يكون إلهاً لهارون»[٥]. وجعله إلهاً لفرعون[٦]. وفي التوراة أيضاً: أنّ موسى استعفى من الرسالة بخطاب مع الله غير جار على الأدب. ولم يثق بوعد الله حتّى حمي غضب الله عليه. وقال لله: لماذا أسأتَ إلى هذا الشعب؟ لماذا أرسلتني؟ وقال أيضاً: لماذا أسأتَ إلى عبدك؟ وقال في شأن عبدة العجل: والآن إن غفرتَ لهم وإلّا فامْحُنِي من كتابك الذي كتبتَ. وشكّ في قدرة الله على إشباع بني إسرائيل من اللحم، وخاطب الله بما يشبه الإنكار لذلك. وذكرت التوراة أيضاً: موسى وهارون لم يؤمنا بالله. وعصيا قوله. وخاناه.

---

١. إنجيل متّى ٢٢: ٣١؛ إنجيل مرقس ١٢: ٢٦؛ إنجيل لوقا ٢٠: ٣٧.
٢. سفر الخروج ٢٣: ١٤.
٣. سفر التثنية ٤: ٣٥.
٤. سفر التثنية ٣٢: ٣٩.
٥. سفر الخروج ٤: ١٦.
٦. سفر الخروج ٧: ١.

كما ذكرنا ذلك تفصيلاً في الفصل السابع من المقدّمة الثامنة[١].

وهذا لا يجتمع مع الرسالة ـ كما ذكرناه في المقدّمة المذكورة ـ مضافاً إلى أنّ في التوراة الرائجة ما يمتنع أن يكون من الإلهام، كما سمعت فيما مضى، وسيمرّ عليك إن شاء الله. مضافاً إلى شهادة إرميا بأنّ شريعة الله وتوراته حوَّلها إلى الكَذِب قلمُ كذبِ الكَتَبَة، كما سمعت في المقدّمة السادسة[٢].

ثمّ تحقّقنا أيضاً في خصوص سند التوراة فوجدناه بحكم المقدّمة الخامسة[٣]، وشهادة المقدّمة السادسة[٤]، وأوّليات المقدّمة الثالثة عشرة[٥]. فتحقّق لنا أنّه منقطع لا يمكن في العادة للعاقل أن يحتمل اتّصاله إلى موسى، بل لابدّ من أن يكون نقل مجموع التوراة الدارجة عن موسى كاذباً لا اعتداد به.

فيتّضح من ذلك أنّ دعوى اليهود تواتر نقلهم لدعوى موسى الرسالة، وظهور المعجز على يده، غير صحيحة. وذلك لأجل التنافي بين منقولاتهم التي يدّعون فيها التواتر فيعلم كذب أحدهما أو كليهما إجمالاً. ولأجل ظهور الكذب على بعض منقولاته.

لكنّا قلنا: يمكن أن تكون دعوى اليهود صادقة في اتّصال النقل والتواتر لدعوى موسى للرسالة، وظهور المعجز على يده، وإن ظهر انقطاع النقل بل والكذب في نقل التوراة. وذلك لأجل اكتشاف الداعي إلى الكذب في نقل التوراة، وهو حرص الكهنة ورؤساء الدين على إبقاء صورة الشريعة وآثار موسى، بعد تلاشيها وانطماسها بدواهي التقلّبات والانقلابات ـ المشروحة في المقدّمة الخامسة[٦] ـ فلفّقوها من أوهامهم ومن النقول المشتَبه صدقُها بكذبها، وكابروا في حفظ اسمها وعنوانها بدعوى تواترها.

ومع ذلك لا يعدو أمر موسى في دعواه الرسالة وظهور المعجز على يده من حيث

---

١. تقدّم في ص ١١٣.
٢. تقدّم في ص ٥٦ ـ ٥٧.
٣. تقدّم في ص ٣٧ ـ ٥٣.
٤. تقدّم في ص ٥٦ ـ ٥٧.
٥. راجع الهدى إلى دين المصطفى، ج ٢، ص ٣٩٣ ومابعدها.
٦. تقدّم في ص ٣٧ ـ ٥٣.

نقل اليهود، أن يكون احتمالاً وظنّاً لا يصلح أن يكون حجّة في أُصـول الديـن. ولو أنّ نقل اليهود له أفاد العلم وكان حـجّة، لمـا ثـبت عـندنا إلّا مـجرّد نـبوّة مـوسى، ولا أثر لذلك إلّا وجوب الإيمان به فقط، إذ لم تصل إليـنا مـنه شـريعة مـعلومة ولا كتاب معلوم.

ثمّ وجّهنا نظرنا إلى دعوة المسيح وإنجيله وتعليمه وشريعته، فوجدنا المـعاصرين من النصارى متّفقين في النقل على أنّه ادّعى الرسالة، وظهرت على يده المـعجزات، وأُنزل عليه الإنجيل.

ومتّفقين أيضاً على أنّهم قد تسلّموا هذا النقل مسلسلاً عن أجيالهم يداً عن يد إلى الكثيرين من جيل المسيح السامعين لدعواه الرسالة والمشاهدين لمعجزاته.

ومتّفقين أيضاً بهذا الاتّفاق في النقل على أنّ الأناجيل الأربعة الدارجة هـي مـن تعاليم المسيح وأحواله الواقعيّة، وأنّها قد كتبها رسل مُلهَمُون عن الروح القدس، ادّعوا الرسالة وظهر على يدهم المعجز.

وأنّهم ـ أعني النصارى ـ تسلّموا هذا كلّه مسلسلاً من نقل أجيالهم إلى الكثيرين السامعين من هؤلاء الرسل دعواهم الرسالة، والمشاهدين لظهور المعجز على أيديهم، وأنّ هذه الكتب الأربعة من كتابتهم.

ومتّفقين أيضاً بهذا الاتّفاق على أنّ أعمال الرسل، وأربع عشـرة رسـالة لبـولس، وواحدة ليعقوب، واثنتين لبطرس، وثلاثاً ليوحنّا، وواحدة ليهوذا، ورؤيا يوحنّا ـ على ما شرحناه في المقدّمة الأُولى ـ هذه كلّها كتب رسل ملهمين ادّعوا الرسالة، وظهر على يدهم المعجز. وأنّهم تسلّموا هذا كلّه مسلسلاً من نقل أجيالهم، إلى الكثيرين السامعين من هؤلاء الرسل دعوى الرسالة، المشاهدين لظهور المعجز على أيـديهم، وأنّ هـذه الكتب المذكورة من كتابتهم.

ووجدنا النصارى المعاصرين أيضاً يدافعون أشدّ المدافعة في أقوالهـم وكـتاباتهم على الخدشة في سند هذه الأناجيل والكتب، ويحامون عنها بدعوى تـواتـر النـقل، لكونها كتباً إلهاميّة صادرة من رسل مُلهَمين.

فقلنا: لننظر أوّلاً في الموانع عن رسالة المسيح وهؤلاء الرسل، فوجدنا اليهود يقدحون في نسب المسيح وولادته الطاهرة، فتمتنع رسالته[١]. ويدلّ عليه اعتبار العقل، فإنّ هذا الأمر منقصة منفّرة للناس، فيمتنع للرسالة التي هي إتمام للحجّة من الله على الناس أن يكون فيها مثل هذا الأمر المنفّر.

وأيضاً يصفون قدس المسيح بالضلال والسحر، وكذا بعض الوثنيّين حتّى عدّوا من كتبه كتاب الشعبذات والسحر وأنّه في مدّة بقائه بمصر تعلّم النيرنجات، ويكيلون لباقي الرسل بنحو هذا المكيال.

فقلنا: لننظر أوّلاً في الحجّة على رسالة المسيح وموانعها الداخليّة، فإن تمّت الحجّة لم تعارضها هذه الموانع الخارجيّة، بل يوضّح تمام الحجّة كذب دعوى هذا المانع. فقد قضت العادة بأنّ كلّ من نهض لدعوة جديدة أو رئاسة جديدة مُحقّاً كان أو مُبطلاً، لا بدّ أن ينهض له مقاومون يرمونه بالعيب والضلال، فاشتبه حقّ هذا القَدْح بباطله.

وخصوصاً أنّ قَدْحَ اليهود وغيرهم في نسب المسيح في غير محلّه؛ لأنّ الذي يدّعونه أمر غيبي وإن كانت العادة تعضده، إلّا أنّ اليهود معترفون بأنّ الله قادر على خلق الولد في رحم أُمّه من غير فحل، وقد ظهرت قدرة الله في شأن آدم وحوّاء، بأعظم من ذلك. وأنّ الطبيعة التي سخّرها الله بقدرته صالحة لمثل هذا، فقد وجدنا في الحيوانات المعتاد تخلّقها بآلات التناسل قد تتخلّق بغيرها، كما هو المشاهد في الفأر إذ يتخلّق من الطين، والدجاج قد يبيض ويفرّخ من غير فحل. فإن أخبر نبيّ بتولّد إنسان من غير فحل وجب تصديقه، لإخبار الصادق بأمر ممكن في قدرة الله جلّ شأنه، مع صلاحية الطبيعة لمثله، خصوصاً مع وقوع ما هو من هذا القبيل.

هذا، وإن لم يخبر به النبيّ فلا ينبغي أن يستلب حقّه من الإمكان والاحتمال وإن كان على خلاف العادة، خصوصاً إذا كانت المرأة الوالدة من المعروفات بالدين والعفاف.

---

١. بحكم سفر التثنية ٢٣: ٢.

[عدم تواتر كتبهم]

دع هذا. فنظرنا في هذا الاتّفاق من النصارى المعاصرين المتساوي في جميع منقولاته على نحو واحد، بحيث لا يمكن أن يكون متواتراً في بعض منقولاته كاذباً في المنقولات الأُخر. فوجدناه مختلّ الأركان متناقض المنقولات مضطرباً فيها، مشتملاً على ما يكذّب بعضه بعضاً، وعلى واضحات الموانع من رسالة المسيح. ولنذكرلك من ذلك شيئاً يسيراً، فإنّ الاستقصاء يفضي إلى السأم والملل والخروج عن المقصود من وضع الكتاب والمقدّمة فاستمع ذلك إلى أُمور:

[الأمر] الأوّل

شهادة التاريخ بأنّ في بعض منقولات هذا النقل ما ليس متواتراً، بل هو منقطع قد تواطأ على صحّته بعض السلف بتلفيق الأدلّة والمؤيّدات بزعمهم، فتبعهم الخلف واستعاروا له اسم التواتر. ولنقتصر من نقل ذلك على ما نقله إظهار الحقّ فإنّه الميسور تعجيله، فقد نقل من ذلك موارد:

المورد الأوّل:

عن جيروم في مقدّمته على كتاب يهوديت أنّ سبعة كتب وبعض الفقرات ممّا يدّعي المعاصرون والمتأخّرون تواتره، قد كانت مشكوكة، فانعقد مجلس العلماء المسيحيّين لتحقيق أمرها، بأمر السلطان قسطنطين في بلدة نائس ـ نيقيّة ـ سنة ثلاثمائة وخمس وعشرين، فلم يتحقّق. وهي ستّ رسائل: العبرانيّين، وبطرس الثانية، ويوحنّا الثانية والثالثة، ويعقوب، ويهوذا، والسابع رؤيا يوحنّا. بل سلّم من دونها كتاب يهوديت، المردود عند البروتستنت. قال: ثمّ انعقد مجلس لوديسا ـ أي لاوديقية ـ سنة ثلاثمائة وأربع وستّين، فأوجب التسليم للستّ رسائل المذكورة، وأبقى رؤيا يوحنّا على الشكّ، إلى

أن انعقد مجلس كارتهيج ـ أي قرتاجنة ـ سنة ثلاثمائة وسبع وتسعين فسلّم رؤيا يوحنّا[١].

والمتكلّف لم تسعه المكابرة بتكذيب إظهار الحقّ ولا توهين جيروم؛ لأنّه ادّخره للاستشهاد بكلامه. وصرّح بأنّه كان مشهوراً بالتحقيق والتدقيق في عصره[٢]، وهو الجيل الرابع للمسيح. ولكنّه لمّا ألجأه الوقت أن يكتب شيئاً ما قال:

مداولة المجالس في الكتب الموضوعة قال ـ يعني إظهار الحقّ ـ التأم مجلس العلماء المسيحيّين للنظر في الكتب المشكوكة، قلنا: يؤخذ من كلامه أنّه لا خلاف في الكتب الموحى بها وهو الصواب... إلى أن قال المتكلّف: ولم يحصل أدنى خلاف بين أعضاء المجلس النيقاوي على صحّة الكتب المقدّسة[٣]. انتهى.

وأقول: كيف أخذ المتكلّف من كلام إظهار الحقّ أو جيروم أنّه لا خلاف في الكتب المُوحَى بها، مع تصريحه في النقل عن جيروم أنّ الكتب السبعة المذكورة كانت مشكوكة، وبقيت على الشكّ بعد المجلس الأوّل، فسلم منها في المجلس الثاني ستّة وبقي السابع مشكوكاً إلى المجلس الثالث؟ أفيقول المتكلّف: إنّ هذه الكتب السبعة ليست من الكتب المُوحَى بها؟

هذا وإن أراد المتكلّف أنّ سكوت إظهار الحقّ أو جيروم عن الباقي من كتب العهد الجديد يدلّ على أنّها مسلّمة في جميع الأعصار.

قلنا: متى سكت إظهار الحقّ أو جيروم أو غيرهم عن باقي الكتب ـ كما سنذكره في الموارد الآتية ـ وإنّها بمرأى المتكلّف ومسمعه، وقد تعرّض لها. ولكنّي أُخبرك أنّ ظنّي القويّ أنّ المتكلّف لا يدري ما ذا قال هاهنا.

وأمّا قوله: «ولم يحصل أدنى خلاف بين أعضاء المجلس النيقاوي على صحّة الكتب المقدّسة».

---

١. إظهار الحقّ ١: ١٠٥ـ١٠٦.

٢. الهداية ١: ١٤٨ س ٧.

٣. المصدر: ٨٢.

فنقول فيه: إن أراد من المجمع النيقاوي هو مجلس نائس المذكور، قلنا: إنّ نقل جيروم أبعد عن التعصّب من دعوى المتكلّف، وهو أعرف بالأُمور القريبة من عصره، ومشهور بالتحقيق والتدقيق، وهو مثبت والمتكلّف نافٍ.

وإن أراد من المجمع النيقاوي غير مجلس نائس المذكور، فلا يضرّنا؛ لأنّا لا ننكر أنّ مجامع النصارى قد اتّفقت في بعض الأدوار على صحّة هذه الكتب، بل اتّفقت في أدوار كثيرة على صحّة كتب كثيرة، حتّى نبغت فرقة البروتستنت فيالقرن السادس عشر فانفردت بدعوى كذبها.

وقد تعرّض المتكلّف أيضاً للمجمع النيقاوي المذكور[1] فلم يجسر على مخالفة جيروم في النقل، ولكنّه تكلّم بمالادخل له بالمقام، كاستشهاده بكثرة الأساقفة على انتشار الديانة المسيحيّة، وأنّ الكتب الموحَى بها هي التي تكتب بإلهام الروح القدس، وأنّ كتاب يهوديت ليس منها.

المورد الثاني:

عن وارد كاتلك قال في كتابه: صرّح جيروم في مكتوبه أنّ بعض العلماء من المتقدّمين كانوا يشكّون في الباب الآخر من إنجيل مرقس، وبعض القدماء كانوا يشكّون في بعض الفقرات من الباب الثاني والعشرين من لوقا.

وعن المحقّق نورتن في كتابه المطبوع في بلدة بوستن سنة ١٨٣٧ م ص ٧٠: في هذا الإنجيل ـ يعني مرقس ـ عبارة واحدة قابلة للتحقيق، وهي من الفقرة التاسعة من الباب الأخير إلى آخر الإنجيل. والعجب من كريسباخ أنّه ما جعلها مُعْلَمَة بعلامة الشكّ في المتن، وأورد في شرحه أدلّة على كونها إلحاقيّة. ثمّ نقل أدلّته وقال: فثبّت منها إنّ هذه العبارة مشتبهة سيّما إذا لاحظنا العادة الجِبِلّية للكاتبين بأنّهم كانوا أرغب في إدخال العبارات من إخراجها[2]. انتهى.

---

١. المصدر ٣: ٢٤٦.

٢. إظهار الحقّ ١: ١٥٢.

قال المتكلّف:

إنّ القول بأنّ العلماء كانوا يشكّون في الأصحاح الأخير من إنجيل مرقس هـو افتراء محض، غاية الأمر أنّ غريغوريوس أُسقف نَسا في كبدو كية قال: إنّ إنجيل مرقس ينتهي بقوله: «وخافوا» ـ والصواب: خائفات ـ وغضّ الطرف عن الاثنتي عشرة آية الأخيرة؛ لأنّه لم يجدها في بعض نسخ الفاتيكان. ومن المـؤكّد أنّـها كانت موجودة في نسخ كريسباخ، ولكنّها كانت مكتوبة بين قوسين[1].

فأقول: هب المتكلّف كذّب إظهار الحقّ، أو وارد كاتلك، أو معتمدَه جيروم، في شكّ بعض العلماء المتقدّمين في آخر مرقس، ولكنّه اعترف بأنّ أُسقف نَسا قد أخرج اثنتي عشرة فقرة من آخر مرقس جزماً. والاعتذار بأنّه لم يجدها في بعض نسخ الفاتيكان اعتذار واه، لا محصّل له إلّا القدح بتثبّت الأساقفة وقصورهم بل وتقصيرهم في معرفة الحقائق والمحافظة على الكتب الإلهاميّة بزعمهم.

وينجرُّ إلى القدح أيضاً بسند العهد الجديد؛ لأنّه لم يكن لعموم الناس ـ قبل القرن السادس عشر ـ حظّ في تداوله، كما حدث بعد ذلك. وإنّما كان أمره مختصّاً بالأساقفة ومن تحت أيديهم من القُسوس وغيرهم. على أنّه لم تكن قبل ناشئة البروتستنت كتب تختصّ بعنوان الفاتيكان، وإنّما كان أمر الكتب في هرج ومرج تسكّن سورته المجامع، وبعد مجلس كارتهيج ـ أي قرطاجنة ـ صار الفاتيكان وغيره واجب التسليم إلى القرن السادس عشر.

وأيضاً هب أنّ المتكلّف كذّب نورتن في نقله عن شرح كريسباخ، ولكنّه اعترف بأنّ الفقرات المذكورة كانت مكتوبة في نسخته بين قوسين ومن المعلوم من الاصطلاح في رسم العهدين أنّ الجعل بين هلالين، إنّما هو علامة على أنّ ما بينهما غير موجود في أصحّ النسخ وأقدمها، وهو أعظم من الشكّ. ومن أراد الحكومة بين المتكلّف وبين وارد كاتلك ونورتن فليحقّق في كتابات جيروم وكريسباخ، فإنّ المتكلّف قد أنكر الفقرة الثالثة من ثاني التكوين في تقديس اليوم السابع وتبريكه[2] فهل يؤتمن بعد ذلك على نقل؟!

---

١. الهداية ١: ١٢٣.

٢. انظر المصدر ٤: ١٤٧ س ٣.

المورد الثالث:

عن ص ٢٠٥ من المجلّد السابع المطبوع سنة ١٨٤٤ م من كاتلك هولد: كتب استادلن في كتابه أنّ كافّة إنجيل يوحنّا تصنيف طالب من طلبة المدرسة الإسكندريّة بلاريب. والمحقّق برطشنيدر قال: إنّ هذا الإنجيل كلّه وكذا رسائل يوحنّا، ليست من تصنيفه، بل صنّفها واحد في ابتداء القرن الثاني. والمحقّق المشهور كروتيس قال: إنّ هذا الإنجيل كان عشرين باباً، فألحقت كنيسة أفْسُس الباب الحادي والعشرين بعد موت يوحنّا. وعن هورن في الباب الثاني من القسم الثاني من المجلّد الرابع من تفسيره المطبوع ١٨٢٢م أنّه قال: الحالات التي وصلت إلينا في باب زمان تأليف الأناجيل من قدماء مؤرّخي الكنيسة أبتر وغير معيّنة لاتوصلنا إلى أمر معيّن. والمشايخ القدماء الأَوّلون صدّقوا الروايات الواهية وكتبوها، وقبِل الذين جاؤوا من بعدهم مكتوبهم تعظيماً لهم. وهذه الروايات الصادقة والكاذبة وصلت من كاتب إلى كاتب آخر. وتعذّر تنقيدها بعد انقضاء المدّة[1]. انتهى.

ولم يتعرّض المتكلّف للكلام على هذا النقل[2].

المورد الرابع:

عن هورن ص ٢٠٦و ٢٠٧ من المجلّد الثاني من تفسيره المطبوع سنة ١٨٢٢م: لاتوجد في الترجمة السريانيّة الرسالة الثانية لبُطرس، ورسالة يهوذا، والرسالة الثانية والثالثة ليوحنّا، ومشاهدات يوحنّا، ومن الآية الثانية إلى الآية الحادية عشرة من ثامن يوحنّا، والآية السابعة من الباب الخامس من الرسالة الأُولى ليوحنّا.

وعن وارد كاتلك ص ٣٧ من كتابه المطبوع سنة ١٨٤١ م: ذكر راجرس ـ وهو من أعلم علماء بروتستنت ـ أسماء كثيرين من علماء فرقته الذين أخرجوا

---

١. إظهار الحقّ ١: ١٥٦ـ١٥٧.

٢. انظر الهداية ١: ١٣٤إلى آخره.

الكتب المفصّلة من الكتب المقدّسة باعتقاد أنّها كاذبة: الرسالة العبرانيّة، ورسالة يعقوب، والرسالة الثانية والثالثة ليوحنّا، ورسالة يهوذا، ومشاهدات يوحنّا.

وقال داكتر بلس من علماء بروتستنت: إنّ جميع الكتب ما كانت واجبة التسليم إلى عهد يوسي بيوس، وأصرّ على أنّ رسالة يعقوب، ورسالة يهوذا، والرسالة الثانية لبطرس، والرسالة الثانية والثالثة ليوحنّا، ليست من تصنيفات الحواريّين، وكانت الرسالة العبرانيّة مردودة إلى مدّة. والكنائس السريانيّة ما سلّموا أنّ الرسالة الثانية لبطرس، والرسالة الثانية والثالثة ليوحنّا، ورسالة يهوذا، وكتاب المشاهدات، وما سلّموا كونها واجبة التسليم. وكذا حال كنائس العرب، لكنّنا نسلّم.

وعن لارذر ص ١٧٥ من المجلّد الرابع من تفسيره: سرل وكذا كنيسة أُورشَليم في عهده ما كانوا يسلّمون كتاب المشاهدات، ولا يوجد هذا الكتاب في الفهرست القانوني الذي كتبه. ثمّ قال ص ٣٢٣: إنّ مشاهدات يوحنّا لاتوجد في الترجمة السريانيّة القديمة، وما كتب عليه بارهى بريوس ولا يعقوب شرحاً.

وترك ـ أي بدجسو ـ في فهرسته الرسالة الثانية لبطرس، والرسالة الثانية والثالثة ليوحنّا، ورسالة يهوذا، ومشاهدات يوحنّا. وهذا هو رأي السريانيّين الآخرين.

وعن ص٢٠٦ من المجلّد السابع من كاتلك هولد: أنّ «روز» كتب ص ١٦١ من كتابه أنّ كثيراً من محقّقي بروتستنت لايسلّمون كون كتاب المشاهدات واجب التسليم. وأثبت برويرايوالد بالشهادة القويّة أنّ إنجيل يوحنّا ورسائله وكتاب المشاهدات، لا يمكن أن تكون من تصنيف مصنّف واحد.

وعن يوسي بيس في الباب الخامس والعشرين من الكتاب السابع من تأريخه، قال: ديونيسيش أخرج بعض كتاب المشاهدات عن الكتب المقدّسة واجتهد في ردّه، وقال: هذا كلّه لا معنى له، وأعظم حجاب الجهالة وعدم العقل، ونسبته إلى يوحنّا الحواري غلط، ومصنّفه ليس بحواري ولا رجل صالح ولا مسيحي، بل نسبه سرنتهن الملحد إلى يوحنّا، لكنّي لاأقدر على إخراجه عن الكتب المقدّسة؛ لأنّ كثيراً من الإخوة يعظّمونه. إلى آخره.

وعن يوسي بيس في الباب الثالث من الكتاب الثالث من تأريخه: أنّ الرسالة الأُولى لبطرس صادقة، إلّا أنّ الرسالة الثانية له ما كانت داخلة في الكتب المقدّسة في زمان من الأزمنة، لكن كانت تقرأ رسائل بولس أربع عشر، إلّا أنّ بعض الناس أخرج الرسالة العبرانيّة.

وفي الباب الخامس والعشرين من الكتاب المذكور: اختلفوا في أنّ رسالة يعقوب، ورسالة يهوذا، والرسالة الثانية لبطرس، والرسالة الثانية والثالثة ليوحنّا، كتبها الإنجيليّون أو أشخاص أُخر كأنّ أسماءهم هذه.

وفي الباب الخامس والعشرين من الكتاب السادس من تأريخه أيضاً نقل قول أرجن في شأن الرسالة العبرانيّة: الحال الذي كان على ألسنة الناس أنّ بعضهم قالوا: إنّ هذه الرسالة كتبها كليمنت الذي كان بشب الروم. وبعضهم قالوا: ترجمها لوقا. انتهى كلام ارجن. قال: وأنكرها رأساً أرنيس بيشب ليس الذي كان سنة ١٧٨م، وهب بوليتس الذي كان سنة ٢٢٠ م، ونوتيس برسبتر الروم الذي كان سنة ٢٥١ م. وقال ترتولين برسبتر كار تهيج الذي كان سنة ٢٠٠ م: إنّها رسالة برنيا. وكيس برسبتر الروم الذي كان سنة ٢١٢ م عدَّ رسائل بولس ثلاثة عشر، ولم يعدّ هذه الرسالة. وسائي برن بشب كارتهيج الذي كان سنة ٢٤٨ م لم يذكر هذه الرسالة. وقال أسكالجرمن: من كتب الرسالة الثانية لبطرس فقد ضيّع وقته.

وعن تأريخ البيبل المطبوع سنة ١٨٥٠م قال كروتيس: هذه الرسالة رسالة يهوذا الأُسقف الذي كان خامس عشر من أساقفة أُورشليم في عهد سلطنة ايدرين.

وعن يوسي بيس في الباب الخامس والعشرين من الكتاب السادس من تأريخه، قال ارجن في المجلّد الخامس من شرح إنجيل يوحنّا: إنّ بولس ما كتب شيئاً إلى جميع الكنائس، والذي كتبه إلى بعضها فسطران أو أربعة سطور[١].

والمتكلّف لم يتمكّن من إنكار هذه النقول ولا القدح بناقليها، وغاية ما تمكّن في مقابلة بعضها أنّه لفّق بعض الشواهد الواهية لصحّة الكتب المذكورة، باستشهاد بعض

١. إظهار الحقّ ١: ١٥٨ ـ ١٦٤.

الأشخاص ببعضها، وتصحيح بعضهم لها، واشتمالها على اسم الرسول المنسوبة إليه، أو الوعظ، وغير ذلك من التشبّثات التي ليس فيها شيء يشهد بعدم الجعل[١].

على أنّ المتكلّف قد غفل أو تغافل عمّا هو الموضوع لكلام إظهار الحقّ، فإنّه أورد هذه النقول وغيرها شواهد على عنوان الفصل الثاني من الباب الأوّل، وهو أنّه لا يوجد عند أهل الكتاب سند متّصل لكتاب من كتب العهد العتيق والجديد. فكلّ ما فرَّ إليه المتكلّف من الاستشهادات ممّا يؤكّد دعوى إظهار الحقّ.

على أنّا لو استقصينا في التعرّض لتلك الشواهد، لأوضحنا سخافتها في نفسها، ولكنّها لاتمسّ غرضنا بوجه ولوتمّت، بل تؤكّد قولنا: إنّ دعوى النصارى المتأخّرين تواتر كتبهم إلى المصادر المدّعاة لاأصل لها، بل إنّ النصارى مختلفون فيها، وإنّ من يريد منهم التصحيح يحتاج إلى إعمال الظنون والاعتماد على تقليد آحاد الناس في أمر مضى له تسعة عشر قرناً.

المورد الخامس:

قد ذكر إظهار الحقّ أيضاً ـ في المقصد الثاني من الباب الثاني ـ شهادة كثير من محقّقيهم ومفسّريهم وأئمّتهم في أجيال مختلفة، ونصّهم على زيادة كثير من العهد الجديد وأنّه إلحاقيّ ليس منه. انظر المقصد الثاني المذكور من الشاهد السابع والعشرين إلى آخره[٢].

والمتكلّف لمّا أراد أن يتكلّم على هذه الشواهد لم يتمكّن من جحود نقلها ولا القدح فيمن نقل عنهم، فتستّر بإهماله لذكر من نُقِلت عنه، فموّه بإظهار نسبتها إلى إظهار الحقّ، وصار يجيب عنها بالتلفيقات والتشبّثات[٣]. ثمّ جعل استشهادات إظهار الحقّ المشار إليها استشهاداً بأقوال المسيحيّين الضعيفة والآراء السقيمة، وضرب المثل باعتقاد المتقدّمين

---

١. انظر الهداية ١: ١٣٥ إلى آخره.

٢. إظهار الحقّ ٢: ٤٩١ ـ ٤٩٢.

٣. انظر الهداية ٣: ٢٧٠ ـ ٢٩٠.

بكون الشمس متحرّكة والأرض ثابتة، وقد اتّضح فساده. إلى أن قال:

ولا يخفى أنّ المعترض ـ يعني إظهار الحقّ ـ أورد كلّ رأي سقيم وقول باطل قديم، وما درى أنّ الدنيا في تقدّم فكلّ سنة تظهر حقائق جمّة، بل انكشفت بالأبحاث الجديدة أُمور مهمّة. إلى أن قال: ولو كان آدم كلادك أو غيره من الجيل الماضي في هذا العصر، لأقلعوا عن كثير من آرائهم الساقطة.

فأقول أوّلاً: إنّ المتكلّف طالما ادّعى أنّ كتبهم وصلت من السلف إلى الخلف بالسند المتّصل القويّ[١]، ولم يجد ملجأً في زعمه صحّتها واتّصال سندها في تسعة عشر قرناً، إلّا بقول فلان واستشهاد فلان.

وثانياً: إنّ جلّ الذي استشهد بنقلهم إظهار الحقّ قد التجأ المتكلّف في كتابه إلى التشبّث بآرائهم ونقولهم. انظر كتابه في أمثال هذه الموارد، وراجع إظهار الحقّ في هذا المقام.

نعم، هؤلاء وأمثالهم من سلف المتكلّف عنده على حالتين متباينتين:

إن استشهد إظهار الحقّ بكلامهم في مقام لا يُتّهمون به، كانوا عند المتكلّف من الجهلة العارين عن الفهم والعلم[٢]. وكان ما ينقله من أقوالهم رأياً سقيماً، وقولاً باطلاً قديماً، وآراء ساقطة[٣].

وإن استشهد بهم المتكلّف لمزاعمه كانوا أئمّة فضلاء أثباتاً محقّقين مدقّقين. انظر إلى مدحه لهم عندما يتشبّث بأقوالهم وآرائهم.

وثالثاً: إنّ صحّة سند الكتاب وتواتر سلسلته إلى مصدره إنّما هو أمر تأريخي، ولا وجهة للتقدّم في فلسفته إلّا مراجعة مأثورات القدماء المتصدّين للبحث عنه، والتنقير فيما كان في زمانهم وما قاربه من أحواله وماجرياته، وعند التعارض يُحَكَّم الاعتراف على الدعوى والاطمئنان على التهمة. ومن الوهم الواضح قياس التأريخ بمسألة حركة

---

١. انظر أقلاً عنوانه الهداية ٣: ١٩٢.

٢. انظر الهداية ١: ٩٥ س ٦.

٣. المصدر ٣: ٢٩١ و ٢٩٢.

الشمس أو الأرض، فإنّ وجهة التقدّم في فلسفة هذا مباينة لما تقدّم، وإنّما هي بمزاولة الرصد بالآلة وإعمال النظر في الرياضيّات والطبيعيّات.

وقد صار المتكلّف في هذا المقام إن رأى المجمع يوافقه في مزاعمه احتفل بقراره وارتاح بالاستشهاد به، كما في مجمع ترنت سنة ١٥٣٧ م. وإن رأى المجمع صدّق على مالا يوافقه، أو شكّ فيما يزعم المتكلّف إلهاميّته، قال:

لا يسوغ الاعتماد على قرار ذلك المجمع، وإنّ الكتاب الذي يكتب بالوحي الإلهيّ ويتأيّد بالمعجزات في غنىً عن قرار مجلس[١].

أقول: نعم إنّ كتابة الرسول، أو إملاءه للكتاب عن الوحي، في غنىً عن قرار مجلس، ولكن يا حبّذا لو صحّت الأحلام! وكيف السبيل إلى العلم بأنّ ما بأيدي الناس هو ذلك؟

وإنّ الكلام في المجامع على كتب العهدين يجري في أمرين باهظين:

أحدهما: اتّصال سنده اتّصالاً علميّاً إلى مصدره الذي ينسب إليه. ومرجع هذا إلى محض التحقيق التأريخي.

وثانيهما: أنّ مصدره كَتَبَه عن إلهام متأيّد بالمعجزات. ومرجع هذا إلى التحقيق التأريخي والنظري.

وإنّ المجمع العامّ النيقاوي الأوّل المشتمل على ثلاثمائة وثمانية عشر أُسقفاً، لم يتحقّق فيه صحّة السند لسبعة من الكتب، التي يزعم النصارى المتأخّرون تواترها في جميع الأجيال إلى الرسل، بل أبقوها مشكوكة النسبة إلى مصادرها. وهذا ممّا يوضح فساد دعوى التواتر فيها، ويكشف عن أنّ هذه الدعوى من إصرار المكابرات، بل يوهن قبول مابعده من المجامع لها، ولا سيّما إذا ادّعت تواترها.

فإنّ هذه الأُمور التأريخيّة البعيدة العهد، لا سبيل إلى حجّتها بقول فلان، واستشهاد فلان. ومن هو فلان؟ حتّى لو فرضنا أنّا علمنا قطعاً أنّه هو القائل أو المستشهد، أهو نبيّ؟ أم نخادع عقولنا حتّى إذا قيل: إنّه استشهد بفقرة، نقول: إنّ كلّ ما يكتب على

١. المصدر: ٢٤٦ و٢٤٧.

الورق معلوم النسبة إلى الإلهام. أو قال: إنّ ليعقوب رسالة، نقول: إنّ كلّ ما يكتب على الورق هو رسالة يعقوب مثلاً؟

فإنّ هذه الأُمور لا تثبت ثبوتاً حقيقيّاً علميّاً، إلّا بقول المعصوم المُوحَى إليه بأنّ هذا الكتاب المعيّن بالإشارة الحسّيّة وهذه الألفاظ المخصوصة، هي كتاب فلان النبيّ. أو يثبت ذلك بالتواتر المتّصل في جميع الأجيال.

أفيقول المتكلّف: إنّ سبعة كتب من العهد الجديد الرائج هي متواترة وإن شكّ فيها في القرن الرابع ثلاثمائة وثمانية عشر أُسقفاً من المنتخبين للمجمع العامّ، للنظر في الديانة النصرانيّة وكتبها نظراً أوّليّاً أو ثانويّاً، وقد قصروا وقصَّروا عن الوصول إلى التواتر. أو أنّهم كابروا بإنكاره حتّى بقي الشكّ مستمرّاً إلى مدّة. أيكون مثل هذا في التواتر؟

نتيجة ما تقدّم أنّه قد اتّضح من نقل الموارد الخمسة المذكورة، أنّ اتّفاق المتأخّرين في النقل لا يصلح لأن يكون من التواتر المفيد للعلم؛ لأجل ظهور الخلاف في دعوى التواتر ونقله في سبعة من الكتب، وجملة من فقرات الكتب الأُخر. وأنّ انعقاد المجامع في أجيال النصارى للنظر في أُمور الكتب ولو ثانويّاً ـ كما يزعم المتكلّف ـ لهو ممّا يقرّب أنّ اعتمادهم في كتبهم كان على التواطؤ وقرار المجلس ولو لأجل التشبّث بالشواهد. وهذا ممّا يدع التواتر هباءً منثوراً؛ فإنّ من أركان التواتر أن يكون الاتّفاق على النقل مستنداً إلى النقل المسلسل في الأجيال إلى المصدر، بحيث لا يحتمل أن يكون مستنداً إلى التواطؤ وقرار المجامع، أو البحث والتشبّث بالشواهد والأمارات.

الأمر الثاني

إنّ الأناجيل ـ التي يدّعون تواتر نقلها إلى المصدر الإلهاميّ ـ قد وجدناها تكذّبهم في دعواهم أنّ المسيح ادّعى الرسالة العامّة، وظهر على يده المعجز. وإنّ هذا متواتر في نقلهم، ففي خامس عشر متّى عن قول المسيح: فأجاب وقال: «لم أُرسل إلّا إلى خِراف بيت إسرائيل الضالّة»[1]. وفي صراحة الأناجيل أيضاً عن قول المسيح أنّه لا يظهر على

---

١. إنجيل متّى ١٥: ٢٤.

يده المعجز والآية مدّة حياته في الأرض إلّا بقيامه من الأموات بعد مكثه في بطن الأرض ثلاثة أيّام[١].

الأمر الثالث

إنّ الأناجيل ـ التي يدّعون تواتر نقلها إلى المصدر الإلهامي ـ قد وجدناها تُبطِل احتجاجهم بأنّ ظهور المعجز شاهد وبرهان على الصدق في دعوى الرسالة. فقد صرّحت بأنّ الآية والأُعجوبة والقوّة التي هي عبارة عن المعجز، تظهر على يد الكاذب في دعوى النبوّة[٢].

أفيمكن أن يكون نقل النصارى متواتراً في دعوى المسيح للرسالة العامّة، وفي ظهور المعجز على يده. وفي الأناجيل المشتملة على ما يكذّب ذلك ويبطِل الاحتجاج به، أم نتشهّى ونقول: إنّه متواتر في بعض دون بعض ممّا ذكرنا، وإن كان النقل فيهما متساوياً كتساوي دعوى التواتر؟

الأمر الرابع

إنّ العهد الجديد ـ الذي يدّعي النصارى تواتره إلى المصدر الإلهامي والأنبياء المرسلين، ويحامون أشدّ المحاماة عن الخدشة في تواتره وصحّة سنده ـ قد وجدناه قد تضمّن ثلاثة مضامين:

الأوّل: أنّ يسوع المتولّد في بيت لحم من مَريَم العذراء، المبشَّر به في العهد الجديد، هو ابن داود ومن نسله وداود أبوه[٣].

الثاني: أنّ يسوع هو المسيح الموعود به، وهذا هو العنوان لدعواه الرسالة[٤].

---

١. انظر إلى إنجيل متّى ١٦: ٤؛ إنجيل مرقس ٨: ١١ و ١٢؛ إنجيل لوقا ١١: ١١ و ٢٩.
٢. انظر إلى إنجيل متّى ٢٤: ٢٤؛ إنجيل مرقس ١٣: ٢٢.
٣. انظر أقلاً إلى إنجيل لوقا ١: ٣٢؛ أعمال الرسل ٢: ٣٠؛ رسالة بولس إلى أهل رومية ١: ٣.
٤. انظر أقلاً إنجيل متّى ١٦: ١٦ ـ ٢٠؛ إنجيل مرقس ١٤: ٦١ و ٦٢؛ إنجيل يوحنّا ٤: ٢٥ و ٢٦.

الثالث: أنّ المسيح ليس ابن داود. ففي ثاني عشر مرقس:

ثمّ أجاب يسوع وهو يعلّم في الهيكل كيف يقول الكَتَبَة: إنّ المسيح ابن داود؛ لأنّ داود نفسه قال بالروح القدس، قال الربُّ لربّي: اجلِس عن يميني حتّى أضع أعداءك مَوطِئاً لقدميك، فداود نفسه يدعوه بالروح ربّاً فمن أين هو ابنه[١]؟

ولا يخفى عليك أنّا إذا أخذنا بالمضمون الأوّل وهو أنّ يسوع بن داود ومن نسله، مع المضمون الثاني وهو أنّه هو المسيح الموعود به، لزم كذب المضمون الثالث وهو أنّ المسيح ليس ابن داود.

وإذا أخذنا بالمضمون الثاني مع الثالث، لزم كذب المضمون الأوّل وهو أنّ يسوع المذكور من نسل داود وابنه.

وإذا أخذنا بالمضمون الأوّل مع الثالث، لزم كذب المضمون الثاني وهو أنّ يسوع هو المسيح، فتبطل دعواه الرسالة؛ لأنّها معنونة بكونه المسيح الموعود به، كما لا يخفى.

فليختر المتكلّف أنّ أيّ هذه المضامين الثلاثة كاذب، مع أنّه من العهد الجديد المتواتر، وكلام الله السميع العليم، بزعم المتكلّف.

وأيضاً كيف يجعل داود له أرباباً متعدّدة أحدهما يخاطب الآخر؟! وكيف يحتجّ المسيح بهذا القول وينسبه إلى الروح القدس؟! مع أنّه جاء في العهد القديم عن قول الله: «أنا أنا هو الربّ وليس إله معي»[٢]. أنا الربّ وليس آخر[٣].

فإن قلت: إنّ معنى الربّ المراد به المسيح هاهنا هو المعلّم.

قلت: أجل، فلماذا لا يكون المعلّم ابن داود ومن نسله؟

دع هذه؛ فإنّ هذا التفسير منك في هذا المقام فضول لا يقبلونه.

---

١. إنجيل مرقس ١٢: ٣٥ ـ ٣٧؛ ونحوه في إنجيل متّى ٢٢: ٤١ ـ ٤٦؛ إنجيل لوقا ٢٠: ٤١ ـ ٤٥.

٢. سفر التثنية ٣٢: ٣٩.

٣. سفر إشَعْياء ٤٥: ٥ و١٦ و١٨.

الأمر الخامس

إنّ الأناجيل ـ التي يدّعي النصارى تواترها عن المصدر الإلهامي ـ قد ذكرت عن المسيح احتجاجات واهية لا تليق بسائر الناس، فضلاً عن رسل الله ذوي الحجّة الواضحة والبيان الشافي الكافي.

منها: ما أسلفناه في الفصل الخامس عشر من المقدّمة الثامنة[١] عن قول المسيح لمّا قال له الفرّيسيّون: أنت تشهد لنفسك، وشهادتك ليست حقّاً؛ حيث ذكر أنّه قال:

وأيضاً في ناموسكم مكتوب: شهادة رجلين حقّ. أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الأب الذي أرسلني[٢].

فهل ترى أحداً من أوباش الناس يحتجّ لدعاويه بمثل هذا؟ أفيخفى على أحد من الناس أنّ المدّعي لا يكون أحد الشاهدين لا في القضاء الشرعي ولا العرفي؟

ومنها: ما أسلفناه أيضاً من قول الإنجيل:

إنّ المسيح لمّا أجابه اليهود قائلين: لسنا نرجمك لأجل عمل حسن بل لأجل تجديف، فإنّك ـ وأنت إنسان ـ تجعل نفسك إلهاً. أجابهم يسوع: أليس مكتوباً في ناموسكم: أنا قلت: إنّكم آلهة[٣]؟

فهل ترى أنّ واحداً من الموحّدين يحتجّ بهذا الاحتجاج؟ وينسب الناموس المنسوب إلى الوحي إلى القول بالشرك وتعدّد الآلهة؟ وقد أسلفنا ما في هذا من الكلام؛ فراجعه[٤].

الاحتجاج للمنع من الطلاق

ومنها: ما عن المسيح في احتجاجه للمنع من الطلاق، ففي تاسع عشر متّى:

وجاء إليه الفرّيسيّون ليجرّبوه قائلين له: هل يحلّ للرجل أن يطلّق امرأته لكلّ

١. تقدّم في ص ١٤٥.
٢. إنجيل يوحنّا ٨: ١٧ و١٨.
٣. إنجيل يوحنّا ١٠: ٣٣ و٣٤.
٤. تقدّم في ص ١٤٧.

سبب؟ فأجاب وقال لهم: أما قرأتم أنّ الذي خلق من البدء خلقهما ذكراً وأُنثى. وقال: من أجل هذا يترك الرجل أباه وأُمّه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً، إذاً ليسا بعدُ اثنين بل جسد واحد. فالذي جمعه الله لايفرّقه إنسان. قالوا له: فلماذا أوصى موسى أن يُعطَى كتابُ طلاق فتُطَلّق؟ قال لهم: إنّ موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلّقوا نساءكم. ولكن من البدء لم يكن هكذا. وأقول لكم: إنّ من طلّق امرأته إلّا لسبب الزنى وتزوّج بأُخرى يزني[١].

فأقول: أمّا الاستشهاد بأنّه يترك الرجل أباه وأُمّه ويلتصق بامرأته، فإنّه إن أُريد منه الالتصاق بالمرأة أحياناً من أجل ضرورة التمتّع والرغبة في النسل وتربية الأولاد، فليس ذلك إلّا لأنّ الوالدين لا يصلحان لذلك، فهذا الالتصاق بالمرأة كالتصاقه في أغلب أوقاته بنوع من التكسّب وأعمال المعيشة، فيترك لاسترزاقه منه أباه وأُمّه وامرأته وولده. أفيصحّ أن يُجعل التصاقه هذا به حجّة على أنّه لا يجوز أن يفارقه ويتركه إذا استغنى عنه، أو سقط عن الفائدة، أو كان مضرّاً بنظام حياته وصحّته واستراحته، أو انقياده للشريعة ونواميسها؟

وإن أُريد بهذا الالتصاق تقديمها على إكرام الوالدين وبرّهما اللازم والإعراض عنهما لأجلها، فهو استشهاد بعمل الأوباش الذين لم تؤدّبهم النواميس الروحية على إكرام الوالدين والبرّ بهما، ولا يبالون بإثم العقوق ومنقصته، فهم كالحمار إذا رأى الأتانة تبعها ولم يبالِ بمن فوقه وما يراد منه. فإنّا نجد كثيراً منهم يلتصقون هكذا بالزواني اللاتي يختصّون بهنّ بغير زواج شرعي.

وأمّا الروحانيّون المؤدّبون بالشريعة فلايقدّمون نساءهم على إكرام والديهم وبرّهما، ولا يتركونهما لأجلهنّ. وحاشا للوحي الإلهيّ أن يستشهد بعمل الأوباش المخالفين لنواميس الشريعة.

وأيضاً ما معنى أنّ الرجل وامرأته يصيران جسداً واحداً، وأنّهما ليسا بعدُ اثنين؟ فما لنا نرى بعض الكلمات قد كابرت الأعداد على حقائقها، فلم تعط الوحدة والاثنينيّة

---

١. إنجيل متّى ١٩: ٣ـ٩، ونحوه في إنجيل مرقس ١٠: ٢ ـ ١٠.

والتثليث حقوقها من المعاني والحقائق؟ أفمن ماتت زوجته أو طـلّقها لسـبب الزنـى يكون نصف جسد واحد، وإذا تزوّج بأُخرى يعود جسداً واحـداً، أو يـصير الثـلاثة والأربعة والعشرة جسداً واحداً؟

وأيضاً ما معنى القول بأنّ ما جمعه الله لا يفرّقه إنسان؟ مع أنّ الوجدان شاهد على أنّ كثيراً ممّا جـمعه الله يـفرّقه الإنسـان، كأجـزاء الأجسـام الصُـوريّة والجـوهريّة، وقد سوّغت له الشريعة كثيراً من ذلك. نعم إن جمع الله بين الرجل والمـرأة بـالزواج برابطة شرعيّة غير مؤقّتة لا يمكن أن يفرّق بدون شريعة، ولكنّ الله قد شرّع ذلك على يد موسى.

ثمّ نقول لهذا المحتجّ: كيف تسوّغ أنت طلاق المرأة إذا كانت زانية، وبمقتضى حجّتك أنّها صارت هي وزوجها جسداً واحداً وليسا بعدُ اثنين، وما جمعه الله لا يفرّقه إنسان؟!

وأيضاً ما معنى قول المحتجّ بأنّ موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلّقوا نساءكم، ولكن من البدء لم يكن هكذا؟

فيقول: إنّ موسى جاء بشريعة الطلاق من عند نفسه، مداراةً لقومه القساة القلوب لا من عند الله.

أم يقول: إنّ الله شرّع الطلاق مؤقّتاً من أجل قساوة القلوب؟ ولكن رفـعت هـذه الشريعة حيث تسلّطت المملكة الروحيّة على قلوب بـني إسـرائـيل والعـالم أجـمع، وقدّستهم روحانيّتهم وأدّبتهم على حسن الائتلاف وعرفان الحـقوق، حـتّى تـلاشت قساوة قلوبهم.

فنقول: يا حبّذا لوصحّت الأحلام؛ فإنّك إذا نظرت في تأريخ العالم ورسوم هـذه المملكة، منذ حادثة الصليب وقبلها وبعدها حتّى الوقت الحاضر ونظرت إلى حوادث الوقت قلت مستعبراً:

قِفْ بالمعاهِدِ نَبكِي رَسْمَها العافِي ... بِمدمَعٍ من سُوَيْدا القـلبِ رَعّـافِ[1]

والإجمال أجمل.

---

١. لم أجد هذا البيت في المصادر التي بين يديّ.

وأيضاً ما معنى احتجاج هذا المحتجّ بأنّه لم يكن من البدء هكذا؟ أفكلّ ما لم يكن من البدء ينبغي أن لا تكون به شريعة مسوّغة له؟ إذاً فإنّ آدم وحوّاء كانا في البدء عريانين[١] فينبغي أن لا تجيء شريعة تسوّغ لبس الثياب.

فإن قلت: قد عرض لهما من الأحوال ما يقتضي خلاف ذلك وقد صنع الله لهما أقمصة من جلد وألبسهما[٢].

قلنا: وقد عرض من الأحوال فيما بين الرجال ونسائهم ما لم يكن بين آدم وحوّاء، وقد شرّع الله الطلاق على يد موسى[٣]. وفي الكلّ لم يكن من البدء هكذا.

وأيضاً بناءً على هذه الحجّة ينبغي أن لا تجيء شريعة بتسويغ الطلاق لعلّة الزنى، أو بتزوّج الرجل إذا طلّق امرأته لعلّة الزنى، أو إذا ماتت، ولا للمرأة أن تتزوّج إذا مات زوجها أو طلّقها لعلّة الزنى؛ لأنّه لم يكن من البدء هكذا، إذ لم يجرِ شيء من ذلك بالنسبة لآدم وحوّاء.

أفهكذا يكون احتجاج الرسل؟ وماذا يمنع الرسول من أن يقول: إنّي رسول من الله بشريعة تحريم الطلاق إلّا لعلّة الزنى. ولا يحتجّ بهذا الاحتجاج الواهي من جميع أطرافه؟

الزواج في القيامة

ومنها: ما في العشرين من لوقا عن قول المسيح في الاحتجاج على الصَدُوقيّين:

> فأجاب وقال لهم يسوع: أبناء هذا الدهر يُزَوِّجون ويُزَوَّجون. ولكنّ الذين حسبوا أهلاً للحصول على ذلك الدهر والقيامة من الأموات لا يُزَوِّجون ولا يُزَوَّجون؛ إذ لا يستطيعون أن يموتوا أيضاً؛ لأنّهم مثل الملائكة وهم أبناء الله إذ هم أبناء القيامة[٤].

فانظر وتأمّل وقل: ما وجه التعليل لعدم التزاوج في القيامة بأنّ القائمين من الموت

---

١. سفر التكوين ٢: ٢٥.

٢. سفر التكوين ٣: ٢١.

٣. سفر التثنية ٢٤: ١.

٤. إنجيل لوقا ٢٠: ٣٤ـ٣٦.

لا يستطيعون أن يموتوا أيضاً؟ وما وجه الحجّة الكافية في ذلك؟ أفيمتنع الزواج عقلاً أو عادةً على من لا يموت من نوع الإنسان؟

وقل: ما معنى نسبة الموت إلى استطاعتهم؟ وما معنى كونهم مثل الملائكة؟

فإن كان ذلك بدعوى كونهم أرواحاً مجرّدة، فهو إنكار للقيامة من الأموات والمعاد الجسماني، الذي عليه صريح العهد الجديد.

وما معنى كون أبناء القيامة أبناء الله؟

فإن كان مضمونه أنّ غير الأبرار لا يقومون من الموت، كان ذلك مخالفاً لصراحة الأناجيل والعهد الجديد. وإن كان الغرض منه التعرّض لحال الأبرار فقط، كان غير مطابق للسؤال العامّ عن حال الأبرار وغيرهم. وإن كان المراد أنّ جميع الناس ـ أبرارهم وشرارهم ـ يكونون في القيامة مثل الملائكة وأبناء الله، فأين الدينونة؟ وأين الجزاء حسب الأعمال؟ وأين جهنّم النار التي لا تطفأ، كما هو مكرّر في صراحة العهد الجديد؟ وكيف يعقل ذلك؟!

القيامة من الأموات

ومنها: ما في العشرين من لوقا عن قول المسيح أيضاً في الاحتجاج على الصَدُوقيّين للقيامة من الأموات:

وأمّا أنّ الموتى يقومون، فقد دلَّ عليه موسى في أمر العُلَّيْقَة كما يقول: الربّ إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب، وليس هو إله أموات بل إله أحياء؛ لأنّ الجميع عنده أحياء[1].

ولا يخفى أنّه إن كان وجه هذا الاحتجاج أنّه ليس في العالم موت ولا أموات، كما يشعر به قوله: «لأنّ الجميع عنده أحياء». قلنا: هذا مخالف لضرورة الوجدان والعهدين، مع أنّه بهذا الوجه لا يدلّ على القيامة من الموت، بل يدلّ على أنّه ليس هناك أموات يقومون، بل الجميع عنده أحياء. وهذا خلاف المدّعى، فيكون البرهان

١. إنجيل لوقا ٢٠: ٣٧ ـ ٣٨، وانظر إلى إنجيل متّى ٢٢: ٣١ و ٣٢؛ إنجيل مرقس ١٢: ٢٦ و ٢٧.

المخالف للضرورة غير منطبق على المدّعى.

وإن كان الوجه في الاحتجاج هو أنّ الله لا يكون إله أموات، وقد قال: إنّه إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب، فلابدّ أن يكون ذلك باعتبار حياتهم بعد الموت. وتوجيهه أنّ المراد من الأموات هي أجسادهم المفارقة للأرواح، ومن الأحياء أجسادهم التي فيها أرواحهم، فلايكون الله إله أموات وأجساد خالية من الأرواح؛ لأنّها جماد، فلابدّ أن يكون القول بأنّ الله إلههم إنّما هو باعتبار قيامهم من الموت وتلبّس الروح بهم، لخروجهم حينئذٍ عن كونهم جماداً.

قلنا أوّلاً: لماذا لا يكون الله إلهاً للجماد؟ أو ليس هو إله كلّ شيء وربّه وخالقه؟ أو لم يجئ في العهدين أنّه إله صهيون[١]، وهي جماد؟ وإله الآلهة[٢]، وهي أصنام جماد؟ وإله السماء[٣]؟

وثانياً: لو سلّمنا أنّ كون الله إلهاً لإبراهيم وإسحاق ويعقوب إنّما هو باعتبار تعلّق الأرواح بأبدانهم. لقلنا: من أين يدلّ ذلك على القيامة من الموت، وتعلّق الأرواح بأبدانهم بعد الموت؟ ولماذا لا يكون ذلك باعتبار تعلّق الأرواح بأبدانهم قبل الموت؟ وهل يكون الاحتجاج على هذا التقدير إلّا من قبيل التشهّي والمجازفات التي يجب أن تُنزَّه الأنبياء عن غلطها؟

وإن كان الوجه في الاحتجاج هو أنّ كون الله إلهاً لإبراهيم وإسحاق ويعقوب، إنّما هو باعتبار وجود أرواحهم، فلو كانت أرواحهم منعدمة عند الموت، لما صحّ قول الله لموسى: أنا إله إبراهيم إلى آخره، فيدلّ هذا الخطاب من الله لموسى على أنّ أرواح إبراهيم وإسحاق ويعقوب موجودة حين الخطاب لم تنعدم بموتهم.

قلنا: لو سلّمنا أنّ الله ليس إلهاً للأجسام، وأنّ الخطاب ليس باعتبار وجود أرواحهم في حياتهم الأُولى، لكان الخطاب المذكور لايدلّ إلّا على وجود أرواحهم حينئذٍ،

---

١. سفر المزامير ١٤٧: ١٢.

٢. سفر المزامير ٥٠: ١.

٣. سفر دانيال ٢: ١٨ و١٩؛ رؤيا يوحنّا ١١: ١٣.

فلا يدلّ على قيامة الأجسام بعد بلائها من الموت.

وعلى كلّ حال لاتجد لهذا الاحتجاج ربطاً بالمدَّعى، وحاشا للأنبياء أن يحتجّوا بمثل هذه الحجج الواهية. ويا أسفاه على القيامة إن توقّف أمرها على مثل هذه الحجّة! ويا أسفاه على توراة موسى إذ لا يوجد فيها من أمر القيامة ذكر حتّى ألجأت الحاجة إلى التشبّث بمثل هذا! ويا لهفاه على قدس المسيح إذ يُنسَب له مثل هذه الاحتجاجات!

ولا أقول لك: ليست هذه الاحتجاجات من قول المسيح. بل أقول: إنّها ممّن لا يعرف وجه الاحتجاج، ولا يميّز بين الصحيح والغلط، فهي أنسب ما تكون بمن يقول: لأُبشّر لا بحكمة كلام ـ استحسن الله أن يخلّص المؤمنين بجهالة الكرازة ـ لأنّ جهالة الله أحكم من الناس[١]. أو بمن يحتجّ على التثليث بقول الله لموسى: أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب.

ومن العجيب أنّ أصحابنا النصارى يكلّفوننا بأن نذعن بأنّ الأناجيل الأربعة، هي الإنجيل الذي نزل على المسيح وصدّقه القرآن الكريم، وقال: إنّه نُور وهُدى[٢]. فيا لهفاه على النور والهدى إن كان كما نرى.

الأمر السادس: [اختلاف الأناجيل في نسب المسيح]

إنّ الأناجيل ـ التي يدّعون تواتر سندها إلى رسل مُوحَى إليهم ـ قد اختلفت اختلافاً كثيراً يوضّح أنّها ليست من عندالله، ويكفي ذلك اختلافها الفاحش في نسب المسيح:

١. ففي متّى أنّ يوسف النجّار الذي ينسب إليه المسيح، هو ابن يعقوب. وفي لوقا أنّه ابن هالي.

٢. أوصل متّى نسب يوسف النجّار إلى سليمان بن داود، وأوصله لوقا إلى ناثان بن داود.

٣. جعل متّى بين يوسف وداود خمسة وعشرين أباً وجعلهم لوقا أحداً وأربعين أباً.

---

١. رسالة بولس الأُولى إلى أهل كورنثوس ١: ١٧ ـ ٢٦.

٢. الآية الكريمة: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ المائدة (٥): ٤٦.

٤. جعل متّى في طرد النسب زَرُبّابِل بن شَأَلْتِيئِيل بن يَكُنْيا. وذكر في لوقا زَرُبّابل ابن شَأَلْتِيئِيل بن نيري. فإن كان مرادهما من زربّابل شخصاً واحداً، فقد اختلفا في أسماء أجداده وعددهم إلى داود.

وأيضاً ذكر متّى في طرد النسب أبيهود بن زربّابل. وذكر لوقاريسا بن زربّابل[١]. ولا يوجد هذان الاسمان في أولاد زربّابل الذين ذكروا في ثالث الأيّام الأوّل[٢].

كما ذكر فيه أن زَرُبّابل هو ابن فدايا بن شَأَلْتِيئِيل.

ونقل إظهار الحقّ في الفصل الثالث من الباب الأوّل اعتراف جماعة من المحقّقين، مثل اكهارن، وكيسر، وهيس، وديوت ووي نر، وفرش، رغيرهم، بأنّ متّى ولوقا مختلفان اختلافاً معنويّاً[٣].

ونقل أيضاً عن آدم كلارك في ذيل شرحه للباب الثالث من لوقا،أنّه نقل التوجيهات لهذا الاختلاف وما رضي بها وتحيّر. وأنّه قال ص ٤٠٨ من المجلّد الخامس: «يعلم كلّ ذي علم أنّ متّى ولوقا اختلفا في نسب الربّ اختلافاً تحيّر فيه المحقّقون من القدماء والمتأخّرين»[٤].

والمتكلّف لمّا لم يوافق هواه هذا النقل، ادّعى أنّ المنقول عنهم جهلة[٥]، وإن كانوا من أئمّة أسلافه، ولكن لابدّ له أن يجعلهم من الأئمّة المحقّقين عندما يستشهد بكلامهم في كتابه، كما هو ديدنه.

ومع هذا فقد ألجأه الأمر إلى بعض الاعتراف، وإن مزجه بشيء من المكابرات فقال:

كان العلماء والمحقّقون يظنّون في مبدأ الأمر أنّه يوجد تناقض بين إنجيل متّى وبين إنجيل لوقا في نسب المسيح، ولكن ظهر لهم بأنّه لا يوجد تناقض ولا اختلاف[٦].

---

١. انظر في هذه الفروق في نسب المسيح إنجيل متّى ١: ١ـ١٦؛ إنجيل لوقا ٣: ٢٣ـ٣٨.

٢. سفر الأيّام الأوّل ٣: ١٩ و ٢٠.

٣. إظهار الحقّ ١: ١٩٠.

٤. المصدر.

٥. المصدر: ٢٠٩.

٦. الهداية ١: ٢٠٦.

ثمّ إنّه تكلّف الجواب عن هذه الاختلافات الباهظة فقال في الاختلاف الأوّل ما حاصله:

أنّ متّى كتب في إنجيله نسب يوسف النجّار الحقيقي، لأنّه كتب إنجيله للعبرانيّين، فجرى في النسب على الطريقة التي كانت مشهورة عندهم ـ وهي رعاية النسب الحقيقي ـ فنسب يوسف إلى أبيه الحقيقي يعقوب، وكذا سائر آبائه الحقيقيّين إلى إبراهيم. وأنّ لوقا كتب في إنجيله نسب يوسف المجازي، فنسبه إلى هالي مجازاً؛ لأنّ هالي هوأب حقيقي لمريم، ولمّا لم يكن لها أخ واقترن بها يوسف، صار هالي أباً مجازياً ليوسف، فنسبه إليه لوقا.

[التناقض في كلام المتكلّف]

ثمّ أخذ المتكلّف في توجيه ما ذكره عن لوقا فتعثّر حسبما يقتضيه التقحّم. وهو يعدّ ذلك من تقدّم الدنيا في المعارف، وتنبّه المتأخّرين في الأُمور التاريخيّة بنباهتهم إلى ما غفل عنه المتقدّمون. فلنوقفك على تناقض كلامه وسخافة دعاويه التي تقدّمت بها الدنيا:

[التناقض الأوّل] قال:

بما أنّ العبرانيّين لايدخلون في جداول نسبهم النساء، فإذا انتهت العائلة بامرأة، أدخلوا قرينها في النسب، واعتبروه ابن والد قرينته. وعلى هذا كان المسيح حسب هذا الاصطلاح الجاري والعادة المرعيّة المتّبعة ابن يوسف[١].

ثمّ لم يلبث أن ناقض هذا الكلام بقوله:

بما أنّ متّى كتب إنجيله إلى العبرانيّين، جرى في النسب على الطريقة التي كانت مشهورة عندهم، أي مراعاة النسب الحقيقي. وبما أنّ لوقا البشير كتب إنجيله إلى اليونان، جرى في النسب على المصطلح عليه عندهم[٢].

---

١. انظر الهداية ١: ٢٠٤.

٢. المصدر: ٢٠٥.

فيتبيّن من كلامه الأخير أنّ مراعاة النسب الصوري المجازي إنّما هو اصطلاح اليونان، وأنّ اليهود كانت الطريقة المشهورة عندهم إنّما هي مراعاة النسب الحقيقي. وبالضرورة تكون مراعاة النسب المجازي ليست اصطلاحاً جارياً ولا عادة مرعيّة. وهب أنّ اصطلاح اليهود أنّهم يعتبرون قرين البنت الوحيدة [ابن] والدها، وبهذا كان يوسف ابناً لهالي أب قرينته مريم. لكن قل يامن يعرف ما يقول: كيف صار المسيح على هذا الاصطلاح الجاري ابناً ليوسف؟ فهل كان المسيح مقترناً بابنة يوسف الوحيدة ،أم هذا الغلط ممّا تقدّمت به الدنيا؟

التناقض الثاني: قال: «إنّ شَأَلْتِيئِيل رئيس عائلة سليمان الشرعيّة وذلك لأنّه يتّصل بسليمان بالولادة الحقيقيّة»[١]. انظر ثالث الأيّام الأوّل[٢].

فيتبيّن من كلامه هذا أنّ النسب الشرعي هو ما كان بالولادة الحقيقيّة الطبيعيّة.

ثمّ ناقض هذا بقوله: «إنّ لوقا نظر إلى أنّه ـ يعني يوسف ـ الابن الشرعي لهالي».

وذلك باعتبار اقترانه بمريم ابنة هالي الوحيدة، بناءً على ما ادّعاه من الاصطلاح الجاري لليهود.

فنقول: لو سلّمنا أنّ هذا اصطلاح جارٍ لليهود، ولم يناقضه المتكلّف ببيانه أنّ هذا إنّما هو اصطلاح اليونان الذي جرى عليه لوقا، لقلنا: أين يكون هذا من التوراة الرائجة التي هي كتاب الشريعة بزعمهم؟ فإنّها لا يوجد فيها ما هو من هذا القبيل، إلّا أنّ الرجل إذا مات وليس له ابن تزوّج أخوه بزوجته، والبكر الذي تلده يقوم باسم أخيه الميّت؛ لئلّا يمحى اسمه من إسرائيل[٣].

التناقض الثالث: قد تكرّر من المتكلّف أنّ كون يوسف ابناً شرعيّاً لهالي، بسبب اقترانه بابنة هالي الوحيدة مريم. ثمّ ناقضه بمنام رآه أو خيال توهّمه، فحاول أن يطبّق النبوّة على ما ذكرناه عن شريعة التوراة في سفر التثنية، فادّعى أنّ مَتّان المذكور جدّاً

---

١. المصدر: ٢٠٥.

٢. العدد ١٧.

٣. سفر التثنية ٢٥: ٥ـ١٠.

ليوسف في نسب متّى، هو من نسل سليمان حقيقة وخلف يعقوب. وأنّ مَتْثات المذكور جدّاً ليوسف في نسب لوقا كان من سبط يهوذا من عائلة أُخرى ـ وظاهره أنّه ليس من نسل سليمان وإلّا لادّعى ذلك ـ ولمّا مات مَتّان تزوّج امرأته مَتْثات فولد منها هالي، فصار يعقوب وهالي أخوين من الأُمّ، ثمّ مات هالي بدون عقب فتزوّج أخوه يعقوب بامرأته فولدت منه يوسف، فكان ابن هالي حسب شريعة التثنية.

وليت شعري عن أيّ تأريخ يذكر ذلك، ولو كان لهذه القصّة على طولها أثر في التأريخ، لما تحيّر المتقدّمون في هذا المشكل، ولكنّها خيال تخيّله بعد ما كتب أنّ بنوّة يوسف لهالي باعتبار اقترانه بابنته الوحيدة مريم.

ويدلّ على ذلك أنّ إظهار الحقّ ردّ هذه السفسطات بقوله: «إنّ هذا التوجيه لا يصحّ إلّا إذا ثبت من التواريخ المعتبرة أنّ مريم بنت هالي»[1]. انتهى.

والمتكلّف لم يقدر أن يتشبّث في قبال هذا بشيء من التواريخ، بل ألجأته الضرورة إلى قوله: «قد أقمنا البراهين القويّة على أنّها بنت هالي»[2].

قلت: ولم يأت بشيء سوى دعواه أنّ اصطلاح اليهود أن ينسبوا قرين البنت الوحيدة إلى والدها، ثمّ ناقض هذه الدعوى وجعل هذا من اصطلاح اليونان، وأنّ الطريقة المشهورة عند اليهود في النسب خلافه، وهي رعاية الولادة الحقيقيّة، ولذا جرى عليها متّى؛ لأنّه كتب إنجيله لليهود.

وهب أنّ ما ذكره اصطلاح لليهود، فمن أين يثبت أنّ والد مريم اسمه هالي؟ وأنّ مريم كانت بنته الوحيدة؟ وأنّ لوقا نسب يوسف إلى هالي بهذا الاعتبار؟

وإنّ مثل المتكلّف في هذه البراهين القويّة كمثل بعض المغفّلين حيث قال لزوجته ليلاً: إنّ في دارنا سارقاً. فقالت له: من أين علمت ذلك؟ فقال: إنّ الناس يقولون: إنّ السارق إذا دخل الدار لا يحسّون به، وأنا الآن لا أُحسّ بشيء. بل لم يقل هذا المغفّل: إنّ السارق اسمه فلان، وله بنت وحيدة اسمها فلانة، وقد اقترن بها فلان فنسبه فلان

١. إظهار الحقّ ١: ١٩٤.
٢. الهداية ١: ٢١٣.

الآخر إلى والدها. ولم يقل: إنّ هذه المزاعم ممّا تقدّمت بها الدنيا كاكتشاف التلغراف، والفونغراف، والماكينات البديعة، والهيئة الجديدة؟

وممّا يشبه من أقوال المتكلّف هذا النحو أنّ إظهار الحقّ نقل عن إنجيل يعقوب، الذي لا يقصر عن كونه تأريخاً قديماً من القرون الأُولى، أنّه صرّح أنّ أبوي مريم يَهُويَاقِيم وعَانا [١].

فقال المتكلّف ممّا تقدّمت به الدنيا:

على أنّه إذاروت التواريخ أنّ مريم كانت ابنة اليوقيم أو الياقيم. فهما مشتقّان من «هالي» أو «اليّ»، فإنّ الياقيم مركّبة من «إليا» وكلمة «قيم» [٢].

وأيضاً نقل إظهار الحقّ أنّ اكتساين قال: إنّه صرّح في بعض الكتب التي كانت توجد في عهده أنّ مريمعليها‌السلام من قوم لاوي، فلاتكون من أولاد ناثان، بل ولا داود ولا يهوذا. واحتجّ إظهار الحقّ لصدق ذلك بصراحة إنجيل لوقا بأنّ أَلِيصابات امرأة زكريّا كانت من بنات هارون [٣].

وصراحته بأنّ مريم نسيبة أَلِيصَابات [٤] ثمّ دفع احتمال أنّ قرابتهما من النساء بما ذكره عن التوراة في السادس والثلاثين من العدد من أنّ كلّ رجل يتزوّج من عشيرته وسبطه وكذلك المرأة [٥]. فيتعيّن أن تكون مريم قرابة أَلِيصابات وشريكتها في النسب من جهة الرجال، فتكون من بنات هارون. فيعْتضد بذلك نقل اكتساين [٦].

والمتكلّف لم يتعرّض لنقل اكتساين، ولم يُحِرْفيه جواباً، ولكن تعرّض لاحتجاج إظهار الحقّ، فجوّز لبني إسرائيل أن يتزوّج كلّ واحد من غير سبطه، لكي يجوز أن تكون قرابة مريم لليصابات من جهة النساء، فلا يتعيّن كونها كأَلِيصَابات من بنات

---

١. إظهار الحقّ ١: ١٩٤.

٢. الهداية ١: ٢١٣.

٣. إنجيل لوقا ١: ٥.

٤. إنجيل لوقا ١: ٣٦.

٥. العدد ٦ و٨.

٦. إظهار الحقّ ١: ١٩٤.

هارون. واحتجّ لذلك بأنّ هارون نفسه اقترن بامرأة من سبط يهوذا.

وليت شعري أتقول: إنّ المتكلّف لم يشعر بأنّ تزوّج هارون في سبط يهوذا لا يعارض إظهار الحقّ؛ لأنّ هارون فعله قبل نزول الشريعة، بل قبل خروجهم من مصر بمدّة.

وإظهار الحقّ يحتجّ بشريعة جاءت بمقتضى التوراة بعد موت هارون بمدّة، وبعد ما أخذ بنوما كير بن مَنَسَّى أرض جِلْعاد، وطردوا الأَمُوريّين منها.

نعم، لو كان للمتكلّف إلمام بشيء من العلم ومعرفة بالعهدين، وموفّقيّة في الاحتجاج، لقال على إظهار الحقّ: إنّ الشريعة التي أشار إليها في السابع والثلاثين من العدد[١] لا تدلّ على المنع بالكلّيّة من تزوّج كلّ من الرجل والمرأة في غير سبطه، وإنّما تدلّ على منع البنت الوحيدة الوارثة أن تتزوّج في غير سبطها، لئلّا يتحوّل نصيب سبط من الأرض إلى سبط آخر. بل إنّ صدر السابع والثلاثين من العدد ليشير إلى أنّه كان يجوز في شريعة موسى أن تتزوّج المرأة الوارثة في غير سبطها[٢]، ولكن موسى نسخ هذا الحكم في البنت الوارثة، عند مطالبة بنات صَلُفْحاد بسهم أبيهنّ من أرض جِلْعاد[٣].

أفتظنّ أنّ المتكلّف فرَّ من هذا الاحتجاج ستراً لما فيه من الإشارة إلى وقوع الناسخ والمنسوخ في شريعة موسى؟

ثمّ ادّعى المتكلّف أنّ اليهود كانوا يسمّون مريم بنت هالي[٤].

قلنا: عن أيّ تأريخ قديم تنقل ذلك؟ ومن ذا قاله من القدماء؟ فإنّا لا نقبل أقوال أمثالك ممّن تقدّمت بمعارفهم الدنيا. ولماذا تحيّر المتقدّمون في رفع الاختلاف بين متّى ولوقا؟ لو كان لما تدّعيه أثر هم أولى بالاطّلاع عليه، لقرب عهدهم منه.

وعلى دعواك **نقول:** لماذا كان العلماء والمحقّقون يظنّون في مبدأ الأمر أنّه يوجد

---

١. بل في السادس والثلاثين.
٢. بل الصواب ٣٦: ٣ ـ ٤.
٣. سفر العدد ٣٦: ٥ ـ ١٢.
٤. الهداية ١: ٢١٣.

تناقض بين إنجيل متّى ولوقا في نسب المسيح، لو كان لما تدّعيه أثر؟

نتيجة ما تقدّم: أنّه قد اتّضح ممّا تقدّم أنّ كون والد مريم اسمه هالي، وأنّ نسبة لوقا ليوسف إلى هالي باعتبار أنّ يوسف قرين ابنته الوحيدة مريم، وأنّه ابن شرعي له، من أضغاث الأحلام التي كلّما أراد المتكلّف أن يلفّقها سقط وتعرقل[١].

زربّابل وأبيهود وريسا: لمّا ادّعى المتكلّف أنّ زَرُبّابل المذكور في متّى[٢] هو الرجل المذكور في لوقا[٣]، توجّه عليه الاعتراض بأنّ متّى أنهى إليه نسب يوسف بأبِيهُود، ولوقا أنهاه برِيسا. ولا يوجد في أبناء زربّابل المذكورين في ثالث الأيّام الأوّل. فإنّ نصّه:

وبنو زربّابل مَشُلّام، وَحَنَنْيَا، وشَلُومِية أُختهم. وحَشُوبة، وأوهَل، وبَرَخْيا، وحَسَدْيا، ويُوشَب حَسَد خمسة[٤]. انتهى.

فقال المتكلّف غير مبال: «إنّ أبيهود بن زَرُبّابل الأكبر، وريسا ابنه الأصغر»[٥]؛ ليموّه على البسطاء أنّهما معروفان من أولاد زَرُبّابل بحيث يتميّز الأكبر من الأصغر. ولكنّه لمّا رأى أن يطالب بما ذكرناه عن ثالث الأيّام الأوّل وهو يقول: إنّ كلّ العهد القديم كلام الله السميع العليم، ولا يقدر أن يقول فيه كما يصف علماء أسلافه بالجهل إذا خالفوه فيماهم أدرى به وأولى، قال:

قلنا: ليس الأمر كما ذكر ـ يعني إظهار الحقّ ـ فإنّه يعلم من سفر الأيّام الأوّل[٦]، ومن لوقا أيضاً، أنّ ابن زَربّابل هو رفايا، ولكنّه ذكر في لوقا بلفظة رِيسا، وذكر في متّى أبِيهود، وهو المذكور في الأيّام الأوّل بعُوبديا، وفي لوقا بيَهُوذا. والمشابهة قويّة بين هذه الألفاظ كما لا يخفى على المتأمّل ولا سيّما في الأصل العبري.

---

١. تعرقل: ضلّ عن القصد. لسان العرب ١١: ٤٤٠، «ع ر ق ل».

٢. إنجيل متّى ١: ١٣.

٣. إنجيل لوقا ٣: ٢٧.

٤. سفر الأيّام الأوّل ٣: ١٩ ـ ٢٠.

٥. الهداية ١: ٢٠٥.

٦. سفر الأيّام الأوّل ٣.

ولعلّه إذا قلنا له: ما معنى هذا الكلام؟ يقول: إنّكم ـ معاشر المسلين ـ لا دراية لكم بالعهدين، ولا وقوف لكم على الأُمور الجديدة التي تقدّمت بها الدنيا.

فنقول: إذاً إنّا نطلب من أهل الدراية من اليهود والنصارى أن يراجعوا متّى ولوقا والأيّام الأوّل، ويلاحظوا مواقع هذه الأسماء فيها، ويخرجوا كلام المتكلّف عن شبه كلام المبرسمين[1]، ويسألونه أنّ المشابهة القويّة بين ألفاظ هذه الأسماء، هل أوجبت وقوع الغلط في الإلهام، أو في الكتب المتواترة، أو أعطت حرّيّة للمتكلّم والكاتب أن يفعلا ما يشاءان؟

أبيهود واضطراب المتكلّف: لمّا اعترض إظهار الحقّ بأنّ أبيهود ـ المذكور في متّى ولداً لزربّابل ـ لم يذكر من أبنائه في ثالث الأيّام الأوّل، سنح للمتكلّف[2] أن يعدل عن جوابه هاهنا بتشابه الحروف بين أبيهود وعوبيدو لا سيما في الأصل العبراني، بل أجاب هناك بأنّ اليهود كانوا يسمّون الشخص الواحد بأسماء متعدّدة. فأعرضنا عن هذه الدعوى وهذا الاضطراب، ولكنّه قال بعده: على أنّه إذا صرف النظر عن ذلك قلنا: «إنّ البشير متى ذكر النسب من زَرُبّابل إلى المسيح من الجداول المحفوظة عند اليهود». ثمّ أخذ يبالغ في حفظ اليهود لجداول أنسابهم.

فنقول: إنّا نسأل المتكلّف وأعوانه عن مراده من هذه العبارة:

أفيقول: إنّ الروح القدس الذي ألهم متّى، والإنجيل الذي هو كلام السميع العليم، قد اعتمد في النسب من زَرُبّابل إلى المسيح على جداول اليهود؛ لأنّهم كانوا يحافظون عليها، فلا عليه إذا أخطؤوا فيها، فإنّه اعتمد عليهم، ولا عليه إذا أخطأ بخطئهم؟

أم يقول: إنّ متّى أصاب بصوابهم، ولكنّ الخطأ في سفر الأيّام الأوّل، وإن كان أيضاً كلام الله السميع العليم وإلهام الروح القدس للأنبياء؟

أو أنّ المتكلّف لم يدر ما قال هنا، ولا يعرف وجه اعتذاره، وهو يستدعي المسامحة فيه.

---

١. المبرسم: من كانت به علّة البرسام، وهي علّة يهذي صاحبها. راجع القاموس المحيط ٤: ٨٠، «ب ر س م».

٢. الهداية ٢: ١٩٠.

ريسا واضطراب المتكلّف: ولمّا تعرّض[١] لذكر ريسا الذي جزم هاهنا جزم العارف الخبير بأنّه الابن الأصغر لزَرُبّابل، ناقضه هناك وكان جازماً أنّ لفظة «رِيسا» لقب زَرُبّابل؛ لأنّ معناها الأمير والرئيس. فكأنّ لوقا قال: يوحنّا هو ابن زَرُبّابل الأمير. أمّا يوحنّا فهو المسمّى في سفر أخبار الأيّام الأوّل «بِحَنَنْيا»، ولا يخفى ما في هذه الأسماء من الاتّحاد والتشابه.

أقول: ومع هذا التناقض والاضطراب بقي مصرّاً على أنّ مريم هي من ذرّيّة الأصغر من أولاد زَرُبّابل. وليت شعري ألم ينكشف له بالوحي أو بالمنام أو بتقدّم الدنيا يوماً فيوماً بالمعارف، أنّ مريم من ذرّيّة الأكبر، كما انكشف له أخيراً أنّ ريسا هو لقب زَرُبّابل، لا اسم ولده الأصغر كما ادّعاه هاهنا؟ وأيضاً إذا كان يوحنّا الذي جعله لوقا ابناً لريسا، هو حَنَنْيا المذكور في الأيّام الأوّل من أبناء زَرُبّابل.

فنقول: إنّ لوقا ذكر ابن يوحنّا يهوذا، ولم يذكر في الأيّام الأوّل من أولاد حَنَنْيا من اسمه يَهُوذا. فماذا يقول المتكلّف من هو الذي اقترن ببنت وارثة فصار ابناً شرعيّاً لوالدها الحقيقي؟

زَرُبّابل ونيري: ولمّا جزم المتكلّف بأنّ زربّابل المذكور في متّى هو ذات زَرُبّابل المذكور في لوقا، توجّه عليه الإشكال باختلاف متّى ولوقا في نسبه، فمتّى نسبه إلى يكنيا إلى سليمان بن داود، ولوقا نسبه إلى شَأَلْتِيئيل بنِ نيري إلى ناثان بن داود.

فحاول المتكلّف أن يتخلّص من هذا بدعوى أنّ متّى كتب النسب الحقيقي لزربّابل. ولوقا كتب النسب المجازي له باعتبار اقتران أبيه شألتيئيل بابنة نيري الوحيدة رئيس عائلة ناثان بن داود. وذلك، إمّا لأنّ لوقا كتب إنجيله إلى اليونان فجرى في النسب على اصطلاحهم، كما زعمه المتكلّف مرّة. وإمّا لأنّ ذلك عادة مرعيّة متّبعة عند اليهود، كما زعمه مرّة أُخرى، حسب ما تقدّم في اضطرابه في هذا الشأن وتناقض كلامه فيه.

وقد استشهد من الآثار القديمة والعهد القديم على صحّة نسبة الرجل إلى والد

---

١. المصدر: ٢٥٣.

امرأته الوحيدة، وذكر لذلك أمثلة لا تساعده على وهمه[١].

فنقول: من أين له أنّ نيري لم يخلّف ولداً ذكراً، وأنّ شَألتِيئيِل اقترن بابنته فصار ابنه، واتّحد فرعا عائلة ناثان وعائلة سليمان، كمازعم؟ ومتى رأى هذا المنام؟ ولماذا لم يطف على القدماء هذا الطيف، وعلى كالوين مقتدى فرقة بروتستنت؟ وأمّا ما استشهد به فعلى أقسام:

منها: ما كان من قسم نسبة الولد إلى جدّه الحقيقي، من جهة الأب أو من جهة الأُمّ. وذلك مثل ما وجد في كتابات الآثار القديمة في بالميرا حيث ذكر فيها أنّ أرانيس أب أِليالامينيس مع أنّه جدّه الأعلى، وأنّ أليالامينيس هو ابن بانوس حفيد مُوسِيموس حفيد أرانيس المذكور[٢].

ومثل تسمية صِدقِيّا بابن يُوشِيّا[٣]، مع أنّه ابن يَهُوياقيم ابن يُوشِيّا[٤] ومثله ابن يائِير بن سَجُوب، وأباه سَجُوب بن حَصْرُون سمّيا ابني مَاكِير أبي جِلْعاد مع أنّه جدّهما للأُمّ[٥]. ومثله أنّ شيشان لم يكن له بنون، فأعطى بنته امرأة ليرجع المصري عبده، فأُدرِجَ الأولاد في نسب سبط يهوذا باعتبار أُمّهم.

وهذه الأمثلة كلّها لا ربط لها بدعوى المتكلّف أنّ الرجل ينسب عادة واصطلاحاً وشرعاً إلى والد قرينته. وأين هذا من هذه الأمثلة؟ فإنّه لم يقع فيها إلّا جعل الجدّ أباً، وابن الابن أو البنت ابناً، وهو كذلك وإن كان المتفاهم منه من كان بلا واسطة.

ومنها: ما كان من قسم التبنّي بالتربية، كما اتّخذت ابنة فرعون موسى ابناً لها[٦]. واتّخذ مُردَخاي أسْتِير ابنة[٧]. واتّخذت نُعمي عُوبِيد ابناً[٨].

---

١. الهداية ٢: ٢٠٦ ـ ٢٠٩.

٢. انظر المصدر: ٢٠٨.

٣. سفر إرميا ١: ٣ و٣٧: ١.

٤. سفر الأيّام الأوّل ٣: ١٦.

٥. انظر سفر الأيّام الأوّل ٢: ٢١ ـ ٢٤.

٦. سفر الخروج ٢: ١٠.

٧. سفر أستير ٢: ٧.

٨. سفر راعوث ٤: ١٧.

وهذا القسم لا يدرجه أحد في النسب، ولذا نسب العهد القديم موسى إلى أُمّه الحقيقيّة يُوكابَد[١]، وأستِير إلى أبيها الحقيقي أبِيجائل[٢]، وعُوبِيد إلى أُمّه الحقيقيّة رَاعُوثْ[٣].

وأيّ شهادة لهذا القسم بنسبة الرجل إلى والد قرينته في جدول النسب؟

وقسم منها: لا يمكن بمقتضى شريعة التوراة أن ينزّل على ما يدّعيه المتكلّف ليشهد له، وذلك أنّ حيرام أو حورام، الذي أبوه رجل صُوريّ، قد ذكر في ثاني الأيّام الثاني: أنّه ابن أرملة من بنات دان[٤]. وفي سابع الملوك الأوّل: وهو ابن أرملة من سبط نِفتالِي[٥].

فإنّه لا يمكن للمتكلّف أن يدّعي أنّ نسبة هذه الأرملة إلى أحد السبطين المذكورين، كانت لأجل أنّ أباها أو جدّها اقترن بامرأة وارثة من ذلك السبط، فنسب إلى والد قرينته وسبطها؛ فإنّ شريعة التوراة من قبل أربعمائة وأربعين سنة تقريباً قد منعت البنت الوارثة أن تتزوّج في غير سبطها[٦].

فالأولى أن يعدّ هذا الاختلاف في نسبة الأرملة إلى السبطين من أغلاط العهد القديم، أو تلاعب الزمان به، كما وقع في ثاني الأيّام الأوّل: وأبِيجائل ولدت عَماسا، وأبو عَماسا يَثْر الإسماعيلي[٧]. ووقع في السابع عشر من صموئيل الثاني: وعَماسا ابن رجل اسمه يَثْر الإسرائيلي الذي دخل إلى أبِيجايل بنت نَاحاش[٨]. وزيادة على الاختلاف بالإسرائيلي والإسماعيلي، فقد قال هنا: إنّ أبِيجايل بنت ناحاش وفي ثاني

١. سفر الخروج ٦: ٢٠.
٢. سفر أستير ٢: ١٥.
٣. سفر راعوث ٤: ١٣و١٥.
٤. سفر الأيّام الثاني ٢: ١٤.
٥. سفر الملوك الأوّل ٧: ١٤.
٦. سفر العدد ٣٦: ٦ ـ ١٠.
٧. سفر الأيّام الأوّل ٢: ١٧.
٨. سفر صموئيل الثاني ١٧: ٢٥.

الملوك الأوّل قال: «إنّها بنت يَسّي أُخت داود»[١]. فراجع المقامين في النسخ العبرانيّة والعربيّة وغيرهما.

نتيجة باهظة للمتكلّف: فإنّه ينتج من تكلّفاته المشحونة بالتناقض والأوهام ـ كما عرفت ـ أنّ المسيح متولّد بواسطة أُمّه تولّداً حقيقيّاً من يَهُوياكِين ـ يَكنيا ـ وأبيه يَهُوياقِيم. وقد قال العهد القديم في شأن يَهُوياقِيم المذكور: «هكذا قال الربّ عن يَهُوياقِيم ملك يهوذا لا يكون له جالس على كرسيّ داود»[٢]. وقال في شأنه أيضاً، أو شأن ابنه كنياهو ـ يهوياكين ويكنيا ـ:

هكذا قال الربّ: اكتبوا هذا الرجل عقيماً رجلاً لا ينجح في أيّامه؛ لأنّه لا ينجح من نسله رجل يجلس على كرسيّ داود وحاكماً بعد في يَهُوذا[٣].

وحينئذٍ كيف يجتمع هذا مع ما في لوقا في شأن المسيح عن قول ملاك الربّ: «ويعطيه الربّ الإله كرسيّ داود أبيه ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية»؟![٤] فكيف إذاً يعطي المسيح كرسيّ داود أبيه ويملك على بيت يعقوب، وهو على توجيه المتكلّف من نسل يَهُوياقيم ويَهُوياكين حقيقة؟!

فإن قلت: إنّ المتكلّف قد وجّه ذلك بزعمه ما ملخّصه أنّ المقصود من كرسيّ داود المعطى للمسيح، هو المملكة الروحيّة التي قد تسلّطن بها المسيح في شرق الأرض وغربها، وهي التي تقوم بالمحبّة والطهارة والسلام وإزالة الشحناء والخصام، وهي المملكة التي لا تزول إلى الأبد، فشبّهت تقريباً للأذهان بمملكة داود[٥].

قلت: لم يكن الوعد الذي في لوقا لمريم على وجه التشبيه، وأنّ الربّ يعطيه مثل كرسيّ داود، حتّى يقال بأنّه شبّهت مملكة المسيح الروحيّة بمملكة داود الدنياويّة

---

١. سفر الملوك الأوّل ٢: ١٣ ـ ١٧.

٢. سفر إرميا ٣٦: ٣٠.

٣. سفر إرميا ٢٢: ٣٠.

٤. إنجيل لوقا ١: ٣٢ و٣٣.

٥. الهداية ١: ٢٢٣ و٢٢٤.

تقريباً للأذهان. بل الوعد هو إعطاء الربّ للمسيح كرسيّ داود أبيه. وقد سبق عن إرميا عن الوحي أنّ كرسيّ داود لا يكون لنسل يَهُوياقيم، ويكون يَهُوياقيم ـ أو يَهُوياكين ـ عقيماً لا ينجح من نسله رجل يجلس على كرسيّ داود.

وينبغي أن يكون المراد من كونه عقيماً هو كونه عقيماً عن الخير في ذرّيّته، وإلّا فالوعد كاذب، فإنّ كلّاً من يَهُوياقِيم ويَهُوياكِين له نسل كثير بمقتضى العهدين إلى زمان المسيح وبعد المسيح، فقل: كيف يكون عقيماً عن الخير في ذرّيّته من يكون من نسله مثل المسيح الذي يعطيه كرسيّ المملكة الروحيّة إلى الأبد؟!

وأمّا قول المتكلّف:

إنّ ملكوت المسيح ملكوت روحيّة تقوم بالمحبّة والطهارة والسلام وإزالة الشحناء والخصام، وهي المملكة الباقية التي لاتزول.

فنقول فيه: يا حبّذا لو جلس المسيح على كرسيّ هذا الملكوت قرناً واحداً! فقد دللناك من العهد الجديد في أواخر المقدّمة الخامسة[١]، على أنّ تلاميذه ونصارى قرنه لم يخضعوا لهذه المملكة، ولم تنفذ فيهم أحكامه الروحيّة كلّ النفوذ حسب قوانينها. وأمّا فيما تأخّر عن قرنه، فلا يخفى محلّ هذه المملكة مع ما جرى في جميع القرون والأدوار إلى الوقت الحاضر، من المخاصمات والمشاحنات والاضطهاد وسفك الدماء وانتشاب الحروب الفظيعة، إلى غير ذلك من الأحوال والأفعال التي تُلاشي جميع ما ذكره من أركان المملكة الروحيّة وقوانينها، كما يشهد به التأريخ والوجدان. ولو أُطلق عنان القلم فيما جرى في خصوص القرن الحاضر، لسجّل من الأفعال والأحوال تأريخاً مُشجِياً. ويا للأسف إنّا لا نرى لهذه المملكة نفوذاً حتّى على من يعدّ نفسه من جندها المتجرّدين بزعمه لتثبيتها.

تتمّة: وعلى ما ادّعاه المتكلّف من اتّصال نسب المسيح الحقيقي من قبل أُمّه، من زَرُبّابل إلى سليمان إلى داود إلى يَهُوذا بن يعقوب، يتوجّه سؤال واستفسار، وهو أنّ

---

١. تقدّم في ص ٥١ ـ ٥٣.

إلهام متّى ووحيه في طرد النسب لم يتعرّض للأُمّهات إلّا لثامار وراحات وراعوث وامرأة أُوريّا. أفترى الروح القدس يريد أن ينبّه من نظر في العهد القديم على مواقع الكلام في نسب المسيح؟

فإن قلت: يريد أن ينبّه على الأُمّهات اللاتي لسن من بني إسرائيل.

قلت: فلماذا أهمل ذكر نعمة العَمّونيّة أمّ رَحَبْعام بن سليمان؟[١]

ومن اختلاف نقلها عن قول المسيح للكَتَبة والفرّيسيّين الذين طلبوا أن يروا منه معجزة: «جيل شِرّير وفاسق يطلب آية ولاتُعطَى له آية إلّا آية يونان النبيّ». ومع ذلك تنقل صدور المعجزات العظيمة.

ومن اختلافها نقلها عن قوله أنّه يبقى في قلب الأرض ثلاثة أيّام وثلاث ليال. مع نقلها ما يقتضي أنّه لم يبق في قلب الأرض إلّا سواد ليلتين وبياض يوم واحد وجزءين قليلين جدّاً من يومين آخرين. وقد أسلفنا الكلام في هذا في الفصل الرابع من المقدّمة الثامنة[٢].

إيليّا ويوحنّا والمسيح: ومن اضطراب الأناجيل نقلها عن قول المسيح في حقّ يوحنّا المعمدان بأنّه هو إيليّا المزمع أن يأتي[٣]. وأنّه نبيّ وأعظم من نبيّ، وأنّه لم يقم بين المولودين من النساء نبيّ أعظم منه إلّا المسيح[٤]. مع أنّها نقلت عن يوحنّا المعمدان نفسه قوله بأنّه ليس إيليّا[٥]. فكيف يقول المسيح عن يوحنّا: إنّه إيليّا المزمع أن يأتي؟ ويقول مع ذلك يوحنّا الذي هو نبيّ وأعظم من نبيّ: إنّه ليس إيليّا؟ فأيّ الأقوال إذاً كاذب، أو ناشئ عن الجهل، أو تلاعب الأيّام؟

وقد حاول المتكلّف رفع هذا التناقض بدعوى أنّ المراد من مجيء إيليّا في كلام

---

١. سفر الأيّام الثاني ١٢: ١٣؛ سفر الملوك الأوّل ١٤: ٢١.
٢. تقدّم في ص ٧٨ ـ ٧٩.
٣. إنجيل متّى ١١: ١٤.
٤. إنجيل متّى ١١: ٩ ـ ١٢؛ إنجيل لوقا ٧: ٢٦ ـ ٢٩.
٥. إنجيل يوحنّا ١: ٢١.

المسيح وكلام مَلاخي، إنّما هو مجيء من يشبه إيليّا التشتي وفيه روحه، وهو يوحنّا المعمدان لكثرة شبهه بإيليّا. وأنّ يوحنّا المعمدان إنّما أنكر كونه إيليّا التشتي الحقيقي الذي كان معاصراً لليشع النبيّ، فلا يناقض إخبار المسيح بأنّ يوحنّا هو إيليّا المجازي[1].

أقول: قد جاء في رابع ملاخي: «ها أناذا أُرسل إليكم إيليّا النبيّ قبل مجيء يوم الربّ العظيم والمخوف»[2]. فهل ترى في هذا الكلام أمارة المجاز والتشبيه، خصوصاً مع النصّ على تعريف إيليّا بالنبيّ إشارة إلى وصفه المعهود المميّز له؟

دع هذا بل نقول: إنّ يوحنّا هل كان يعلم أنّ إيليّا الذي بشّر به ملاخي هو إيليّا المجازي المشابه لإيليّا الحقيقي؛ أو أنّه يجهل ذلك؟

فإن كان يجهل ذلك، فكيف يكون أعظم الأنبياء كما يقول المسيح؟!

وإن كان يعلم بذلك فهل كان يعلم بأنّه هو إيليّا المجازي الذي بشّر به مَلاخي، أو أنّه يجهل ذلك؟

فإن كان يجهل ذلك كان أعظم الأنبياء جاهلاً بوظيفته وبشارة الكتب به، ويكون المتكلّف وأشباهه أعرف منه بمقاصد كتب الوحي.

هذا، وإن كان يوحنّا يعلم بأنّه هو إيليّا المجازي الذي بشّر به ملاخي، فلماذا لم يرفع هذا الوهم عن الخلق الكثير، من الفرّيسيّين وغيرهم الذين آمنوا به واعتمدوا منه بمعموديّة التوبة وأذعنوا بنبوّته؟ ولماذا لا يقول لهم حسب وظيفته: إنّ إيليّا النبيّ الذي يرسل إليكم قبل مجيء يوم الربّ إنّما هو شخص يشبه إيليّا في أحواله الشريفة وهو أنا، ولا تتوهّموا من بشارة ملاخي أنّ إيليّا الحقيقي الذي ارتفع في العاصفة هو الذي يرسل إليكم قبل مجيء يوم الربّ، فلا يصدّكم هذا الوهم في انتظار إيليّا الحقيقي عن الإيمان بالمسيح؟

وهذه هي الوظيفة اللازمة على من جاء ليهيّء طريق الإيمان بالمسيح. لا أنّه يبقيهم على وهمهم في انتظار إيليّا الحقيقي، بل يغريهم بالجهل ويقول لهم: لست إيليّا.

---

١. الهداية ١: ٢٢٢.

٢. سفر ملاخي ٤: ٥.

مع أنّ معناه المقارب للصراحة بشهادة الحال والسؤال، أنّه ليس إيليّا الذي ينتظرونه ويسألونه عنه حسب بشارة ملاخي، فكان ذلك منه صدّاً لهم عن الإيمان بالمسيح ومَعثَرة فيه، بل لا يسلك من يريد منع الناس عن الإيمان بالمسيح طريقاً أنجح من هذا. فقد بقي الفرّيسيّون متعلّقين بهذه الشبهة.

فما للمتكلّف يحامي عن الأناجيل التي لا يخفى حالها، ويحاول إصلاح اضطرابها وتناقضها بما يلزم منه نسبة الجهل إلى يوحنّا المعمدان، أو مخالفته لوظيفته حيث يغريهم بالجهل ويصدّهم عن الإيمان بالمسيح، مع أنّ يوحنّا لم يكن مداهناً في تعاليمه؟

أولم يكن أيسر على المتكلّف أن يقول: إنّ التناقض جاء من خلل الإناجيل الرائجة؟

وبما ذكرناه تعرف مواقع الوهن في كلامه[1].

يوحنّا ومعرفته برسالة المسيح: واعطف على ذلك اضطرابها ـ بل تناقضها ـ في معرفة يوحنّا المعمدان برسالة المسيح وجليل شأنه، من حين نزول الروح القدس عليه، بل قبل ذلك. وأنّ يوحنّا كان يُعَمِّد الناس بمعموديّة التوبة، وقبلما يتبع المسيح واحد من تلاميذه أشار إلى شخص المسيح وقال: هوذا حمل الله الذي يرفع خطيّةَ العالم. هذا هو الذي قلت عنه يأتي بعدي قد صار قدّامي ـ إنّي قد رأيت روح الربّ نازلاً مثل حمامة من السماء فاستقرّ عليه، وأنا لم أكن أعرفه لكنّ الذي أرسلني لأُعمّد بالماء ذاك قال لي: الذي ترى الروح نازلاً ومستقرّاً عليه فهذا هو الذي يعمّد بالروح القدس، وأنا قد رأيت وشهدت أنّ هذا هو ابن الله. ومن أجل شهادة يوحنّا هذه صار اثنان من تلاميذه تلاميذ للمسيح، ودعا أحدهما أخاه بطرس فتلمّذ عليه، ثمّ دعا المسيح فيلبس ونثنائيل فحصل له بعض التلاميذ، وحينئذٍ لم تكن صدرت منه آية بل بعد ذلك صدرت منه بداءة الآيات التي صنعها في مجلس العرس في قانا الجليل[2]. وأنّ يوحنّا قبل أن يُلقَى في السجن صرّح لتلاميذه بما حاصله أنّ ذات يسوع الذي شهد له هو المسيح

---

١. الهداية ١: ٢٢٢.

٢. انظر إنجيل يوحنّا ١: ٢٩ ـ ٢: ١٢.

الآتي بما له من الصفات، وأنّ الأب قد دفع كلّ شيء في يده، والذي لا يؤمن به لن يَرَ حياة بل يمكث عليه غضب الله[١].

فانظر وقل: كيف يجتمع هذا كلّه مع ما في حادي عشر متّى:

أمّا يوحنّا فلمّا سمع في السجن بأعمال المسيح أرسل اثنين من تلاميذه. وقال له: أنت هو الآتي أم ننتظر آخر. فأجاب يسوع وقال لهما: اذهبا وأخبرا يوحنّا بما تسمعان وتنظران. العمي يبصرون. وطوبى لمن لا يعثر فيَّ[٢]؟

وفي سابع لوقا بعد أن ذكر بعض المعجزات وإحياء الأرملة في نايين قال:

فأخبر يوحنّا تلاميذه بهذا كلّه. فدعا يوحنّا اثنين من تلاميذه وأرسل إلى يسوع قائلاً: أنت هو الآتي أم ننتظر آخر[٣]. إلى آخر ما تقدّم.

قال المتكلّف: «إنّ مقصود يوحنّا من إرسال التلميذين هو لكي ينظرا بأعينهما أعمال المسيح ويؤمنا به»[٤].

قلت: طريق ذلك في الهدى والإرشاد أن يقول لهما: يسوع هو المسيح الموعود به، فإنّي نبيّ أُخبركم بذلك عن الله، وقد رأيت روح الله قد استقرّ عليه وعرفتم أنتم دعوته ومعجزاته فآمنوا به. ولكي يزداد إيمانكم وتطمئنّ قلوبكم فاذهبوا وعاينوا معجزاته الباهرات.

وأمّا الكلام الذي ذكرناه عن متّى ولوقا فهو أجنبيّ بسَوقه ولفظه وشواهده عمّا يزعمه المتكلّف. كيف وصريح لوقا أنّ التلاميذ هم الذين أخبروا مرشدهم يوحنّا بمعجزات المسيح، ولا يصحّ أن يكون تلاميذ يوحنّا إلى حين دخوله في السجن لم يكونوا من المؤمنين بالمسيح؟ كيف وقد كان يوحنّا يلهج وينادي بالبشارة بالمسيح، قبل أن يعتمد المسيح منه ويحلّ عليه روح القدس؟! أفيترك تلميذيه إلى حين دخوله في السجن وهما لم يؤمنا بالمسيح حقّ الإيمان؟

---

١. إنجيل يوحنّا ٣: ٢٢ ـ ٣٦.

٢. إنجيل متّى ١١: ٢ ـ ٦.

٣. إنجيل لوقا ٧: ١٨ و١٩.

٤. الهداية ٤: ٢٥٠.

وأيضاً إن كان إرساله التلميذين لأجل ما يزعمه المتكلّف، فهل الواجب على النبيّ المرشد أن يقول لهما ما يسدّدهما ويهديهما إلى الإيمان إذا شاهدا المعجزات، أم يجعل أمامهما عثرة الكلام المنبئ عن شكّه في أنّ يسوعَ هو المسيح الآتي، ويغرس في أذهانهما انتظار آخر غيره؟

وأيضاً لماذا يقول لهما المسيح: اذهبا وأُخبرا يوحنّا بما تسمعان وتنظران. ويعدّد معجزاته ويبيّن دعوته بقوله: والمساكين يبشّرون؟ بل اللازم بمقتضى زعم المتكلّف أن يحتجّ عليهما لا على يوحنّا.

والحاصل: أنّ الكلام المذكور في متّى ولوقا لا يحتمل من المعنى في محاورات العقلاء وخصوص الأنبياء، إلّا أن يكون يوحنّا قد تيقّن من المعجزات ما هو مصدّق للدعوة وحجّة عليها. ولمّا كان في السجن لم يمكنه إلّا أن يرسل تلميذيه ليكشفا عن حقيقة الدعوة. وأنّ يسوع هل يدّعي أنّه المسيح الموعود به، أو أنّه نبيّ قبل المسيح؟ فكان الجواب منه ليوحنّا ببيان ماهو المعهود من معجزات المسيح الموعود به وبشارته. وهذا مناقض لما مرَّ عن يوحنّا.

وانظر [الهداية][1] تجده صريحاً بالاعتراف بأنّ يوحنّا أرسل التلميذين لأجل حاجته لا لمحض حاجتهما في الإيمان.

والمتكلّف يرضى بأن يكون كلام يوحنّا جارياً على غير النهج العقلائي في الغرض، بل يجعل في طريق الهدى والإرشاد مَعثَرَةَ الشكّ والضلالة. ويكون جواب المسيح على خلاف الغرض وفضولاً زائداً. كلّ ذلك محاماةً منه عن الأناجيل، وإن كانت موهونة من جهات كثيرة.

يوحنّا والمسيح أيضاً: واعطف على ذلك أنّ الأناجيل تقول مرّة: إنّ يوحنّا من بطن أُمّه يمتلئ من الروح القدس[2]. ولمّا جاءت مريم وهي حامل بالمسيح إلى أَلِيصابات وهي حامل بيوحنّا وسلّمت عليها، ارتكض يوحنّا جنين أليصابات في بطنها ابتهاجاً،

---

١. الهداية ١: ٢٤١ س ٢.

٢. إنجيل لوقا ١: ١٥.

وامتلأت من الروح القدس، وباركت مريم وجنينها وقالت: من أين لي هذا أن تأتي أُمّ ربّي إليّ[١]؟

وهذا صريح في أنّ أليصابات وجنينها يوحنّا يعرفان المسيح حقّ المعرفة، وبماله من الوظيفة وهو جنين في بطن أُمّه.

وأنّ المسيح قبل أن ينزل الروح القدس ويحلّ عليه جاء إلى يوحنّا ليعتمد بمعموديّته، فمنعه يوحنّا قائلاً: «أنا محتاج أن أُعتمد منك وأنت تأتي إليّ»[٢]. وهذا ينادي بأنّه يعرف يسوع بأنّه المسيح حقّ المعرفة. ويدلّ على ذلك أيضاً أنّه كان يبشّر بالمسيح ويقول للشعب المعتمدين منه: «إنّه سيأتي من يُعمّدكم بالروح القدس»[٣]. بل أشار للشعب بأنّه قائم في وسطكم[٤].

فانظر أفلا يناقض هذا ما ذكرته الأناجيل من أنّ يوحنّا وهو في السجن أرسل يستعلم من المسيح أنّه هو الآتي ـ يعني المسيح الموعود به ـ أم ينتظر آخر؟ كما تقدّم.

كما يناقض ما ذكرته عن قول يوحنّا أيضاً:

> وأنا لم أكن أعرفه لكنّ الذي أرسلني لأُعمّد بالماء ذاك قال لي: الذي ترى الروح نازلاً ومستقرّاً عليه فهذا هو الذي يعمّد بالروح القدس[٥].

وهذا صريح في أنّ يوحنّا لم يكن يعرف بأنّ يسوع هو المسيح إلّا بعد أن نزل روح القدس واستقرّ على يسوع. أفلا يناقض هذا أقلّاً قول يوحنّا ليسوع: «أنا محتاج أن أُعتمد منك وأنت تأتي إليّ»؟ مع أنّ هذا الكلام كان قبل أن يعتمد يسوع من يوحنّا، وقبل أن ينزل الروح القدس ويستقرّ عليه. وقد أطال المتكلّف هاهنا في الكلام ولكنّه لم يَدرِ ما يقول[٦].

---

١. إنجيل لوقا ١: ٤٠ـ٤٥.

٢. إنجيل متّى ٣: ١٣ و ١٤.

٣. إنجيل متّى ٣: ١١؛ إنجيل مرقس ١: ٧ و٨؛ إنجيل لوقا ٣: ١٥ و١٦.

٤. إنجيل يوحنّا ١: ٢٦.

٥. إنجيل يوحنّا ١: ٣٣.

٦. انظر الهداية ١: ٢٤٠.

الأعميان والأعمى: ومن تناقض الأناجيل واضطرابها أنّها ذكرت:

> فيماهم خارجون ـ أي المسيح وتلاميذه ـ من أريحا تبعه جمع كثير. وإذا أعميان جالسان على الطريق. فلمّا سمعا أنّ يسوع مجتاز صرخا قائلين: ارحمنا ارحمنا يا سيّد يابن داود ... فوقف يسوع وناداهما ما تريدان أن أفعل بكما. قالا: يا سيّد تنفتح أعيننا. فتحنّن يسوع ولمس أعينهما فللوقت أبصرت أعينهما فتبعا[١].

ثمّ اضطرب نقلها وتخالف وتناقض في عدد من فتحت عينه وعوفي من عماه في هذه الواقعة، فذكرت ثانياً:

> وفيما هو ـ أي المسيح ـ خارج من أريحا مع تلاميذه وجمع غفير كان بارتيماوس الأعمى ابن تيماوس جالساً على الطريق يستعطي، فلمّا سمع أنّه يسوع[٢].

ثمّ ساقت القصّة مع هذا الأعمى الواحد على نحو ما تقدّم.

وناقضت ما تقدّم أيضاً إذ ذكرت أنّ هذه القصّة كانت لما اقترب المسيح من أريحا، ثمّ بعد ذلك دخلها واجتاز فيها[٣].

وقال المتكلّف:

> لو أفادت عبارة مرقس الحصر لثبت التناقض، وهي لا تفيده مطلقاً ـ وذكر هذا الأعمى لأنّه كان ابن رجل مشهور طحنته صروف الزمان ـ والقادر على فتح عيني أعمى قادر على فتح عيني غيره وغيره. وعلى كلّ حال فلا تناقض مطلقاً، فالتناقض يتحقّق إذا قال أحدهم: إنّ المسيح فتح عيني بارتيماوس، ثمّ قال الآخر: إنّ المسيح لم يفتح عيني بارتيماوس. ولم يحصل شيء من ذلك[٤].

قلنا: اعترف المتكلّف ببعض الحقّ من حيث لا يشاء، وهو قوله: «لو أفادت عبارة مرقس الحصر لثبت التناقض».

---

١. إنجيل متّى ٢٠: ٣٠ ـ ٣٤.

٢. انظر إنجيل مرقس ١٠: ٤٦ ـ ٥٢، ونحوه إنجيل لوقا ١٨: ٣٥ ـ ٤٣.

٣. انظر إنجيل لوقا ١٨: ٣٥ و ١٩: ١.

٤. الهداية ١: ٢٣٢.

فنقول: إنّ مثلها في مثل موردها يفيد الحصر، ولابدّ أن يريده المتكلّم بها إن كان ممّن يعرف كيف يتكلّم، فإنّه إذا كانت الواقعة كما في متّى أنّ الأعميين كانا مقترنين في الجلوس والاستعلام عن المسيح والاستغاثة به، وانتهار الجمع لهما، وعودهما في لجاجة الاستغاثة والصراخ، ووقوف المسيح لهما وسؤاله لهما وجوابهما له، وشفائه لهما واتّباعهما له. فمن كمال العيّ والشطط لمن يريد أن يسجّل تأريخ معجزات المسيح ويمجّده بها وينوّه بها للناس، أن ينقل الواقعة على غير وجهها ورونقها ومجدها ويترك بعض مضمونها، وهي واقعة واحدة. كيف وهم يقولون: إنّ المسجّل لهذه الواقعة هو إلهام الروح القدس تنويهاً بمجد المسيح؟

ولا يلزم أن نقول: هو الروح القدس، بل إنّ واحداً من المؤرّخين العارفين إذا أراد أن ينوّه بمجد الواقعة التأريخيّة، وكان عالماً بالواقعة على النحو المذكور في متّى، لا يمسخها إلى النحو المذكور في مرقس. فهل يرضى الملك على مؤرّخ كتب تأريخ حربه وفتحه، وموفّقيّته في الحرب الفلاني في اليوم الفلاني في الساعة الفلانيّة، أن يكتب في تأريخه أنّ الملك لاقى الفيلق الفلاني وجرى بينهما كيت وكيت، ثمّ لاشاه واستولى على معسكره؟ هذا وهو عالم أنّ الملك جرت له هذه الواقعة بتفصيلها مع فيلقين اثنين، ولاشاهما معاً بموفّقيّته وقوّته. وهل يرتضي الناس من هذا المؤرّخ تأريخه الأبتر، على الخصوص إذا كان كتبه لتبشير رعيّة الملك والاحتجاج على خصومه وترهيبهم بقوّته وسطوته؟ كلّا ولا يفعل المؤرّخ ذلك إلّا إذا كانت الواقعة على ما كتب، أو كان جاهلاً بحقيقتها.

وبما ذكرنا تعرف أنّ أُسلوب مرقس يقتضي الحصر؛ فإنّ الحصر لا ينحصر بأداة خاصّة، بل إنّ بعض السَوق من الكلام ومقتضى الواقعة أظهر من الأداة في الحصر. ولعلّ المتكلّف شعر بذلك فندم على اعترافه بأنّ عبارة مرقس لو أفادت الحصر لنا قضت ما في متّى، فعدل وناقض كلامه الأوّل بقوله:

> فالتناقض يتحقّق إذا قال أحدهم: إنّ المسيح فتح عيني بارتيماوس، ثمّ قال الآخر: إنّ المسيح لم يفتح عيني بارتيماوس.

فنقول له: إنّ التناقض متحقّق بين ما في متّى ومرقس، كما هو متحقّق بين كلاميك، شئت أو أبيت.

وأيضاً ماذا يفيد إذا كان بارتيماوس ابن رجل مشهور، فهل فتح عيني الفقير من أب وجدّ ليس بمعجزة ينبغي ذكرها والتمجيد بها؟ هب أنّ مرقس صحّ منه أن يراعي كون بارتيماوس ابن رجل مشهور ولذا ذكر اسمه، فما بال لوقا ذكر الواقعة أيضاً مع أعمى واحد ولم يذكر اسمه؟ ومن أين للمتكلّف أنّ بارتيماوس ابن رجل مشهور، طحنته صروف الزمان؟ فهل شارك كتبة الأناجيل في الإلهام كما واساهم بالتناقض؟

هب أنّا سامحناه في ذلك، فماذا يصنع بالتناقض في هذه الواقعة؟ فإنّ في متّى ومرقس أنّها وقعت بعد خروج المسيح من أريحا. وفي لوقا أنّها وقعت عند ما اقترب من أريحا ثمّ دخلها، كما أشرنا إليه. ولكنّ المتكلّف لا يبالي من أن يقول: وعلى كلّ حال فلا تناقض.

المجنون والمجنونان: وجاء في متّى:

> أنّه لمّا جاء المسيح إلى العبر إلى كورة الجرجسيّين، استقبله مجنونان خارجان من القبور هائجان جدّاً، حتّى لم يكن أحد يقدر أن يجتاز من تلك الطريق[١].

ولمّا أراد شفاءهما طلبت منه الشياطين التي فيهما أن يأذن لها بالخروج إلى قطيع خنازير كان هناك، فأذن لها وخرجت منهما ودخلت في الخنازير فألقت نفسها في البحر وماتت، فهرب الرعاة إلى المدينة وأخبروا بقصّتها وقصّة المجنونين، فخرج أهل المدينة وطلبوا من المسيح أن ينصرف عنهم[٢].

وفي مرقس:

> وجاؤوا ـ أي المسيح وتلاميذه ـ إلى عبر البحر إلى كورة الجدريّين، ولمّا خرج من السفينة للوقت استقبله من القبور إنسان به روح نجس كان مسكنه القبور[٣].

---

١. إنجيل متّى ٨: ٢٨.

٢. إنجيل متّى ٨: ٢٩.

٣. إنجيل مرقس ٥: ١ ـ ٣.

وذكر القصّة المتقدّمة بتمامها مع مجنون واحد.

وفي لوقا:

وساروا إلى كورة الجدريّين التي هي مقابل الجليل، ولمّا خرج إلى الأرض استقبله رجل من المدينة كان به شياطين[١].

وساق القصّة نحو [ما في إنجيل] مرقس مع مجنون واحد.

قال المتكلّف:

إنّ مرقس ولوقا اقتصرا على ذكر المجنون الذي كان أشدّ هياجاً وعربدة. وثانياً: أنّهما اقتصرا على ذكر المجنون الذي كان من الأُمم... وصرفا النظر عن اليهوديّ. وثالثاً: أنّ الذي ذكراه كان من المهذّبين، والمترجّح أنّه كان من ذوي اليسار وذا شهرة إلى آخر ما ذكره[٢].

قلت: من أين له أنّ أحد المجنونين اللذين ذكرا في متّى كان أشدّ هياجاً، وكان من المهذّبين وذوي اليسار والشهرة، وأنّ المجنون الآخر كان يهوديّاً، مع أنّ متّى وصفهما معاً بشدّةِ الهياج، ومَنْعِ الناس عن الاجتياز في الطريق، وسائر الأحوال المذكورة في القصّة؟

ومرقس ولوقا ذكرا مجنوناً واحداً، ومهما وصفاه بشدّة الحال لا يزيد عمّا ذكره متّى في المجنونين معاً.

وأنّ متّى ومرقس ولوقا لم يتعرّضوا في كلامهم ـ ولا إشعاراً ـ بكون المجنونين أو أحدهما من الأُمم أو اليهود أو الخاملين أو المهذّبين.

وعلى أنّ هذه كلّها دعاوٍ لا أصل لها حتّى في أضغاث الأحلام، فإنّها لا تصلح لرفع التناقض والاضطراب بين نقل متّى ونقل مرقس ولوقا.

وزد على ذلك أنّ متّى ذكر الواقعة في كورة الجرجسيّين، ولسان القصّة يقتضي كونها قريب المدينة ـ وهي جرجسا ـ قريب مقابرها ومسارحها وجرف البحيرة.

---

١. إنجيل لوقا ٨: ٢٦ و ٢٧.

٢. الهداية ١: ٢٣٣.

ومرقس ولوقا ذكراها في كورة الجدريّين، ولسان القصّة أيضاً يقتضي كونها قريب المدينة ـ وهي جدرة ـ وقريب مسارحها ومقابرها وجرف البحيرة.

فقد تناقضوا أيضاً في محلّ الواقعة، ومقتضى خارتات[1] الجغرافيّين أنّ بين جدرة وجرجسا نحو عشرة أميال إنكليزيّة، وأنّ جدرة تحت ولاية هيردوس، وجرجسا تحت ولاية فيلبس. ويزداد الاضطراب وظهور الغلط في القصّة بملاحظة الخارتات، فإنّ كون القصّة قريبة من المدينة قريبة من البحيرة، إنّما يناسب كونها في كورة الجرجسيّين، لأنّ جرجسا كذلك، وأمّا جدرة فهي بعيدة عن البحيرة نحو أربعة أميال.

وكذا ذكر لوقا للجبل الذي كانت ترعى فيه الخنازير وألقت نفسها منه إلى البحر. لأنّ هكذا جبل موجود قرب جرجسا والبحيرة، ولا يوجد جبل قرب جدرة والبحيرة. ولكن ذكر العشر مدن في لوقا إنّما يناسب كون الواقعة في جدرة وكورة الجدريّين؛ لأنّ العشر مدن قريبة منها ومن ولايتها دون جرجسا، ولذا ترى النصارى يذكرون في حاشية متّى قراءة الجدريّين. وفي حاشيتي مرقس ولوقا قراءة الجرجسيّين أو الجرشيّين، فاعتبر. وفي هذا القدر كفاية للمتبصّر.

الأمر السابع: [نسبة التناقض إلى المسيح]

أنّ الأناجيل ـ التي يدّعون تواترها إلى الوحي والمصدر الإلهامي ـ قد نسبت لقدس المسيح أُموراً لا تنفكّ عن كونها موانع من النبوّة والرسالة، فاسمع بعضها:

١. **تناقض الكلام**: فقد ذكرت عن المسيح أنّه قال: «إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي ليست حقّاً»[2]. وذكرت عن قوله أيضاً: «إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حقّ، لأنّي أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب»[3]. ولا خفاء في تناقض هذين الكلامين

---

١. الخريطة: ما يُرسَم عليه سطح الكرة الأرضيّة أو جزء منها، وجمعها خرائط. المعجم الوسيط: ٢٢٨، «خ. ر. ط». ولعلّها في زمان المصنّف كانت تلفظ بالتاء بدل الطاء.

٢. إنجيل يوحنّا ٥: ٣١.

٣. إنجيل يوحنّا ٨: ١٤.

وكذب أحدهما، وهو مانع من النبوّة.

وقد حاول المتكلّف أن يرفع هذا التناقض، وإذ كلّف نفسه من ذلك ما لا يطاق ضاعت عليه مجاري الكلام وروابطه ومضامين العهدين، وأطال فيه بما لا يسمن ولا يغني من جوع. فقال: كان يجب على صاحب إظهار الحقّ لتوضيح المعنى أن يورد الفقرة الثالثة عشرة من ثامن يوحنّا، وهي:

فقال له الفرّيسيّون: أنت تشهد لنفسك، شهادتك ليست حقّاً. أجاب يسوع وقال لهم: وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حقّ[١].

ثمّ قال المتكلّف تفريعاً على ذلك:

فترى أنّ الكلام اللاحق لا ينافي الكلام السابق، فإنّ معنى قوله: «وإن كنت أَشهد لنفسي» أي إذا شهدت على سبيل الفرض والتقدير فشهادتي حقّ[٢].

ثمّ أخذ المتكلّف في التفرقة بين معنى «إن» و«إذا» وأطال في الكلام، فكانت نتيجة التفرقة أنّه جعل «إذا» و«لو» في موضع «إنْ» عندما تكلّف بتكرار الكلام وتقليبه.

فأقول: لا يخفى على من له أدنى فهم أنّ الفقرة التي أوجب على إظهار الحقّ ذكرها، لا تنفعه شيئاً ولو ملأ من تكرارها كتباً، أو نادى بها بأعلى صوته ألف ألف مرّة صارخاً: فقال له الفرّيسيّون. إلى آخره.

وأمّا فراره إلى الفرض والتقدير، فلا يخلّصه من التناقض، بل يقال له: أليس التقدير المذكور مناقض لقوله: «إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي ليست حقّاً»؟ ومن أين جاء بالفرض والتقدير مع ما حكي بعد ذلك بيسير عن قول المسيح:

وأيضاً في ناموسكم مكتوب أنّ شهادة رجلين حقّ أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الأب الذي أرسلني؟[٣]

---

١. إنجيل يوحنّا ٨: ١٣ و١٤.

٢. الهداية ١: ٢٤١ و٢٤٢.

٣. إنجيل يوحنّا ٨: ١٧ و١٨.

ثمّ قال المتكلّف: «وعلى كلّ حال فكلمة «إن» لا تفيد وقوع الفعل، بل لو وقع لما وجد أدنى منافاة».

قلنا: إنّ كلتا الفقرتين مصدّرة بقوله: «إن كنت أشهد لنفسي» ويقول الإنجيل كما تقدّم: إنّه شهد لنفسه. وقال: أنا هو الشاهد لنفسي. فأين إلى أين الفرار بالفرض والتقدير؟ وما يجدي مع تحقّق التناقض بين التقديرين أيضاً؟

نعم إن قال المتكلّف: إنّ هاتين الفقرتين خاليتان من المعنى كقولي: «بل لو وقع الفعل لما وجد أدنى منافاة».

قلنا له: لا تنفكّ صورة الكلام عن التناقض أيضاً، وإن لم يكن هناك معنى مقصود.

٢. تناقض الكلام أيضاً: ومن ذلك ما في تاسع عشر متّى عن قول المسيح لمّا قال له بعض الناس: أيّها المعلّم الصالح، أنكَر عليه هذا القول وقال: «لماذا تدعونني صالحاً ليس أحد صالحاً إلّا واحد هو الله»[١]. ومثله في مرقس[٢]، ولوقا[٣]. وهذا مناقض لما يحكى من قوله: الإنسان الصالح[٤]. وقوله: أنا هو الراعي الصالح. أمّا أنا فإنّي الراعي الصالح[٥].

والمتكلّف تكلّم على قوله: «لماذا تدعونني صالحاً» بما ينزّه القلم عن شططه في التوحيد وصحّة الكلام[٦]. ويكفي في المناقضة ما يحكى من قوله: الإنسان الصالح.

٣. تناقض الكلام أيضاً: ومن ذلك ما في ثاني عشر متّى عن قول المسيح: «من ليس معي فهو عليّ، ومن لا يجمع معي فهو يفرق»[٧]. وكذا لوقا[٨]. وهذا ناقِضٌ لما

---

١. إنجيل متّى ١٩: ١٧.
٢. إنجيل مرقس ١٠: ١٨.
٣. إنجيل لوقا ١٨: ١٩.
٤. إنجيل متّى ١٢: ٣٥؛ إنجيل لوقا ٦: ٤٥.
٥. إنجيل يوحنّا ١٠: ١١ و١٤.
٦. الهداية ٤: ٢٨٥.
٧. إنجيل متّى ١٢: ٣٠.
٨. إنجيل لوقا ١١: ٢٣.

يحكى عن قوله فيمن لم يتبع طريقته: «من ليس علينا فهو معنا»[١].

٤. **تناقض التعاليم**: فمن ذلك ما ذكر في متّى عن قول المسيح ما حاصله أنّه لا حسن في صوم تلاميذه ما دام موجوداً معهم، ولا فائدة في صومهم بل لا محلّ له، وهو كنوح بني العرس مع وجود العريس بينهم، وكجعل رقعة جديدة على ثوب عتيق يصير الخَرْق بها أردأ، وكجعل الخمر الجديدة في زقاق عتيقةً تنشقّ بها الزقاق وتتلف وتنصبّ الخمر[٢].

فإنّ هذا مناقض لما حكي عن المسيح في خطابه لتلاميذه بما حاصله أنّ الصوم من أركان الإيمان، وأنّ بعض الكرامات والمراتب العالية لا تنال إلّا به وبالصلاة، وأنّ بعض الشياطين لا تخرج إلّا بالصوم والصلاة، ولذا لم يقدر التلاميذ على إخراج ذلك الشيطان[٣].

٥. **تناقض التعاليم أيضاً**: ومن ذلك ما في ثامن عشر لوقا عن تعليم المسيح لتلاميذه: وقال لهم أيضاً مثلاً في أنّه ينبغي أن يُصلّى كلّ حين ولا يُملّ. وضرب المثل بقاضٍ ظالم مع امرأة لا يُنْصِفها من خصمها، فأزعجته بالإلحاح فأنصفها لأجل إلحاحها، فالله ينصف سريعاً مختاريه الصارخين إليه نهاراً وليلاً[٤]. وضرب أيضاً مثلاً بمن يلجّ في الطلب فيُعطى لأجل لجاجته[٥].

وأيضاً أمر بالتضرّع في كلّ حين[٦]. وهو نفسه كان ليلة هجوم اليهود عليه يصلّي بأشدّ لجاجة[٧]. وهذا كلّه مناقض لما في سادس متّى عن تعليم المسيح:

وحينما تصلّون لا تكرّروا الكلام باطلاً كالأُمم فإنّهم يظنّون أنّه بكثرة كلامهم

---

١. إنجيل مرقس ٩: ٤٠؛ إنجيل لوقا ٩: ٥٠.

٢. إنجيل متّى ٩: ١٤ـ١٨؛ إنجيل مرقس ٢: ١٨ـ٢٣؛ إنجيل لوقا ٥: ٢٣ـ٣٨.

٣. انظر إنجيل متّى ١٧: ١٤ـ٢٢؛ إنجيل مرقس ٩: ١٤ـ٣٠.

٤. انظر إنجيل لوقا ١٨: ١ـ٨.

٥. إنجيل لوقا ١١: ٥ـ٩.

٦. إنجيل لوقا ٢١: ٣٦.

٧. إنجيل لوقا ٢٢: ٤٤.

يُستجاب. فلا تتشبّهوا بهم لأنّ أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه[١].

فإنّ هذا نهي عن الدوام في التضرّع والدعاء، وبيان لكونه باطلاً من عوائد الأُمم الوهميّة، وأنّه لا فائدة فيه، فإنّ الله يعلم بالحاجة قبل أن يُسأل.

٦. التناقض في التعليم أيضاً: فإنّ التعليم والتعليل لعدم تكرار الدعاء في الحاجة بأنّ الله يعلم بها قبل أن يُسأل، مناقض لأصل مشروعيّة الصلاة، وخصوص الصلاة الربّانيّه، وخصوص التكرار فيها بقوله: «لا تدخلنا في تجربة لكن نَجِّنا من الشِرّير» فإنّ ما بعد «لكن» وما قبلها بمعنى واحد. مضافاً إلى أنّه لابدّ أن يتكرّر هذا الدعاء، بتكرار الصلاة الربّانيّة في الشهر أو السنة أو في العمر مرّات عديدة. وبحسب هذا التعليل يكون تكرارها أيضاً باطلاً.

٧. التناقض بين التعليم والعمل: وأيضاً هذا التعليم والتعليل مناقض لما تذكره الأناجيل من فعل المسيح نفسه ليلة هجوم اليهود عليه، فإنّه كرّر الدعاء في طلبه من الله عبور كأس المنيّة عنه، وكان هذا الدعاء هو صلاته يكرّره بلجاجة[٢]. ولا أقلّ من كونه كرّره ثلاث مرّات[٣]. وانظر إلى السابع عشر من يوحنّا، فكم تجد فيه دعاءً مكرّراً باللفظ أو المعنى.

٨. التناقض أيضاً بين التعليم والعمل: فقد ذكرت الأناجيل عن تعليم المسيح بحفظ الوصايا، ومن جملتها إكرام الأُمّ[٤]؛ فإنّه يناقضه ما يُحكى من معاملته مع أُمّه، ففي ثاني عشر متّى:

وفيما هو يكلّم الجموع إذا أُمّه وإخوته قد وقفوا خارجاً طالبين أن يكلّموه. فقال له واحد: هو ذا أُمّك وإخوتك واقفين خارجاً طالبين أن يكلّموك. فأجاب وقال للقائل له: مَن هي أُمّي؟ ومن هم إخوتي؟ ثمّ مدَّ يده نحو تلاميذه وقال: ها

١. إنجيل متّى ٦: ٧ـ٨.

٢. انظر إنجيل متّى ٢٦: ٣٩؛ إنجيل لوقا ٢٢: ٤١ـ٤٥.

٣. إنجيل متّى ٢٦: ٣٩ـ٤٥.

٤. إنجيل متّى ١٩: ١٩؛ إنجيل مرقس ١٠: ١٩؛ إنجيل لوقا ١٨: ٢٠.

أُمّـي وإخـوتي؛ لأنّ مـن يـصنع مشـيئة أبـي الذي فـي السـموات فـهو أخـي وأُختي وأُمّي[١].

أفلم يكن من إكرام الأُمّ الذي أوصى الله به أن يقوم لها ويكـلّمها ويـطيّب قـلبها برؤيته؟ وليتهم نقلوا أنّه اعتذر منها بدون أن يهينها بـقول: «مَـن هـي أُمّـي» ويـندّد بقداستها بكلام مفهومه أنّها ليست ممّن يعمل مشيئة الله. أفيقولون: إنّها لم تكـن مـن المؤمنين به العاملين بمشيئة الله؟ أم يقولون: إنّ مخالفة الإكرام المذكور في الوصيّة، هو أن يقوم لها ويكثر ضربها على رأسها وعينيها، وأمّا ما دون هذا فليس من مخالفة الوصيّة؟

وعلى هذا كان على المتكلّف والمتعرّب أن يعدّا في كتابيهما من أغـلاط القـرآن الكريم وصف المسيح بالبرّ بوالدته[٢]. ويقولان: إنّ الإنجيل يـذكر أنّـه قـابل دعـوتها بالانتهار واستهان بها وندّد بقداستها. ولا يتّجه عليهما في ذلك كما يتوجّه في فاحش غلط المتكلّف[٣]، حيث نسب الغلط إلى قدس القرآن في قوله تعالى فـي شأن مـريم: ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ﴾[٤] فجعل المتكلّف هذا القول من أعظم الأغلاط، توهّماً منه أو إيهاماً بأنّ القرآن الكريم أراد بذلك هارون أخا موسى النبيّ.

فكأنّ الله لم يخلق هارون غيره ولا عمران غير أبيه، أو أنّ الله نهى عن أن تُكنّى امرأة بأُخت هارون، أو أنّ هذا كلّه أخذت به مريم أُخت موسى امتيازاً من الله.

وزاد المتعرّب على ذلك حيث اعترض على القرآن بأن دعا مـريم بـابنة عـمران وأُخت هارون. فقال غير مبال: «وهي في الإنجيل بنت الياقيم»[٥].

فقبحاً للغرور، وتعساً للاقتحام، وأين يوجد في الإنجيل نسب مريم إلّا ذكر كونها نسيبة أِليصابات وأِليصابات من بنات هارون؟ نعم لمّا اختلف متّى ولوقـا فـي نسب

---

١. إنجيل متّى ١٢: ٤٦ ـ ٥٠، ونحوه في إنجيل مرقس ٣: ٣١ ـ ٣٥؛ إنجيل لوقا ٨: ١٩ ـ ٢١.

٢. كما في سورة مريم (١٩): ٣٢.

٣. الهداية ٢: ٣٥ و٩٣.

٤. مريم (١٩): ٢٨.

٥. ذيل مقالة سايل: ٤٩.

يوسف النجّار، وتحيّر في ذلك قدماء النصارى، فرَّ بعض المتأخّرين إلى محض المكابرة بدعوى أنّ لوقا نسب يوسف النجّار إلى والد مريم وهو (هالي) وحروفه تشابه حروف (اليّ) وهو يشبه أن يكون مقتطعاً من أِلياقيم. فبخٍ بخٍ للدنيا في سعادتها بالتقدّم بمثل هذه الأوهام! وقد قدّمنا قريباً ما فيها.

٩. **التناقض أيضاً بين التعليم والعمل:** ذكر الإنجيل عن المسيح أنّه علّم بمذمّة الكذب وقال: «إنّ إبليس كذّاب وأبو الكذّاب»[١]. ويناقضه ما ذكره الإنجيل أيضاً وقرف به قدس المسيح إذ نسب إليه ما هو كذب صريح، حيث ذكر أنّ إخوة المسيح قالوا له: اصعد إلى هذا العيد، فأجابهم:

> اصعدوا أنتم إلى هذا العيد، أنا لست أصعد بعد إلى هذا العيد؛ لأنّ وقتي لم يكمل بعد... ولمّا كان إخوته صعدوا حينئذٍ صعد هو إلى العيد لا ظاهراً بل كأنّه في الخفاء[٢].

وهذه التناقضات المذكورة هي من أعظم الموانع من النبوّة والرسالة.

الأمر الثامن: [فرية على قدس المسيح بمنافيات العفّة]

أنّ الأناجيل قرفت قدس المسيح بمنافيات العفّة، وما هو من أعمال الفسّاق المتهتّكين، وهو بالبداهة من موانع النبوّة والرسالة. وذلك كمجيء الامرأة الخاطئة إلى المسيح، وأنّها وقفت عند قدميه من ورائه باكية، وابتدأت تبلّ قدميه بالدموع، وكانت تمسحها بشعر رأسها وتقبّل قديمه وتدهنهما بالطيب. وأنّ المسيح كان راضياً مستحسناً لعملها هذا، حتّى ضرب الأمثال للفرّيسي الذي أنكر ذلك، وفضّلها عليه بأنّها غسلت رجليه بالدموع ومسحتهما بشعر رأسها ولم تكفّ عن تقبيلهما منذ دخلت[٣].

وكجلوس يوحنّا بن زبدي في حضن المسيح، حتّى إذا استشفع به بطرس وطلب

---

١. إنجيل يوحنّا ٨: ٤٤.
٢. إنجيل يوحنّا ٧: ٨ ـ ١١.
٣. انظر إنجيل لوقا ٧: ٣٦ ـ ٤٧.

منه أن يسأل المسيح عن السرّ، اتّكأ يوحنّا على صدر المسيح وسأله.

وقد قدّمنا هذا في الفصل الخامس عشر من المقدّمة الثامنة[١]، وبيّنّا بمقتضى الأناجيل أنّ يوحنّا حينئذٍ لم يكن طفلاً بل كان شابّاً في ريعان الشباب وغضارته.

الأمر التاسع: [نسبة شرب الخمر إلى المسيح]

ذكرت الأناجيل أنّ المسيح وحاشاه شرّيب خمر[٢] ـ أي كثير الشرب لها ـ . وأنّه قال في الخمر قول المودّع المولع المتلهّف[٣]. وأنّه حضر مجلس العرس المنعقد للسكر، وإذ نفد خمرهم عمل لهم بمعجزه ستّة أجران من الخمر[٤].

وقد قدّمنا في المقدّمة العاشرة ما يعلم منه أنّ شرب الخمر والرضى به والإعانة عليه من موانع النبوّة[٥].

الأمر العاشر: [نسبة القول بتعدّد الآلهة إلى المسيح]

أنّ هذه الأناجيل ـ التي يدّعون تواترها إلى مصدر إلهامي، ويسمّيها المتكلّف كلام الله السميع العليم ـ قد قرفت قدس المسيح إذ حكت عنه ما يرجع إلى القول بتعدّد الآلهة[٦]. وكذا تعدّد الأرباب[٧]. وقد ذكرنا هذا الأخير في الأمر الرابع[٨]، وذكرنا عن العهد القديم ما يدلّ على توحيد الربّ، بل جاء في مرقس عن قول المسيح وتعليمه: الربّ إلهنا ربّ واحد[٩].

---

١. تقدّم في ص ١٤٦.

٢. إنجيل لوقا ٧: ٣٢ ـ ٣٥؛ إنجيل متّى ١١: ١٧ ـ ٢٠.

٣. إنجيل متّى ٢٦: ٢٧ و٢٩؛ إنجيل مرقس ١٤: ٢٣ و٣٥؛ إنجيل لوقا ٢٢: ١٧ و١٨.

٤. إنجيل يوحنّا ٢: ١ ـ ١١.

٥. تقدّم في ص ٢١٧ ـ ٢١٨.

٦. انظر إنجيل يوحنّا ١٠: ٣٣ ـ ٣٧.

٧. انظر إنجيل متّى ٢٢: ٤١ ـ ٤٦؛ إنجيل مرقس ١٢: ٢٥ ـ ٣٨؛ إنجيل لوقا ٢٠: ٤١ ـ ٤٥.

٨. تقدّم في ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.

٩. إنجيل مرقس ١٢: ٢٩.

وقدّمنا حكاية تعدّد الآلهة في الفصل الخامس عشر من المقدّمة الثامنة[١]، وذكرنا دلالة العهد القديم على توحيد الإله والنهي عن ذكر اسم آلهة أُخرى، وأن لا يُسمع ذلك من الفم. وأيضاً جاء في سابع عشر يوحنّا:

تكلّم يسوع بهذا ورفع عينيه نحو السماء وقال: أيّها الأب قد أتت الساعة مَجِّد ابنك ليمجِّدك ابنك أيضاً. إذ أعطيته سلطاناً على كلّ جسد ليعطي حياة أبديّة لكلّ من أعطيته. وهذه هي الحياة الأبديّة أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته[٢].

وعلى هذا فتكون الأناجيل قد قرفت قدس المسيح بأمرين:

أحدهما: القول بتعدّد الآلهة والأرباب، وهو الشرك.

وثانيهما: تناقض تعاليمه مرّة بالتوحيد، وأُخرى بالشرك. وحاشا قدسه من كلّ ذلك.

وفي هذا المقدار كفاية، ولولا أنّ الاستقصاء يُحمَل على التحامل وإرادة سوء القالة لزدناك.

نتيجة ما ذكرنا أنّ النصارى يدّعون تواتر نقلهم في أمرين:

أحدهما: أنّ عيسى عليه السلام ادّعى الرسالة العامّة، وظهر على يده المعجز.

وثانيهما: أنّ الأناجيل كتب إلهاميّة من أنبياء ادّعوا النبوّة وظهر على يدهم المعجز.

وقد اتّضح لك أنّ دعوى التواتر ونقله في الأمر الثاني لا يكاد يصحّ، بل يشهد بنفسه على كذبه، ومع ذلك فلا يبقى للبصير وثوق واعتماد على دعواهم ونقلهم للتواتر. وزيادة على هذا أنّ هذا الأمر الثاني الذي ينقلون تواتره، ويدّعونه بأشدّ إصرار، ليكذّب الأمر الأوّل في دعوى الرسالة العامّة وظهور المعجز، وكون المعجز حجّة على الصدق في دعوى الرسالة. بل يصرّح بظهوره على يد الكاذب في دعوى النبوّة، بل

١. تقدّم في ص ١٤٧.

٢. إنجيل يوحنّا ١٧: ١ ـ ٣.

يظهر على يد الكافر كالدجّال. ومع ذلك فقد أكثر من ذكر ماهو مانع من نبوّة المسيح أشدّ المنع.

وهل ترضى للعاقل مع هذا كلّه أن يخدع نفسه ويجانب عقله، ويتساهل في دينه، ويركن إلى نقلهم ودعواهم التواتر في هذا الوجه؟ ولاسيّما أنّ قرار الديانة والاعتماد على كتبها كان مبنيّاً عند أسلافهم على قرار المجامع، وهذا ممّا يلاشي الاطمئنان بالتواتر، فإنّ مبناه على عدم احتمال المواطأة. فكيف وإنّ المجامع هي أمارة المواطأة؟ فعلى طالب الهدى أن يتوقّى ويتحذّر من أن يستهويه السراب إلى مهالك التِيه، بل يلزم الجادّة الموصلة إلى المنهل المأنوس والمورد الهنيء.

المقدّمة الثانية عشرة

في النسخ في الشريعة الإلهيّة

وفيها فصول:

الفصل الأوّل: في ماهيّته وحقيقة المراد منه في الاصطلاح

النسخ في الاصطلاح هو رفع الله للحكم الشرعي بتشريع حكم آخر مخالف له. وحقيقته هو أنّ الله ـ اللطيف بعباده، العليم بأحوالهم ومصالحهم، في جميع الأزمنة وتقلّبات الأُمور ـ قد يشرّع حكماً باعتبار مصلحة يعلم أنّ لَها أمداً منتهياً وحدّاً محدوداً، إلّا أنّه جلَّت حكمته لم يبيّن حدّه لعباده، وإن كان مخزوناً في علمه، فإذا انقضى أمد تلك المصلحة وأمد الحكم المنبعث عنها، شرّع الحكم الثاني على مقتضى المصلحة المتجدّدة.

فقولنا: «النسخ رفع الحكم الأوّل» إنّما هو تسامح في الكلام، باعتبار دلالة دليله في ظاهر الحال على بقائه في جميع الأزمان، وإلّا فالحكم الأوّل مرتفع في الواقع بنفس انتهاء مصلحته المحدود بحدّها عندالله. ولا ينبغي أن يتوهّم ذو شعور بأنَّ القائلين بإمكان النسخ في الشرائع ووقوعه، يقولون بأنّ الله يريد في أوّل تشريع الحكم دوامه أبد الآباد، ثمّ يعدل عن ذلك ويشرّع حكماً آخر. تعالى الله عن ذلك.

الفصل الثاني: في إمكانه

لا يخفى أنّ الله القادر على جعل الشريعة وتشريع الأحكام، لقادر على أن يجعل

حكمين لزمانين مثلاً، فإذا انقضى زمان الحكم الأوّل أعلن لعباده بواسطة رسله تشريع الحكم الثاني. ولا نجد من ذلك مانعاً، بل لا مانع، كما ستعرف إن شاءالله.

وهاك كشف الحقيقة، فإنّا إذا نظرنا إلى حكمة الله ولطفه بعباده، وعلمه باختلاف أحوالهم وتقلّبات أطوارهم، وغناه عنهم وعن جميع العالم، حكَمَتْ علينا عقولنا وفهّمنا وجداننا، بأنّ أحكامه الشرعيّة في العبادات والعادات والسياسات، إنّما هي لاقتضاء مصالح العباد في طهارة نفوسهم وقربهم من حضرته، وتهذيب أخلاقهم وانتظام اجتماعهم ومدنيّتهم، وسهولة انقيادهم إلى الطاعة والأدب.

ومن الواضح أنّ الناس قد تختلف وجوه مصالحهم وتتغيّر بحسب الأزمان؛ لأنّهم بشر متغيّرون بحسب الأعصار وتقلّب الأحوال، في الأخلاق والعادات، والقوّة والضعف، واللين والقسوة، وسهولة الانقياد إلى الطاعة والتمرّد، والابتداء في الانقياد والتمرّن عليه، إلى غير ذلك من الاختلاف الذي لا يخفى على الفطن. وبالضرورة يكون ما شرّع لمناسبة أخلاق هذه الأجيال لا يناسب الأجيال المخالفة لها في الأخلاق، وما يناسب الأجيال القويّة لا يناسب الضعيفة، وما شرّع لمناسبة الأجيال السهلة الانقياد إلى الطاعة لا يناسب الأجيال المتمرّدة، وما يناسب المتمرّن لا يناسب المبتدئ، وما يناسب القاسي لا يناسب الليّن.

حكي في الأناجيل أنّ اليهود اعترضوا على المسيح في منع الطلاق إلّا لعلّة الزنى، وعارضوه بورود الطلاق في شريعة موسى مطلقاً، فقال لهم: إنّ موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلّقوا نساءكم ولكن من البدء لم يكن هكذا[١].

وانظر أيضاً ما هو البديهي من الأحكام العرفيّة، فإنّ ما يجعله حكماء العقلاء من الشرائع والقوانين لإصلاح اجتماع الرعيّة ومدنيّة مملكتهم وانتظام أدبهم، لابدّ من أن يكون في أوّل أمر التشريع وخصوص حال الانقلاب أيسرَ و أسهلَ على الرعيّة، ممّا تقتضيه المصلحة عند تمرّنهم على الانقياد لشريعة المملكة. وذلك لحكمة نفوذ الشريعة

١. إنجيل متّى ١٩: ٧و٨، ونحوه في إنجيل مرقس ١٠: ٢ ـ ٧.

السهلة على القبول حتّى تتمرّن الرعيّة على الانشراح بالتشريع وإجراء المشروع. وهذه مصلحة مهمّة يحفظ بحكمتها سائر المصالح.

وإذا توجّهتَ بعقلك ووجدانك إلى ما ذكرنا، حكمتَ بالبداهة بإمكان النسخ في الشرائع الإلهيّة، بل تحكم بلزومه بمقتضى الحكمة واللطف في بعض الموارد.

فإن استوضحتَ و قلتَ: كلّ حكم شرعي يُراعى فيه معدّل المصلحة لكافّة البشر، والقدر الجامع الذي تتساوى فيه جميع أطوار الناس وأخلاقهم في جميع الأزمان، فلا يبقى محلّ للنسخ.

قلنا: إنّ من الأُمور مالا تختلف جهته باختلاف الأزمان والأحوال كالزنى مثلاً، وهذا لا يعتريه النسخ لحرمته.

وأمّا ما تختلف جهته بحسب الأعصار والأحوال كما ذكرنا، فإن كنت تقول بجواز مراعاة معدَّل المصلحة فيه من غير لزوم، فذلك لا ينافي ما ذكرناه لإمكان وقوع النسخ.

وإن كنت تقول بلزومه، سألناك أوّلاً ما هو الملزم به؟ ومن هو الملزم؟ ونبّهناك ثانياً إلى أنّ سياحة الفكر في تقلّب أحوال البشر بحسب الأعصار والأخلاق والعادات ـ حسبما شرحنا بعضه ـ لتكشف لكلّ مميّز وتعرّفه بأنّ مراعاة معدَّل المصلحة ـ على ما تقول ـ لا تنفكّ عن حرمان أكثر الناس من بركات اللطف بهم ومقتضيات مصالحهم. وما هو الداعي لذلك مع إمكان أن يعمّهم اللطف باستيفاء بركات مصالحهم على مقتضى الحكمة من دون مانع ولا فساد؟

فإن قلت: إذاً فما بال اليهود والنصارى ينكرون إمكان النسخ ووقوعه، حتّى أنّ بعض كتّابهم ليشدّدون النكير على القول بالنسخ، ويبالغون في امتناعه على جلال الله؟

قلت: إن كان شكّك من هذه الجهة فإنّا نشكرك على إبدائها، فاعلم أنّا لم نبخس اليهود والنصارى في ابتداء الأمر حقّهم من حسن الظنّ. ولأجل ذلك تتبّعنا كتبهم التي ينسبونها إلى الإلهام والوحي، ونظرنا في نِحَلِهم التي عكفوا عليها، وشريعة جامعتهم في يهوديّتهم أو نصرانيّتهم. فوجدنا اليهوديّة قد كثر فيها النسخ نقلاً عمّا قبلها، ونسخاً

لما تقدّمها، ونسخاً لما جاء فيها. ووجدنا النصرانيّة الرائجة قد بُنِي أساسها وسُيِّج بنيانها ودار مِحْوَرُها على دعوى معنى النسخ الذي نقول به، بل على ملاشاة الشريعة السابقة وأحكامها.

ولم نجد وجهاً صحيحاً لما تذكره عنهم إلّا المنافرة مع النون والسين والخاء في اسم النسخ. وإنّا لا نضايقهم في الاسم، بل نسمّي هذا الذي نقول بإمكانه ووقوعه بالاسم الذي يسمّون به رفع الشرائع، الموجود في كتبهم التي ينسبونها إلى الوحي الإلهي. ونقتصر في مدّعانا على مثل ما وقع في الشرائع التي ينسبونها إلى الله.

وإنّ السير في كلمات بعض كتّابهم في هذا المقام، وخصوص المتكلّف[1]، قد كشف لنا عن منشأ الاشتباه، أو مبدأ الحياد في المغالطة والتمويه. وهو أنّهم تخيّلوا بوهمهم ـ أو خيّلوا بتمويههم ـ أنّ النسخ الذي يدّعي المسلمون وقوعه في الشرائع هو رفع الحكم الشرعي، مع إبطال غايته الأصليّة التي شرّع لأجلها، وهي مصلحة العباد، إبطالاً جزافياً من غير نظر إلى تجدّد مصلحة أُخرى تناسب خلافه. فكأنّهم لم يسمعوا ولم يفطنوا من هتاف الصريح من كلمات المسلمين وكتّاباتهم، قولهم بأنّ الله الغنيّ الحكيم شرّع الشرائع لطفاً منه بعباده ورحمةً لهم، برعاية مصالحهم بأنواعها حسب ما تقتضيه حكمته وعلمه بما يناسبها من الأحكام، بحسب اختلاف الأحوال والأوقات.

وعلى ذلك فقد تقتضي الحكمة واللطف تبديل الحكم الأوّل إلى ما هو أنسب منه في الزمان الثاني بالمصلحة والغاية المطلوبة في التشريع. وهذا التبديل إنّما هو لأجل المحافظة على الغاية التي شرّع الحكم الأوّل لأجلها، وهذا هو النسخ عند المسلمين. وإن فرض أنّ شريعة الحكم الثاني هي جوهر شريعة الحكم الأوّل باعتبار الغاية المطلوبة من التشريع، وأنّ الأُولى ترمز وتشير إلى الثانية لكونها أنسب باللطف والرحمة بحسب الوقت والحال، فإنّ كلّ الشرائع الإلهيّة متّحدة في غايتها

---

١. الهداية ٤: ١٥٥ ـ ١٩٤.

المرعيّة. ولكن أليست الأحكام المتبادلة فيها مختلفة بالنوع والحقيقة؟ فنحن نصفهما بالناسخ والمنسوخ، بلحاظ هذا الاختلاف.

مثاله بأن نتكلّم على طريقة القائلين بسرّ الفداء، فنقول: إنّ الله قد شرع بلطفه ورحمته في التوراة أحكاماً لمصالح العباد في البرّ والتأديب والتكفير والخلاص والتكميل، واستمرّت على ذلك ألفاً وخمسمائة سنة تقريباً. ولكن لمّا كانت هذه الغايات تحصل فيما بعد ذلك على أحسن وجه وأتمّ حصول فرضاً بسبب الإيمان بالمسيح وبركة سرّ الفداء وذبيحة الفادي الكريم، رُفِعت ذوات الأحكام الخاصّة التي كانت في شريعة موسى وخُفّف ثقلها الباهظ وبُدّلت شدّتها بسهولة الراحة والإباحة. وهذا من وادي النسخ الذي يقول به المسلمون. ولا يشكّ فاهم أو غبيّ في أنّ أحكام التوراة قد بُدّلت في النصرانيّة الرائجة في الصورة والماهيّة، وهم يقولون: إنّ ذلك بوحي من الله. وعليه فهو النسخ الذي يقول به المسلمون.

وهبنا قلنا ما يقوله المتكلّف:

> إنّ الشريعة الموسويّة بمنزلة البذر، والمسيحيّة بمنزلة الشجرة والثمرة، وإنّ المسيحيّة جوهر الموسويّة وفذلكتها [١].

ولكنّنا لانخادع عقولنا ووجداننا ونقول: إنّها هي من حيث الأحكام، ولا نكون مع هذا أُضحوكة بقولنا. وعلى كلّ حال فإنّ كتاب الله منزّه عن الناسخ والمنسوخ.

فأَصْغِ لما نتلوه عليك من الكتب التي ينسبونها إلى الله والوحي، واحفظ ما ذكرناه لك في معنى النسخ الذي نقول به، وحاسبهم حساباً يسيراً، وجادلهم بالتي هي أحسن. ولنذكر لك ممّا جاء في كتب وحيهم ممّا لا محيص عن كونه بمعنى النسخ الذي نقول به وإن أبوا تسميته نسخاً. ثمّ نذكر لك أيضاً من كتب وحيهم موارد كثيرة لا يسمّيها المسلمون في الاصطلاح الغالب نسخاً، ولكنّها يرد عليها كلّ ما اعترض به اليهود والنصارى على النسخ، فاستمع لذلك إن شاء الله.

---

١. المصدر: ١٨٤.

١. الناسخ والمنسوخ في شريعة نوح بمقتضى نقل التوراة

جاء في سابع التكوين[١] وكذا الثامن[٢] أنّ الله ذكر لنوح قبل الطوفان البهائم الطاهرة والتي ليست بطاهرة. والمراد من غير الطاهرة ما لا يجوز أكله، ولا تقديمه للقرابين والمُحرَقات. ثمّ جاء في تاسع التكوين في ذكر ما بعد الطوفان عن قول الله لنوح: «كلّ دابّة حيّة تكون لكم طعاماً كالعشب الأخضر»[٣]. وهذا يدلّ على جواز الأكل لكلّ دابّة حيّة بخلاف الشريعة السابقة.

وحاول المتكلّف[٤] أن يتخلّص من هذا فقال: المراد بقوله تعالى: «كلّ دابّة حيّة» كلّ الحيوانات الطاهرة. وأغرب في تشبّثات الاستشهاد. ولعلّه إذ علم أنّ في تاسع التكوين المذكور[٥] ما يبطل دعواه هذه، ويوضّح أنّ وصف الحياة غير وصف الطهارة، هرب إلى دعوى أنّ المراد من لفظ «كلّ» هو البعض. ولكن مراجعة الموارد المشار إليها من تاسع التكوين تنادي بأنّ المراد من «كلّ» هو العموم. على أنّ الدعوى بإرادة معنى «بعض» من لفظ «كلّ» ناشئة من الوهم، والاستشهاد لها بالقرآن الكريم ناشئ من الخطإ في الفهم.

٢. التوراة وشريعة نوح والحيوانات

ثمّ نسخت التوراة هذه الإباحة العامّة في شريعة نوح لأكل كلّ دابّة حيّة كالعشب الأخضر، وحرّمت كثيراً من الحيوانات. انظر حادي عشر اللاويّين، ورابع عشر التثنية.

٣. التوراة وما قبلها في التزوّج بالأُخت

فحرّمت التوراة التزوّج بالأُخت وإن كانت من الأب وحده[٦]. مع أنّها ذكرت أنّ سارة

---

١. سفر التكوين ٧: ٢و٨.

٢. سفر التكوين ٨: ٢٠.

٣. سفر التكوين ٩:٣.

٤. الهداية ٤: ١٦٧.

٥. سفر التكوين ٩: ١٠و١٢و١٥و١٦.

٦. سفر اللاويّين ١٨: ٩.

امرأة إبراهيم كانت أُخته من أبيه[١]. ولا تصغِ إلى تحريف الترجمة المطبوعة سنة ١٨١١م حيث حرَّفت وترجمت الأُخت بالقريبة التي تعمّ بنت العمّ ونحوها، لتتخلّص من هذا الاعتراض. فإنّ نصّ الأصل العبراني: «وجم امنه اختي بت ابي هوا اخ لابت امي وتهي لي لايشه». أي وأيضاً أُختي بنت أبي هي لكن لا بنت أُمّي وصارت لي امرأة. ولو كان الذي في الأصل العبراني بمعنى القريبة لقال: «شاري».

٤. أيضاً الجمع بين الأُختين في التزويج

فحرّمته التوراة[٢] مع أنّها ذكرت أنّ يعقوب تزوّج براحيل على أُختها ليئة[٣]. وبقيتا عنده مجتمعتين مدّة من السنين[٤].

٥. التزوّج بالعمّة

فحرّمته التوراة[٥] مع أنّها ذكرت أنّ أبا موسى ـ وهو عمران بن قهات بن لاوي[٦] ـ قد أخذ عمّته يوكابد بنت لاوي ـ التي ولدت له في مصر ـ امرأةً له[٧]. [انظر سفر الخروج وسفر العدد] ينكشف لك الخطأ في مكابرة المتكلّف وخبطه في احتمال كون يوكابد ليست عمّة عمران[٨].

وبيان النسخ في هذه الموارد الثلاثة، هو أنّه لابدّ أن تكون لإبراهيم ويعقوب وعمران شريعة إلهيّة أباحت لهم هذا التزويج المذكور، وقد نسختها التوراة، هذا هو مراد إظهار الحقّ[٩].

١. سفر التكوين ٢٠: ١٢.
٢. سفر اللاويّين ١٨: ١٨.
٣. سفر التكوين ٢٩: ٢٣ و ٣٠.
٤. انظر سفر التكوين ٢٩ ـ ٣٥.
٥. سفر اللاويّين ١٨: ١٢ و ٢٠: ١٩.
٦. سفر الخروج ٦: ١٦ ـ ١٩.
٧. انظر سفر الخروج ٢: ١ ـ ١١ و ٦: ٢٠؛ سفر العدد ٢٦: ٢٩.
٨. الهداية ٤: ٨ ـ ١٠.
٩. إظهار الحقّ ٣: ٦٤٩ ـ ٦٥١.

ولم يقل: إنّ التوراة نفسها حكمت بجواز تزويج هؤلاء النبيّين وسبطهما، ثمّ نسخته كما توهّمه المتكلّف.

ثمّ أجاب بأنّه لم ينزل الله على آدم ولا على إبراهيم شريعة بجواز تزوّج الأُخت غير الشقيقة ثمّ حرّمها موسى، وإنّما هذا الزواج كان من العادات التي اصطلح علـيها القدماء قبل شريعة موسى[1].

وقال:

> لم ينزل الله على القدماء شريعة ثمّ نسخها موسى، بل اصطلح القدماء على عادات للجريان عليها في هذه الدنيا[2].

وقال: «إنّ زواج عمران كان قبل نزول الشريعة»[3].

أقول: من أين للمتكلّف أنّ القدماء لم تكن لهم شريعة مطلقاً، أو فـي خـصوص الزواج، مع أنّه لا يشهد لدعواه هذه كتاب ينسب إلى الإلهام، أم جاءه الوحي بذلك؟ أم يقول: إنّ رحمة الله ولطفه لم يسعا الذين قبل موسى، كما وسعا بني إسرائيل المتمرّدين؟

ثمّ إن قال: إنّه لم تكن قبل موسى للقدماء شريعة مطلقاً.

قلنا: إنّ التوراة لتكذّبك في ذلك، فإنّها تقول: إنّ الله جعل لنوح شريعة صنعة الفلك ومن يحمله فيه من الأَناسِين والحيوانات، وشـريعة الحـيوانـات الطـاهرة والنـجسة. وبالضرورة يكون من الشريعة بناء المذبح وإصعاد المُحرَقات[4]. و جعل لإبراهيم شريعة الختان[5]. و تقول التوراة أيضاً إنّ ملكي صادوق ملك شاليم كان كاهناً لله العليّ، ولأجل ذلك أعطاه إبراهيم عُشر الغنيمة[6]. فقل: ما معنى الكهانة إن لم تكن شريعة؟ وما وجه العشر الذي أخذه من إبراهيم؟ أتقول: إنّه كان عشراً ملوكيّاً؟ كلّا بل إنّ سابع العبرانيّين

---

١. الهداية ٤: ١٦٧.

٢. المصدر: ١٦٨.

٣. المصدر: ١٦٩.

٤. انظر سفر التكوين ٦ و٧ و٨.

٥. سفر التكوين ١٧: ٩ ـ ١٥.

٦. انظر سفر التكوين ١٤: ١٨ ـ ٢١.

يفصح عن كونه عشراً شرعيّاً كاشفاً عن عظمة ملكي صادوق الذي أعطاه إبراهيم إيّاه.

أفترى المتكلّف ينكر هذا كلّه ويقول: إنّ الله ترك القدماء هملاً كالبهائم بلا شريعة ولا نعمة؟ أم يقول: إنّه لم تكن للقدماء شريعة في خصوص الزواج؟

فنقول له: أتَرَكَ الله عبادَه وعاداتهم في الزواج، وإن تسافدوا تسافد البهائم؟ دع عنك المشركين، ولكنّ التوراة تقول: منذ ولد أنوش بن شيث ابتدأ يُدعَى باسم الربّ، وذلك بعد خلق آدم بمائتين وثمانين سنة[1]. فالمؤمنون من ذلك الزمان إلى زمان إبراهيم وآل إبراهيم، فرضنا أنّ الله لم يجعل لهم شريعة في الزواج وتركهم وعاداتهم، ولكن هل كان الله راضياً لهم بتلك العادات التي اصطلحوا عليها لأجل مناسبتها لمصلحة وقتهم، أو كان ساخطاً لها؟

فإن كان ساخطاً لها فلماذا لم ينههم عنها، ويشرّع لهم ما يناسب مصلحة وقتهم؟ وقد أوحى الله إلى إبراهيم وخاطبه في أُمور كثيرة، وكذا يعقوب. ولو أنّ الله يخاطبهم بقدر ما تذكره التوراة عن خطاب الله لموسى في تفصيل ثياب هارون والكهنة[2]، أو صيدلة البرص[3]، لكفى في جعل الشريعة لهم. أم لم تكن فرصة للرحمة واللطف بخليله وآل خليله ـ كفرصة طور سيناء، أو مصارعة يعقوب[4] ـ إلّا بقدر الختان المؤلم الذي تخلّص منه النصارى؟

هذا وإن كان الله راضياً بتلك العادات ـ على ما ذكرنا ـ فهي شريعة إلهيّة لهم. وأيضاً فإنّ الله سمّى سارة بأنّها امرأة إبراهيم مراراً عديدة، أفلا يكفي هذا في إمضاء زواجها فيكون شريعة[5]؟

دع هذا كلّه ولكن نبّه المتكلّف بأنّه جاء في السادس والعشرين من التكوين عن

١. انظر سفر التكوين ٤: ٢٦ و ٥: ٣ـ ٧.

٢. سفر الخروج ٢٨: ٢ ـ ٤٢.

٣. سفر اللاويّين ١٣ و ١٤.

٤. سفر التكوين ٣٢: ٢٤ ـ٢٩.

٥. انظر أقلاً سفر التكوين ١٧: ١٥ و ١٩.

قول الله: «من أجل أنّ إبراهيم سمع لقولي وحفظ ما يحفظ لي أوامري وفرائضي وشرائعي»[١]. وسله هل يقول بعد هذا: لم ينزل الله على القدماء شريعة؟ أم يقول: إنّ المراد بهذا كلّه شريعة الختان الواحدة؟

يعقوب وليئة: ثمّ سله ما وجه العذر والتخلّص عن جمع يعقوب للأُختين بقوله:

إنّ مسألة يعقوب هي أنّه خطب راحيل، فمكر به أبوها وأعطاه ليئة، غير أنّه استمرّ على خدمته فأعطاه راحيل[٢].

أتراه يقول: إنّ ليئة لم يكن نكاحها صحيحاً، بل كان فاسداً بحسب عادة الوقت؛ لأنّ يعقوب كان مخدوعاً بها ودخل عليها بزعم أنّها راحيل، ولم يعرف أنّها ليئة حتّى أصبح، فلا يكون تزوّجه براحيل معها من الجمع بين الأُختين؟

نعم، إن قال ذلك لم نعترض عليه بأنّه يلزم أن يكون اقترانه الفاسد بليئة زنى، فيكون يعقوب وحاشاه زانياً مدّة حياة ليئة، ويكون أولاده منها روابين وشمعون ولاوي ويهوذا ويسّاكر وزبولون أولاد زنى ـ والعياذ بالله ـ لا يدخلون في جماعة الله إلى الجيل العاشر[٣].

ولا نقول إذاً كيف دخل في جماعة الله جيلهم الرابع والخامس، وإنّ منهما موسى كليم الله، وهارون قدّوس الله، واللاويّون حملة تابوت الله وخدّام مسكنه وزعماء كهنوته وحفظة شريعته؟

فإنّا بحسب ما ألفناه من أدب المتكلّف لا نأمن أن يقول: لم ينزل على القدماء شريعة بتحريم الزنى. أو يقول: نعم وقع يعقوب في خطيئة الزنى هذه المدّة المديدة دلالةً على ضعف الطبيعة البشريّة، ثمّ تاب من خطيئته، وزيادة على ذلك أنّ المولى القدّوس العادل سلّط عليه ابنه روابين فزنى بزوجته بلهة أُمّ أولاده دان ونفتالي[٤].

---

١. سفر التكوين ٢٦: ٥.

٢. الهداية ٤: ١٥٨.

٣. سفر التثنية ٢٣: ٢.

٤. سفر التكوين ٣٥: ٢٢؛ انظر الهداية ١: ١٣ و١٨ و٦٦.

ويقول أيضاً: إنّ أولاد الزنى الذين لا يدخلون في جماعة الربّ هم العمُّونيّون والمُوآبيّون[١].

رسول الله وإظهار الحقّ والمتكلّف: والمتكلّف من وغر صدره ـ أو قل: من حريّة ضميره ـ لمّا رأى إلزام إظهار الحقّ لهم بالنسخ في تزوّج عمران بعمّته، وتحريم ذلك في شريعة موسى[٢]، لم يلتفت إلى مراد إظهار الحقّ، وهو أنّه إن كانت هذه الحكاية صحيحة فلا يمكن عادة لعمران ـ الموحّد لله ابن قهات بن لاوي بن يعقوب نبيّ الله ابن إسحاق نبيّ الله ابن إبراهيم خليل الله ـ أن يتزوّج على غير شريعة تلقّاها من آبائه الأنبياء في إباحة هذا التزويج وصحّته، فيلزم من ذلك وقوع النسخ في شريعة موسى.

بل توهّم المتكلّف أنّ إظهار الحقّ يحاول التنديد بطهارة ولادة موسى كليم الله. فصار يقابله بخرافات القصص، ثمّ زاد في الافتراء بالتعرُّض لقدس رسول الله في تزويجه بمطلّقة غلامه زيد بن حارثة ـ الذي لشدّة رأفة رسول الله به صار الناس يدعونه زيد بن محمّد ـ فقال غير مبال بالانتقاد عليه:

> وماذا نقول فيمن ادّعى أنّ الله أجاز له أن يتّخذ امرأة ابنه، وجعل ذلك قانوناً، ويا حبّذا لو نسخ هذا القانون؛ فإنّ ذلك كان أحقّ بالنسخ؛ لأنّه قانون وخيم ومبدأ ذميم؛ لأنّه يسوّغ الاقتران بزوجة الابن، ولكنّه لم ينسخه فهو وصمة باقية مدى الدهور[٣].

فنقول له: الحقّ ـ لا أنت ـ يقول: إنّ الله جلّ شأنه شاء أن يمحق باطل الجاهليّة ويلاشي خرافاتهم ويقلع مفاسدها، وحيث كانوا يرتّبون آثار الابن الحقيقي على الدعيّ جهلاً منهم وزوراً يلزم منه مفاسد لا تحصى، منها معاملةُ الدعيّ لأرحام من يُدعَى به ونسائه معاملةَ المحارم الحقيقيّة في الخِلطة والتكشُّف، مع أنّه ليس هناك علقة واقعيّة ولا رحم ماسّة تصدّه عن النظر إليهنّ بالفحشاء والإقدام على المكروه، مع كثرة الفُرَص

١. انظر الهداية ٣: ٢٦٣.
٢. إظهار الحقّ ٣: ٦٥١.
٣. الهداية ٤: ١٦٩.

وعدم الاحتشام في الخلطة، فهو كحرامي البيت المذكور في المثل[١]. وإنّ الغالب على الأدعياء كونهم من أمكنة نائية، فلا تعرف نجابتهم من سوء منبتهم ولؤم عنصرهم.

فأوحى الله إلى رسوله الصادع بأمره، الذي لم يستعفِ من رسالته، ولم يضجر من أحكامه، أن يبطل هذه العادة الذميمة بتبليغه قول الله في سورة الأحزاب: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ * ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾[٢].

وأمره أيضاً تثبيتاً لإبطال هذه العادة الوخيمة بأن يكون أوّل عامل بشريعة الحقّ ومقاوم لخرافات الجاهليّة، ليكون أُسوةً للمؤمنين، ويرتفع ببركته حرج الأباطيل. وقد قدّمنا الكلام في هذا الشأن في الفصل السادس عشر في عصمة رسول الله[٣].

ومن عدم موفّقيّة المتكلّف في كتابه أن لهج بهذا الافتراء، وتسميته لزيد ابناً لرسول الله، حتّى أنّ الغافل ليحبّ أن يعرف أنّ هذا هو الابن البكر لرسول الله أو من سائر أولاده، وهل كانت أُمّه مبغوضة أو ميّتة؟ فإنّ الغافل لا يخطر في خياله أنّ أحداً يصرّ على الافتراء بهذا المقدار من الإصرار، ولا سيّما في كتاب يطبع وينشر في العالم لنصرة الديانة، في مقابلة أُمّة عظيمة راسخة القدم في العلوم الدينيّة، ولكن

لا تَنْتَهِي الأَنْفُسُ عن غَيِّها ... مالم يَكُنْ مِنها لها زاجِرُ[٤]

وبماذا يأتي وينفّر المغفّلين من قومه إلّا بهذا التمويه؟ فإنّ قدس رسول الله ليس لقائل فيه مغمز.

سؤال: هل تقدر أن تكشف ما هو المنشأ في إصرار المتكلّف على إلصاق الدعيّ بمن يُدعى به، حتّى صار يضجر من هذه الشريعة التي محقت باطل الأدعياء وردّت الأُمور إلى حقائقها؟

---

١. هو مثل عامّي عراقي يضرب للسارق الذي لا يمكن التحرّز منه، والحرامي: السارق.

٢. الأحزاب (٣٣): ٤ ـ ٥.

٣. تقدّم في ص ١٥٥.

٤. تأريخ بغداد ٧: ٤٥٧.

٦. نسخ التوراة لحكمها في محرقة السَّهو

جاء في رابع اللاويّين عن الشريعة الموضوعة في جبل سيناء أنّه إذا سها كلّ جماعة إسرائيل، وأُخفي أمر عن المجمع، وعملوا واحدة من مناهي الربّ، يقرّب المجمع ثوراً ذبيحة خطيئة محرقة. مع تفصيل في كيفيّة تقديمه وحرقه، من دون ذكر في الشريعة لتقدمة أو سكيب أو ذبيحة أُخرى[1]. وجاء في الخامس عشر من العدد عن الشريعة الموضوعة في برّيّة فاران في حكم هذا الموضوع المتقدّم بأن يقدّموا مع الثور المذكور تقدمةً وسكيباً وتيساً[2]. وهو نسخ للحكم بكفاية الثور في الشريعة الأُولى.

قال المتكلّف:

إنّ الذبائح متنوّعة، فالعبارة في سفر اللاويّين عن ذبيحة الإثم مع النذور، كما يتّضح لمن طالع العبارتين[3].

أقول: يتّضح من مطالعة العبارتين وكلام المتكلّف هذا أحد أمرين:

إمّا أنّه لم يطالع العبارتين وإنّما تحكّم فيهما على نقل إظهار الحقّ المجمل.

وإمّا أنّه لا يبالي بما يقول وما يظهر عليه، اعتماداً على أنّ المسلمين وغالب النصارى لا ينظرون في التوراة نظر مستقصٍ في أحكامها. ولا أقول: إنّه لم يفهم معنى التوراة؛ لأنّه لا يخفى حتّى على الغبيّ أنّه لا دخل للنذور ولا ربط فيما بعد الثانية والعشرين من خامس عشر العدد أصلاً، وليس فيها ما يوهم ذلك. وهاك نصّ العبارة:

فإن عمل خفية عن أعين الجماعة سهواً يعمل كلّ الجماعة ثوراً واحداً ابن بقر مُحرَقة لرائحة سرور للربّ مع تقدمته وسَكيبه كالعادة وتيساً واحداً من المعزِ ذبيحة خطيئة. فيكفّر الكاهن عن كلّ جماعة بني إسرائيل فيصفح عنهم لأنّه كان سهواً[4].

---

١. سفر اللاويّين ٤: ١٣ ـ ٢٢.

٢. سفر العدد ١٥: ٢٤ ـ ٢٦.

٣. الهداية ٤: ١٩٢.

٤. سفر العدد ١٥: ٢٤ ـ ٢٥.

٧. أيضاً امرأة الأخ

وقد حرّمت التوراة امرأة الأخ من دون استثناء، في الشريعة الموضوعة في جبل سيناء[١]. ثمّ بعد أربعين سنة تقريباً نسخت هذا التحريم العامّ في الشريعة الموضوعة على عبر الأُردنّ، وأوجبت على أخي الزوج الميّت الذي لم يخلّف ولداً أن يتزوّج بامرأة أخيه الميّت ليقيم له نسلاً، فإن أبى تقدّمه المرأة إلى الشيوخ وتخلع نعله وتبصق في وجهه أمام الشيوخ، ويدعى اسمه بيت مخلوع النعل[٢].

ولئن حاول المتكلّف أن يجعل الحكم الثاني من قبيل التخصيص للحكم الأوّل لا من النسخ، فإنّا سنوضح بعون الله أنّ ما كان بيانه بعد العمل بالعامّ فهو من الناسخ لا من المخصّص. وقد بقي الحكم الأوّل على عمومه أربعين سنة تقريباً، وكلّها وقت العمل. فإنّ بني إسرائيل كانوا مئات الأُلوف، وقد كثر فيهم الموت، وبالضرورة يتّفق عندهم في كلّ سنة كثير من موارد الحكم العامّ بأنواعها.

٨. التوراة وداود وعمر اللاويّين

جاء في شريعة التوراة مرّة أنّ اللاوي الذي يوظّف لخدمة المسكن وخيمة الاجتماع، يكون من ابن ثلاثين سنة إلى خمسين، كما في رابع العدد[٣] من النسخة العبرانيّة وتراجمها. وجاء مرّة أُخرى أنّه يكون من ابن خمس وعشرين سنة[٤].

وحيث إنّا لم نتحقّق من التوراة العبرانيّة أنّ أيّ الحكمين كان متقدّماً، ولم يظهر لنا أنّ رفع الأوّل منهما كان بعد العمل به أو قبله، فلم نجزم هاهنا بأنّ أحدهما ناسخ للآخر، خصوصاً وقد خالفتها الترجمة السبعينيّة، فإنّها ذكرت الخمس وعشرين سنة في المقامين، فلا اختلاف.

---

١. سفر اللاويّين ١٨: ١٦ و٢٠: ٢١.

٢. سفر التثنية ٢٥: ٥ ـ ١١.

٣. العدد ٣٥.

٤. سفر العدد ٨: ٢٤ و٢٥.

وعلى كلّ حال فلابدّ من استمرار العمل على الخمس وعشرين سنة أو الثلاثين إلى أن نسخه داود النبيّ، وجعل الموظّف من اللاويّين لخدمة المسكن وخيمة الاجتماع يكون من ابن عشرين سنة فما فوق. ففي الثالث والعشرين من الأيّام الأوّل: هؤلاء بنولاوي حسب بيوت آبائهم رؤوس الآباء حسب إحصائهم في عدد الأسماء حسب رؤوسهم عاملوا العمل لخدمة بيت الربّ من ابن عشرين سنة فما فوق؛ لأنّ داود قال: قد أراح الربّ إله إسرائيل شعبه فسكن في أُورشليم إلى الأبد.

وليس للاويّين بعد أن يحملوا المسكن وكلّ آنية لخدمته؛ لأنّه حسب كلام داود الأخير عُدَّ بنولاوي من ابن عشرين سنة فما فوق[1]. ولست أدري ماذا يقول المتكلّف هاهنا؟

أيقول: إنّ الله جلّ شأنه وضع الحكم الأوّل محدوداً في سابق علمه بمصلحته المؤقّتة، ثمّ لمّا تجدّدت حال أُخرى ومصلحة أُخرى أعلن الله لنبيّه داود ما يناسبها من الحكم، كما ذكر في كلام داود؟ ثمّ ليقل مع ذلك: «وعلى كلّ حال فلاناسخ ولا منسوخ» كما لهج به.

أم يقول: إنّ هذا تصرّف من داود بالشريعة بغير حقّ، وقد أخطأفيه كما أخطأ في شأن أُورِيّا وامرأته، وكان هذا الخطأ منه بعد قوله في الكلمات الإلهاميّة التي هي كلام الله السميع العليم:

> حفظت طرق الربّ ولم أعصِ إلهي؛ لأنّ جميع أحكامه أمامي وفرائضه لا أحِيدُ عنها. وأكون كاملاً معه وأتَحَفَّظ من إثمي[2].

وأخطأ أيضاً بنو إسرائيل وعزرا وحَجّي وزكريّا الأنبياء إذ جروا على فعل داود وتركوا شريعة موسى، فوظّفوا للخدمة في المسكن من اللاويّين من كان ابن عشرين سنة فما فوق[3].

---

١. سفر الأيّام الأوّل ٢٣: ٢٤ ـ ٢٧.

٢. سفر صموئيل الثاني ٢٢: ٢٢ و٢٣؛ سفر المزامير ١٨: ٢١ ـ ٢٣.

٣. سفر عزرا ٣: ٨.

٩ ـ ١١. التوراة وحَزْقِيال والمُحرَقة اليوميّة

جاء في التوراة أنّ محرقة كلّ يوم خروفان حَولِيّان، أحدهما للصباح وثانيهما لما بين العشاءين. وتَقدِمَة كلّ واحد من الخروفين عُشر الإيفة من دقيق ملتوت بربع الهين من زيت، وسكيبه ربع الهين[١]. وجاء في حَزْقِيال أنّ محرقة كلّ يوم حَمَل حَوليّ يعمل صباحاً صباحاً، وتَقدِمته سُدس الإيفة دقيق، وثُلث الهِين لرشّ الدقيق[٢].

فنسخ: ١. شريعة محرقة الليل. ٢. ومقدار الدقيق. ٣. ومقدار الزيت في تَقدِمة الصباح.

١٢ ـ ١٦. وأيضاً محرقة السبت

فقد جاء في التوراة أنّها خروفان حَوليّان، وتَقدِمتها عُشران من دقيق ملتوت بزيت مع سكيبه[٣]. وجاء في حَزْقِيال أنّ محرقة السبت ستّة حُمْلان وكبش وتَقدِمتها إيفة للكبش. وهين زيت للإيفة وللحُملان عطيّة يد الرئيس[٤].

فنسخ: ١. حكم الخروفين. ٢. ومقدار التقدمة للكبش. ٣. وما يناسب الدقيق من الزيت. ٤. ورفع حكم السكيب. ٥. زاد عطيّة الرئيس في تقدمة الحُمْلان.

١٧ ـ ٢١. وأيضاً محرقة رأس الشهر

فقد جاء في التوراة أنّها ثَوران وكبش واحد وسبعة خِراف حَوليّة، وتَقدِمتها لكلّ ثور ثلاثة أعشار من دقيق ملتوت بزيت، وللكبش عُشران، ولكلّ خروف عشر. وسكائبهنّ نصف الهين من الخمر للثور، وثُلث الهِين للكبش، ورُبع الهِين للخروف. ويضاف إلى ذلك تيس من المعز ذبيحة خطيئة[٥]. وفي حَزْقِيال ثور واحد وستّة حملان

---

١. سفر العدد ٢٨: ٣ ـ ٩.
٢. سفر حَزْقِيال ٤٦: ١٣ ـ ١٦.
٣. سفر العدد ٢٨: ٩.
٤. سفر حَزْقِيال ٤٦: ٤ و٥ و١١.
٥. سفر العدد ٢٨: ١١ ـ ١٦.

وكبش، والتقدمة إيفة للثور وإيفة للكبش، وللإيفة هِين من زيت، وللحملان ما تـناله يد الرئيس[١].

فنسخ: ١. حكم الثورين والخِراف. ٢. وتَقدِمة الثور والكبش. ٣. وما يناسب الدقيق من الزيت. ٤. وحكم السكيب. ٥. وزاد عطيّة الرئيس في تَقدِمة الحُمْلان.

٢٢ ـ ٢٥. وأيضاً محرقة الفصح

وذكر التوراة لمحرقات سبعة أيّام الفصح وتقدماتها لكلّ يوم نحو ما ذكرت لمحرقات أوّل الشهر[٢]. وفي حَزْقِيال أنّ لكلّ يوم سبعة ثِيران وسبعة كِباش وتَيساً ذبيحة خطيئة. وتَقدِماتها إيفة للثور وإيفة للكبش، وهِين من زيت للإيفة[٣].

فنسخ: ١. حكم الذبائح. ٢.وتقدمتها. ٣. وما يناسبها من الزيت. ٤. وحكم السكيب.

٢٦ ـ ٢٩. وأيضاً محرقات عيد المظالّ

فذكرت التوراة فيه محرقات السبعة أيّام مختلفات العدد أكثرها في اليوم الخامس عشر من الشهر السابع. ثلاثة عشر ثوراً وكبشان وأربعة عشر خروفاً حَوليّاً مع تيس ذبيحة خطيئة. وتَقدِمتها لكلّ ثور ثلاثة أعشار من دقيق ملتوت بزيت، وعُشران لكلّ كبش، وعُشر لكلّ خروف. وينقص العدد في الأيّام فيكون في اليـوم الســابع سـبعة ثـيران وكبشين وأربعة عشر خروفاً. وتقدماتها وسكائبها على نحو ما تقدّم[٤]. وفي حَزْقِيال أنّ الرئيس يعمل في سبعة أيّام عيد المظالّ محرقة نحو ما يعمله في عيد الفصح[٥].

فنسخ: ١. حكم الذبائح. ٢.وتقدماتها. ٣.وما يناسبها من الزيت. ٤. وحكم السكيب.

وأيضاً ما هو للرئيس وما عليه وعليك تعداد ما فيه من النسخ: لم يجئ في

---

١. سفر حَزْقِيال ٤٦: ٦و٧.

٢. سفر العدد ٢٨: ١٦ ـ ٢٥.

٣. سفر حَزْقِيال ٤٥: ٢٣و٢٤.

٤. سفر العدد ٢٩: ١٢ ـ ٣٩.

٥. سفر حَزْقِيال ٤٥: ٢٥.

التوراة شريعة التَقدِمة للرئيس على إسرائيل، ولم تجعل عليه بإزاء ذلك المحرقات وتقدماتها وسكيبها في الأعياد والشهور والسبوت والمواسم، بل ذكرت التوراة أنّ هارون يأخذ من جماعة بني إسرائيل تيسين لذبيحة خطيئة وكبشاً لمحرقة[١]. وأنّ القرابين، وذبائح السلامة، وذبائح الكفّارة، وذبائح الخطيئة والإثم، وسائر التقدمات يقدمها بنو إسرائيل بأنفسهم. انظر سفر اللاويّين من أوّله إلى السادس منه.

وكان حقّ الكهنة على إسرائيل الساعد والكرش من الذبائح. والباكورات[٢] وقرابينهم، وتقدماتهم، وذبائح خطاياهم، وذبائح آثامهم، والأبكار، والباكورات[٣]. وحقّ بني لاوي على إسرائيل هي العشور[٤].

وقد جاء في حَزْقِيال ضدّ هذه الشرائع، فجعل على بني إسرائيل تقدمة للرئيس سُدس الإيفةمن حُومر الحنطة والشعير، أي سُدس العُشر من الحُومر. وبث من الزيت، أي عُشر الكرّ. وشاة واحدة من مائتين. وجعل على الرئيس بإزاء ذلك المحرقات وتَقدِماتها وسكيبها في الأعياد والشهور والسبوت وكلّ مواسم بيت إسرائيل، وهو يعمل ذبيحة الخطيئة والتَقدِمة والمحرقة وذبائح السلامة للكفّارة عن بيت إسرائيل[٥].

وعلى هذا فإن كان ما ذكرناه عن حَزْقِيال صادراً عن وحي إلهي ـ كما نسبه إلى قول السيّد الربّ ـ فلا محيص فيه عن القول بالنسخ في هذه الشرائع المختلفة المتباينة. أو يقال بأنّه من التشويش وتلاعب الأيّام الطارئ على العهد القديم، كما بنى عليه إظهار الحقّ كلامه.

ولكنّ المتكلّف لا يرضى بشيء من ذلك ويقول: «النسخ منافٍ لحكمة الله وعلمه»[٦].

---

١. سفر اللاويّين ١٦: ٥.

٢. سفر التثنية ١٨: ٣و ٤.

٣. سفر العدد ١٨: ٨ـ٢٠.

٤. سفر العدد ١٨: ٢١.

٥. سفر حَزْقِيال ٤٥: ١٧.

٦. الهداية ٤: ١٥٥.

«وكتاب الله منزّه عن الناسخ والمنسوخ»[١]. ويقول ما حاصله أنّه لمّا كان حَزْقِيال مع بني إسرائيل في سبي بابل ذكر لهم الهيكل والفرائض المقدّسة، ليؤكّد لهم أنّ المولى سيعيدهم إلى وطنهم وتشويقاً لهم إلى تلك الأوقات السعيدة. وثانياً أنّ عبارته نبويّة استعاريّة يشير بها إلى أمجاد المسيح، فأطلق الهيكل على كنيسة المسيح. وعلى كلّ حال فلا يوجد أدنى تناقض بين أقواله وسفر العدد؛ لاختلاف الموضوع؛ فإنّ حَزْقِيال لم يأت بما ينافي شريعة موسى[٢].

أقول: قد ذكرنا لك موارد المناقضة والمنافاة بين ما يذكر عن شريعة حَزْقِيال وشريعة موسى، فطابق أنت لأجل الاستيضاح ما بين الخامس والأربعين والسادس والأربعين من حَزْقِيال، وما بين شريعة التوراة وخصوص الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من العدد. وقل ما ترضاه لك حريّة ضميرك، ومجد فهمك، وشرف صدقك ومعرفتك.

وانظر إلى أنّه هل يرضى لك ذلك أن تقول: لا نسخ هاهنا ولا تناقض ولا منافاة، بل إنّ عبارة حَزْقِيال نبويّة استعاريّة تشير إلى أمجاد ملكوت المسيح، فأطلق الهيكل على كنيسة المسيح؟

أم تقول بابتداء فهمك وأوّل فطرتك: أين هذه المقامات؟ وأين الهيكل؟ وأين الكنيسة؟ بل لابدّ للكلام من معنى، وللإشارة قانون يميّزها عن الهذيان، وإنّ للكلمات نُقّاداً وللحقائق رُصّاداً، وليس كلّ الناس أبناء الحياد عن الصواب، ولا سيّما هذه الأجيال المتنوّرة.

٣٠ و ٣١. التوراة والمسيح والطلاق والتزوّج بالمطلّقة

شرعت التوراة طلاق الرجل لامرأته إذا لم تجد نعمة في عينه؛ لأنّه وجد فيها عيب شيء. وشرعت أيضاً تزوّج رجل آخر بهذه المطلّقة[٣].

---

١. المصدر: ١٨٤.

٢. المصدر ١: ٩١ و ١٧٧.

٣. سفر التثنية ٢٤: ١ـ ٤.

ونسخ الإنجيل هذا الحكم بقوله عن المسيح: «من طلّق امرأته إلّا لعلّة الزنى يجعلها تزني، ومن يتزوّج مطلّقة فإنّه يزني»[١].

وقد حاول المتكلّف في تبديل الإنجيل لشريعة التوراة في الطلاق والتزوّج بالمطلّقة أن يجعله من قسم التخصيص المصطلح، لا من قسم النسخ[٢]. فأطال وحرّف وخلّط ؛ فراجعه.

وهذا إمّا من عدم الوصول إلى الفارق المعنوي المميّز بين التخصيص والنسخ، وإمّا من الفرار إلى التمويه والمغالطات.

فاعلم أنّ التخصيص في الاصطلاح هو أن يأتي المتكلّم في خطابه بلفظ عامّ، ولكنّه لا يريد منه العموم لجميع أفراده بل يريد بعضها، وحينئذٍ يلزمه في قانون التفهيم وصحّة الخطاب أن يأتي على وفق مراده من العامّ بالمخصِّص المتّصِل أو المنفصل، ليكون بياناً للمراد قبل أن يحضر وقت العمل من المخاطب، فينكشف بالمخصِّص ويتبيّن مقدارُ ما أراده من العامّ في أوّل الأمر وحين الخطاب.

مثاله أن يقول المتكلّم: أكرم الكتّاب وهو يريد من عموم الكتّاب من لم تكن عادتهُ التمويهات ومزخرفات الأباطيل، فعليه في قانون البيان أن يقول متّصلاً أو منفصلاً قبل حضور وقت الإكرام المأمور به: لا تكرم كتّاب التمويهات والأباطيل.

فالتخصيص المصطلح هو البيان لإرادة البعض من أفراد العامّ في أوّل الخطاب.

وأمّا إذا تأخّر ورود الخاصّ عن وقت العمل بالعامّ، واستمرّ العامّ على عمومه مئات من السنين، وصحّ العمل بجميع أفراده اعتماداً على عموم لفظه في هذه المدّة، كما في شريعة التوراة في الطلاق، فليس ذلك من التخصيص المصطلح، بل إنّما هو نسخ ورفع للحكم عن بعض أفراد العامّ بعد إرادة المتكلّم لعمومه. فإنّه لو لم يرد عمومه على طبق اللفظ، لوجب عليه في الحكمة أن يبيّن مقدار مراده من أفراد العامّ قبل حضور وقت العمل، ولا يؤخّره عن ذلك؛ فإنّه يكون بهذا التأخير مُغرِياً بالجهل مقصّراً في بيان

---

١. إنجيل متّى ٥: ٣٢ و١٩: ١٩؛ إنجيل مرقس ١٠: ١١ و ٢٢؛ إنجيل لوقا ١٦: ١٨.

٢. انظر الهداية ٤: ١٧٠ و ١٧١.

المراد عندالحاجة إلى البيان، ولا شكّ في قبح ذلك في حكمة الكلام وصواب المحاورات.

فيكشف ورود الخاصّ قبل وقت العمل عن إرادة بعض أفراد العامّ حين الخطاب، وهو معنى التخصيص المصطلح.

ويكشف تأخّر الخاصّ عن وقت العمل عن أنّ العموم مراد من حين الخطاب إلى حين مجيء الخاصّ، فيكون الخاصّ رافعاً لحكم العامّ المراد على عمومه. وهذا من حقيقة النسخ الذي كشفنا عن معناه في أوّل المقدّمة. فإن صحّ، صحّ النسخ بجميع أقسامه، ولو كان النسخ باطلاً، لكان هذا باطلاً أيضاً؛ لأنّ الجهة فيهما واحدة، وهي رفع الحكم الثابت والشريعة السابقة.

ولا يخفى أنّ حكم التوراة في الطلاق عامّ لكلّ عيب في المرأة حتّى عيب سوء الخُلُق والخِلقة، ولم يبيّن تخصيصه في التوراة ولا من موسى بعيب الزنى، بل عمل بنوإسرائيل بالعموم وصاروا يطلّقون من لم تجد نعمةً في أعينهم لكلّ عيب إلى زمان المسيح. كما يشهد بذلك الإنجيل الرائج في نقله لكلام المعترضين على المسيح في أمر الطلاق، وإقرار المسيح لاعتراضهم، وجوابه بأنّ موسى جوّز لهم ذلك من أجل قساوة قلوبهم[١]. وهذا هو النسخ.

فإن فرَّ المتكلّف من تسميته نسخاً، واقترح الخلط في الاصطلاح بتسميته تخصيصاً، جاريناه وقلنا: إنّ محلّ كلامنا هذا النحو من التخصيص.

ومن الظرائف المؤنسة أنّ المتكلّف قد نسي موضوع الكلام في هذا المقام وهو الطلاق فعقّبه كالمستنتج بقوله:

> وقد أقام المسيح دليلاً مقنعاً باهراً على أنّ المولى سبحانه وتعالى خلق لآدم حوّاء، ولو كان تعدّد الزوجات جائزاً لخلق له امرأتين. ولكنّ المولى سبحانه وتعالى هو العليم الحكيم يضع كلّ شيء في محلّه ويعرف ما يكون سبباً في عمار البيوت وما يعجّل بخرابها. غير أنّ الإنسان زاغ عن شريعة الله لفساده وانحرافه وقسوته وتكبّره وإعجابه بنفسه.

---

١. إنجيل متّى ١٩: ١ ـ ٩؛ إنجيل مرقس ١٠: ٢ ـ ٦.

فنقول أوّلاً: ما ربط هذا الكلام بمسألة الطلاق ونسخه؟ وأيّ تعلّق له بما قبله من الكلام؟

وثانياً: ما ربطه بالاحتجاج المنسوب إلى المسيح؟ فإنّه ـ مع ما ذكرنا فيه من الوهن ـ مسوق لعدم التفريق بين الرجل وامرأته[1].

وثالثاً: إنّ هذا النحو من الاحتجاج يبطل عليهم مشروعيّة رهبانيّتهم وترك الزواج. فيقال لهم: لو كانت الرهبانيّة وترك الزواج جائزاً، لما خلق الله لآدم زوجة، ولكنّ الله هو العليم يعلم ما يكون سبباً في تناسل البشر وحفظ النوع، غير أنّ الإنسان يبتدع ما لم ينزّل الله به من سلطان.

ورابعاً: إنّ هذا الاحتجاج من المتكلّف إنّما تكون له صورة غير قبيحة إذا قلنا بوجوب تعدّد الزوجات عقلاً وفي كلّ شريعة. وأمّا إذا قلنا بالجواز فلا يصلح هذا الاحتجاج حتّى للمغالطة، إذ نقول: إنّ الله اختار لآدم أحد الأمرين الجائزين، بل لابدّ أن يكون على أحد الأمرين الجائزين على كلّ حال.

وخامساً: قد قلنا في هذا الاحتجاج المقنع الباهر: يقتضي أنّه لا يجوز لبس الثياب؛ لأنّ الله خلق آدم وحوّاء عريانين وبقيا على ذلك مدّة من الزمان، فلو كان لبس الثياب جائزاً، لخلق لهما ثياباً من أوّل الأمر، ولكنّه لم يكن من البدء هكذا.

فإن قلت: إنّ الله قد صنع لهما بعد ذلك أقمصة من جلد.

قلتُ: وقد شرّع الله لموسى شريعة الطلاق، وبقيت هذه الشريعة باعتراف المتكلّف نحو ألف وخمسمائة سنة، والكلّ من الله، وفي الكلّ لم يكن من البدء هكذا.

وأمّا قوله: «ولكنّ المولى هو العليم الحكيم يضع كلّ شيء في محلّه» إلى آخره، فأمر المتكلّف دائر فيه بين أمرين:

إمّا أنّه لا يبالي بما يقول، ولا دراية له لا من العهد القديم ولا من أهل العلم بأنّ تعدّد الزوجات كان جائزاً قبل المسيح في الشريعة، وعلى جوازه نصّت التوراة. سامحناه

---

١. انظر إنجيل متّى ١٩: ٤ ـ ٧.

فيما فعله إبراهيم ويعقوب، لزعمه الفاسد أنّه لم تكن قبل موسى شريعة. ولا نقول له: إنّ جدعون النبيّ بدلالة تكرّر كلام الله معه ـ كما في السادس والسابع من القضاة ـ قد كانت له نساء كثيرات[١]. وكذا داود النبيّ وسليمان النبيّ، لأنّا قد ألِفنا من أدب المتكلّف أن يقول: إنّ هؤلاء فعلوا خلاف الشريعة، وأخطؤوا وتابوا فعاقبهم المولى.

ولكنّا نقول له: إنّ التوراة صريحة في جواز تعدّد الزوجات[٢]. فكيف وضع الله هذه الشريعة، أتراه يريد أن يخرّب بيوت شعبه وأبنائه، بل ابنه البكر؟[٣]

وإمّا أن يكون المتكلّف يعرف ذلك من التوراة والعهد القديم ولكنّه ـ كما يظهر من أواخر كلامه هاهنا ـ قد نخسه ما ينقل من عقيدة ماني كيز وأصحابه حيث يقولون: إنّ الذي أعطى موسى التوراة وكلّم الأنبياء الإسرائيليّة ليس بإله بل شيطان من الشياطين، أو الإله الثاني خالق الشرّ. نقله إظهار الحقّ في الجزء الثاني عن تأريخ بل وتفسير لاردنر[٤].

أو أنّه أخذ ذلك ممّا عن قول بولس: فإنّه يصير إبطال الوصيّة السابقة من أجل ضَعفِها وعدم نفعها[٥]؛ فإنّه لو كان الأوّل بلاعيب، لما وُجِد موضع لثانٍ[٦].

أو من القول المنسوب للمسيح: «الحقَّ الحقَّ أقول لكم إنّي أنا باب الخراف. جميع الذين جاؤوا قبلي هم سُرّاق ولصوص»[٧].

أو ممّا نقله وارد كاتلك عن كتاب للوطر من قوله: «نحن لا نسلّم موسى ولا توراته؛ لأنّه عدوّ عيسى». وقوله: «إنّه أُستاذ الجلّادين». انظر إلى الوجه الحادي عشر من الفصل الرابع من الباب الأوّل من إظهار الحقّ[٨]. أو قول سايل والرسالة المنسوبة لعبد

---

١. سفر القضاة ٨: ٣٠.

٢. انظر سفر التثنية ٢١: ١٥ـ١٨.

٣. سفر الخروج ٤: ٢٢ و٢٣؛ سفر إرميا ٣١: ٩.

٤. إظهار الحقّ ٣: ٩٢٧.

٥. رسالة بولس إلى العبرانيّين ٧: ١٨.

٦. رسالة بولس إلى العبرانيّين ٨: ٧.

٧. إنجيل يوحنّا ١٠: ٧و٨.

٨. إظهار الحقّ ٢: ٣٦٨.

المسيح الكندي: «إنّ الله تساهل مع اليهود فأعطاهم أحكاماً غير صالحة وفرائض لايحيون بها».

ثمّ من ذا الذي عناه بقوله: «غير أنّ الإنسان زاغ عن شريعة الله» إلى آخر كلامه؟ أتراه يعني موسى النبيّ في شريعة تعدّد الزوجات؟ أم جدعون وداود وسليمان الأنبياء؟ أم جميع الناس من يعقوب ومن قبله ومن بعده من بني إسرائيل أو أنبيائهم إلى زمان تحريمه في النصرانيّة؟

وأمّا ادّعاؤه خراب البيوت بتعدّد الزوجات، فباطل بالوجدان؛ لما نرى عليه المسلمين منذ أربعة عشر قرناً. بل إذا أُعطيت الحكمة حقّها من التدبّر دلّت بأوضح دلالة على أنّ الله ـ الرؤوف الرحيم، العليم الحكيم ـ لم يكن ليخلق النساء أكثر من الرجال بأضعاف كما يشهد به الإحصاء، ثمّ يشرّع في أمرهنّ شريعة توجب حرمان أكثرهنّ عن قضاء الوطر من الشهوة المقلقة التي أودعها الله فيهنّ، ويسبّب بشريعته تعطيلهنّ عن فائدة التناسل التي جعل فيهنّ قابليّتها، مع أنّها أشرف الفوائد وأحبّها إلى الإنسان. فيبقين بمقتضى الشريعة في نكد عيش العزوبة والتَرَمُّل، حتّى يترتّب على ذلك ما يترتّب من العواقب الذميمة، انظر إلى حوادث البشر، ولولا محذور سوء القالة، لأشرنا إلى جملة منها. ولم يكن الله ليعطِّل الرجال عن بركة التناسل إذا عقمت نساؤهم، أو يئسن من المحيض، أومرضن مرضاً مزمناً.

٣٢. الحلف

لم تمنع التوراة من الحلف والقسم. بل أمرت بعدم نقضه[١]. وقد منع الإنجيل منه بالكلّيّة[٢].

٣٣ و٣٤. القصاص والسياسة

وقد شرّعتها التوراة ونهت عن الإشفاق فيها[٣].

---

١. سفر العدد ٣٠: ٢.

٢. إنجيل متّى ٥: ٣٣ ـ ٣٨.

٣. سفر الخروج ٢١: ٢٣ ـ ٢٥؛ سفر اللاويّين ٢٤: ١٩ و٢٠؛ سفر التثنية ١٩: ٢١.

٣٥ و٣٦. الدفاع والمطالبة بالأموال

وشرّعت التوراة دفاع السارق ولو بقتله، والمطالبة بالأموال وغراماتها والمحاكمة فيها. انظر إلى الثاني والعشرين من الخروج. ونهى الإنجيل الرائج عن القصاص والسياسة والدفاع والمطالبة بالأموال، وجعل ذلك من مقاومة الشرّ بالشرّ[1].

٣٧. الصَّوم في العهدين

وقد كثر في العهد القديم ذكره والتقرّب والتضرّع به إلى الله[2]. وكذا في العهد الجديد[3]، وكان تلاميذ يوحنّا المعمدان يكثرون منه. وقد أبطله نقل الإنجيل عن المسيح وألغاه عن تلاميذه مادام موجوداً فيهم، وضرب الأمثال لعدم مناسبته[4].

٣٨. الإنجيل والإنجيل بشارة الرسل

في الإنجيل أنّ المسيح أوصى تلاميذه في أوّل الأمر حين أرسلهم للتبشير بقوله:

> إلى طريق أُمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريّين لا تدخلوا. بل اذهبوا بالحَرِيّ إلى خِراف إسرائيل الضالّة[5].

ويؤيّد هذا الحكم وظهوره في الدوام ما عن قول المسيح: «لم أُرسل إلّا إلى خراف بيت إسرائيل الضالّة». ثمّ نسخ هذا الحكم ورفعه بما عن قوله للتلاميذ أيضاً:

> فاذهبوا وتَلْمِذُوا جميع الأُمم وعَمِّدُوهم باسم الأب والابن والروح القدس. وعلّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتُكم به[6].

---

١. إنجيل متّى ٥: ٣٨ـ٤٢؛ إنجيل لوقا ٦: ٢٩.

٢. سفر القضاة ٢٠: ٢٦؛ مراثي إرْميا ٣٥: ١٣؛ سفر إشَعْياء ٥٨: ٣ـ٧؛ سفر زكريّا ٧: ٥و٦، وغير ذلك.

٣. إنجيل متّى ٤: ٢.

٤. انظر إنجيل متّى ٩: ١٤ـ١٨؛ إنجيل مرقس ٢: ١٨ـ٢٣؛ إنجيل لوقا ٥: ٣٣ـ٣٩.

٥. إنجيل متّى ١٠: ٥و٦.

٦. إنجيل متّى ٢٨: ١٩و٢٠.

وقوله أيضاً: «اذهبوا إلى العالم أجمع وأكْرِزُوا بالإنجيل للخُليقةِ كلّها»[١].

تنبيه: جاء في الإنجيل أنّ المسيح أمضى شريعة موسى على متّبعيه، وثبّتها وأمر باتّباعها بقوله للجموع وتلاميذه: «على كرسيّ موسى جلس الكَتَبَةُ والفرّيسيّون، فكلّ ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه»[٢]. ومقتضى إنجيل متّى أنّ هذا الكلام كان في أُورشليم قبل الفِصْح الذي جرت فيه حادثة الصليب بيومين[٣]. فيكون في أواخر أيّام المسيح على الأرض. وبناءً عليه تكون شريعة التوراة شريعة المسيح باعتبار هذا الإمضاء والتثبيت والأمر بالاتّباع لها، فكلّ نسخ جاء بعد هذا من الرسل لشريعة التوراة يرجع في الحقيقة إلى نسخ شريعة موسى والمسيح.

٣٩. التوراة والرسل والختان

وهو شريعة الله لإبراهيم وذرّيّته ومتّبعيه وعلامة عهده معهم[٤]. وشريعة موسى[٥]. وقد جعله شرطاً في جواز الأكل من الفصح[٦]. وقد استمرّت هذه الشريعة إلى أن خُتِن بها المسيح[٧]. وبقيت مستمرّة مادام في الأرض، وبعد ذلك مدّة في زمان الرسل، ثمّ نسخه الرسل ورفعوا وجوبه عن المؤمنين من الأُمم في ضمن ما رفعوه في المشورة بينهم[٨]. ثمّ نسخه بولس ورفعه رفعاً كلّياً[٩].

---

١. إنجيل مرقس ١٦: ١٥.
٢. إنجيل متّى ٢٣: ٢ ـ ٣.
٣. انظر إنجيل متّى ٢٣ ـ ٢٦.
٤. سفر التكوين ١٧: ٩ ـ ١٥.
٥. سفر اللاويّين ١٢: ٣.
٦. سفر الخروج ١٢: ٤٣ ـ ٤٩.
٧. إنجيل لوقا ٢: ٢١.
٨. انظر أعمال الرسل ١٥: ٦ ـ ١٠.
٩. انظر رسالة بولس إلى أهل روميّة ٣: ١و٣٠ و ٤: ١٠ ـ ١٣، ورسالة بولس الأُولى إلى أهل كورنثوس ٧: ١٨ ـ ٢٠؛ رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٦: ١٥.

وقد أطال المتكلّف في كلامه في هذا المقام، ولم يأت فيه إلّا بتناقض أطرافه وسوء الحياد عن الجواب[١].

قلنا: أيّها الكاتب إنّ الختان الذي كان واجباً في شريعة إبراهيم وشريعة موسى إلى شطر من أيّام الرسل:

إمّا أن تقول فيه: إنّ وجوبه مختصّ بذرّيّة إبراهيم، وإنّ شريعة التوراة لا تعمّ غير بني إسرائيل. ونسامحك عمّا في هذه الدعوى من مخالفة العهدين.

وإمّا أن تقول بأنّ شريعته عامّة لكلّ الناس، وأنّه علامة عهد الإيمان بين الله وبين المؤمنين.

وعلى كلّ تقدير فقل: هل هو إلى الآن واجب على نحو وجوبه الأوّل، وأنّ الرسل لم يتعرّضوا لرفع وجوبه بوجه من الوجوه، وغاية ما بيّنوا أنّه لا يخلّص بدون الإيمان؟

أو تقول: إنّه الآن ومن زمان مشورة الرسل في شأنه غير واجب بوجوب شريعته السابقة، بل رفع ثقله؛ لأنّه كان رمزاً إلى المعموديّة، والمعموديّة تشير إلى الغسل بدم المسيح، وقد انقضى زمان الرمز وجاء زمان الخلاص المرموز إليه.

أجب بأحد الأمرين ثمّ اعرف أين تقول: فلا ناسخ ولامنسوخ؟

عبد المسيح الكندي: ومن الظرائف المؤنسة أنّه قد ظهرت في القرون المتأخّرة رسالة نصرانيّة تنسب لعبد المسيح الكندي، وأنّه كان في زمان بني العبّاس. ومن جملة ما فيها قوله:

> إنّ الله جلّ اسمه لمّا كان مزمعاً أن يُدخِل بني إسرائيل الذين هم ولد إبراهيم إلى أرض مصر، ولم يزل عالماً أنّ الشره سوف يحملهم على ارتكاب الفواحش التي حرّمها عليهم ونجّس أهلها، جعل هذا سبباً لمن أراد ارتكاب الفاحشة من امرأة مصريّة نظرت إلى هذه العلامة التي في جسده وهي الختان، فامتنعت ولم تؤاته، فوسمهم الله بهذه السمة لهذه العلّة.

---

١. انظر الهداية ٤: ١٧٥ و١٧٦.

أقول: وغرضه من هذا الكلام هو أن يعتذر عن تركهم للختان بمجرّد المشورة في رفعه مصانعة للأُمم، مع أنّه عهد الله الذي يحفظ في الأجيال، وعلامة العهد بينه وبين المؤمنين. والذي لا يختتن يقطع من شعبه؛ لأنّه نكث عهد الله[١] وشريعة موسى وشرط في عمل الفِصح والأكل منه، كما أشرنا إليه.

ولكنّ هذا الرجل لو لم يعتذر، لكان خيراً لأدبه مع أنبياء العهدين، ولاعتذاره مثل مشهور في الشعر، فإنّه حاول أن يتخلّص من اللوم بكذبة ينسب فيها أنبياء العهدين إلى غاية الجهل بالحقائق وأسرار الأحكام من يوشع النبيّ إلى رسل العهد الجديد، ويكون هو أعرف منهم بوجوه الأحكام وحقائق الشريعة.

وإذ عرف المجيب هذه العلّة فليقل: لماذا جاء في كتب إلهامهم أنّ الله أمر يوشع أن يختن بني إسرائيل من ابن أربعين سنة فمادون، فحمّلهم هذا الأذى الشديد وعرّضهم لفتك العدوّ بهم قبل ما يبرؤون من جراحة الختان، وقال بختانهم: اليوم دَحْرَجْتُ عنكم عار مصر، وهي غُرلَة الشرك. هذا كلّه وقد مضى لهم من خروجهم من مصر أربعون سنة؟[٢].

ولماذا لم يتنبّه باقي أنبياء بني إسرائيل إلى هذه العلّة في الختان ليرفعوه؟ ولماذا لم يخبرهم الروح القدس بذلك؟ ولماذا لم يرفعه المسيح لهذه العلّة، ويحتجّ بها لرفعه كما احتجّ للنهي عن الطلاق، مع أنّ صورة الاحتجاج بها أوجه من صورة حجّة الطلاق الواهية، كما عرفت؟

وأيضاً لماذا أمر التلاميذ والجموع بحفظ ما يقوله الكَتَبَة والعمل به؛ لأنّهم جلسوا على كرسيّ موسى، مع أنّه يعلم أنّهم يشدّدون في وجوب الختان؟ ولماذا لم يرفعه الرسل لأجل هذه العلّة بل أبقوا شريعته بعد المسيح مدّة تزيد على خمس عشرة سنة؟ ولماذا لمّا أرادوا رفعه عن الأُمم مصانعة بالتخفيف عنهم، لم يحتجّوا لرفعه بهذه العلّة، بل تشبّثوا لرفعه بمجرّد استحسانهم للتخفيف عن الأُمم ورفع الثقل عنهم؟ انظر خامس عشر الأعمال بتمامه.

---

١. سفر التكوين ١٧: ٩ ـ ١٥.

٢. انظر سفر يشوع ٥: ٢ ـ ١٠.

وأيضاً صرّح العهد الجديد عن قول بولس: «إنّ إبراهيم أخذ علامة الختان ختماً لبِرّ الإيمان الذي كان في الغُرْلة»[١]. ولم يعلّله بولس بما ذكره هذا الرجل تمويهاً من دون تدبّر.

وأيضاً لماذا لم يحتجّ بولس بهذه العلّة، مع أنّه لهج في كتبه برفعه وتقلّب في وجوه الاحتجاج لذلك؟

هذا، وإنّي أُحاشي الحواريّين من التعرّض لرفع الختان، وإنّما هو ممّن حاول أن يستجلب الأُمم إلى رئاسته ولو بهدم الشريعة، وإنّما نسبته لهم جدلاً لمن ينسبه لهم. ويتّضح ممّا ذكرنا أنّ هذا الرجل يدّعي معرفة بشيء جهله الأنبياء والمسيح ورسل العهد الجديد.

وإذا اتّضح ما ذكرنا فإنّي أرجو رجاء ناصح من عموم النصارى، وخصوص المقلّدين لأكابرهم، أن لا يقبلوا قول أكابرهم حتّى يفحصوا عنه، ولا أقلّ من مطابقته مع [كتب] العهدين التي هي كتب إلهام عندهم. فإنّي على يقين بأنّ العهدين على ما فيهما مباينان لأكثر أقوال الأكابر، مبطلان لأكثر حججهم ودعاويهم. ولا يخفى على عاقل أنّ الله جلّ شأنه لا يقبل من العباد عذرهم عن ضلالهم بقولهم: أطعنا ساداتنا وكبراءنا، واعتمدنا على أقوالهم في الدين والإيمان. كيف وقد اتّضح بفضل الله مصادمة أقوال الأكابر لكتب العهدين التي هي دستور ديانتهم، كما عرفته وتعرفه إن شاء الله من متفرّقات هذا الكتاب؛ فإنّ تقدّم الناس في الطبيعيّات والرياضيّات والصنائع لَيُبَشِّرهم بالتقدّم في معرفة حقائق الدين وأُصول معارفه، إذا نظروا وبحثوا في جميع مقدّماتها ولم يعتمدوا على قول فلان وفلان، والمجمع الفلاني، والمصلح الفلاني. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

فليعتبر ذو الرشد بأقوال المتكلّف في كتابه، وأنّه كيف كان يراها قبل أن يطّلع على هذا الكتاب الذي خدمنا به الحقّ وطالبيه؟ أفلم يكن يراها ببادي نظره واضحة

---

١. رسالة بولس إلى أهل روميّة ٤: ١١.

٢. العنكبوت (٢٩): ٦٩.

الصواب قويّة الحجّة سديدة الشواهد؟ وإنّي أسأله بفضيلة الصدق، كيف يراها بعد ما اطّلع على كتابنا، مع أنّي لم أستقص ذكر ما فيها، أفلم يحصل له الشكّ في صوابها أقلاًّ؟

اللهمّ أنعم على عبادك بهداك، وخذ بأيديهم بتوفيقك إلى الصراط المستقيم، إنّك أرحم الراحمين.

٤٠. الحيوانات النجسة والمحرّم أكلها

لا يخفى أنّ التوراة قد حرّمت لحوم كثير من الحيوانات، وصرّحت بنجاستها ونجاسة حيواناتها. انظر إلى الحادي عشر من اللاويّين، والرابع عشر من التثنية. وقد سبق شيء من ذلك في شريعة نوح، بمقتضى نقل التوراة إجمالاً[١]. وقد أُبيحت هذه المحرّمات وحكم بطهارتها في العهد الجديد بما عن بطرس[٢]. واتّفاق الرسل[٣]. وعن بولس[٤].

وقد أورد المتكلّف في مكابرته لإظهار الحقّ هاهنا كلاماً طويلاً، لم يفز فيه حتّى بحسن الأدب[٥].

وإنّ لسان الحال من إظهار الحقّ[٦] ليقول له: أيّها الكاتب المنصف البصير إنّي أقول: إنّ الحيوانات التي نجّستها التوراة وحرّمت لحمها، قد طهّرها العهد الجديد حكايةً عن رسله وأباح أكل لحمها، فنسخ حكم التوراة وبدّله بحكم مخالف له. وأنت تقول: إنّ العهد الجديد صادر عن وحي الله إلى الرسل، وإنّ أحكامه أحكام الله، وكذا التوراة، فلا محيص لك عن القول بالنسخ في الأحكام الإلهيّة.

---

١. سفر التكوين ٨: ٢٠.
٢. أعمال الرسل ١٠: ١١ ـ ١٧.
٣. أعمال الرسل ١٥: ٢٨ و٢٩.
٤. رسالة بولس إلى أهل روميّة ١٤: ١٤ و٢٠؛ رسالة بولس إلى تيطس ١: ١٥؛ رسالة بولس الأُولى إلى تيموثاوس ٤: ٤.
٥. انظر الهداية ٤: ١٧١ ـ ١٧٣.
٦. إظهار الحقّ ٣: ٦٦٠ ـ ٦٦١.

وليس من جوابي أن تقول: تعصُّب أعمى، موسوسين، جوهر الدين، سلام، فرح، محبّة، خرافات، ضلال.

بل الجواب:

إمَّا أن تقول بأنّ التنجيس وتحريم الأكل اللذين في شريعة التوراة هما حكم الله لمصلحة أولا لمصلحة، ثمّ رفعه الله في العهد الجديد وبدّله على لسان رسله بالإباحة والطهارة، لأجل طهارة المؤمنين بالمسيح وبرّهم، وخلاصهم ببركة سرّ الفداء وذبيحة الفادي الكريم وتعليقه على الخشبة، أو ما تشتهي من الأسباب. ونسمح لك بأن لا تسمِّي هذا نسخاً بل سمِّه بما تشتهي إذا كان المعنى محفوظاً.

وإمّا أن تقول بمحضر أصحابك المنصفين، لا بمحضر غيرهم من المتعصِّبين: إنّ الحيوانات التي نجّستها التوراة وحرّمت أكل لحمها، لم يُبدَّل حكمها في العهد الجديد بالطهارة والإباحة، ولا يدلّ كلام الرسل ولا كلام بولس على شيء من ذلك. بل إنّ حكمها المذكور في التوراة باق على حاله لم يرفع ولم يبدّل.

فإن ردّوا عليك وقالوا لك: إذاً فمن أين جاءت الإباحة العامّة والطهارة العامّة في الديانة النصرانيّة الرائجة بين جميع النصارى في أجيالهم؟ فتنبّه من غفلتك، وأعد النظر في كلّ ما قلته في كتابك، وأَنِب إلى الحقّ. وإن اتّفقوا على تصديقك، فقل فيما بينهم متحمِّساً بملء فمك، متناسياً لما قدّمناه من أمثلة النسخ، كما كتبته في كتابك:

> إنّ الديانة الصحيحة منزّهة عن وصمة النسخ، وإنّ الله العالم بالظاهر والباطن وأميال الناس وأحوالهم، أنزل كتابه المقدّس منزّهاً عن الناسخ والمنسوخ[1].

ثمّ اضرب ما تشتهي من الأمثال، وألهج في مجلسك بقولك: «وعلى كلّ حال فلاناسخ ولا منسوخ».

نعم، لا تقل ذلك بمحضر المتعصِّبين المطّلعين على العهد الجديد، الذين يعطون الكلام حقَّه في أخذ معانيه على النهج العقلائي في المحاورات، خصوصاً الكلام المنسوب إلى الإلهام، ولا يجعلون صريحه رموزاً جزافيّة على مقتضى شهواتهم؛ فإنّهم

---

١. الهداية ٤: ١٥٦ و١٥٧.

يحضرون لك من العهد الجديد نسخاً عديدة من تراجمكم ومطابعكم، ويرونك ويُقرِؤونك ما في حادي عشر الأعمال عن وحي بطرس:

أنا كنت في مدينة يافا أُصلّي فرأيت في غيبةٍ رؤيا إناءً نازلاً مثل مُلاءة عظيمة مُدَلّاة بأربعة أطراف من السماء فأتى إليّ، فتفرّست فيه متأمّلاً فرأيت دوابّ الأرضِ والوحوشَ والزحّافات وطيور السماء. وسمعت صوتاً قائلاً لي: قم يا بطرس اذبح وَ كُل. فقلت: كلّا يا ربّ؛ لأنّه لم يدخل في فمي قطّ دَنِس أو نَجِس، فأجابني صوت ثانياً من السماء: ما طهّره الله لا تنجّسه أنت. وكان هذا على ثلاث مرّات[١].

وفي خامس عشر الأعمال عن حكم الرسل وكتابتهم بعد الاجتماع والمشورة:

لأنّه قد رأى الروح القدس ونحن أن لا نضع عليكم ثقلاً أكثر غير هذه الأشياء الواجبة. أن تمتنعوا عمّا ذُبح للأصنام وعن الدم والمخنوق والزنى[٢].

وعن بولس في رابع عشر روميّة:

إنّي عالم ومتيقّن في الربّ يسوع أن ليس شيء نجساً لذاته إلّا من يحسب شيئاً نجساً فله هو نجس... كلّ الأشياء طاهرة[٣].

وفي رابع تيموثاوس، الأُولى: «لأنَّ كلّ خليقة الله جيّدة، ولا يرفض شيء إذا أُخذ مع الشكر؛ لأنّه يقدّس بكلمة الله والصلاة»[٤].

وفي أوّل تيطس:

لا يصغون إلى خرافات يهوديّة، ووصايا أُناس مرتدّين عن الحقّ. كلّ شيء طاهر للطاهرين، وأمّا للنجسين وغير المؤمنين فليس شيء طاهراً، بل قد تنجّس ذهنهم أيضاً وضميرهم[٥].

---

١. أعمال الرسل ١١: ٥ ـ ١٠.

٢. أعمال الرسل ١٥: ٢٨ و ٢٩.

٣. رسالة بولس إلى أهل روميّة ١٤: ١٤ ـ ٢٠.

٤. رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس ٤: ٤ و ٥.

٥. رسالة بولس إلى تيطس ١: ١٤ و ١٥.

أفتقول بعد هذا: «وعلى كلّ حال فلاناسخ ولا منسوخ»؟

إلّا أن ينقدح في ضميرك شيء من هذا المنقول عن الرسل، لأجل تعاضد ظهوره في التنديد بالشريعة السابقة وتبكيتها على حكمها بالتحريم والتنجيس، كما يعطيه قولهم:

ما طهّره الله فلا تنجّسه أنت. ليس شيء نجساً بذاته. كلّ الأشياء طاهرة. كلّ خَلِيقة الله جيّدة. لايُصغُون إلى خرافات يهوديّة. إلى آخره.

وفي ثاني كولوسي:

إذاً إن كنتم قد مُتّم مع المسيح عن أركان العالم، فلماذا كأنّكم عائشون في العالم تُفرَض عليكم فرائض. لاتَمَسَّ، لا تَذُقْ، ولا تَجُسَّ. التي هي جميعها للفناء في الاستعمال حسب وصايا وتعليم الناس[١].

وسيأتي إن شاء الله ما يشبه هذا.

٤١ و٤٢. الذبائح وأحكام الكهنة

ذكرت التوراة أحكاماً كثيرة في الذبائح والمحرقات وأحكام الكهنة هارون وبنيه في أجيالهم. انظر إلى الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من سفر الخروج، وإلى سفر اللاويّين بتمامه. وقد رفعت هذه الأحكام كلّها وبدّلت بمقتضى المكتوب في العهد الجديد عن الرسل. انظر أقلّاً من السابع إلى نهاية العاشر من رسالة العبرانيّين.

ولقد شذَّ الكلام هاهنا بالمتكلّف[٢]. وكان الذي عليه أن يجيب بإحدى كلمتين: إمّا أن يقول: إنّ الأحكام المشار إليها لم ترفع، بل هي باقية في شريعة الحقّ على ما كانت عليه إلى الآن. و إمّا أن يقول: إنّها رفعت من زمان الرسل، كما يقول العهد الجديد، لأجل حصول الغاية التي كانت تلك الأحكام ترمز وتشير إليها.

ودعه يقول بعد هذا: «فلاناسخ ولا منسوخ في كتب الله».

---

١. رسالة بولس إلى أهل كولوسي ٢: ٢٠ ـ ٢٢.

٢. انظر الهداية ٤: ١٧٧ ـ ١٨١.

٤٣ . السبت والأحد والسابع والأوّل

لا يخفى أنّ يوم الأحد هو اليوم الأوّل من الأُسبوع، كما يشهد به اسمه[١]. ويوم السبت هو اليوم السابع من الأُسبوع، وهو الذي استمرّ من لم يرتدّ إلى الوثنيّة من بني إسرائيل على تعظيمه وتقديسه والاستراحة فيه، حسب الوصيّة من عهد موسى إلى الوقت الحاضر. وكذا المؤمنون بالمسيح وخواصّه إلى حادثة الصليب[٢]. ولم يذكر أنّ المسيح أبطله، وإنّما عارضه اليهود إذ شفى فيه المرضى فجعلوا ذلك منه نقضاً للسبت. وقد أخطؤوا ولم يتدبّروا أنّ مثل هذا لا يعدّ من الأعمال المحرّمة في السبت، ولا يكون نقضاً له، ولذا احتجّ عليهم المسيح بذلك[٣].

نعم، نقض النصارى حكمه المؤكَّد في مواضع كثيرة من التوراة. وصرّح بنسخ حكمه ورفعه ما عن بولس في ثاني كولوسي: «فلا يحكم عليكم أحد في أكل ولا شرب أو من جهة عيد أو هلال أو سبت»[٤]. وفي رابع غلاطية في صرف أنظار الغلاطيّين عن الناموس، بعد أن ذكر في الثالث ما ذكر، قال:

> وأمّا الآن إذ عرفتم الله بل بالحَرِيّ عُرِفْتُم مِن الله، فكيف ترجعون أيضاً إلى الأركان الضعيفة الفقيرة التي تريدون أن تستعبدوا لها من جديد. أتحفظون أيّاماً وشهوراً وأوقاتاً وسنين. أخاف عليكم أن أكونَ قد تَعِبتُ فيكم عَبَثاً[٥].

وقد أطال المتكلّف هاهنا[٦]، وحاصل ما عنده أنّ الله يطلب من الإنسان سُبْعَ وقته. وأنّ معنى السبت الراحة، وهو ينطبق على أوّل الأُسبوع كما ينطبق على سابعه، وقد تخصَّص يوم السبت بيوم قيامة المسيح وهو يوم الأحد. ومعنى الوصيّة السابقة في

---

١. وانظر إنجيل متّى ٢٨: ١؛ إنجيل مرقس ١٦: ٢و٩؛ إنجيل لوقا ٢٤: ١؛ إنجيل يوحنّا ٢٠: ١و١٩.
٢. انظر إنجيل لوقا ٢٣: ٥٦.
٣. انظر إنجيل متّى ١٢: ٣و١١و١٢؛ إنجيل لوقا ١٣: ١٥و١٦.
٤. رسالة بولس إلى أهل كولوسي ٢: ١٦.
٥. رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٤: ٩ ـ ١١.
٦. انظر الهداية ٤: ١٧٣ ـ ١٧٥.

التوراة هو أن نحفظ سُبْعَ وقتنا، فلم يقل ـ يعني الله جل اسمه ـ: اذكر اليوم السابع لتقدّسه. وكذا لم يقل الكتاب: إنّ الربّ بارك اليوم السابع. بل قال: إنّ الربّ بارك يوم السبت وقدّسه[١].

أقول أوّلاً ـ بعد الإغماض عمّا هو معلوم ـ: نسأل المتكلّف أنّ السبت الذي في شريعة التوراة، هل كان معيّناً باليوم السابع، أو مخيّراً فيه بين أسباع الأُسبوع وأيّامه، أو مخيّراً فيه بين اليوم الأوّل والسابع؟ فإن كان معيّناً باليوم السابع، كان تبديله بيوم آخر ـ وهو الأوّل ـ نسخاً، إن كان التبديل عن وحي، وإلّا كان ضلالاً. وإن كان مخيّراً فيه بين أسباع الأُسبوع، كان أيضاً تعيينه بيوم الأحد نسخاً لحكم التخيير، أو ضلالاً. وكذا إن كان مخيّراً فيه بين الأوّل والسابع.

وثانياً: إنّ النظر في التوراة الرائجة يكشف عن أنّ المتكلّف لم ينظر إليها، أو لم يفهم ما فيها، أو أنّه قد أقدم على التمويه اقتحاماً وغروراً من دون نظر إلى العواقب؛ فإنّ نصّ التوراة في ثاني التكوين:

> فأُكْمِلَت السماوات والأرض وكلّ جُندِها. وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع وقدّسه؛ لأنّه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً[٢].

انظر الأصل العبراني والتراجم، وفكّر في نفسك واطلب من الله هُداك ونجاة نفسك التي هي أعزّ الأنفس عليك، ولا تقل: إذاً كيف يقول المتكلّف: لم يقل الكتاب إنّ الربّ بارك اليوم السابع؟ ولا تقل: كيف يكون هذا وقد طبع كتاب المتكلّف بمعرفة المرسلين الأمريكان؟ ولا تقل: شنشنة أعرفها من أخزم[٣]. فإنّ هؤلاء لهم وظائف يخدمونها، وقد درّت أرزاق الجمعيّات وتوفّرت الأموال، وأمِنوا وبال العواقب، وزيادة على هذا قد باعوا هذا الكتاب بالذهب، فعليك بنفسك.

---

١. انظر الهداية ٤: ١٧٤ س ٣ و ٤.

٢. سفر التكوين ٢: ١ ـ ٣.

٣. مجمع الأمثال ٢: ١٥٥، المثل ١٩٣٣.

وفي العشرين من الخروج:

اذكر يوم السبت لتقدّسه. ستّة أيّام تعمل وتصنع جميع عملك. وأمّا اليوم السابع ففيه سبت عطلة للربّ إلهك لا تصنع عملاً مّا أنت وابنُك وابنتك وعبدك وأمَتُك وبهيمتك ونزيلُك الذي داخل أبوابك. لأنّ في ستّة أيّام صنع الربُّ السماءَ والأرض والبحر وكلّ ما فيها، واستراح في اليوم السابع، لذلك بارك الربّ يوم السبت وقدّسه[١].

ونحوه في الحادي والثلاثين من الخروج أيضاً[٢].

ولا يخفى على الفاهم والغبيّ ـ إذا نظر إلى مجموع ما ذكرناه هاهنا عن ثاني التكوين والعشرين من الخروج ـ أنّ يوم السبت الذي أوصت التوراة بتقديسه والاستراحة فيه، إنّما هو اليوم السابع الذي ذكرت التوراة نفسها في شأنه في ثاني التكوين أنّ الله بارك اليوم السابع وقدّسه لأنّه استراح فيه من عمله. ثمّ ذكرت في العشرين من الخروج: لأنَّ في ستّة أيّام صنع الربّ السماء والأرض والبحر وكلّ ما فيها، واستراح في اليوم السابع، لذلك بارك الربّ يوم السبت ـ أي يوم الراحة ـ وهو السابع، كما يفهمه من هذا الكلام كلّ أحد.

٤٤ . الناموس والعهد الجديد

لا كلام للنصارى في أنّ الله أنزل على موسى شريعة مدوّنة في كتاب اسمه التوراة، واتّفقوا على أنّ ذلك الكتاب هو أسفار التوراة الخمسة الموجودة بأيدي الناس بلا زيادة ولا نقصان. وفيها أنّ الله يكلّم موسى بالشريعة وجهاً لوجه، كما يكلّم الرجل صاحبه[٣]، وفماً إلى فم وعياناً لا بالألغاز[٤]. وفيها عن قول الله: «فتحفظون فرائضي وأحكامي التي إذا فعلها الإنسان يحيا بها»[٥]. وعن قول موسى الإلهامي:

---

١. سفر الخروج ٢٠: ٨ ـ ١١.
٢. سفر الخروج ٣١: ١٢ ـ ١٨.
٣. سفر الخروج ٣٣: ١١.
٤. سفر العدد ١٢: ٨.
٥. سفر اللاويّين ١٨: ٥.

وأيّ شعب هو عظيم له فرائضُ وأحكام عادلة مثل كلّ هذه الشريعة التي أنا واضع أمامكم اليوم[١].

وفي المزمور التاسع عشر: ناموس الربّ كامل[٢]. وفي المزمور المائة والتاسع عشر:

إلى الدهر لا أنسي وصاياك، لأنّك بها أحييتني. وشريعتك حقّ. قريب أنت يا ربّ وكلّ وصاياك حقّ. وفي كلّ شيء مستقيمة[٣].

وفي العشرين من حَزْقِيال: «وأعطيتهم فرائضي وعرّفتهم أحكامي التي إن عملها الإنسان يحيا بها»[٤]. وفي تاسع نحميا: «وأعطيتهم أحكاماً مستقيمة وشرائع صادقة فرائض ووصايا صالحة»[٥]. وفي ثاني ملاخي:

فتعلمون أنّي أرسلت إليكم هذه الوصيّة لكون عهدي مع لاوي قال ربّ الجنود: كان عهدي معه للسلام والحياة وأعطيته إيّاهما للتقوى، فاتّقاني ومن اسمي ارتاع، هو شريعة الحقّ كانت في فيه[٦].

وفي خامس متّى عن قول المسيح:

لا تظنّوا أنّي جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأُكمّل... فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلّم الناس هكذا يدعى أصغر في ملكوت السماوات[٧].

وفي الثالث والعشرين أيضاً:

حينئذٍ خاطب الجموع وتلاميذه، قائلاً: على كرسيّ موسى جلس الكَتَبَة والفرّيسيّون، فكلّ ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه[٨].

---

١. سفر التثنية ٤: ٨.
٢. سفر المزامير ١٩: ٧.
٣. سفر المزامير ١١٩: ٩٣و ١٢٨و ١٤٢و ١٥١.
٤. سفر حَزْقِيال ٢٠: ١١، وانظر إلى العدد ١٣ و ٢١.
٥. سفر نحميا ٩: ١٣.
٦. سفر ملاخي ٢: ٤ ـ ٦.
٧. إنجيل متّى ٥: ١٧ ـ ١٩.
٨. إنجيل متّى ٢٣: ١ ـ ٣.

وقد سمعت عن الرسل أقوالهم في نسخ أحكام التوراة نسخاً يقارب ملاشاتها. وقد جاءت المجاهرة بملاشاتها فيما عن بولس في عاشر العبرانيّين: ينزع الأوّل ليثبت الثاني[١]. وفي ثالث غلاطية:

المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنةً لأجلنا. ولكن قبلما جاء الإيمان كنّا محروسين تحت الناموس مغلقاً علينا إلى الإيمان العتيد أن يعلن. إذاً قد كان الناموس مُؤَدِّبَنا إلى المسيح لكي نَتَبَرَّر بالإيمان. ولكن بعد ما جاء الإيمان لسنا بعد تحت مُؤَدّب[٢].

وهذا كلام ليس فيه خدشة بشرف التوراة، بل غاية ما فيه أنّه ادّعى وجهاً لملاشاة أحكامها، والإطلاق المريح من القيود الباهظة للأميال والشهوات. ولكن قد تقدّم قريباً عن رابع غلاطية[٣] ما يشير إلى التوراة ويبيّن أنّها أركان ضعيفة فقيرة. وتقدّم قبله عن ثاني كولوسي[٤] ما مضمونه أنّ الحكم بنجاسة بعض الأشياء وحرمة أكلها، إنّما هو من وصايا الناس وتعليمهم، ومن الفرائض التي جميعها للفناء. وتقدّم قبل هذا أيضاً عن أوّل تيطس[٥] ما مضمونه أنّ الحكم بنجاسة بعض الأشياء هو من الخرافات اليهوديّة ووصايا المرتدّين عن الحقّ.

وفي سابع العبرانيّين:

فإنّه يصير إبطال الوصيّة السابقة من أجل ضعفها وعدم نفعها ؛ إذ الناموس لم يكمل شيئاً[٦].

وفي ثامن العبرانيّين أيضاً:

فإنّه لو كان الأوّل بلا عيب، لما طلب موضع لثان. فإذ قال جديداً فقد عتق الأوّل.

---

١. رسالة بولس إلى العبرانيّين ١٠: ٩.

٢. رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٣: ١٣ و٢٣ ـ ٢٥.

٣. رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٤: ٨ ـ ١١، وتقدّم في ص ٣١٦.

٤. رسالة بولس إلى أهل كولوسي ٢: ٢١ و٢٢، وتقدّم في ص ٣١٦.

٥. رسالة بولس إلى تيطس ١: ١٤، وتقدّم في ص ٣١٤.

٦. رسالة بولس إلى العبرانيّين ٧: ١٨ و١٩.

وأمّا ما عتق وشاخ فهو قريب من الاضمحلال[١].

وفي هذا المقدار كفاية، وإن كان في الرسائل المنسوبة إلى بولس في العهد الجديد أضعاف ذلك. على أنّه مناقض لما عن قول بولس نفسه في ثالث تيموثاوس الثانية:

كلّ الكتاب ومُوحَى به من الله، ونافع للتعليم والتوبيخ للتقويم والتأديب الذي في البِرّ. ليكون إنسان الله كاملاً متأهّباً لكلّ عمل صالح[٢].

تنبيه: إنّ ما ذكرناه عن بولس في رومية وغلاطية، إنّما كان خطاباً لليهود المؤمنين بالمسيح، لينصرفوا عن العمل بالناموس. هذا وقد فرَّ المتكلّف هاهنا كعادته إلى سرّ الفدا[٣]، وكأنّه لا يدري أنّه لا ينفعه الفرار، إذ لابدّ من أن يقال له: إنّ أحكام الناموس هل كانت باقية على بولس وأتباعه، أم ارتفعت ولو لأجل سرّ الفداء؟ ولابدّ أن يقول بالثاني وهو النسخ، فإنّ ما عن بولس يصرّح بأنّ المسيح نقض العداوة مبطلاً بجسده ناموس الوصايا في فرائض[٤]، لأنّه إن تغيّر الكهنوت فبالضرورة يصير تغيّر للناموس[٥].

٤٥ و٤٦ و٤٧ . الرسل وبولس وما ذبح للأوثان والمخنوق والدم

قد تقدّم عن خامس عشر الأعمال عن الرسل، أنّهم بعد ما رفعوا قيود التوراة وثقلها ونسخوها بمشورتهم، أبقوا منها أربعة أشياء أوجبوا الامتناع عنها وهي: ما ذبح للأوثان، والدم، والمخنوق، والزنى[٦].

وقد رفع ما عن بولس وجوب الامتناع عن ثلاثة منها، بعموم قوله: «كلّ شيء طاهر للطاهرين، وكلّ خليقة الله جيّدة، ولا يرفض شيء منها إذا أُخذ مع الشكر». وغير

---

١. رسالة بولس إلى العبرانيّين ٨: ٧ و١٣.

٢. رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس ٣: ١٦ ـ ١٧.

٣. انظر الهداية ٤: ١٨٣ و١٨٤.

٤. رسالة بولس إلى أهل أفسس ٢: ٥.

٥. رسالة بولس إلى العبرانيّين ٧: ١٢.

٦. أعمال الرسل ١٥: ٢٨ و٢٩.

ذلك ممّا تقدّم[١]. ولكنّه اضطرب كلامه في خصوص ما ذبح للأوثان: فتارة رجّح الامتناع عنه من أجل ضمير الأخ الضعيف[٢]. وتارة منع منه بقوله:

إنّما يذبحونه للشيطان فلست أُريد أن تكونوا أنتم شركاء الشياطين... لا تقدرون أن تشتركوا في مائدة الربّ ومائدة شياطين. أم نغير الربّ، أَلَعَلّنا أقوى منه[٣] ـ ثمّ قال بعد ذلك: ـ لماذا يحكم في حريّتي من ضمير آخر. فإن كنت أنا أتناول بشكر فلماذا يُفترى عليّ لأجل ما أشكر عليه[٤].

تنبيه: اعلم أنّ الاصطلاح الأغلب ـ أو الغالب ـ هو أنّ النسخ رفع الله للحكم الشرعي بعد وقت العمل به، وقد ذكرنا في الجدل أمثلة ما وقع منه في العهدين، وهي وإن عددناها سبعة وأربعين مثالاً على سبيل الإجمال، لكنّها تنحلّ إلى أُلوف من الأمثلة. وبقيت هاهنا أمثلة من العهدين:

منها: مالا تدلّ الواقعة المذكورة على أنّ رفع الحكم فيها كان قبل وقت العمل أو بعده.

ومنها: ما تدلّ على أنّ رفع الحكم فيها كان قبل وقت العمل.

وصاحب إظهار الحقّ[٥] جعل هذين القسمين من النسخ، ولا مخالفة بينه وبين الاصطلاح الأغلب إلّا في أمر اصطلاحي يرجع إلى مجرّد التسمية.

وعلى كلّ حال فما سنذكره من الأمثلة المقدّمة في توهّم المنع والمكابرة بدعوى الجهة المانعة، بل هي أولى بالامتناع بحسب مزاعم المتكلّف؛ لأنّ رفع الحكم فيها لم يمض له زمان كثير من حين تشريعه، ومنه ما لا يبلغ الساعة والساعتين. والمتكلّف يتضجّر ويشدّد النكير على رفع الحكم قبل أن تمضي لتشريعه مدّة طويلة[٦]، بل إنّ

---

١. تقدّم في ص ٣١٤.
٢. رسالة بولس الأُولى إلى أهل كورنثوس ٨: ١ ـ ١٣.
٣. رسالة بولس الأُولى إلى أهل كورنثوس ١٠: ٢٠ ـ ٢٢.
٤. رسالة بولس الأُولى إلى أهل كورنثوس ١٠: ٢٩ و ٣٠.
٥. إظهار الحقّ ٣: ٦٤٣ فما بعد.
٦. الهداية ٤: ١٨٤ س ١٠ ـ ١٤.

سوق كلامه المشار إليه وما قبله يعطي أنّه يجوز رفع الحكم بل ملاشاة الشريعة السابقة بعد ألف وخمسمائة سنة، ولا يجوز بعد شهر أو يوم. فهذه الأمثلة حجّة عليه وعلى المتعرّب في كلامه[١].

ولكنّهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كلّ آية.

وهاك ما نذكره من الأمثلة:

١. نوح والحيوانات

جاء في سادس التكوين عن قول الله لنوح:

ولكن أُقيم عهدي معك فَتَدْخُل الفُلكَ أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك. ومن كلّ حيّ كلّ ذي جسد اثنين من كلّ تُدخِل الفُلكَ لاستبقائها معك تكون ذكراً وأُنثى. من الطيور كأجناسها ومن البهائم كأجناسها ومن كلّ دبّابات الأرض كأجناسها اثنين من كلٍّ تُدخِل إليك لاستبقائِها[٢].

وفي سابع التكوين أيضاً:

وقال الربّ لنوح: ادخُل أنت وجميعُ بَيتك إلى الفُلك لأنّي إيّاك رأيت بارّاً في هذا الجيل. من جميع البهائم الطاهرة معك سبعةً سبعةً ذكراً وأُنثى ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكراً وأُنثى. ومن طيور السماء أيضاً سبعةً سبعةً ذكراً وأُنثى لاستبقاء نسلٍ على وجهِ كلّ الأرض[٣].

فقد تبدّل في شريعة الله لنوح حكم البهائم الطاهرة وطيور السماء، ورُفع حكمها الأوّل وهو إدخال اثنين منها، وبُدّل بحكمها الثاني وهو إدخال سبعة سبعة.

وفي سابع التكوين أيضاً:

في ذلك اليوم الذي عيّنه دخل نوح وسام وحام ويافث بنو نوح، وثلاث نساء بنيه

---

١. ذيل مقالة سايل: ٤٦ س ١٤ و ٤٧ س ٢.

٢. سفر التكوين ٦: ١٨ ـ ٢٠.

٣. سفر التكوين ٧: ١ ـ ٣.

معهم إلى الفُلك. هم وكلّ الوحوش كأجناسها وكلّ البهائم كأجناسها وكلّ الدبّابات التي تدبّ على الأرض كأجناسها وكلّ الطيور كأجناسها كلّ عصفور كلّ ذي جَناح. ودخلت إلى نوح اثنين اثنين من كلّ جسد فيه روح حياة. والداخلات دَخَلت ذكراً وأُنثى من كلّ ذي جسد كما أمره الله[١].

وهذا الخبر يوافق الحكم الأوّل ويخالف الحكم الثاني. فهل هو كاشف عن حكم ثالث رافع للثاني؟ أو كاشف عن أنّ الأوّل هو الحكم الثاني والثاني هوالمنسوخ، أو...؟

وقد حاول المتكلّف أن يفرّ من هذا الاختلاف إلى غير النسخ فقال:

إنّ الأمر الأوّل كان على وجه الإجمال بأن قال له: خذ لك زوجين من كلّ البهائم والطيور، ولم يبيّن إذا كانت طاهرة أو غير طاهرة، ثمّ أوضح بعد ذلك بسطرين بأن يأخذ من الطاهرة سبعة لاستبقائها ولتقديم الذبائح منها. فهو تفصيل بعد إجمال وتقييد بعد إطلاق، ولك أن تجعله من الجمع ثمّ التقسيم، وهو جمع متعدّد تحت حكم ثمّ تقسيمه، أو الجمع مع التفريق والتقسيم[٢].

أقول: لا يخفى أنّ التفصيل بعد الإجمال، أو التقسيم بعد الجمع، أو الجمع مع التفريق والتقسيم، إنّما هو أن يأتي الكلام مجملاً مبهماً في بعض مضامينه من حيث المقدار أو النوع أو الكيفيّة ونحو ذلك. فيأتي الكلام الثاني مبيّناً ومفصّلاً لإبهام الأوّل من دون مضادّة لمضمونه، كما يقول القائل: أرسل العسكر، مع إبهام الكيفيّة. ثمّ يفصّلها ويُقَسّمهم بقوله: أرسل أُمراءهم ركباناً وسائرهم مَشاةً. أو يقول: أدخِل إلى الفُلك من كلّ الحيوانات، فيبهم المقدار. ثمّ يفصّله ويبيّنه بقوله ثانياً: أدخل من الطاهر والطيور بأجناسها من كلّ سبعة، ومن غيرهما من كلّ اثنين. وأمّا إذا قال: من كلّ جنس اثنين، فقد بيّن العدد ولم يبهمه، فإذا قال بعد ذلك: أدخل من الطاهر والطير سبعة سبعة، ومن غيرهما اثنين اثنين، فلا يكون ذلك من الإجمال والتفصيل أو الجمع والتقسيم، كما لا يخفى على من يفهم معاني هذه الألفاظ، وذلك لأجل المضادّة

١. سفر التكوين ٧: ١٣ ـ ١٦.

٢. الهداية ١: ١٨٦ و ٤: ١٩٢.

في الكلام الثاني مع الأوّل من حيث العدد.

وتوضيح المقام هو أنّ وجوه التوفيق المدّعاة بين الكلامين هاهنا هي ثلاثة:

[الوجه] الأوّل: التفصيل والتقييد بعد الإجمال والإطلاق. وقل: التقسيم بعد الجمع، أو الجمع مع التقسيم والتفريق. ولكنّ هذا النحو هاهنا موقوف على كون الكلام الأوّل مجملاً مبهماً مطلقاً من حيث العدد، وذلك بأن نجعل قوله: «اثنين» منسلخاً عن معنى العدد، بل هو بمعنى ذكر وأُنثى وإن كانت ألفاً. فيأتي قوله: سبعة واثنين بياناً وتقسيماً لما أبهم من عدد الطيور والبهائم الطاهرة وغيرها. وقل حينئذٍ: إنّه تفصيل بعد الإجمال إلى آخره.

ولكنّ هذا الوجه باطل لأُمور:

أمّا أوّلاً: فلأنّه لم يسمع في كلام العقلاء استعمال لفظ اثنين منسلخاً عن معنى العدد. فهل سمعت عاقلاً يقول: أكلت من الطيور اثنين، وهو لا يريد العدد بل يريد ذكراً وأُنثى، وإن كانت عشرة؟

وأمّا ثانياً: فلأنّه قد صرّح وبيّن أنّ الاثنين ذكراً وأُنثى، وكانت ذكراً وأُنثى.

وأمّا ثالثاً: فلأنّ كلّ فاهم لما يسمع ويقرأ، لَيَفْهَمُ أنَّ المتكرّر خمس مرّات من قوله: «ذكراً وأُنثى» إنّما هو بيان لإجمال المعدود بالعدد المبيّن في الكلامين على حدّ سواء.

الوجه الثاني: العموم والخصوص، بأن يكون قوله في الأمر الأوّل: «من كلّ ذي جسد اثنين». وكذا قوله: «اثنين من كلّ تُدخِل إليك» عامّاً للطير والطاهر وغيره. فخصّصه الكلام الثاني ببيان أنّ الطاهرة والطير يُدخِل منها سبعة.

وهذا خطأ منشؤه الخبط والخلط بين التخصيص والنسخ. فإنّ التخصيص إنّما هو إخراج بعض أفراد العامّ عن الحكم قبل وقت العمل به. وأمّا رفع الحكم عن جميعها فهو النسخ. ولا يمكن البناء هاهنا على التخصيص في حُكم الطيور؛ لأنّه حَكَم في الأمر الأوّل بأن يُدخِل من الطيور بأجناسها اثنين من كلّ جنس. وحَكَم في الأمر الثاني على الطيور بأجناسها بأن يدخل منها سبعة سبعة. فلا يكون حُكم الطيور في

الأمر الثاني تخصيصاً لحكمها في الأمر الأوّل أو بالعكس. وذلك لأجل تساوي الموضوعين في الكلام، فليس أحدهما أعمّ والثاني أخصّ، كما هو شرط العموم والخصوص. وما هو إلّا النسخ، رضي المتكلّف أوأبى.

الوجه الثالث: النسخ، ولا أقلّ من لزومه في حكم الطيور، وهو كافٍ في المطلوب.

ثمّ نقول مداعبةً للمتكلّف: أفِق فإنّ الأمر الأوّل والأمر الثاني في الداخل إلى الفُلك، كانا في زمان نوح قبل الطوفان، فكان عليك أن تبيّن الزمان الفاصل بين مجملهما ومفصّلهما كما تزعم، هل كان يوماً أو سنةً أو عشراً؟ ولم يكن صدور الأمرين بكتابة التوراة ليكون ورود التفصيل بعد الإجمال بسطرين.

ولقد أطلنا الكلام حرصاً على إيضاح الحقائق، والتنبيه على مواقع الخبط لا على المثال، فإنّ فيما ذكرنا كفايةً.

٢. امتحان الله لإبراهيم

في الثاني والعشرين من التكوين:

وحدث بعد هذه الأُمور أنّ الله امتحن إبراهيم فقال له: يا إبراهيم، فقال:ها أناذا، فقال: خذ ابنك وحيدك الذي تحبّه إسحاق واذهب إلى أرض المُرِيّا وأَصعِدْهُ هناك مُحْرَقة على أحد الجبال الذي أقول لك[١] ـ ومعنى المحرقة أن يذبحه ويُحرِقَه قُرباناً لله، كما يدلّ عليه باقي الكلام، إلى أن قال ـ: فلمّا أتيا الموضع الذي قال له الله، بنى هناك إبراهيم المذبح ورتّب الحطب وربط إسحاق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب، ثمّ مدّ إبراهيم يده وأخذ السِكّين ليذبح ابنه، فناداه ملاك الربّ من السماء وقال: إبراهيم إبراهيم، فقال:ها أناذا، فقال: لا تمدّ يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً[٢].

فرفع ما تقدّم من الأمر بالذبح والإحراق بإصعاد إسحاق مُحرَقة. وقد صرّح إظهار الحقّ

---

١. سفر التكوين ٢٢: ١ ـ ٢.

٢. سفر التكوين ٢٢: ٩ ـ ١٢.

بأنّ هذا المثال من النسخ قبل العمل، الكاشف عن كون الأمر الأوّل امتحانيّاً [١].

ومن الطرائف أنّ المتكلّف توهّم أنّ مراد إظهار الحقّ كون النسخ هاهنا في ذات نقل التوراة لقصّة إبراهيم هذه، فأخذ ينكر عليه بعد فضول من الكلام [٢] ويعترض عليه بقوله في أوائل بحث النسخ بأنّ النسخ لا يطرأ على القصص.

أقول: وإنّ لسان الحال من إظهار الحقّ ليقول للمتكلّف: يا أيّها الرجل الذي لم يسمح لنفسه ببقاء صفة جميلة لها، إنّي أقول كما قلت في أوّل مبحث النسخ: إنّ النسخ لا يطرأ على القصص، وكلّ من يميّز الكلام يعرف أنّ مرادي هو أنّ القصّة من حيث إنّها قصّة وحكاية لا تكون ناسخة ولا منسوخة، لأنّ النسخ إنّما هو في الأحكام الإلهيّة. وإنّي لم أقل: إنّ ذات قصّة التوراة ناسخة أو منسوخة. بل قلت ما لا يخفى حتّى على الأغبياء: إنّ قصّة التوراة نقلت أنّ الله أمر إبراهيم بذبح ابنه مُحرَقة، ثمّ رفع هذا الحكم وبدّله ونسخه قبل العمل.

فقل: أيجوز رفع الحكم الأوّل وتبديله، لكونه محدوداً بمصلحة الامتحان؟

لكي نقول لك: إذاً فكلّ حكم محدود بمصلحته، فإذا انتهى حدّه يبدّله الله ويجعل مكانه ما تقتضيه المصلحة الأُخرى، وهذا هو النسخ.

أم تقول: إنّه لا يجوز رفع الحكم الأوّل وإن كان محدوداً بمصلحة الامتحان، والتوراة كاذبة أو غالطة في نقلها لذلك؛ فإنّه لو كان الأوّل بلا عيب، لما طُلب موضع لثان [٣].

واعلم أنّ خبيث القول وبذيء اللسان لينقصان من فضيلة الصواب وحسن الفطنة، فكيف بهما إذا تعقّبا شطط الباطل وخبط الجهل؟ وكم وكم أوصى العهد الجديد بالسلام والوداعة والطهارة؟ أحشفاً وسوء كَيْلَة [٤]! ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [٥].

---

١. إظهار الحقّ ٣: ٦٦٧.

٢. الهداية ٤: ١٨٥ و١٨٦.

٣. رسالة بولس إلى العبرانيّين ٨: ٧.

٤. مجمع الأمثال ١: ٣٦٧، المثل ١٠٩٨.

٥. الصفّ (٦١): ٣.

٣. عُمر اللاوي الموظّف للمسكن

ذكرت التوراة العبرانيّة في رابع العدد في سبعة موارد حكم الله بأنّ اللاوي الموظّف لخدمة المسكن يكون من ابن ثلاثين سنة إلى خمسين[١]. وذكرت أيضاً في ثامن العدد حكم الله بأنّ الموظّف المذكور يكون من ابن خمس وعشرين سنة إلى خمسين[٢].

فأحد الحكمين تبدّل إلى الآخر لا محالة، فإن كان بعد العمل بالأوّل فهو النسخ بالاصطلاح الغالب، وإن كان قبل العمل فهو نسخ أيضاً باصطلاح إظهار الحقّ وجماعة[٣]. وعلى كلّ حال فإنّ الجهات التي يتشبّثون بها لامتناع النسخ جارية في هذا، سواء سمّيناه نسخاً أولم نسمّه.

قال المتكلّف:

كان اللاويّون في عصر موسى يخدمون من سنّ (٢٥) في الخدم الخفيفة. أمّا وقت مهمّات نقل خيمة الاجتماع الثقيلة في أثناء ارتحالهم، فكان يلزم الحال إلى رجال أقوى. فاختلاف العبارات لاختلاف الاعتبارات. وممّا يؤيّد ذلك أنّه بعد أن بُني الهيكل خفّ العمل وقُبِل في خدمة الربّ من كان عمره نحو ٢٠ سنة فقط، فربّنا وضع كلّ شيء في محلّه، فعيّن الأعمال الشاقّة للأشدّاء الذين في عنفوان شبابهم، والأعمال الخفيفة لغيرهم، فلاناسخ ولا منسوخ[٤].

قلنا: إنّ من يلتزم بأنّ كتابة التوراة مرتّبة على ترتيب نزولها، فلابدّ له من أن يقول: إنّ حكم الله المتقدّم هو كون الموظّف لخدمة المسكن من كان ابن ثلاثين سنة إلى خمسين، وقد عدّهم موسى على هذا المنوال، فكان المعدودون ثمانية آلاف وخمسمائة وثمانين[٥]. وفي سابع العدد أنّ موسى أعطى القرابين التي قُدّمت بعد إقامة

---

١. سفر العدد ٤: ٣ ـ ٤٧.

٢. سفر العدد ٨: ٢٤ و ٢٥.

٣. إظهار الحقّ ٣: ٦٦٧ فما بعد.

٤. الهداية ٤: ١٩١ و ١٩٢.

٥. سفر العدد ٤: ٤٦ ـ ٤٩.

المسكن للاويّين الموظّفين للخدمة حسب أمر الله[١]. وأنّهم تطهّروا وكفّر عنهم هارون وأتوا إلى خدمتهم كما أمر الربّ[٢].

وبعد ذلك كلّه ذكرت التوراة أنّ الله كلّم موسى قائلاً: هذا ما للاويّين من ابن خمس وعشرين سنة فصاعداً يأتون ليتجنّدوا أجناداً في خدمة خيمة الاجتماع. ومن ابن خمسين يرجعون من جند الخدمة ولا يخدمون بعد. يوازرون إخوتهم في خيمة الاجتماع لحرس حِراسة لكن خدمةً لا يخدمون[٣].

فإن كان المتكلّف يلتزم بأنّ ترتيب كتابه على ترتيب حوادثه، فعليه أن يقول: إنّ الحكم المذكور أخيراً هو المتأخّر في التشريع. وله أن يقول: إنّ الحكمة في ذلك هي أنّه لمّا قرب ارتحال بني إسرائيل، وكانت خيمة الاجتماع تحتاج إلى عمل كثير في الارتحال والنزول، رفع الله الشريعة الأُولى وأضاف إلى المعدودين من كان ابن خمس وعشرين سنة إلى ثلاثين ليساعدوهم في الخدمة، كما شرّع أن يساعدهم في الحراسة أبناء الخمسين فما فوق.

هذا، وإن كان لا يلتزم المتكلّف بأنّ كتابة التوراة على ترتيب حوادثها، فلا تقبل دعواه أنّ شريعة الخمس وعشرين سنة هي المتقدّمة، إلّا بدليل يدلّ على ذلك.

ثمّ نقول: إن أراد المتكلّف بما ذكرنا من كلامه هو التخلّص من تبديل أحد الحكمين بالآخر، بل يدّعي أنّه لم تكن إلّا شريعة واحدة، وهو كون الموظّفين للخدمة من ابن خمس وعشرين سنة إلى الخمسين، ولكن يختصّ أبناء الثلاثين فما فوق بالخدمة الشاقّة.

قلنا: لا يكاد يفهم ذلك من التوراة إلّا بطريقة الرمز الجزافيّة، التي يهرب إليها المتكلّف. مع أنّ الدعوى المعهودة هي أنّ العهد القديم رمز للعهد الجديد، لا أنّ التوراة ترمز إلى أحكامها، مع أنّ التوراة تجبهه بالردّ، لتصريحها في الأوّل بأنّ جميع اللاويّين

---

١. سفر العدد ٧: ١ ـ ١٠.

٢. سفر العدد ٨: ٢١ و٢٢.

٣. سفر العدد ٨: ٢٣ ـ ٢٦.

الذين عدّهم موسى وهارون وكلّ الداخلين ليعملوا عمل الخدمة، كانوا من ابن ثلاثين سنة إلى خمسين[١].

وإن التزم المتكلّف بتبديل أحد الحكمين المذكورين بالآخر، وفرَّ إلى قوله: «اختلاف العبارات لاختلاف الاعتبارات» فإنّا لا نضايقه في التسمية، بل نقول في النسخ: إنّ المصالح قد تتغيّر، وربّنا يضع كلّ شيء في محلّه، واختلاف العبارات لاختلاف الاعتبارات.

ومن ورطات المتكلّف قوله: ولمّا بُني الهيكل خفّ العمل وقُبِل في خدمة الربّ من كان عمره نحو ٢٠ سنة فقط. فينبغي أن يُوقظ ويقال له: إنّ توظيف ابن العشرين سنة قد جعلت شريعته في أيّام داود[٢]، وكان ذلك قبل بناء الهيكل بما يزيد على إحدى عشرة سنة. فإنّ الهيكل شَرَع في بنائه سليمان في السنة الرابعة لملكه، وكمل بناؤه في السنة الحادية عشرة[٣]. ولم يجئ في العهد القديم ذكر لشريعة توظيف ابن العشرين سنة بعد ما ذكرنا، لا في أيّام سليمان ولا ما بعده، إلّا في أيّام عزرا بعد سبي بابل[٤].

فإن سألت وقلت: إنّ للمتكلّف طريقاً في التخلّص عن هذا المثال للنسخ، وذلك بأن يقول: إنّ كلّ ما جاء في النسخة العبرانيّة في رابع العدد بتحديد عُمر اللاوي الموظّف بثلاثين سنة إلى خمسين، قد جاء بدله في الترجمة السبعينيّة تحديده من الخمس وعشرين سنة إلى خمسين. وإنّ الترجمة السبعينيّة ذكر أنّها كانت في غاية الاعتبار، كما أشرنا إليه[٥]، ونوّه بها المتكلّف[٦]، فبناءً عليها لا مخالفة بين رابع العدد وثامنه في هذا الحكم. فلماذا لم يسلك المتكلّف هذا الطريق في الفرار عن إلزام إظهار الحقّ؟

---

١. سفر العدد ٤: ٤٦ ـ ٤٩.

٢. انظر سفر أخبار الأيّام الأوّل ٢٣: ٢٤ ـ ٢٨.

٣. انظر سفر الملوك الأوّل ٦: ١ و٣٧ و٣٨.

٤. سفر عزرا ٣: ٨.

٥. تقدّم في ص ٣٢٨.

٦. الهداية ٤: ٩٠ ـ ٩٢.

قلنا: لو أنّ المتكلّف يلتفت إلى هذا التخلُّص، لما تشبَّث به؛ لأنّه يبيّن عليه ما يكابر في ستره. وقل: كيف يسمح بأن ينبّه على مثل هذا الاختلاف الباهظ بين العبرانيّة والسبعينيّة؟ مع أنّه يقول تارة: إنّ الأصل العبراني هو المعوّل عليه[1]، ويحامي عن دعوى تواتره في كثير من كتابه. وتارة ينوّه بالترجمة السبعينيّة ويجعلها هي المعتمدة لليهود والمسيح والرسل، ويجعل تواريخها شاهدة لتواتر التوراة[2].

فإن قلت: وأيضاً يصادمه ما في الثالث والعشرين من الأيّام الأوّل، فإنّ فيه أنّ داود لمّا شاخ وملك ابنه سليمان عدّ اللاويّين للمناظرة على بيت الله من ابن ثلاثين سنة[3].

قلت: لا يتوقّف المتكلّف لأجل ذلك. ولو تعلّق له غرض بتقديم السبعينيّة هاهنا لقال غير مبالٍ: إنّ داود أخطأ وخالف الشريعة فعاقبه المولى، بل لابدّ له أن يقول ذلك، فإنّه قال فيما تقدّم من كلامه: إنّ توظيف ابن الثلاثين في زمان موسى كان لقرب ارتحال بني إسرائيل، وحاجة نقل الخيمة إلى رجال أقوياء، فربّنا وضع كلّ شيء في محلّه. وإنّ عدّ داود من ابن الثلاثين سنة كان في زمان الاستراحة وعدم الحاجة إلى نقل المسكن، فهو في غير محلّه، وربّنا وضع كلّ شيء في محلّه.

٤. حَزْقِيال وتكليفه

في العهد القديم: أنّ الله جلّ شأنه أمر نبيّه حَزْقِيال بأن يأكل كعكاً من خبز الشعير، يخبزه أمام عيون بني إسرائيل على الخُرْء الذي يخرج من الإنسان. لأنّه هكذا يأكل بنو إسرائيل خبزهم النجس بين الأُمم. فاستغاث حَزْقِيال إلى الله فرفع عنه هذا الحكم وبدّله بغيره، وقال له: انظر قد جعلت لك خِثْيَ البقر بدل خُرْء الإنسان[4].

---

١. المصدر: ١٦.

٢. المصدر: ٩٠ـ ٩٢.

٣. سفر أخبار الأيّام الأوّل ٢٣: ١و٢.

٤. سفر حَزْقِيال ٤: ١٢ـ ١٦.

أجاب المتكلّف بعد أن ذكر نبوّة حَزْقِيال بضيق بني إسرائيل[١] فقال:

فالنبيّ استغاث الله فأجاب صلواته وحقّق طلبته. وعلى كلّ حال فلا ناسخ ولا منسوخ، ولولا ضيق المقام لزدنا الكلام. وعلى المطالع أن يمعن النظر في هذه الآيات فيجد بطلان دعوى المعترض[٢].

أقول: فيا أيّها المطالع، سألتك بفضيلة الكمال وزينة الأدب أن تطالع كلّ الرابع من حَزْقِيال، وإن شئت فكلّ كتاب حَزْقِيال، لتقول أين تجد من ذلك بطلان ما يقوله إظهار الحقّ؟[٣] فهل في كلام حَزْقِيال أو في كلام المتكلّف برهان على أنّ حكم الله لم يتبدّل في شأن حَزْقِيال؟ أو هل إذا تبدّل الحكم بسبب الدعاء لا يكون تبدّلاً؟ وليت شعري إنّ المتكلّف قد استحسن الجواب في هذه المقامات بقوله: «وعلى كلّ حال فلا ناسخ ولا منسوخ» فلماذا يتكلّف الجواب بغيره؟

تكملة: قال المتكلّف:

ولعمري إنّ الناسخ والمنسوخ إذا وجدا في قانون أو دستور أو في كتاب، كان أعظم وصمة يوصف بها هذا القانون أو الدستور أو الكتاب. ولذا كانت الديانة الصحيحة الحقيقيّة وكتبها المنزلة منزّهة عن هذه الوصمة. فماذا تقول في ملك الملوك وربّ الأرباب العليم الحكيم؟ هل يعقل أو يتصوّر أن يأتي بقانون قابل للنسخ والنقض والتغيير والتبديل كلّ ساعة وأوان؟ لا جرم إنّ هذا بمنزلة قولنا عن المولى الحكيم العليم: إنّه جاهل عديم التروّي وعديم التفكّر والتبصّر ـ تعالى الله عمّا يقول الجاهلون عُلوّاً كبيراً ـ فإنّ أعمال الله منذ الأزل منزّهة عن التناقض والتشويش[٤].

أقول: ليت شعري ماذا يصنع من يقول هذا الكلام؟ وماذا يقول فيما ذكرناه

---

١. سفر حَزْقِيال ٤: ١٧.

٢. الهداية ٤: ١٩١.

٣. إظهار الحقّ ٣: ٦٧٠.

٤. الهداية ٤: ١٥٦ و١٥٧ و١٥٨.

عن العهدين من تبديل أحكام الله ونسخها، فيما ذكرناه من الأمثلة التي ترجع إلى أُلوف من موارد النسخ؟ وماذا يقول في خصوص أمر الله إبراهيم بذبح ولده مُحرَقة، وتكليف حَزْقِيال بأن يخبز مأكوله على خُرْء الإنسان؟ وكيف قد تبدّل هذان الحكمان ولم يمض عليهما أربعون سنة ولا ألف وخمسمائة سنة، بل إنّما مضى عليهما أيّام أو ساعات ثمّ تبدّلا؟ وكذا شريعة نوح في إدخال الحيوانات معه إلى الفلك؟

[العهدان وتبدّل الحكم الشرعي]

واستمع أيضاً لما نتلوه عليك من العهدين، حيث تضمّنا أنّ الله جلّ شأنه بدّل ما وعد وأخبر بأنّه قضاه وقدّره إلى الأبد. وبدّل الحكم الشرعي اللازم لهذا المقدَّر الموعود به.

١. فينحاس وكهنوت نسله الأبدي

فقد ذكرت التوراة في الخامس والعشرين من العدد:

> فكلّم الربّ موسى قائلاً: فِينْحاس بن أَلِعازَر بن هارون الكاهن قد ردّ غضبي عن بني إسرائيل بكونه غار غَيرتي في وسطهم حتّى لم أُفْنِ بني إسرائيل بغَيرتي. لذلك قل: ها أناذا أُعطيه ميثاقي السلام. فيكون له ولنسله من بعده ميثاق كهنوتٍ أبدي[1].

وجاء في سابع العبرانيّين عن بولس:

> فلو كان بالكهنوت اللاوي كمال إذ الشعب أَخَذ الناموس عليه. ماذا كانت الحاجة بعد إلى أن يقوم كاهن آخر على رتبة مَلْكِي صادوق ولا يقال على رتبة هارون. لأنّه إن تغيّر الكهنوت فبالضرورة يصير تغيّر للناموس أيضاً[2].

وانظر إلى بقيّة الأُصحاح.

---

١. سفر العدد ٢٥: ١٠ ـ ١٣.

٢. رسالة بولس إلى العبرانيّين ٧: ١١ ـ ١٢.

فليقل المتكلّف: كيف تغيّر الكهنوت الذي هو أبدي بوعد الله وقضائه وعطائه وحكمه الشرعي لنسل فِينْحاس؟

وإنّا لنسأل المتكلّف أنّ الله عندما وعد وأعطى الميثاق بهذا الكهنوت الأبدي لنسل فِينْحاس هل كان عالماً بأنّ هذا الكهنوت ليس فيه كمال، وأنّ الحاجة تمسّ إلى أن يقوم كاهن آخر من غير اللاويّين، وأنّه تعالى شأنه مزمع على أن يغيّر الكهنوت وينقله من بني فِينحاس ـ بل واللاويّين ـ إلى كاهن آخر؟

فإن أجاب وقال: نعم إنّ الله كان عالماً بذلك كلّه.

قلنا: إذاً كيف جوّزتم على الله أن يعطي عهداً وميثاقاً بالكهنوت الأبدي لنسل فِينْحاس مع علمه بأنّ هذا الكهنوت ليس فيه كمال، ومع علمه بأنّه ينقض هذا الميثاق ويقع الخلف في الوعد، لأجل مسيس الحاجة إلى تغيير الكهنوت، وقيام كاهن آخر ليس من نسل فينحاس؟

فإن قال المتكلّف: يجوز نقض الميثاق وخلف الوعد الأبدي بعد ألف وخمسمائة سنة. لأنّ ما عتق وشاخ فهو قريب من الاضمحلال[١].

قلنا: لئن رضيتم لأنفسكم بهذا القول فإنّ في العهد القديم أيضاً ما يدلّ على أنّه وقع الخلف للوعد الأبدي والتبديل للحكم بعد يوم أو ساعة أو أقلّ.

٢. عالي وكهنوت بيته

ففي ثاني صموئيل الأوّل أنّ رجل الله قال لعالي الكاهن عن قول الله:

لذلك يقول الربّ إله إسرائيل: إنّي قلت إنّ بيتك وبيت أبيك يسيرون أمامي إلى الأبد[٢].

فوَعَد الله وأخبر بأنّه قضى وقدَّر أنّ بيت عالي وبيت أبيه يسيرون أمامه جلّ شأنه في وظيفة الكهنوت إلى الأبد. ولكن قال رجل الله أيضاً على الأثر:

---

١. رسالة بولس إلى العبرانيّين ٨: ١٣.

٢. سفر صموئيل الأوّل ٢: ٣٠.

والآن يقول الربّ: حاشا لي فأنّي أُكرِم الذين يُكـرِمونني والذيـن يـحتقرونني يَصغَرُون. هوذا تأتي أيّام أقطع فيها ذراعك وذراع بيت أبيك[١].

إلى آخر ما يشرح فيه ابتلاءهم وحرمانهم من وظيفة الكهنوت.

ومن الظرائف أنّ المتكلّف أطال الكلام في شأن زوال الكهنوت عن بـيت عـالي. واعتذر تبعاً لكتابه بفسق أولاد عالي وقال في قبال إظهار الحقّ: «هل مقصود المعترض أن تبقى الإمامة في بيت عالي بعد اقتراف ابنيه الفسق؟»[٢].

قلنا: هل يخفى على أحد أنّ حقيقة اعتراض إظهار الحـقّ[٣] هو أنّه كيف قبلتم من كتبكم صراحتها بأنّ الله أخبر بأنّه قضى وقدّر أمراً أبديّاً، وهو مقرون بحكم شرعي، بل أحكام عديدة ترجع إلى وظائف الكهنوت، ثمّ ينقض الله هذا القضاء المبرم ويرفع أحكامه؟ أفتقول: إنّ الله حين قضى ذلك الأمر المؤبّد المـقرون بـالأحكام الشـرعيّة المؤبّدة بتأبيده، لم يكن عالماً بأنّ ابني عالي سيفسقون، وإلّا لما قضى قضاءً أبديّاً ثمّ نقضه؟ تعالى الله عن ذلك.

٣. مملكة شاول

وفي ثالث عشر صموئيل الأوّل:

فقال صموئيل لشاول: انْحَمَقْتَ لم تحفظ وصيّة الربّ إلهك التي أمرك بها؛ لأنّـه الآن ثَبَّت الله مملكتك على إسرائيل إلى الأبد. والآن مملكتك لا تقوم انْتَخَبَ الله له رجلاً حسب قلبِه[٤].

٤. موت حِزْقِيا وشفاؤه

وفي الثامن والثلاثين من إشَعْياء: أنّ حِزْقِيّا ملك يهوذا مرض للموت فـجاء إليـه

١. سفر صموئيل الأوّل ٢: ٣٠ ـ ٣١.

٢. الهداية ٤: ١٧٦.

٣. إظهار الحقّ ٣: ٦٦٧ فمابعد.

٤. سفر صموئيل الأوّل ١٣: ١٣ ـ ١٤.

إشَعْياء النبيّ وقال له: هكذا يقول الربّ أوصِ بيتك لأنّك تموت ولا تعيش، فصلّى حَزَقِيّا واستغاث إلى الله وبكى، فلم يخرج إشَعْياء النبيّ إلى المدينة الوسطى حتّى كان كلام الربّ إليه قائلاً: قل لحِزْقِيّا هكذا يقول الربّ: قد سمعت صلاتك ها أناذا أُضيف إلى أيّامك خمس عشرة سنة. وأعطاه علامة برجوع الظلّ إلى الوراء عشر درجات[١].

وليت شعري ماذا يقولون هاهنا؟ أيقولون: إنّ قول الله وإخباره بأنّ حَزَقيّا يموت ولا يعيش، كان عن مشيئة وإرادة لموته ثمّ عدل عن ذلك بواسطة الصلاة؟ أم يقولون بأنّ الله لمّا أراد موت حِزْقِيّا لم يكن عالماً بأنّه يصلّي ويستغيث به؟ أم يقولون بأنّ الله يخبر بأنّه يفعل شيئاً في المستقبل وهو لا يريد أن يفعله ولا يفعله؟ أم يقولون بأنّ النبيّ كذب بذلك على الله كما أعطت التوراة عن كلام الله علامة على كذب النبيّ في مثل ذلك؟[٢]

فإن قلت: ألستم معاشر المسلمين تقولون باستجابة الدعاء، وفي قرآنكم في سورة المؤمن قول الله: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٣] وفي سورة الرعد: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾؟[٤]

قلنا: لا نجوّز مثل هذا وأن يقول الله: أفعل هذا الشيء الخاصّ، ثمّ لا يفعله، ولو لأجل الصلاة والدعاء وغير ذلك.

وأمّا الآيات الشريفة فسنبيّن لك ـ إن شاء الله عند التكلّم في معارف القرآن ـ أنّها أجنبيّة عن مثل هذا التناقض والتشويش ونسبة النقائص إلى جلال الله وقدسه تعالى شأنه. ويتّضح لك أنّ قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ رافع لحجاب الوهم عن حقائق العرفان وفذلكات المعقول.

وَ لْيُعْلَم أنّ إظهار الحقّ[٥] لم يقل: إنّ الصلاة واستجابة الدعاء من الناسخ والمنسوخ،

---

١. سفر إشَعْياء ٣٨: ١ ـ ٩؛ سفر الملوك الثاني ٢٠: ١ ـ ١٢.

٢. سفر التثنية ١٨: ٢١ و ٢٢.

٣. المؤمن ـ غافر ـ (٤٠): ٦٠.

٤. الرعد (١٣): ٣٩.

٥. إظهار الحقّ ٣: ٦٧٤.

كما توهّمه المتكلّف، بل لا يخفى أنّ مراده هو أنّ إشَعيا أخبر حِـزْقِيّا بأنّ الله أوجب عليه الوصيّة إلى أهل بيته معجَّلة؛ لأنّه يموت ولا يعيش. ولابدّ أن يرتفع هذا الحكم الذي كان معجَّلاً لأجل ضيق الوقت بسبب الزيادة في عُمر حِزْقِيّا خمس عشرة سنة.

فلماذا لا يقول المتكلّف في هذه الأمثلة الأربعة: إنّ ملك الملوك وربّ الأرباب لا يُعقَل ويُتَصَوّر أن يقضي قضاءً أبديّاً، أو يُقَدِّر أمراً إلى الأبد، أو يخبر بوقوع شيء ويَقرن كلّ ذلك بحكم شرعي، ويكون كلّ هذا قابلاً للنقض والخلف والتبديل بعد مدّة أو ساعة أو يوم؟ أفليست أعمال الله هنا منزّهة منذ الأزل عن التناقض والتشويش، ومعلومة عند الربّ منذ الأزل جميع أعماله؟[١]

أفهاهنا ينبغي أن يقال ما قاله المتكلّف؟ أم في النسخ الذي تنادي في بيان حقيقته ألسنة المسلمين وأقلامهم، وتبيّن بصراحتها لكلّ ذي فهم وكلّ مستقيم بأنّه على نحو معقول لا تلزم فيه هذه المحاذير؟ ويُوَضِّحون بأنواع الإيضاح أنّ مبناهم فيه وحقيقته، هو أنّ الله يعلم منذ الأزل بما يناسب من الأحكام لمصالح العباد المختلفة بحسب الأزمان والأحوال، فجعل في مخزون علمه لكلّ مصلحة ما يناسبها في اللطف والحكمة من الأحكام المحدودة بحدّها. ثمّ أظهر الله أحكامه لعباده بواسطة أنبيائه غير محدودة بحدودها المعلومة عنده لحكمة اقتضت ذلك، فإذا انقضى حدّها المخزون في علمه أشعر عباده أيضاً بالحكم المناسب للمصلحة المتجدّدة على ما كان مكنوناً في علمه، جلَّت آلاؤه. ولا يُجَوِّزون النسخ فيما لو قال الله: إنّ هذا الحكم دائم أبداً. وكذا لو قال: إنّ هذا الحكم ثابت في حقّ العباد إلى سنة مثلاً؛ فإنّهم لا يُجوِّزون نسخَه قبل السنة؛ لحصول التناقض والتشويش بين الأجل وإبطاله بالنسخ قبل انتهائه.

أترى المتكلّف لا يعلم بهذا كلّه من مذهب المسلمين؟ أو أنّه يعلم ولكنّه ماذا يصنع في أمر انعقدت عليه المجامع، وكلّف نفسه مؤونة تمويهه إغماضاً عن العاقبة؟

ثمّ إنّه قد ضجر من كثرة تعداد الأمثلة في إظهار الحقّ لما في العهدين من النَسخ[٢]،

---

١. سفر أعمال الرسل ١٥: ١٨.

٢. إظهار الحقّ ٣: ٦٤٨ ـ ٦٨٠.

فشذّ به الضجر، إلى تعداد الأضداد المتقابلة[١]، وكأنّه قد طالع في ذلك الوقت كتاب المحاسن والأضداد[٢] للجاحظ فَعَلِق ذلك في مخيّلته. وحقّ له أن يضجر فإنّه أَلِف من المنقول عن الرسل وبولس نَسخَهم للشريعة جملة واحدة ـ فيما عن قولهم: ما طَهّره الله فلا تُنَجّسه أنت. لا نضع عليكم ثقلاً أكثر من هذه الأشياء الامتناع عمّا ذبح الأوثان والدم والمخنوق والزنى. كلّ شيء طاهر للطاهرين. كلّ خليقة الله جيّدة إذا أُخذت مع الشكر ـ فإنّه يصير إبطال الوصيّة السابقة من أجل ضعفها وعدم نفعها. ومن هنا قال القسّيس سايل وكذا كاتب الرسالة المنسوبة لعبد المسيح: «إنّ الله تساهل مع اليهود فأعطاهم فرائض غير صالحة وأحكاماً لا يحيون بها»[٣].

فيامن لم يسلب التعصّب رشده، أفهذه الأقوال في شأن الشريعة توافق حكمة الله ولطفه وعلمه؟ ويكون النسخ على ما أوضحه المسلمون من حقيقته منافياً لحكمة الله وعلمه، كما يزعمه المتكلّف؟[٤]

ثمّ انظر فهل ترى هذه الأقوال تعطي ما يقول المتكلّف:

إنّ الديانة اليهوديّة هي ذات الديانة المسيحيّة، والمسيحيّة هي ذات اليهوديّة، فإنّ أعمال الله منذ الأزل منزّهة عن التناقض والتشويش[٥].

أو أنّها كما عن بولس: لو كان الأوّل بلاعيب، لما طُلب موضع لثان. وكما عن يعقوب الرسول: أرى أن لا يثقل على الأُمم؛ لأنّ موسى منذ أجيال قديمة له في كلّ مدينة من يكرز به إذ يقرأ في المجامع في كلّ سبت؟[٦]

فهل ترى لهذا الكلام مرمى إلّا أنّه يحثّ على ترويج أمر المسيح بالتخفيف الموافق

---

١. انظر الهداية ٤: ١٩٢ و١٩٣.

٢. هو أحد كتب عمرو بن بحر الجاحظ المتوفّى ٢٥٥هـ، ذكر فيه قصصاً عن محاسن الأخلاق وقصصاً عن مساوئها، وقد طبع مرّات آخرها طبعة دار الجيل ١٤١٧هـ وهي طبعة تجاريّة.

٣. مقالة في الإسلام: ٢٢٦.

٤. الهداية ٤: ١٥٥.

٥. المصدر: ١٥٨.

٦. أعمال الرسل ١٥: ١٩ و٢١.

لأميال الأُمم وأهوائه، وأنّ موسى له من يروّجه، وقد استوفى حظّه من الترويج؟

إنكار المتكلّف ما في العهد الجديد

ومع هذا كلّه ينكر المتكلّف ما قاله إظهار الحقّ من أنّ المنقول عن الحواريّين أنّهم نَسخوا أحكام التوراة العمليّة غير الأربعة. وعن بولس أنّه نَسخ ثلاثة منها أيضاً[١]. ويقول:

> إنّ هذا إفك مبين، فَأْتوا ببرهانكم إن كنتم من الصادقين. فبولس كان من أعظم المناضلين عن العفّة والتقوى، وهو الذي قال: أنا فرّيسي. يعني أنّه عريق في الديانة الإسرائيليّة. وعلى كلّ حال فأيّد أقوال الرسل؛ لأنّه لم يأت أحدهم منهم شيئاً إلّا بوحي الروح القدس[٢].

ويقول أيضاً:

> إنّ الرسول ـ يعني بولس ـ لم يقل: إنّ الشريعة الموسويّة ضعيفة معيبة غير نافعة، حاشاه من ذلك[٣].

أقول: إذاً فمن هو الذي قال في سابع العبرانيّين: «فإنّه يصير إبطال الوصيّة السابقة من أجل ضعفها وعدم نفعها؛ إذ الناموس لم يكمل شيئاً»[٤]، وفي الثامن: «فإنّه لو كان الأوّل بلا عيب، لما طُلِب موضع لثانٍ»[٥]، وغير ذلك ممّا تقدّم؟

ويقال: إنّ بعض الحيوانات الوحشيّة إذا رأى الناس وخاف منهم وأراد أن يتستّر عن عيونهم، أدخل رأسه في الرمل وأبقى سائر بدنه بارزاً، وذلك لأجل توهّمه بأنّه إذا كان لا يرى الناس لدفن عينيه فالناس أيضاً لا يرونه وإن كان بارزاً لهم. وهل تراه إذ قال له الناس: رأيناك، يقول: إنّ هذا إفك مبين فأتوا ببرهانكم إن كنتم من الصادقين؟

---

١. إظهار الحقّ ٣: ٦٦٠ـ٦٦١.

٢. الهداية ٤: ١٩٣.

٣. المصدر ١: ٢٧٣.

٤. الرسالة إلى العبرانيّين ٧: ١٨ـ ١٩.

٥. الرسالة إلى العبرانيّين ٨: ٧.

دع هذا، وهب أنّ ماعن بولس يناضل عن العفّة والتقوى، وهب أنّه أيّد أقوال الرسل لأنّه لم يأت أحد منهم إلّا بوحي من الروح القدس، ولكن قل: هل أبقت كلماتهم التي طرقت سمعك في هذه المقدّمة أثراً لأحكام التوراة العمليّة، أم لاشتها جملة؟ ولا نكلّفك أن تقول: إنّ ذلك كان بنحو العيب لها، وبيان عدم النفع فيها، وطلباً للتخفيف موافقة لأهواء الأُمم واستمالة لقلوبهم؛ لأنّ موسى قد استوفى حقّه من الترويج.

فإن قلت: إذا كان معنى النسخ بالنحو الذي كَشَفْت عنه من مراعاة المصالح بمناسباتها من الأحكام المخزونة في علم الله، وكان تبديل الشرائع المنسوبة إلى العهدين بهذا الشيوع البالغ إلى حدّ الملاشاة، إذاً فما هو الوجه في إصرار المتكلّف وأمثاله على إنكار وقوع النَسخ في أحكام الله بهذا الإنكار؟

قلت: إن شئت أن تتعجّب فتعجّب. وإن شئت قلت: إنّهم قد استحسنوا وأَلِفوا راحة نحلتهم وإطلاقهم من قيود الشرائع بسرّ الفداء، فَحَصَّنوا دوامها بدعوى امتناع النسخ في الأحكام الإلهيّة، مقاومةً لما يدهمهم من النبوّات بشريعة الحقّ المصلحة لأسباب الكمال ونظام المدنيّة وسعادة الدارين.

وخلاصة الكلام معهم ـ مع ما تراه من التفاوت والاختلاف الباهظ بين الديانة اليهوديّة حسب العهد القديم، وبين الديانة النصرانيّة حسب العهد الجديد ـ هو أنّ قولهم: إنّ الديانة اليهوديّة هي ذات الديانة المسيحيّة، أي النصرانيّة الرائجة، وبالعكس. إن أرادوا منه أنّهما متّحدتان في الأحكام العمليّة، فهو باطل بالوجدان؛ إذ لا يخفى على أحد أنّه ليس في النصرانيّة الرائجة شيء من أحكام التوراة العمليّة. وإن أرادوا أنّهما متّحدتان من حيث الإيصال إلى المعارف الحقّة، وشرائع التكميل، وحفظ المدنيّة والسعادة، وإن اختلفتا في الأحكام العمليّة رعاية لمصلحة الحال والوقت، بل هذا الاختلاف ناشئ من اتّحادهما في رعاية الغاية المطلوبة.

قلنا بعد غضّ النظر عن المباحثات في مضامين هذا الكلام: إنّا معاشر المسلمين جميعاً لنقول تبعاً لرسول الله وكتاب الله: إنّ الإسلام متّحد مع الشريعة الموسويّة الحقيقيّة والمسيحيّة الحقيقيّة، وكلّ شريعة حقّ من حيث الغاية المطلوبة، وإن اختلف

معهما في بعض الأحكام العمليّة رعاية للغاية الصالحة.

ولو قلنا بأنّ اليهوديّة والنصرانيّة الرائجتين هما الحقيقيّتان، وأنّ كتبهما الرائجة هي الكتب الأصليّة. لقلنا: إنّ الإسلام أكمل منهما في أسباب الوصول إلى الغاية والترقّي في كمالاتها. كما يشهد بذلك خلوّ التوراة الرائجة من معارف القيامة والثواب الدائم النعيم والعذاب الأليم، اللذين هما أولى بالرغبة والرهبة. ولم يقع الترغيب للطاعة في التوراة إلّا بطفيف من زخارف الدنيا الفانية، التي طالما تنعّم بها المشركون بأضعاف ما حصل عليه الموحّدون. ولم يقع الترهيب فيها والتخويف من وبال المعصية والتمرّد على الله، إلّا بالفقر والآلام المنقضية والموت المحتوم على العباد، ممّا يشترك به الناس برُّهم وفاجرهم.

وكما يشهد بذلك أيضاً خلوّ الإنجيل عن مناسبات المصالح من الأحكام، بل قدألغى لوازم الإصلاح وضروريّات المدنيّة من قوانين السياسة وأحكام الدفاع، حتّى اضطرّ جميع متّبعيه إلى مخالفته بتشريعها في ممالكهم حسب ما استحسنه عقلاؤهم، وإن لم يكن مستنداً إلى الوحي الإلهي.

وأيضاً إنّ المسيح قضى ثلاث سنين من نبوّته واليهود في أشدّ المضايقة له، وبالضرورة لا يمكنه في ذلك نشر ما عنده من التعاليم المخالفة للأهواء. وغاية ما يذكر في الإنجيل أنّه كان يعلّم بمكارم الأخلاق، والذمّ لرياء المُتَرَئِّسين في الدين ومخالفتهم للشريعة. وهذا ممّا تنشرح له قلوب العامّة ويقبلون إليه. ومع ذلك كان يفرّ بتعليمه هذا من مكان إلى مكان. وناهيك ما يقوله الإنجيل من أنّه لم يستطع أن يجاهر بأنّ قيصر الوثني في ذلك الوقت لا يستحقّ أخذ الجزية من بني إسرائيل الموحّدين. بل كان يُوَرِّي ويتَحرَّف فيه حينما سأله اليهود، ونصبوا له بذلك شبكة ليعرقلوه بالجواب[1]، بل كان بنفسه يعطي الجزية لقيصر[2].

١. انظر إنجيل متّى ٢٢: ١٥ ـ ٢٢؛ إنجيل مرقس ١٢: ١٣ ـ ١٨؛ إنجيل لوقا ٢٠: ٢٠ ـ ٢٦.

٢. إنجيل متّى ١٧: ٢٤ ـ ٢٧.

اللعنة على من لايقيم الناموس

فإن قلت: إنّ لليهود حجّة شرعيّة على امتناع النَسخ للشريعة الموسويّة، وذلك لقول التوراة: «ملعون من لا يقيم كلمات هذا الناموس ليعمل بها»[1].

قلنا: من شروط صحّة الاحتجاج بذلك أن تكون التوراة متواترةً متّصلةَ السَنَد غير مُحَرَّفة. وهذا واضح البطلان كما يعرف من متفرّقات كتابنا، وخصوص المقدّمة السادسة[2]، فقد ذكرنا فيها شهادة كتاب إرميا في موضعين منه بتحريف اليهود للتوراة وكلام الله. وشهادة كتاب إشَعْياء بتحريف اليهود. وكذا المقدّمة الخامسة[3]، فقد أوضحنا فيها انقطاع سند التوراة، وستأتي إن شاء الله زيادة الإيضاح لذلك في المقدّمة الثالثة عشر. وكذا المقدّمة العاشرة[4]، فقد أوضحنا فيها بطلان دعوى اليهود تواتر التوراة إلى موسى عليه السلام.

هذا كلّه مضافاً إلى ما في متفرّقات كتابنا من بيان الموانع الداخليّة في التوراة الرائجة من صحّة سندها إلى الوحي.

ومن شروط صحّة الاحتجاج بما تذكره أيضاً دلالته على أنّه لا تجيء بعد ذلك شريعة إلهيّة بواسطة نبيّ حقّ تجب طاعته وسماع قوله، وليس فيما تذكره شيء من الدلالة على ذلك:

أمّا أوّلاً: فلأنّ المحتمل كون اللعنة المذكورة على من لا يقيم الكلمات المذكورة في السابع والعشرين من التثنية. وتلك الكلمات وأحكامها ثابتة في دين الإسلام على أكمل وجه.

وأمّا ثانياً: فلو فرضنا أنّ اللعنة على مخالفة كلّ أحكام الناموس، فإنّما هي على المتمرّدين على أحكام الناموس ممّن يجب عليهم العمل به، لاعلى الذين يخالفونه

---

١. سفر التثنية ٢٧: ٢٦.

٢. تقدّم في ص ٥٥.

٣. تقدّم في ص ٣٧.

٤. بل في المقدّمة الحادية عشرة ص ٢٢٤.

لأجل اتّباعهم لشريعة حقّ إلهيّة يجب اتّباعها لمناسبة أحكامها لمصالح الزمان المتأخّر. كيف وإنّ التوراة تخبر بأنّ بني إسرائيل خافوا من هيئة خطاب الله لموسى بالشريعة، وطلبوا غير هذه الهيئة، فاستحسن الله كلامهم وأخبرهم بمجيء نبيّ مثل موسى يجعل الله كلامه في فمه، فيكلّم الناس بكلّ ما يوصيه الله به ويجب اتّباعه، والذي لا يسمع له يطالبه الله[1]. وهل هذا إلّا نبيّ يأتي بشريعة تجب طاعتها؟

الأبد في التوراة والعهد القديم

فإن قلت: ولهم حجّة شرعيّة أُخرى على المسلمين، وهي أنّ كثيراً من شريعتهم قد نصّت التوراة على أنّه أبدي وإلى الأبد، وذلك كالكهنوت الهاروني وكثير من شرائعه ومتعلّقاته، وكذا الأعياد والسبت. فيمتنع ماجاء به الإسلام من نسخ هذه الأُمور.

قلنا: وإنّ الاحتجاج بهذا متوقّف على صحّة السند للتوراة الرائجة، وقد ذكرنا أنّه لا سبيل إلى ذلك. ومتوقّف أيضاً على دلالة ما تذكره في الأصل العبراني على التأبيد مدى الليالي والأيّام، وليس كذلك كما يشهد به التتبُّع في العهد القديم العبراني، فإنّ كلّ ما قيل في تعريبه: فريضة أبديّة، فإنّه في الأصل العبراني «حقّت عولم». وما قيل في تعريبه: كهنوت أبديّة، فإنّه في الأصل «كهونة لحقت عولم». وما قيل فيه: فريضة دهريّة، فإنّه في الأصل «حقَّت عولم. وحقّ عولم. ولحقّ عولم». وما قيل فيه: عهد أبدي. وميثاق أبدي، فإنّه في الأصل «بريت عولم». وما قيل فيه: إلى الأبد، فإنّه في الأصل «لعولم وعد عولم».

هذا، وقد قالت التوراة في بعض العبيد: إنّه يخدم سيّده إلى الأبد وفي الأصل العبراني «لعولم»[2]. وإنّ صموئيل قالت أُمّه بحسب نذرها له في خدمة بيت الربّ: إنّه يقيم هناك إلى الأبد وفي الأصل «ويشب شم عد عولم»[3] مع أنّ نذرها له هو أن تعطيه

١. انظر سفر التثنية ١٨: ١٥ ـ ٢٠.
٢. سفر الخروج ٢١: ٦.
٣. سفر صموئيل الأوّل ١: ٢٢.

للربّ كلّ أيّام حياته[١]. وفي المزامير: حِدْ عن الشرّ وافعل الخير واسكن إلى الأبد «ع لعولم»[٢] وفي المزمور المائة والتاسع عشر: فاحفظ شريعتك دائماً إلى الدهر وإلى الأبد «ع لعولم وعد»[٣]. إلى الدهر لا أنسى وصاياك «ع لعولم»[٤].

وهذا قليل من كثير تعرف به أنّ لفظ «عولم» في العبرانيّة غير مختصّ بالتأبيد إلى آخر الزمان ولا يدلّ على ذلك، بل غاية ما نسلّم من دلالته على دوام الشيء مدّة استعداده المجعول له. فالعبد يخدم مدّة عمره مالم يتلف السيّد عينه أو سنّه. وصموئيل يسكن أمام الربّ مدّة عمره. وفاعل الخير يسكن مدّة عمره. والشريعة يحفظها. والوصايا لا ينساها مدّة عمره. والأحكام المذكورة في الاعتراض تدوم مادامت الشريعة الموسويّة قائمة لم تنسخ بشريعة النبيّ المماثل لموسى، كما أخبرت به التوراة[٥]. على أنّ لنا أن نقول: إنّ لفظ «عولم» في التوراة جاء مُنَكَّراً غير مقرون بعلامة التعريف وهي الهاء في العبرانيّة، فلا يدلّ إلّا على زمان من الأزمنة. وأمّا التعريف في العربيّة فإنّما هو من المترجمين.

استئناف للكلام مع المتكلّف

قال:

> الاعتقاد بالنسخ هو أن يأتي الإنسان بطريقة أو مبدأ، ثمّ ينسخه ويدّعي أنّه من عند الله. وهو مناف للعقل السليم والذوق المستقيم، والديانة الصحيحة منزَّهة عنه وبريئة منه.
>
> نعم، لا ننكر أنّ تجسُّد الكلمة الأزليّة هو فوق عقولنا، ولكنّه موافق للعقل. والقرآن ناطق بأنّ المسيح كلمة الله وروح منه أُخذ جسداً من مريم بدون واسطة

---

١. سفر صموئيل الأوّل ١: ١١.

٢. سفر المزامير ٣٧: ٢٧.

٣. سفر المزامير ١١٩: ٤٤.

٤. سفر المزامير ١١٩: ٩٣.

٥. سفر التثنية ١٨: ١٥ ـ ٢٠.

بشريّة، بل حُبلَ به بالروح القدس. وهذا الاعتقاد موافق للعقل والنقل، بل أظهرَ تَنزّه صفات الله عن النقص والعيب وأنّه لايبرئ المذنب إلّا إذا استوفى حقَّه وعدله. أمّا الاعتقاد بالنَسخ فإنّه يحطّ بصفات حكمته وعلمه وإرادته ومشيئته. وشتّان بين العقيدتين[١].

أقول: قد بيّنّا لك معنى النَسخ، وكشفنا لك عن حقيقته، بما يتّضح به لك توهُّمُ المتكلّف أو مغالطته في تعريفه له. وكشفنا لك عن كونها أنسب بحكمة الله ولطفه في مراعاة مصالح العباد المختلفة، بحسب الأحوال والأوقات، على وجه عرفتَ أنّ الناسخ والمنسوخ سابقان في علم الله، صادران عن مشيئته وإرادته، منبعثان عن حكمته ولطفه وعلمه منذ الأزل بمناسبات الأحوال والأوقات. فجعل جلّ شأنه كلّاًمن الناسخ والمنسوخ بإزاء مصلحته، وحَدَّه بحَدِّها في مكنون علمه، فأظهرهما لعباده بواسطة أنبيائه على مقتضى حكمته البالغة ورحمته الواسعة، فلا نُضجِر سمعَك بتكرار بيانه. وإن كانت مضامينه تسبيحاً لله ببيان حكمته ولطفه وعلمه ومراحمه بعباده، بما يرتاح به العقل السليم ويستعذبه الذوق المستقيم.

وقد قدّمنا لك في الأمثلة المتعدّدة عن العهدين صراحتها على مذاق المتكلّف بأنّ نوحاً وموسى وداود وحَزْقِيال والمسيح والرسل وبولس، كلّ واحد من هؤلاء قد جاء بحكم تشريعاً أو إمضاءً ثمّ نسخه، ويدّعي أنّه من عند الله[٢].

وهلمّ واعجب من اقتحام المتكلّف وتهوُّره، فكأنّه أحرز الموفّقيّة في أقواله في النسخ، فاقتحم بقوله: «نعم لا ننكر أنّ تجسُّد كلمة الله الأزليّة هو فوق عقولنا، ولكنَّه موافق للعقل». فسله وقل له: إذا كان ذلك فوق عقولكم، فكيف تحكم بموافقته للعقل؟ وإذ حكمت بأنّه موافق للعقل فكيف يكون فوق عقولكم؟

أو تدري ما هو تجسُّد الكلمة عند المتكلّف؟ هو أنَّ الإله، أُقنوم الابن، ثالث

---

١. الهداية ٤: ١٥٩.

٢. راجع ص ٢٨٣ ـ ٣٠٢.

الثالوث، الذي هو واحد حقيقة، وثلاثة حقيقة، قد تجسّد في الأرض وتوشّح الطبيعة البشريّة، فأخذ جسداً من مريم، وبقي أُقنوم الأب وأُقنوم الروح القدس في السماء. وبعد ثلاثين سنة انفتحت السماء ونزل أُقنوم الروح القدس على شكل حمامة جسميّة وحلّ على أُقنوم الأبن المتجسّد، وبقي الأب في السماء. وصار أُقنوم الابن المتجسّد، وأُقنوم الروح القدس الحالُّ عليه في الأرض، يجرّب من إبليس أربعين يوماً، إلى أن ذهب به إبليس إلى جبل عالٍ وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة، وأطمعه بأن يعطيها له على أن يسجد الإله المتجسّد لإبليس. ثمّ جاء به إبليس من البرّيّة إلى أُورشليم وأوقفه على جناح الهيكل ممتحناً له. ثمّ بقي بعد ذلك ثلاث سنين يقاسي الاضطهاد من الناس، حتّى إذا دنا وقت الصليب حزن وبكى وتضرّع إلى أُقنوم الأب في أن تعبر عنه كأس المنيّة. ولكنّ الأب لم يشأ ذلك. وإذ آلمه الاضطهاد قال للأب: إلهي إلهي لماذا تركتني؟ وإذ دنا منه الموت صرخ بصوت عظيم وقال: يا أبتاه في يديك استودع روحي. وأسلم الروحَ ودفنوه، وفي اليوم الثاني أقامه الله من الأموات وارتفع إلى السماء، وجلس عن يمين الله، هذا كلّه جرى على الكلمة المتجسّدة، والإله الذي توشّح الطبيعة البشريّة ليرفع قدرها.

اسمع هذا ولا تقل: كيف وكيف، فإنّ هذا بزعم المتكلّف ممّا يهتزّ له العقل السليم طرباً، ويتطعّم به الذوق السليم استلذاذاً. غفرانك اللهمّ سبحانك وتعاليت. وليس هذا مقام التعرّض لما في ذلك، فدعه إلى مجيء محلّه إن شاء الله، وإن كان ما فيه لا يخفى على من عرف جلال الله وأقرّله بالقدرة والوحدانيّة.

وأمّا قول المتكلّف بأنّ القرآن ناطق بأنّ المسيح كلمة الله وروح منه، فاستمع لموقع ذلك من سياق القرآن الكريم، وانظر إلى أنّه هل يسعف المتكلّف بشيء من الموافقة، أم أنّه يجبهه بالمقاومة ويجاهر بإبطال مزاعمه ودحض أضاليله؟

قال الله جلّ اسمه في سورة النساء: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ

لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً * لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾[١].

ومعنى كون المسيح كلمة الله هو كونه أثراً لقوله تعالى: «كن» على خلاف العادة في تناسل البشر. ولا تحسب أنّ معنى ذلك يوافق ما في كتب إلهام المتكلّف فإنّ فيها مانصّه: وكان الكلمة الله[٢].

والمتكلّف يقول: «إنّ الكلمة الأزليّة هي الله»[٣] كما استشهد به المتكلّف[٤].

وأين والآية الشريفة تكافح ذلك وتعلن بالتوحيد وبطلان التثليث، وتنزّه الله عن نسبة الولد إليه تعالى شأنه، وتصرّح بأنّ المسيح عبدالله ولن يستنكف من ذلك.

وعلى مثل هذا جاء قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾. فإنّ المراد أنّه روح مخلوقة لله أُودِعَت في مريم لا بواسطة نطفة وتوالد عادي، بل هي من ناحية قدرة الله الباهرة.

وليس كما يحاول المتكلّف جرياً على كتابه القائل: الله روح[٥]. وأمّا الربّ فهو الروح[٦]. بل هي على نحو قول الله تعالى في شأن آدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾[٧]. وعلى نحو قول التوراة عن قول الله تعالى: «لايدين روحي في الإنسان إلى الأبد»[٨].

ثمّ إنّ المتكلّف بعد اعترافه أوّلاً بأنّ تجسّد الكلمة الأزليّة فوق العقول، أقدم على مصادمة العقل والنقل فحكم بأنّه موافق لهما. ولم يكتف بذلك بل قال: إنّ تجسُّد الكلمة ـ وهو بالنحو الذي شرحناه لك[٩] ـ أظهر تنزّه صفات الله عن النقص والعيب. وكأنّه لو

---

١. النساء (٤): ١٧١ـ١٧٢.

٢. إنجيل يوحنّا ١: ١.

٣. الهداية ٢: ٣٨ س ٤.

٤. المصدر: ٢٩٠.

٥. إنجيل يوحنّا ٤: ٢٤.

٦. رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس ٣: ١٧.

٧. الحجر (١٥): ٢٩، و ص (٣٨): ٧٢.

٨. سفر التكوين ٦: ٣.

٩. تقدّم في ص ٣٤٥.

لم تنفصل الكلمة أُقنوم الابن عن الأب ويتجسَّد على الأرض ويجري عليه ما ذكرنا من كتب إلهامهم من تصرُّف إبليس به، وإطماعه بالممالك المسكونة ليسجد له. وتوارد الاضطهادات عليه. بل كان الله واحداً قهّاراً عزيزاً غير مثلّث ولا متجزّئ ولا مضطَهَد، لكانت صفاته غير منزّهة عن النقص والعيب. سبحانك اللهمّ وتعاليت.

وأمّا قول المتكلّف: «إنّ الله لا يبرّئ المذنب إلّا إذا استوفى حقَّه وعدله» فليت الكامل والناقص والفاهم والغبيّ يسألونه: كيف أظهر تجسُّدُ الكلمة أنّ الله لا يبرّئ المذنب إلّا إذا استوفى حقَّه وعدله. فهل يقول: إنّ العقل والأنبياء والعهد القديم قد قصَّروا في بيان هذه الحقيقة، أو قَصُروا عنه.

المتكلّف وسرّ الفداء

أم يريد المتكلّف ما يلهج به من سرّ الفداء، وأنّ الله استوفى حقَّه من الخاطئين وعَدَلَه باضطهاد الفادي الكريم وذبيحته. فإنّه قال:

> وعقاب الخطيئة هو الموت في جهنَّم إلى الأبد؛ لأنّ المولى سبحانه وتعالى قدّوس طاهر وعدله يستلزم عقاب الخطيئة بهذه الكيفيّة، فالمسيح احتمل في جسده ماكنّا نستوجبه من العقاب ووفى ما كان علينا من الدين[١].
>
> وإنّ الكلمة الأزليّة أو ابن الله بموته وَفَى للعدل الإلهي حقَّه[٢].
>
> وإنّ الله سبحانه وتعالى حكم في كتابه العزيز بأنّ كلّ نفس تخطئ موتاً تموت في جهنّم النار إلى الأبد؛ لأنّ عدله يستلزم هذا القصاص لقداسته التي لاتحدّ، ولمقته الخطيئة مقتاً شديداً، فلا يمكن أن يغضّ الطرف عن قصاص الخاطئ لقداسته وكراهته الخطيئة[٣].
>
> وإنّ الله سبحانه وتعالى أظهر رحمته ومحبّته بتجسُّد الكلمة الأزليّة فلبس هذا الجسد، وكان يلزم أن يكون الفادي طاهراً قدّوساً منزّهاً عن النقص، حتّى يَفِيَ

---

١. الهداية ٢: ٢٩١.

٢. المصدر ٤: ٢٤٧.

٣. المصدر: ٢٧٩.

للعدل الإلهي حقَّه ويخلِّص الخطأة. فالمسيح يسوع قام بهذا الأمر وقدّم نفسه فداءً عنّا. فالعدل الإلهي كان يستوجب عقابنا وموتنا ـ أي في جهنّم النار إلى الأبد ـ فمات الفادي الكريم عوضاً عنّا ووفَى للعدل الإلهي حقَّه[١].

فدقّق في حفظ هذه المضامين على ذهنك، وقل للمتكلّف: لماذا لا يمكن الله أن يغضّ الطرف عن قصاص الخاطئ؟

مغفرة الله ورحمته وجوده

ومن ذاالذي يمنعه عن المغفرة للخاطئ بجوده ورحمته الواسعة، كما يعاقبه بعدله وقداسته؟ أفلم يكن له نصيب من جود الفادي الكريم ورحمته؟ أفلم يقل العهد القديم: إنّ الله إله رحيم ورؤوف، غافر الإثم والمعصية والخطيئة[٢]. وغفور وكثير الرحمة لكلّ الداعين إليه[٣]. والذي يغفر جميع ذنوبك[٤]. ومن هو إله مثلك، غافر الإثم وصافح عن الذنب[٥]. وللربّ إلهنا المراحم والمغفرة[٦]. وإله غفران[٧]. وعن قوله تعالى: «أنا هو الماحي ذنوبك لنفسي وخطاياك لا أذكرها»[٨]. قد مَحَوْتُ كَغَيمٍ ذنوبَك وكسحابٍ خطاياك[٩]. وفي المزمور الخامس والعشرين: اذكرني أنت من أجل جُودِك يا ربّ[١٠]. وفي الحادي والثلاثين: ما أعظَمَ جُودَك الذي ذَخَرْتَه لخائفيك[١١]!

---

١. الهداية ٤: ٢٨٠.
٢. سفر الخروج ٣٤: ٦و٧، ونحوه في سفر العدد ١٤: ١٨.
٣. سفر المزامير ٨٦: ٥.
٤. سفر المزامير ١٠٣: ٣.
٥. سفر ميخا ٧: ١٨.
٦. سفر دانيال ٩: ٩.
٧. سفر لحميا ٩: ١٧.
٨. سفر إشَعْياء ٤٣: ٢٥.
٩. سفر إشَعْياء ٤٤: ٢٢.
١٠. سفر المزامير ٢٥: ٧.
١١. سفر المزامير ٣١: ١٩.

وفي تاسع زكريّا: ما أجْوَدَه[١]!

أفلم يمكن لله جلّ جلاله أن يتّصف بهذه الصِفات إلّا أن تتجسّد الكلمة على الأرض ويجري عليها ما جرى من الاضطهاد؟

ثمّ اجمع في ذهنك ما تقدّم من كلمات المتكلّف مع قوله: «إنّ الكلمة الأزليّة هو الله»[٢]، وقوله: «المسيح هو الله»[٣]، وقوله: «المسيحيّون يعتقدون بأنّ الذات العليّة والكلمة الأزليّة والروح القدس هم الله الواحد الأحد»[٤]. وخذ حاصل هذه الأقوال في ذهنك، ثمّ ليقرّر لك المتكلّف أو بعض محبّيه بقيّة كلامه في سرّ الفداء، ولا تدعه يطوي الكلام على غَرِّه[٥]. بل دَقِّق في السؤال منه وجادله بكلامه.

فإذا قال: إنّ الله أظهر رحمته ومحبّته بتجسُّد الكلمة.

فقل له: إنّ عليك أن لا تُعمِّي، بل تقول حسب كلامك وأوّل يوحنّا: إنّ الله أظهر رحمته ومحبّته بتجسُّده.

وإذا قال: فالمسيح احتمل في جسده ما كنّا نستوجبه من العقاب.

فقل له: إنّك قلت: إنّ الكلمة الأزليّة هي الله. والمسيح هو الله. فعليك أن تقول ـ واستغفر الله ـ: فالله احتمل في جسده ما كنّا نستوجبه من العقاب ـ وهو الموت في جهنّم النار إلى الأبد. تعالى الله عن ذلك ـ فينتج من كلامك أنّ الله لا يمكِن أن يغضّ الطرف عن قصاص الخاطئ لعدله وقداسته، فلا يمكن أن يغفر ويعفو حسب رحمته ومحبّته، فلم يجد حيلة لمخادعة عدله وقداسته إلّا أن يتجسّد ويحتمل في جسده ما يستوجبه الخاطئ من العقاب.

أترى لوجعل الإيمان والتقدّس في ناحية، وجعلت خرافات الكفر في ناحية، ففي

---

١. سفر زكريّا ٩: ١٧.

٢. الهداية ٢: ٣٨س ٤.

٣. المصدر ٤: ٢٨٥.

٤. المصدر ٣: ١٧١.

٥. أي على مافيه. وأصله: طوى الثوب على غَرّه: أي على طيّه الأوّل. الصحاح ٢: ٧٦٧، «غ ر ر».

أيّ الناحيتين يكون هذا الكلام؟

فإن قال لك المتكلّف: إن الفادي الذي احتمل في جسده ما كنّا نستوجبه من العقاب هو غير الله.

فقل له أوّلاً: هذا مناقض لقولك ومعتقدك بأنّ الفادي هو المسيح الذي هو الكلمة الأزليّة التي هو الله.

ثمّ قل له: هل من عدل الله القدّوس العادل أن يعاقب غير الخاطئ؟ وكيف أمكن أن يغضّ الطرف عن قصاص الخاطئ؟ أو ليس قد قال كتابكم: إنّ النفس التي تُخطئ هي تموت[١]. وكلّ واحد يموت بذنبه. كلّ إنسان يأكل الحصرم تضرس أسنانه؟[٢].

فهل ترى أحداً من ملوك الأرض يقبل من أحد الأبرياء أن يحتمل بالرغبة ما على المقصّر من الصلب والإعدام؟ ولو أنّ الملك قبل ذلك وأجرى على البريء قصاص المقصِّر وترك المقصِّر آمناً في تمرّده، لعدّه العقلاء ملكاً قاسياً وحشيّاً لا يبغض الخطيئة. على الخصوص إذا كان البريء يطلب من الملك أن تعبر عنه كأس القصاص ويبكي ويحزن ويكتئب ويقول: إلهي إلهي لماذا تركتني؟

فإن قال: إنّ الفادي الكريم لم يحتمل قصاص الخاطئ حسبما يقتضيه العدل الإلهي، وهو الموت في جهنّم النار إلى الأبد. وإنّما احتمل ألم الصلب والاضطهاد والموت في أقلّ من ثلاثة أيّام، ثمّ أقامه الله من الأموات مُكرَّماً مُمَجَّداً، ورفعه إلى السماء فجلس عن يمين الله.

فقل له أوّلاً: إذا كان الفادي الكريم هو الكلمة الأزليّة التي هي الله، والمسيح الذي هو الله، فمن هو الذي أقامه الله؟ ومن هو الذي جلس عن يمين الله؟

وثانياً: إذا كان عدل الله وقداسته ومقته للخطيئة يستلزم عقاب الخاطئ بالموت في جهنّم النار إلى الأبد، فلماذا تنازل عدل الله إلى كون القصاص يوماً وبعض يومين؟ فهل كان العقاب الذي هو لازم العدل مالاً أحوجت ضرورة الوقت إلى تعجيل استيفائه

---

١. سفر حَزْقِيال ١٨: ٤ و ٢٠.

٢. سفر إرميا ٣١: ٣٠.

بالتنزيل الفاحش؟ أم كان هذا التنازل واستيفاؤه من البريء محاباةً للأَثَمَة الخاطئين؟ كيف وكتابكم يقول: إنّ الله ليس عنده محاباة[١]؟ بل النفس التي تخطىء هي تموت.

هذا كلّه مع أنّ الابن إن كان قد أعطى وعداً للأب بهذا الفداء، الذي عرفت موقعه من العدل والقداسة ومقت الخطيئة، فبمقتضى كتابكم أنّه قد استعفى واستقال من هذه المعاملة مع الأب لمّا قرب وقت الاستيفاء ولم يُردها، وقال ـ وهو حزين جدّاً ـ: يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عنّي هذه الكأس[٢]. وكان يصلّي لكي تعبر عنه الساعة إن أمكن وقال: يا أبا الآب كلّ شيء مستطاع لك، فأجز عنّي هذا الكأس[٣]. وجثا على ركبتيه وصلّى قائلاً: يا أبتاه إن شئت أن تجيز عنّي هذه الكأس. وظهر له مَلاكٌ من السماء يُقَوِّيه. وإذ كان في جهاد كان يصلّي بأشدّ لجاجة وصار عَرَقُه كقطرات دمٍ نازلة على الأرض[٤]. ولكن لمّا رأى الحال قد اقتضى التصميم على هذا القصاص والاستيفاء، تنازل عن إرادته التي لاتفيده.

ثمّ قل للمتكلّف عوداً على بدء، وكَرِّر عليه في السؤال وإن ضجر: من هو الكلمة؟ ومن هو الإله العادل؟ ومن هو الأب؟ ومن هو الابن؟ ومن هو الإله الذي تقمّص الطبيعة البشريّة؟ ومن هو الله؟ ومن هو الفادي؟ ومن هو المسيح؟ ألست تقول: هم الله الواحد الأحد، والمسيح هو الله؟ فعليك بقانون البيان والإيضاح في الكلام، خصوصاً في المعارف اللاهوتيّة، أن تقول ـ واستغفر الله ـ: إنّ الله العادل القدّوس الذي يمقت الخطيئة، ويستلزم عدله عقاب الخطيئة بالموت في جهنّم النار إلى الأبد، هو الذي احتمل ما تقولونه وفدى الخاطئين؛ لأنّه أراد أن يظهر رحمته ومحبّته، ولا يمكنه أن يغضّ الطرف عن قصاص الخاطئ لقداسته، فوقعت المخادعة للعدل والقداسة بالتجسُّد والتنازل بالفداء والقصاص.

١. انظر سفر الأيّام الثاني ١٩: ٧؛ الرسالة إلى أهل روميّة ٢: ١١؛ رسالة بطرس الأُولى ١: ١٧.

٢. إنجيل متّى ٢٦: ٣٨ و٣٩.

٣. إنجيل مرقس ١٤: ٣٥ و٣٦.

٤. إنجيل لوقا ٢٢: ٤١ ـ ٤٣.

فإن قال لك: إنّ الفادي غير الله. فكرّر عليه السؤال بما قلناه في قولنا أوّلاً وثانياً.

فإن قال لك كما قال سابقاً: إنّ تجسُّد الكلمة الأزليّة فوق عقولنا.

فقل له: هبك رضيت بأن تعبدالله بما هو فوق عقولكم، ولكن لماذا تتكلّم في النسخ بذلك الكلام الفاحش مع أنّ إظهار الحقّ[1] فضلاً عن غيره من المسلمين قد كشف لك عن حقيقته وأوضح لك معقولها، وأنّها مقتضى لطف الله بعباده وحكمته وعلمه بالمصالح ومقتضياتها، وإصلاح عباده على طبقها. وقد أوقفك على مواقعه في العهدين؟ ولماذا لم تكتف بتكرار قولك: «وعلى كلّ حال فلا ناسخ ولا منسوخ»؟

الإسلام والمتكلّف

ثمّ إنّ المتكلّف بعد أن أودع كتابه مثل هذه الطامّات، التي تشوّه وجه المعقول والمنقول، وتخالسهما بالجحود لحقيقة العدل والتوحيد والحكمة والجبروت وكثير من صفات الجلال، صار يستنتج الغلط من الغلط فقال بعد كلامه الأخير:

> فلا شيء من الدينونة على الذين في المسيح، يعني ينسب إلينا برّ المسيح بالإيمان، فالمسيح حفظ الشريعة، فبالإيمان به ينسب إلينا حفظها، والمسيح مات فبالإيمان به ينسب إلينا موته، فكما أنّه بآدم الأوّل دخلت الخطيئة فبآدم الثاني دخل البرّ، فيكون الله عادلاً في تبريرنا؛ لأنّ عدله استوفى حقّه، فصار عدله ورحمته متساويين فلا تفاوت بينهما. وهذا بخلاف المسلمين الذين يرتكنون على رحمة الله في الخلاص، ويغضّون الطرف عن عدله وعن كونه منتقماً جبّاراً، فأنت ترى أن طريقة خلاصهم واهية واهنة فاسدة بعيدة عن العقل السليم. أمّا وهنها، فلأنّها غير مؤسّسة إلّا على أوهام باطلة، كارتكانهم على رحمة الله فقط وغضّهم الطرف عن عدله وقداسته ومقته للخطيئة. وممّا يدلّ على فساد الطريقة الإسلاميّة أيضاً أنّها تستلزم أنّ رحمة الله أعظم من عدله، والعقل السليم لا يقبلها[2].

---

١. إظهار الحقّ ٣: ٦٤٣ فمابعد.

٢. الهداية ٤: ٢٨٠ ـ ٢٨١.

أقول: فأين صار العدل الإلهي إذا كان لاشيء من الدينونة على الذين في المسيح، وبأيّ عدل وحكمة ينسب إليهم برّه؟ كيف وكتابهم يقول: «إنّ الله يغفر الإثم والخطيئة ولكن لايبرئ إبراءً»[١].

وما معنى أنّ حفظ المسيح للشريعة ينسب إليهم؟ وبأيّ عدل يكون ذلك؟ وبأيّة حكمة؟ فهل كان جعل الشريعة لأجل حاجة الله إلى العمل بها، حتّى يقال: إنّ عمل بعض الناس يسدّ حاجة الله ويغني عن عمل غيره؟ وبناءً على هذا الغلط أيضاً لا يصحّ أن يكون عمل واحد ينسب إلى غيره.

أو ليس يعلم كلّ ذي عقل أنّ تشريع الشريعة إنّما هو لطف من الله بعباده جميعاً ليتكمّلوا ويتقدّسوا بالعمل بها، ويصلح به اجتماعهم، وينالوا سعادة الدارين ولولا ذلك لكان من أفحش الظلم إلزام كلّ أحد بالعمل بها، وأفحش منه توقّف الإقالة منها على الفداء كما عن قول بولس: «المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنةً لأجلنا». وحاصله أنّ الله جلّ شأنه برّر المجرم بحمل عقابه ولعنته على البريء البارّ.

كذي العُرِّ يُكْوَى غَيرُهُ وَ هْوَ راتِعُ[٢].

أفهذا عدل الله عند المتكلّف؟ وكيف استوفى عدله حقّه؟ وممّن استوفاه؟ وعلى أيّ نحو جزاف استوفاه؟ أيستوفي عقاب مليونات لا تحصى من الخلق، وهو موتهم في جهنّم النار إلى الأبد، بموت بارّ يوماً وبعض يومين، ويكون هذا من العدل واستيفاء الحقّ؟

فهل سمعت عن الملوك المتمدّنة أنّه وقع في شرائعهم الإصلاحيّة أو قصاصاتهم العرفيّة مثل ذلك؟ وهل سمعت أنّه وقع عند التجّار حينما يلتجئون إلى التنزيل مثل ذلك؟ وكيف يكون المستوفي بهذا النحو عادلاً منتقماً جبّاراً؟ فلو أنّ ملكاً أرضيّاً عصته رعيّته ولاشوا شريعته، وسفكوا الدماء وهتكوا الحريم، ونهبوا الأموال وتعدّوا الحدود. فأراد أن يعطي عدله حقّه، فقدّم ابنه البريء ليفدي رعيّته المقصّرين المتمرّدين من عقابهم العظيم بضربة لابنه، فاستعفاه الابن وبكى وتوسّل إليه في أن تعبر عنه كأس

---

١. سفر الخروج ٣٤: ٧؛ سفر العدد ١٤: ١٨؛ سفر ناحوم ١: ٣.

٢. هذا عجز بيت، وصدره: «فَحَمَّلْتَني ذنبَ امرئٍ وتركتَه» وهو للنابغة الذبياني في ديوانه: ٣٧.

الفداء، فلم يسمع له بل ضربه ضربة واحدة وإن كانت مؤلمة بدلاً عمّا تستوجبه الرعيّة بجرائمها من الإعدام والحبس والتبعيد. وجعلهم بعد ذلك وهم على عاداتهم الوخيمة مبرّرين قد أمنوا وبال العقاب واطمأنّوا بدستور الفداء. أفتقول: إنّ هذا الملك عادل قدّوس يمقت الخطيئة، وقد استوفى عدله حقّه، فهو منتقم جبّار؟ أم تقول...؟

وعلى قول المتكلّف أنّ الأب والابن واحد، يرجع المثال إلى أنّ الملك ضرب نفسه ليستوفي عدله حقّه ويفدي رعيّته، حسبما ذكرنا. ومع هذا كلّه والمتكلّف يقول:

إنّ عند المسلمين عهد الأعمال، ومن سوء الحظّ لا يوجد عندهم عهد النعمة عهد الخلاص[1].

فنقول: الحمدلله على عظيم نعمته ولطفه، إذ شرع لنا شريعة الحقّ، وعرّفنا صالح الأعمال، ووسائل القرب منه والفوز برضاه، وسدّد جامعتنا لحفظ الشريعة، ووفّقنا للقول الثابت في توحيده وتقديسه، وهدانا إلى معرفة عدله وقدرته وقدسه لنخشاه، ومواقع رحمته وغفرانه لننيب إليه بالرجاء، وعصمنا من مخادعات النفس الأمّارة ومغالطات الهوى ومخالسات الشيطان، فلا زالت نعم الله وألطافه علينا ظاهرة وباطنة.

ومن عظيم توفيقنا وحسن حظّنا أنّ الشيطان الرجيم قد نكص عن عرفان جامعتنا خاسئاً، فلم يمزج توحيدنا بالشرك، ولم يغالطنا بالتمرّد على الشريعة الإلهيّة وملاشاتها، ولم يَدُسَّ في معرفتنا بجلال الله وقُدسِه لوازمَ النقص والعجز وأغاليط الوثنيّة وخرافات البوذيّة.

ولا ألوم المتكلّف؛ إذ لم يعرف طريقة خلاص المسلمين. فلا يَخْفَ على طالبي الهدى أنّ المسلمين يقولون اقتداءً بقرآنهم كتاب الله، واهتداءً بأنوار شريعتهم، وتمسُّكاً بعروة العقل الوثقى: إنّ الله ـ جلّ شأنه ـ عادل قدّوس عزيز ذوانتقام، وغفور رحيم غنيّ حميد. فإن انتقم من ذات الخاطئ المجرم وعاقبه بجرمه فهو عادل، لأجل استحقاق المجرم للعقاب، وإن غفرله وسامحه فذلك من رحمته وفضله وغناه عن عقابه. فمعاملة المجرم بالعدل وحده إنّما هي العقاب، فالعدل هو المخوف الذي

---

١. الهداية ١: ٢٧٤.

ترتعد منه فرائص المجرمين. وإنّما يرجى الخلاص بالرحمة من الله الغنيّ. وهذا من أوضح البديهيّات.

وما كنت أحسب ذا شعور يقول: إنّ المجرم ينبغي أن يرجو خلاصه من عدل الله، وإذا رجاه من رحمته يكون قد جعل رحمته أعظم من عدله، فتتفاوت صفاته جلّ شأنه. ولماذا لا يقول المتكلّف: إذا رجونا الخلاص من عدل الله يكون عدله أعظم من رحمته فتتفاوت صفاته؟

ولماذا لم يفهم المتكلّف أنّ ماذكرناه ـ من تنازل عدل الله وجريه على خلاف مقتضاه لمّا أظهر الله رحمته ومحبّته بتجسُّد الكلمة ـ هو الذي يستلزم أن تكون رحمة الله أعظم من عدله. ليس هذا فقط، بل يرجع إلى أن محبّته ورحمته قد غالطت عدله وخادعته وقهرته، حتّى جرى على خلاف مقتضاه، وتنازل إلى مقتضاها. تعالى الله عن ذلك وتقدّس.

معارف القرآن والمتكلّف

ولكنَّ المتكلّف يقول:

> إنّ القرآن اتّخذ من الكتاب المقدّس بعض صفات الله وكمالاته، إلّا أنّه لا يعرفها حقّ المعرفة، كما هي مدوّنة في مصدرها الأصلي. فلا يعرف عدل الله الذي اقتضى تجسُّد الكلمة الأزليّة، واحتمال الصلب للتكفير عن خطايا كلّ من يؤمن به. فإنّ القرآن يتوهّم أنّ رحمة الله أوسع من عدله، كأنّه يوجد تفاوت بين صفاته جلّ شأنه[١].

قلنا: إن كنتَ قد نزّهتَ ذهنك عن وصمة العصبيّة والتقليد، كما هو الأمل الوطيد بالمعاصرين المتنوّرين، فقد أوضحنا لك لزوم الشطط في بناء الخلاص على العدل، خصوصاً إذا كان بنحو تجسُّد الكلمة والفداء باحتمال القصاص، على النحو الذي يكرّره المتكلّف، ممّا يتهافت من جميع أطرافه على نسبة النقص لذات الله جلّ شأنه، بل والجحود لحقيقة إلهيّته.

---

١. الهداية ٢: ٢٩٩.

ولو أنّ القرآن اتّخذ صفات الله من كتابهم، لكان ربّما اعتمد في احتجاجاته على قول الكتاب بتعدّد الآلهة[١]. وبتعدّد الأرباب[٢]. أو ماترى القرآن قد بنى أساس دعوته وقانونها على إبطال هذه الخرافات وإرغامها.

ولقال فيما قال: «إنّ الله حزن وتأسّف في قلبه»[٣].

ولقال: «إنّ جماعة رأوا الله وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفّاف»[٤].

ولما قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[٥].

ولقال: «إنّ الله صارع بعض الناس إلى الصباح فلم يقدر عليه، وطلب منه أن يطلقه»[٦].

ولما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[٧] ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[٨].

ولقال: «يا ربّ لماذا أسأت إلى هـذا الشـعب؟ لمـاذا أرسـلتني[٩]؟ لمـاذا أسأت إلى عبدك»[١٠]؟

ولقال:

> يا أيّها السيّد الربّ، حقّاً إنّك خِداعاً خادعت هذا الشعب وأُورشليم قائلاً يكون سلام وقد بلغ السيفُ النفسَ[١١].

ولم يقل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[١٢] ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾[١٣].

---

١. انظر إنجيل يوحنّا ١٠: ٣١ـ٣٧.
٢. انظر إنجيل متّى ٢٢: ٤١ـ٤٦؛ إنجيل مرقس ١٢: ٣٥ـ٣٨؛ إنجيل لوقا ٢٠: ٤١ـ٤٥.
٣. سفر التكوين ٦: ٦ و٧؛ سفر المزامير ٧٨: ٤٠؛ سفر إشَعْياء ٦٣: ١٠؛ ورسالة بولس إلى أهل أفسس ٤: ٣٠.
٤. سفر الخروج ٢٤: ١٠و١١.
٥. الأنعام (٦): ١٠٣.
٦. سفر التكوين ٣٢: ٢٤ـ٣١.
٧. الشورى (٤٢): ١١.
٨. الأنعام (٦): ١٨.
٩. سفر الخروج ٥: ٢٢.
١٠. سفر العدد ١١: ١١.
١١. سفر إرميا ٤: ١٠.
١٢. آل عمران (٣): ٩.
١٣. التوبة (٩): ١١١.

ولقال: «الله محبّة»[١].

ولقال: لأُبَشِّر ـ لا بحكمة كلام ـ أنّ الله استحسن أن يخلّص المؤمنين بجهالة الكرازة[٢]. وفي الترجمة المطبوعة سنة ١٨١١ م: بحماقة الكرازة.

ولم يقل: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾[٣].

ولقال: «إنّ جهالة الله ـ أو تحامق الله ـ أحكم من حكمة الناس»[٤].

ولم ينوّه في كثير من مضامينه بحكمة الله.

ولم يقل: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٥].

ولكنّه ما ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحي يُوحى.

وأمّا قول المتكلّف: «إنّ القرآن لا يعرف عدل الله الذي اقتضى تجسُّد الكلمة». إلى آخره. فقد بيّنّا لك أين يكون هذا من عدل الله وتنزيهه وتوحيده؟ وأين القرآن وما يزعمونه من تجسُّد الكلمة؟ وكيف والقرآن هو المقاوم لذلك، والمنادي بتوحيد الله وتقديسه، وبطلان التثليث والثالوث؟

المتكلّف والبرهميّة والبوذيّة

وإن أراد المتكلّف من يعرف ذلك، فعليه بمصدره الأصلي وأساس تعليمه، وهي عقائد البراهمة والبوذيّين وكتبهم، كما ذكره بطرس البستاني في دائرة المعارف. فقد ذكر في الجزء الخامس منها أنَّ برهم هو المعبود الأوّل عند الهنود، وكثيراً ما يجعلون برهم اسماً للأقانيم الثلاثة المؤلّف منها ثالوث الهنود: وهي برهما ووشنو وسيوا. ويسمَّى برهم فتش أي الكلمة. وأمّا برهما فهو نفس برهم معبود الهنود بعد أن شرع في أعماله. وهو الأُقْنوم الأوّل من الثالوث الهندي أي أنّ برهم ينبثق من نفسه في

١. رسالة يوحنّا الأُولى ٤: ٨ و ١٦.

٢. رسالة بولس الأُولى إلى أهل كورنثوس ١: ١٧ و ٢١.

٣. النحل (١٦): ١٢٥.

٤. رسالة بولس الأُولى إلى أهل كورنثوس ١: ٢٥.

٥. البقرة (٢): ٢٦٩.

ثلاثة أقانيم كلّ مرّة في أُقنوم. فالأُقنوم الأوّل الذي يظهر به أوّل مرّة هو برهما والثاني وشنو والثالث سيوا. ثمّ ذكر ماعندهم من التجسّد[١].

وفي ص ٣٧٦ ذكر أنّ ألقاب سيوا عندهم هي: السيّد، والربّ، والخالق، والمنتقم[٢].

وفي ص ٦٥٩ ذكر عن البوذيّة أُموراً يعتقدونها في تجسُّد بوذه وأحواله منها:

١. عزمه في السماء الرابعة على التخليص واختياره أن يولد من مايا حال كونها عذراء.

٢. تجربة المارا له وهو معبود الحبّ والخطيئة والموت وتغلّبه على سحره وأهواله.

٣. عند ظهوره لإجراء عمله تقاطر إليه رجال ونساء من جميع الأصناف، وأكثر الحكّام يتبعوه هم ورعاياهم.

٤. عمل آيات كثيرة واختار في آخر أمره من النساء وكيلات له.

٥. كان اتندا تلميذه المحبوب.

٦. يعتقد البعض أنّه تجسّد تاسع لوشنوء.

وأنّه أصلح البرهميّة بإدخاله فيها قانون إيمان بسيطاً. وإبداله عاداتها وشرائعها القاسية بشرائع أدبيّة ذات لين ورفق.

فالبوذيّة ديانة بسيطة أدبيّة عقليّة مضادّة للفلسفة والاحتفالات وحرفة الكهنة، سهلة المراس تدعو جميع الناس إليها، مسهّلة للجميع طريق الخلاص. ولها عدّة مجامع في أمر الدين[٣].

وانظر أيضاً إلى سوسنة سليمان[٤].

الفداء عند المسلمين

فإن قلت: أليس عند المسلمين معنى معقول للفداء، وهلّا يمكن لبعض الأولياء أن يكون فادياً؟

١. دائرة المعارف، للبستاني ٥: ٣٧٤ ـ ٣٧٥.

٢. المصدر: ٣٧٦.

٣. المصدر: ٦٥٩.

٤. راجع المصدر ١٠: ١٦ ـ ٢٠.

قلت: أمّا على ما يقوله المتكلّف فمعاذ الله. نعم كلّ من أعلن بدعوة الحقّ، وجاهر بمقاومة الباطل، وأبدى صفحته للاضطهاد في سبيل الله لاتأخذه في الهدى إلى الحقّ لومة لائم، فهو فادٍ لمن يهتدي بنور هداه. وإنّ من الفادين من أقدم في الجهاد في سبيل الله على تحمُّل أنواع الاضطهاد وبذل النفس والأعزّة للقتل؛ لأجل علمه بأنّه إن لم يُعْلِ كلمةَ الحقّ بالظفر، فإنّه يعليها بتحمّله الاضطهاد، وأنّ اضطهاده وقتله وسوء المعاملة له ممّا يعلي كلمة الدين، ويوضّح نهج الحقّ، وينبّه الناس على ضلالة قاتليه ومضطهديه. ولكن لا يمكن لنا أن نسمّي المسيح فادياً بهذا المعنى؛ لأجل تصريح كتاب الله بأنّه ما قُتِل ولا صُلِب[1]، بل هو فادٍ بالمعنى الأوّل.

الفصل الثالث: في وقوع النسخ

اعلم أنّ كلّ ما ذكرناه من العهدين من أمثلة وقوع النسخ، فإنّما يتيسّر لنا الاحتجاج به على سبيل الجدل والإلزام لمتّبعهما، وذلك لعدم علمنا بكون الناسخ والمنسوخ فيهما من الأحكام الإلهيّة.

وبعبارة أُخرى: لمّا كنّا نعلم بانقطاع سندهما ووقوع التحريف فيهما، لم يسغ لنا أن نقول على ما فيهما: هذا حكم إلهي ناسخ وهذا حكم إلهي منسوخ. نعم، برهاننا على وقوعه ما في القرآن الكريم في سورة آل عمران في الحكاية عن قول المسيح في دعوته: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[2]. وكذا ما نعلمه إجمالاً في أنحاء العبادات السابقة، حيث قيّدها الإسلام بكونها عربيّة، وكذا ما نعلمه من وقوع الناسخ والمنسوخ في الشريعة الإسلاميّة بمادلّ عليه القرآن الكريم، كما سنشير إليه إن شاء الله.

وقد أكثر الناس في ذلك وخلّطوا، فلنستأنف الكلام في تتبُّع بعض كلمات المتكلّف؛ ليتّضح لك حالها وحاله فيها.

---

١. كما في النساء (٤): ١٥٧.

٢. آل عمران (٣): ٥٠.

المتكلّف والنسخ

وقد افتتح كلامه في بحث النسخ بقوله:

ممّا اختصّت به الديانة الإسلاميّة ممّا يشين ويعيب مسألة الناسخ والمنسوخ، فمن تحرَّى في القرآن وتفاسيره رأى أنّ الناسخ والمنسوخ فاشٍ فيه بحيث يكاد أن لاتخلو سورة منه، فكان ذلك موجباً لتشويش الذهنِ واضطراب الفكر. فإذا طالع الإنسان بقصد الفائدة تاه في حندس الظلمات، ووقع في الالتباسات والإيهامات، وصعب عليه التمييز بين الأحكام التي يجب أن يعوّل عليها، وبين الأحكام التي لا يجوز الاعتماد عليها [١].

أقول: أمّا دعواه اختصاص الديانة الإسلاميّة بالنسخ، فقد ظهر لك ـ ظهور الشمس في رابعة النهار ـ من الأمثلة المتقدّمة كونَها دعوى باطلة لا يسترها التمويه.

وأنّ العهد القديم قد ذكر وقوع التناسخ في شريعة نوح كما في المثال الأوّل [٢]. وجاء في شريعته النسخ لما قبلها كما في المثال الثاني إلى المثال الخامس [٣]، والتناسخ فيها كما في المثال السادس إلى المثال التاسع والعشرين [٤].

وأنّ شريعة الإنجيل قد جاء فيها النسخ لما قبلها كما في المثال الثلاثين إلى المثال السابع والثلاثين [٥]، والتناسخ فيها أيضاً كما في المثال الثامن والثلاثين [٦].

وأنّ شريعة العهد الجديد قد جاء فيها النسخ لما قبلها كما في المثال التاسع والثلاثين إلى المثال الرابع والأربعين [٧]، والتناسخ فيها أيضاً كما في المثال الخامس

---

١. الهداية ٤: ١٥٥.

٢. تقدّم في ص ٢٨٨.

٣. تقدّم في ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

٤. تقدّم في ص ٢٩٥ ـ ٢٩٩.

٥. تقدّم في ص ٣٠١ ـ ٣٠٧.

٦. تقدّم في ص ٣٠٨.

٧. تقدّم في ص ٣٠٨ ـ ٣١٨.

والأربعين إلى السابع والأربعين[١]. وانظر إلى ما ذكرنا في التنبيه: «والمتكلّف يقول وعلى كلّ حال فلاناسخ ولا منسوخ»[٢].

على أنّ المتكلّف قد اتّبع في هذه الدعوى قول السيوطي في الإتقان اتّباعاً من دون تدبّر. ولم يدر أنّه لا يلزم السيوطي مثل ما يلزمه: قال في الإتقان في المسألة الثانية من النوع السابع والأربعين في النسخ ما لفظه: «النسخ ممّا خصّ الله به هذه الأُمّة لحِكَم منها التيسير»[٣]. ولا تحسب أنّ السيوطي يدّعي أنّه لم يقع النَسخ في الشرائع مطلقاً حتّى نسخ البعض من أحكام الشريعة السابقة بالشريعة اللاحقة. كيف وإنّ القرآن الكريم صريح بأنّ المسيح يحلّ لبني إسرائيل بعض الذي حُرِّم عليهم، كما تقدّم. بل غاية دعوى السيوطي أنّ نسخ الشريعة الواحدة لبعض أحكامها ممّا خص الله به هذه الأُمّة في شريعتها.

وغاية ما يُعتَرَض به على السيوطي في هذه الدعوى، هو أنّها دعوى لأمر غائب، لا يُكتَفى فيها بالظنون، بل تحتاج إلى حجّة قاطعة صادرة عن علّام الغيوب. نعم، لا يلزمه ما يلزم المتكلّف من وقوع التناسخ في الشرائع السابقة بمقتضى العهدين، كما ذكرناه. وذلك لجواز أن يقول السيوطي: لا حجّة عليّ بالعهدين لعدم صحّة سندهما إلى الإلهام. ولكن أين يفرّ المتكلّف عن لزوم ما في العهدين، كما ذكرنا أمثلته؟

وأمّا قول المتكلّف: «فمن تحرّى القرآن وتفاسيره رأى أنّ الناسخ والمنسوخ فاشٍ فيه». فلو أراد فيه الأمانة والتحقيق وترك التمويه والتلبيس، لكان عليه أن يبيّن ما في القرآن من الناسخ والمنسوخ، بالبيان الكافي المنطبق على معنى النسخ في الجامعة الإسلاميّة، ثمّ يقول ما عنده.

وأمّا التشبُّث بأقوال المفسّرين فتشبّث سخيف؛ لأنّ الحقائق غير مربوطة بأقوالهم.

---

١. تقدّم في ص ٣٢١.

٢. تقدّم في ص ٣١٣ ـ ٣١٥.

٣. الإتقان ٢: ٢١.

وإنّ كثيراً من أقوالهم هاهنا ناشئ عن آراء ضعيفة وأوهام مردودة، فقد ذكرنا من تفسير الخازن عن قول العلماء: إنّهم قرنوا المفسّرين ـ باعتبار الكثير منهم ـ وساووهم بالمؤرّخين حيث وصفوهم جميعاً بأنّهم مُولَعون بكلّ غريب، ملفّقون من الصحف كلّ صحيح وسقيم[1].

ولنقتصر فيما يهمّنا في المقام على ما أشار إليه في الإتقان، وإن كان قليلاً من كثير. فقد نقل عن ابن الحصّار قوله: «ولا يعتمد في النسخ قول عوامّ المفسّرين بل ولا اجتهاد المجتهدين»[2].

العلماء والمفسّرون

اعلم أنّ من الناس من كانوا ذوي فهم ثاقب وفكر صائب وقريحة متوقّدة، فإذا توجّهوا إلى العلوم انهمكوا فيها انهماك المنهوم، فلا يزالون يجدّون في إتقان مقدّماتها وإحكام مبانيها، باذلين جهدهم في الغوص على دُرَرِها، ورفع حُجُب الجهل وأغاليطه عن وجوه حقائقها، يَزِنُون المنقول بالمعقول ويردّون الفروع إلى الأُصول، فالذين فازوا بهذه الفضيلة هم المستحقُّون لاسم العلماء.

ومن الناس قوم مالوا إلى العلم، وقعدت بهم الهمم وقصور الاستعداد عن طلب الغاية العليا، فارتضوا من الفضيلة أن ينسبوا إلى فنّ من الفنون، واكتفوا من الملكات بكثرة الحفظ، فاقتنعوا بالمنقول والأخذ من الأفواه وسواد الكتابات. ولم يكن همّهم في ذلك إلّا تكثير بضاعتهم، و وفور محفوظاتهم، وغرابة منقولاتهم، من غير التفات إلى التحقيق، ولا وصول إلى الحقائق، ولا انتقاد لما يسمعون، ولا تدبّر لما يقولون ويكتبون. وروّج بضاعتهم سهولة أخذ الهمج الرعاع عنهم، وموافقة خبطهم لأهواء المُدَلّسين. ومن هؤلاء كثير من المفسّرين والمحدّثين، الذين وقف العلماء لهم بالمرصاد، ونبّهوا على خبطهم وخطئهم، كما ذكرناه عن تفسير الخازن.

---

١. تفسير الخازن ٣: ٣١٣، ذيل الآية ١٩ و ٢٠ من سورة النجم.

٢. الإتقان ٢: ٢٤.

المفسّرون والنسخ

وقد ذكر في الإتقان ممّا أورده المكثرون في النَسخ أقساماً وأمثلةً لا يخفى أنّها ليست من النسخ الذي هو محلّ الكلام في شيء، بل إنّ جعلها منه إنّما هو من فلتات الأوهام، وسوء التخليط، وعدم التدبّر. فمن ذلك جعلهم من أقسام النسخ كلَّ ما جاء في الشريعة المقدّسة مبطلاً لضلالات الجاهليّة وعوائدهم الذميمة[١]، وكأنّهم لم يسمعوا من العلماء أنّ النسخ إنّما هو رفع الله لحكمه السابق بإعلان حكمه اللاحق، حسب اقتضاء المصلحة والإصلاح. فإن رضي المتكلّف أن يعدّ ما ذكروه من قسم النسخ، لزمه على رأيه أن تكون أحكام التوراة كلّها ناسخة. ولكنّه مع ذلك لايبالي أن يقول: «وعلى كلّ حال فلا ناسخ ولا منسوخ».

ومن ذلك جعلهم جميع الآيات المادحة على الإنفاق والنادبة إليه منسوخة بآية الزكاة[٢]. وهذا وهم فاحش؛ فإنّ حسن الإنفاق والندب إليه من محكمات الشريعة ومستحسنات العقل، لما فيه من كرم الأخلاق، واستحكام التقوى وحسن الاجتماع، ودوام العواطف وحفظ النوع. وليت شعري من أين توهّموا أنّ آية الزكاة ناسخة لآيات الإنفاق؟ فهل ترى في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾؟[٣] وهل تشمّ منه رائحة المنافاة لآيات الإنفاق؟

ومن ذلك جعلهم من باب الناسخ والمنسوخ مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[٥] فتوهّموا أنّ الاستثناء ناسخ لما قبله[٦]. وهل هذا إلا من الخلط

---

١. المصدر: ٢٢.

٢. المصدر: ٢٢.

٣. التوبة (٩): ١٠٣.

٤. العصر (١٠٣): ١ ـ ٣.

٥. الشعراء (٢٦): ٢٢٤ و٢٢٧.

٦. الإتقان ٢: ٢٢.

والخبط بين الاستثناء والتخصيص المتّصل بالكلام وبين النسخ المصطلح؟ ولئن رضي المتكلّف بعد هذا من النسخ الذي يندّد به على قدس القرآن، فماذا يقول إذن فيما يوجد منه كثيراً في العهدين؟ أيقول مع ذلك: وعلى كلّ حال فلاناسخ ولا منسوخ؟

ومن ذلك جعلهم من المنسوخ قوله تعالى في سورة التين: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾[1] وكذا قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[2].

فقالوا: إنّ الآيتين منسوختان بآية السيف. وهو توهّم ظاهر؛ فإنّ الآية الأُولى لا ينبغي لأحد أن يتوهّم فيها النسخ؛ لأنّ مضمونها إخبار بأحسن الأساليب عن أنّ الله أحكم الحاكمين، وهو كذلك جلّ شأنه في الأزل والأبد...

فإن قيل: إنّها منسوخة باعتبار لازم معناها، وهو الأمر بالتفويض والتسليم.

قلنا: أين لفظها وسَوقها من هذا المعنى؟ أفليس قبلها قوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾[3] وإنّ السَوق ليشهد بأنّ نظرها متوجّه إلى المكذِّب بالدين؟ وأين هذا من الأمر بالتسليم والتفويض؟

ولو سلّمنا ذلك لقلنا: إنّ آية السيف والجهاد الواجب من حكم الله الذي يجب التفويض والتسليم له.

وأمّا الآية الثانية فهي حكاية عمّا عهده لبني إسرائيل وأمرهم به، فأين وأين هي من آية السيف؟ بل لو كانت خطاباً لهذه الأُمّة لكانت من المحكمات التي لا تقبل النسخ، فإنّها آمرة بتهذيب الأخلاق وحسن الخطاب الذي هو من مصلحات النظام، وصون اللسان عن منقصة الفحش والبذاء. ولأجل ما ذكرنا غلّط ابن الحصّار من جعلها منسوخة بآية السيف[4].

---

١. التين (٩٥): ٨.
٢. البقرة (٢): ٨٣.
٣. التين (٩٥): ٧.
٤. الإتقان ٢: ٢٢.

ومن ذلك ما يحكى أنّ هبة الله بن سلامة الضرير أخطأ في قوله تعالى في سورة الدهر: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[١] وقال: إنّ حسن الإطعام فيها وجوازه منسوخ بالنسبة لأسرى المشركين. فقالت له ابنته: أخطأت، فقد أجمع المسلمون على أن الأسير يُطعَم ولا يموت جوعاً، فأذعن بالخطأ، وكان هو الناقل لهذه الحكاية[٢].

ومن ذلك اضطرابهم في الخطأ في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾[٣].

فقال ابن العربي: إنّ أوّل الآية وآخرها منسوخ بآية السيف، بناءً على أنّ المراد بالعفو مايرادف الصفح. وقال بعض: إنّ أوّلها منسوخ بآية الزكاة، بناءً على أنّ المراد بالعفو هو الفضل من الأموال[٤].

وكلا القولين خطأ؛ لأنّه إن حملنا العفو على معنى الفضل من الأموال، لم تكن آية الزكاة مضادَّة له ولا ناسخة؛ فإنّ الزكاة من العفو والفضل من الأموال. بل يكون كلّ من الآيتين شارحاً للأُخرى. فكأنّه قيل: خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكّيهم بها وهي من العفو والفضل من الأموال.

هذا، وإن حملنا العفو على معنى الصفح، فإنّ معناه المسامحة وترك الانتقام عمّا مضى من الإساءة، وهو من مكارم الأخلاق التي يصلح بها الاجتماع وتتألّف القلوب، وتقوم بها الحجّة ويتبصّر بها الغافل، ورياضة نفسانيّة وسياسة اقتصاديّة تتقدّم بها شريعة الحقّ إلى الانتشار. ولا مضادّة للعفو ـ كما أوضحناه ـ ولا منافاة له مع آية السيف. فانظر إلى آية السيف وهو قوله تعالى في سورة براءة: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ

---

١. الدهر (٧٦): ٨.

٢. الإتقان ٢: ٢٤.

٣. الأعراف (٧): ١٩٩.

٤. الناسخ والمنسوخ، لابن العربي: ٢٢١؛ الإتقان ٢: ٢٤.

كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

وانظر إلى ما قبل الآية وما بعدها من أوّل السورة إلى الثانية عشر، فهل تجد في اللفظ أو المعنى أو السَوق نهياً عن فضيلة العفو عمّا سبق من الإساءة؟ أو أنّ الله جلّ اسمه يقول: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢] ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[٣].

وإنّك لتجد من صراحة الآيات أنّ قتل المشركين لم يكن لأجل الانتقام منهم، ولا للمؤاخذة لهم على إساءاتهم السابقة، بل إنّما هو لأنّ المشركين رجس نجس ومَعثَرة في سبيل التوحيد وانتشار شريعة الحقّ والعدل ونظام المدنيّة. وزيادة على ضلالهم قد توغّلوا بالعداوة للتوحيد والموحّدين، وأنهضهم ضلالهم وجبروتهم لإيذاء المؤمنين وحربهم مبلغ جهدهم، ولم تنفع فيهم الحجج الواضحة والمواعظ الناصحة. ولأجل ذلك قال الله جلّ شأنه: أمهِلوهم مدّة الأشهر الحرم تأكيداً للحجّة ومهلةً للنظر واستمالةً إلى الهدى والتوبة، ثمّ ضايقوهم بعد هذا بالقتل والحصار تطهيراً للأرض من رجسهم وحياطةً للتوحيد وشريعة الحقّ من كيدهم، أو ينيبوا إلى الإسلام فيتطهّروا بقداسته ويستنيروا بهداه. وحينئذٍ فخلّوا سبيلهم وليس لكم أن تؤاخذوهم بإساءاتهم معكم أيّام شركهم، فإنّ الله غفور رحيم. فلابدّ لكم حينما يسلمون أن تعفوا وتصفحوا عمّا سبق منهم؛ فإنّهم حينئذٍ إخوانكم في الدين.

فالآيات الكريمة مؤكّدة لحكم العفو والصفح، وصريحة في أنّ قتلهم ومحاصرتهم قبل إسلامهم إنّما هما لتنفيذ شريعة الحقّ الداعية إلى مكرمة العفو والصفح. فأين الآية الشريفة من معارضة الأمر بالعفو ونسخه؟

وقس على ذلك كلّ ما جاء في القرآن الكريم من الأمر بالعفو والصفح عن المشركين.

---

١ و٢. التوبة (٩): ٥.

٣. التوبة (٩): ١١.

فإذا أمعنت النظر في فلسفة هذه الحقيقة، وأوصلك التدبّر إلى معرفة مافيها من الحِكَم الباهرة في تربية البشر، ودعوتهم إلى شريعة الحقّ والعدل وتأديبهم بها، فإنّك تعرف اشتباه ابن العربي في دعواه أنّ آية السيف المذكورة نسخت مائة وأربعاً وعشرين آية[١].

وتعرف أيضاً خطأ المتكلّف والمتعرّب في اتّباعهما له على ذلك[٢].

وتعرف أيضاً مبلغ تعصّب المتعرّب وضلاله. وإنّي لأظنّ ظنّاً قويّاً أنّهما لم يطّلعا على الآيات التي أشار إليها ابن العربي، وإنّما اتّبعا مجمل كلامه لموافقته لأهوائهما.

وسنتعرّض إن شاء الله لشرح مضامين هذه الآيات، عند التعرّض لما في القرآن الكريم من التعليم بمكارم الأخلاق، والحكمة البالغة في إظهار دين الحقّ، فترتاح إلى نفحات الهدى واليقين، وتعرف نسبة الآيات المشار إليها من آية السيف المذكورة.

ومن الاشتباه والخلط ما ينقل من دعوى ابن العربي أنّ آخر آية السيف قد نسخ أوّلها[٣]. وها قد تلوناها عليك، وذكرنا لك صراحتها وسَوقها، وقد عرفت في أوائل المقدّمة معنى النسخ، فهل تجد لهذه الدعوى وجهاً مقبولاً؟

ومن العجب أنّ الإتقان قد نقل قبل هذا عن ابن العربي نفسه قوله بأنّ ما يخصّص باستثناء أو غاية ليس من المنسوخ. وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[٤] ﴿فَاعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾[٥].

فكيف إذن يقول: إنّ أوّل آية السيف منسوخ بآخرها، وهو قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾[٦]؟

ومن الاشتباه ما عن ابن العربي أيضاً في قول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا

---

١. الناسخ والمنسوخ، لابن العربي: ٢٤٠؛ الإتقان ٢: ٢٤.

٢. الهداية ٤: ١٦١، وذيل مقالة في الإسلام: ٤٤ و ٤٥.

٣. الإتقان ٢: ٢٤.

٤. العصر (١٠٣): ٢ ـ ٣؛ الإتقان ٢: ٢٢.

٥. البقرة (٢): ١٠٩.

٦. التوبة (٩): ٥.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾[١] حيثُ قال: «أي اهتديتم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» فجعل هذا ناسخاً لِقوله تعالى: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ زاعماً أنّ معناه لا تتعرّضوا لغيركم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٢].

وهذا توهّم؛ فإنّه لا دلالة في الآية على ذلك أصلاً، بل معناها نحو ما قاله الكشّاف: «عليكم أنفسكم وما كُلِّفتم من إصلاحها والسلوك بها في نهج الهدى»[٣]. وذلك باتّباع دين الحقّ والشريعة المقدّسة والتأدّب بآدابها ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإنّ من تركهما مع القدرة عليهما فليس بمهتدٍ بل إنّ تركهما حينئذٍ من الضلال المقابل للهدى.

ومع ذلك فليت شعري من أين لابن العربي تقييد الاهتداء وتفسيره بخصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ فإن أخذه من روايات الآحاد، فإنَّ ما رواه الكشّاف في هذا المقام عن ابن مسعود وأبي ثعلبة عن رسول الله ﷺ[٤]، لَصَرِيح بخلاف ما يدّعيه ابن العربي من النسخ.

ومن هذا النحو اعتماد بعض على رواية من الآحاد فقال: إنّ قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[٥] منسوخ بقوله تعالى ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾[٦]. وقد نقل في الإتقان القول بأنّ الآية الأُولى من المحكم الذي لم ينسخ[٧]. وذهب المحقّقون كالكشّاف وغيره إلى أنّ الآيتين بمعنى واحد[٨]، فلا معارضة بينهما حتّى تمكن دعوى النسخ؛ فإنّ معنى قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾: اتّقوا الله جهدَ قدرتكم ومبلغ استطاعتكم. وهذا هو

---

١. المائدة (٥): ١٠٥.
٢. الناسخ والمنسوخ، لابن العربي: ٢٤٠؛ الإتقان ٢: ٢٤.
٣. الكشّاف ١: ٦٨٥، ذيل الآية ١٠٥ من المائدة.
٤. المصدر: ٦٨٥ ـ ٦٨٦، ذيل الآية ١٠٥ من المائدة.
٥. آل عمران (٣): ١٠٢.
٦. التغابن (٦٤): ١٦.
٧. الإتقان ٢: ٢٣.
٨. الكشّاف ١: ٣٩٤، ذيل الآية ١٠٢ من آل عمران.

تقوى الله حقّ تقاته؛ إذ لا يصحّ الأمر بتقوى الله فوق القدرة والاستطاعة، ولا معنى لذلك. وهذا كافٍ في ردّ الرواية لمخالفتها لحكم العقل.

وبهذا تعرف وهن كلام المتكلّف[١]. ولو أنّه يسمع كلاماً لهيّان بن بيّان[٢]، لحمله على عاتق حقائق الإسلام وجامعته، وقال ماشاء هواه.

هذا، وإنّ جملة ممّا اختار في الإتقان كونه من الناسخ والمنسوخ، لَهُوَ أيضاً محلّ منع. وسنتعرّض إن شاء الله لتحقيق ذلك بالبيان الواضح، عند التعرّض لبيان شرائع القرآن الكريم.

وبما ذكرنا هاهنا تعرف أنّ ما سرده المتكلّف[٣] من تعداد السور التي ادّعي فيها وجود الناسخ أو المنسوخ أو كلاهما، إنّما هو دعوىً، لا حقيقة لها، وإنّما اتّبع بها نقل الإتقان عن بعضهم في المسألة الخامسة.

واعلم أنّا لا نتحاشى من وجود الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، بل قد دللناك في أوائل المقدّمة على أنّ النسخ قد تقتضيه الحكمة الإلهيّة ومراعاة المصلحة. ولكنّا قصدنا هاهنا تحقيق الحقّ، ودفع أغاليط الأوهام عن شرائع القرآن الكريم وآدابه، وقمع تهويلات المتكلّف وتمويهاته وإكثاره الكاذب.

وبما ذكرنا تعرف خطأ المتكلّف في قوله المتقدّم: «فكان ذلك موجباً لتشويش الذهن واضطراب الفكر»[٤].

شروط الفتيا

أفلا يعلم أنّ كلّ من يعدّ نفسه مفتياً في شريعة من الشرائع، ويدّعي رئاسة العلم بها، ليس له أن يستريح من حيث يتعب الكرام، بل لابدّ له أن يجتهد في الاطّلاع على

---

١. الهداية ٤: ١٦٢.

٢. هو من لا يُعرَف ولا يُعرَف أبوه. لسان العرب ١٣: ٤٤١، «هـ ى ن».

٣. الهداية ٤: ١٦٦.

٤. تقدّم في ص ٣٦١.

كتابها الذي هو أساسها، ليعرف منه العامّ والخاصّ، والمطلق والمقيّد، والمجمل والمبيّن، والناسخ والمنسوخ؛ ليستنتج من ذلك الأحكام الفعليّة، ويميّز موضوعاتها، لئلّا يكون في فُتياه كحاطب ليلٍ وخابِط عشواء[١].

أفلاترى أنّه لا يصحّ لربّاني اليهود أن يتصدّر للفتوى بمقتضى دينه، ويفتي بتقديس كلّ بكر فاتح رحم للربّ، اعتماداً على [بعض مواضع سفر الخروج وسفر التثنية][٢] من دون أن يفحص ليطّلع على الحكم بالفداء[٣]، فيعرف من هذا كلّه العامّ والخاصّ والمجمل والمبيّن والمطلق والمقيّد والناسخ والمنسوخ، ويتدبّر حكم الفداء لبكر الحمار من [سفر الخروج وسفر اللاويّين وسفر العدد][٤].

ولا يصحّ له أن يفتي في العبد العبراني على مقتضى [سفر اللاويّين][٥] من دون أن يتحقّق بيان الحكم من [سفر الخروج وسفر التثنية][٦].

ولا يصحّ له أن يفتي بحرمة أرملة الأخ على مقتضى [سفر اللاويّين][٧] من دون أن يطّلع بالفحص على [سفر التثنية][٨].

ولا يصحّ له أن يفتي بحدّ عمر اللاوي لخدمة مسكن الربّ على مقتضى [أصحاح من سفر اللاويّين][٩] حتّى يطّلع بالفحص على [أصحاح آخر من سفر اللاويّين][١٠]

---

١. يقال لمن يتكلّم بالغثّ والسمين: حاطب ليل. الصحاح ١: ١١٣، «ح ط ب». وخابط عشواء، مثل في مجمع الأمثال ٣: ٥٢.

٢. سفر الخروج ١٣: ٢ و٢٢: ٢٩ و٣٠؛ سفر التثنية ١٥: ١٩.

٣. سفر الخروج ١٣: ١٣ و١٥ و٣٤: ٢٠؛ سفر اللاويّين ٢٧: ٢٧؛ وسفر العدد ٣: ١٢ و ٣٩ـ٤٨ و٨: ١٦ـ١٨ و١٨: ١٥ـ١٨.

٤. سفر الخروج ١٣: ١٣ و٣٤: ٢٠؛ سفر اللاويّين ٢٧: ٢٧؛ سفر العدد ٣: ٤١ و٤٥.

٥. سفر اللاويّين ٢٥: ٣٩ـ٤٢.

٦. سفر الخروج ٢١: ٢ـ٧؛ سفر التثنية ١٥: ١٢ـ١٨.

٧. سفر اللاويّين ١٨: ١٢ و٢٠: ٢١.

٨. سفر التثنية ٢٥: ٥ ـ ١٠.

٩. سفر اللاويّين ٤.

١٠. سفر اللاويّين ٨: ٤٤ و٤٥.

ويفحص عن سند التوراة العبرانيّة والسبعينيّة. ويتدبّر في فتواه بالاطّلاع على [سفر الأيّام الأوّل وسفر عزرا][١] فيتعرّف من ذلك الصحيح والغلط والمحرّف والناسخ والمنسوخ.

ولا يصحّ له أن يفتي في ذبائح الأيّام والسبوت والأعياد والمواسم ومقاديرها وممّن تكون وعلى من تجب، حتّى يطّلع بالفحص على [سفر حَزْقِيال][٢]. ليعرف الناسخ والمنسوخ والصحيح والغلط.

وهذا المقدار كاف في الأُنموذج.

وكذا لا يصحّ لقسّ النصارى أن يعتمد في فتواه بأحكام التوراة على إمضاء المسيح لها وأمره بحفظ أقوال الكَتَبة والعمل بها؛ لأنّهم على كرسيّ موسى جلسوا[٣]، من دون أن يستقصي العهد الجديد بالفحص، ليطّلع ما يحكى عن المسيح من تحريم الطلاق والتزوّج بالمطلّقة[٤]، وما يحكى عن بطرس من تحليله لأكل جميع الحيوانات المحرّمة في التوراة[٥]، وما يحكى عن التلاميذ من رفعهم وجوب الختان وقيود التوراة إلّا أربعة: الامتناع عمّا ذبح للأوثان، والدم، والمخنوق، والزنى[٦].

ولا يصحّ له أيضاً على أساسهم أن يفتي بوجوب الامتناع عن هذه الأربعة، مالم يوصله الفحص إلى الإباحة العامّة المنقولة عن أقوال بولس[٧]، وحتّى يستنتج نتيجة من الأقوال المشوّشة المضطربة المنقولة عن بولس في أكل ماذبح للأوثان[٨].

ولا يفتي بكفاية الإيمان في النجاة أو بلزوم الأعمال حتّى يوفّق بما عنده بين

١. سفر الأيّام الأوّل ٢٣: ٣ و ٢٤ و ٢٧؛ سفر عزرا ٣: ٤.

٢. سفر حَزْقِيال ٤٥: ١٣ و ٤٦: ١٦.

٣. إنجيل متّى ٢٣: ٢ و ٣.

٤. إنجيل متّى ١٩: ٩.

٥. سفر أعمال الرسل ١٠: ١١ ـ ١٧.

٦. سفر أعمال الرسل ١٥: ٢٣ ـ ٣٠.

٧. الرسالة إلى أهل روميّة ١٤: ١٤؛ الرسالة الأُولى إلى تيموثاوس ٤: ٤؛ الرسالة إلى تيطس ١: ١٥.

٨. الرسالة الأُولى إلى أهل كورنثوس ٨: ١ ـ ١٣ و ١٠: ١٩ ـ ٢٢ و ٢٩ و ٣٠.

الأقوال المنسوبة إلى بولس[١]. وبين ما يضادّها من الأقوال المنسوبة إلى يعقوب[٢].

وعلى مثل هذا وبّخ عليّ عليه السلام رجلاً تصدّر للفتيا مع جهله بالناسخ والمنسوخ، كما استشهد به المتكلّف[٣] ولو لم يكن في الشريعة إلّا ناسخ واحد، لكفى جهله في لزوم التورّع عن الفتيا. ولم يكن جهل ذلك الرجل بالناسخ والمنسوخ من أجل كثرتهما، بل لأجل كونه عاطلاً من زينة العلم مؤثراً راحة الجهل، وإن كان صاحباً لأبي موسى.

فإن قلت: إنّ لي سؤالين:

أحدهما: هو أنّه لو لم يوجب النسخ تشويشاً، فما هذا النزاع القائم في أمر الناسخ والمنسوخ في القرآن بين المكثر والمقلّل؟

وثانيهما: هو أنّه لماذا لا يوجد في النصرانيّة مثل هذا التشويش وهذا النزاع؟

قلنا: في السؤال الأوّل: إنّ التشويش لم يجئ من ذات النسخ، ولم يوجب تشويشاً في الشريعة، فإنّ الناسخ والمنسوخ معلومان معروفان عند الأئـمّة والمـجتهدين فـي تحقيق الأحكام الشرعيّة، العارفين بموارد الشريعة ومصادرها، والمعوّل عـليهم بـين الملّة في معرفة أحكامها، بحيث لا تشتبه عليهم مواردهما ولا تلتبس عليهم مصادرهما.

وأمّا النزاع الذي تراه، فإنّما أوجبه خبط الاشتباه بين من سـمّاهم الإتـقان بـعوامّ المفسّرين. وذكر الخازن عن العلماء أنّهم قرنوهم بالمؤرّخين المولعين بكلّ غريب. كما تقدّم[٤]. وماذا على الحقائق إذا تشعّب فيها أوهام غير المـحقّقين؟ وهـل مـن حـقيقة لم تتشعّب فيها الأوهام، ولم تكثر في سبيل عرفانها معاثر الجهل؟ وسيمرّ عليك شيء من ذلك إن شاء الله في أوائل المقدّمة الثالثة عشرة.

ثمّ نقول في السؤال الثاني: إنّ النصارى قد جاءهم نسخ الشريعة عن بولس جملة واحدة، بعنوان الملاشاة للشريعة جملة واحدة. وبعد هذه الاستراحة التامّة من الشريعة وأحكامها

---

١. الرسالة إلى العبرانيّين ٩ و١٠ و١١.

٢. رسالة يعقوب ٢ و٣.

٣. الهداية ٤: ١٥٦.

٤. تقدّم في ص ٣٦٢ـ٣٦٣.

ومعرفتها، فلا حاجة إلى إمعان النظر في كلمات المسيح والرسل للاطّلاع على مافيها من موارد النسخ الجزئي، ولا داعي لهم إلى مرور الأفكار عليها ليثور منها غبار الأوهام.

ومع ذلك أفلا تنظر إلى النزاع العظيم والمثابرة التي قامت بين البروتستنت والكاثوليك، حتّى جرّت إلى سفك الدماء وشديد الاضطهاد وشنائع الأفعال والأقوال. فإنّ المنشأ في ذلك مكافحة الأوهام، من أجل مكافحة رسالة يعقوب المشدّدة في حفظ الأعمال وعدم كفاية الإيمان، مع رسالة بولس إلى العبرانيّين المصرّة على التعليم بترك حفظ الناموس، وبكفاية الاتّكال على الإيمان وسرّ الفداء. حتّى قال لوطر مصلح البروتستنت على مانقله المتكلّف:

> إنّ معلّمي الخطيئة ـ يعني الكاثوليك ـ يضايقوننا بموسى، فلا نريد أن نسمع موسى ولا نراه، لأنّه أُعطي لليهود ولم يُعطَ لنا نحن الأُمم والمسيحيّون، فعندنا إنجيلنا. فهم يريدون أن يهدّدونا بواسطة موسى، وهيهات. وقال أيضاً ميلانختون: قد نسخت الوصايا العشر. فقال المتكلّف في الاعتذار عن كلام لوطر وجرأته على موسى: إنّ سببه هو أنّ الكاثوليك تطرّفوا في حفظ الأعمال الصالحة، وتوهّموا أنّ الله يقبلنا بسببها، وأنّ خلاصنا متوقّف عليها، فتطرّف لوطر كذلك في رفضها [١].

وما أشبه قول المتكلّف هذا بالأقوال المنسوبة إلى مردة بني إسرائيل فيما عن قول الله جلّ اسمه في ثالث ملاخي: «أقوالكم اشتدّت عليّ وقلتم ماذا قلنا عليك. عبادة الله باطلة وما المنفعة من أنّنا حفظنا شعائره» [٢].

منسوخ التلاوة

وأمّا ما ذكره المتكلّف من منسوخ التلاوة [٣]، فعقّبه بوساوس هواه [٤]، وكذا المتعرّب [٥]،

---

١. الهداية ٣: ١٠٩.
٢. سفر ملاخي ٣: ١٣ و ١٤.
٣. الهداية ٤: ١٦٤ و ١٦٥.
٤. المصدر: ١٦٥ و ١٦٦.
٥. ذيل مقالة في الإسلام: ٤٨ و ٤٩.

فإنّما اتّبعا فيه بعض المفسّرين اتّباعاً لم يقد إليه إلّا الهوى وفرط الغواية. مع أنّ السيوطي:

نقل عن القاضي أبي بكر في الانتصار عن قوم إنكار هذا النحو من النسخ؛ لأنّ الأخبار فيه أخبار آحاد، ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجّة فيها[1]. انتهى.

وأين أخبار الآحاد من إثبات القرآن المبنيّ على القطع في الجامعة الإسلاميّة. بل إنّك لا ترى في القرون العديدة جماعة أو واحداً من المسلمين يعتمدون في أمر القرآن على غير اليقين، أو يحتفلون في شأنه بأخبار الآحاد احتفالاً دينيّاً أساسيّاً. نعم ربما يذكر بعض المحدّثين شيئاً من ذلك ذكراً تأريخيّاً.

وقد ذكر في الإتقان في شأن منسوخ التلاوة روايات. عشرة منها عن راوٍ واحد وهو أبو عبيدة. وكلّها تدلّ على أنّ ما نسبته إلى القرآن ليس من منسوخ التلاوة وإنّما هو ممّا أضاعته الأُمّة. وأنّ خصوص روايات عائشة وحميدة ومسلمة بن مخلد من جملة هذه العشرة لصريحة في ذلك. ورواية عائشة التي ذكرها في منسوخ الحكم والتلاوة صريحة أيضاً في ذلك. وقد اضطرب من جملة الروايات العشر روايتا زرّ بن حبيش وخالة أبي أمامة في لفظ آية الرجم كما اضطرب في لفظها وشأن عمر معها ما أخرجه الحاكم والنسائي وابن الضريس وما ذكره الاتقان عن البرهان[2].

على أنّ هذه الروايات مردودة أيضاً بوجهين:

الأوّل: هو أنّ ما زعمت كونه من القرآن، لا نجد له نسبة مع القرآن إلّا كنسبة الفحمة البالية مع ترصيع تاج الملك.

الثاني: هو أنّ نقلها لضياع كثير من القرآن من الأُمّة، ليكذّبه قول الله جلّ اسمه في سورة الحجر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾[3] فيجب تكذيبها بحكم القرآن الكريم.

---

١. الإتقان ٢: ٢٦.

٢. المصدر: ٢٥ ـ ٢٦. راجع المستدرك على الصحيحين ٥: ٥١٤ ـ ٥١٥. لم نعثر عليه في النسائي.

٣. الحجر (١٥): ٩.

وليس في روايات الإتقان ما هو صريح بنسخ التلاوة إلّا ما أخرجه الطبراني عن ابن عمر. وأين هذه الرواية من القبول في الجامعة الإسلاميّة، ولا سيّما في شأن القرآن الكريم؟

فإن قلت: أليس يشهد لما تنكره قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[١] فإنّ صراحة هذه الآية تدلّ على أنّ الحفظ الموعود به في الآية المتقدّمة إنّما هو بالنسبة إلى غير الإنساء؟

قلت: الآية تضمّنت الإنساء قبل انقطاع الوحي، وتكفّلت بالإتيان بخير من المنسوخ والمنسيّ أو مثله، فهي تدلّ على أنّ الله لا يَنْسَخ ولا يُنسِي عند انقطاع الوحي، بل إنّما يَنسَخ أو يُنسِي آية حيث يوحي بعدها خيراً منها أو مثلها، فهذه الآية كآية الحفظ مكذِّبة لزعم الزاعمين أنّ ما تضمّنته هذه الروايات من القسم الذي أنساه الله بعد انقطاع الوحي ونسخ بذلك تلاوته.

وعلى هذه الرواية أين يكون الإتيان بخير منها أو مثلها؟ وأين يكون حفظ الذكر؟ مع أنّ هذه الروايات وأمثالها قد أفرطت في الإكثار حتّى جعلت مقدار الذاهب من القرآن أكثر من الموجود. فتتبّع كتب المحدّثين الذين لاهمَّ لهم في تحقيق الحقائق، وإنّما همّهم حفظ أساطير الأثر والتأريخ، فيكتبون كلّ ما يسمعون أو يجدون، ويوكلون أمر التحقيق إلى أهله، ويحملون الفقه إلى من هو أفقه منهم.

وإنّ آية الحفظ للذكر لَتَدُلّ على أنّ الإنساء لايقع بالنسبة إلى القرآن الكريم الموعود بحفظه. فتدلّ على أنّ المقصود بالنسخ والإنساء في آيتهما هو ما أُوحي من الآيات في الشرائع السابقة، فنُسِخ بعضُها وعفَّت بعضَها عواصف الأيّام حتّى جعلته نسياً منسيّاً. كما يشهد لذلك سَوق الآية مع التي قبلها وهو قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ * مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[٢].

---

١. البقرة (٢): ١٠٦.

٢. البقرة (٢): ١٠٥ ـ ١٠٦.

فإن قلت: المراد بالآية هنا هو ما كان من القرآن.

قلت: من أين لك أن تخالف سياق القرآن وتتحكّم عليه بغير علمٍ؟ أفتقول: إنّ ما في الكتب الإلهيّة السابقة لا يسمّى في القرآن آيةً، مع أنّ الله جلّ اسمه قد سمّى في القرآن ما جاء في الكتب الإلهيّة السابقة بالآية والآيات، ومدح من يتلوها فقال تعالى بعد ذمّ أهل الكتاب في سورة آل عمران: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[1] وقال تعالى في سورة مريم بعد ذكر النبيّين السابقين ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا * فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[2]؟ وقال تعالى في سورة الزمر: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ﴾[3] فاتّضح لك أنّ القول بمنسوخ التلاوة أخذاً من الروايات المشار إليها، ممّا لا حظّ له بشيء من التحقيق والصواب، لوجوه عديدة.

وأمّا قوله تعالى في خطاب رسوله في سورة الأعلى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ * إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّـهُ﴾[4]. فلا يمكن حمله على حقيقة الاستثناء، ووقوع مشيئة الله لنسيان القرآن إلى حدّ الخروج عن الانتفاع به. وذلك لأنّه منافٍ لوعد الله في الآية المتقدّمة بحفظ الذكر، ومستلزم لبطلان الوعد والامتنان بقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾. بل إنّه ليكون مثل قولك: سأُعطيك ولا آخذ منك إلّا ما أشاء أن آخذه منك. بل ومناف لما اتّفق عليه المليّون من عصمة الرسول في التبليغ، ولازمه أن لا يذهب منه بالنسيان بعض ما يوحى إليه. فيكون نظر الاستثناء إلى عروض النسيان زماناً يسيراً لا ينافي الوعد بحفظ الذكر، ولا يضادّ الامتنان بعدم النسيان، ولا ينافي العصمة في التبليغ.

---

١. آل عمران (٣): ١١٣.

٢. مريم (١٩): ٥٨ ـ ٥٩.

٣. الزمر (٣٩): ٧١.

٤. الأعلى (٨٧): ٦ ـ ٧.

هذا إن جوّزنا على الرسول هذا المقدار من النسيان، كما ذهب إليه بعض المحدّثين.

وأمّا إذا منعناه أيضاً كما هو مذهب المحقّقين، فتكون فائدة الاستثناء هو تسديد الأذهان بدوام إشعارها وتمرينها على الإذعان بعموم قدرة الله وتسلّط مشيئته، مع إيضاح وجه الامتنان في الوعد بعدم النسيان. وذلك ببيان أنّ عدم النسيان ليس لأمر ذاتي في الرسول فيثور من ذلك ضلال الغلوّ، وإنّما هو منحة من الله وبيده مشيئة النسيان، وإن لم يكن يشاؤه لأجل إجراء حكمة الرسالة. وبهذا تعرف فساد تشبّث المتعرّب[1].

❊ ❊ ❊

[تمّ الجزء الأوّل من كتاب الهدى إلى دين المصطفى

حسب تجزئتنا. ويتلوه الجزء الثاني إن شاء الله تعالى]

---

١. ذيل مقالة في الإسلام: ٣٨.

فهرس الموضوعات

دليل الموسوعة ٥
مقدّمة التحقيق ٧

مقدّمة المؤلّف ١٣
المقدّمة الأُولى: في الرموز المصطلح عليها للعهدين ١٧
المقدّمة الثانية: دلالة العهدين على اختلاف الأوقات في وحي كتبها ٢٣
المقدّمة الثالثة: صراحة بعض كتب العهدين على مخالفة ترتيبها لوحيها ٢٧
المقدّمة الرابعة: فيما ذكر في العهدين من الحالات الغريبة للأنبياء عند الوحي ٢٩
المقدّمة الخامسة: في نبذ من سيرة بني إسرائيل والملّة النصرانيّة في ديانتهم ٣٧
سيرة بني إسرائيل ٣٧
مكابرات المتكلّف وفسادها ٤٣
سيرة أهل الديانة النصرانيّة ٤٨
المقدّمة السادسة: في بيان عدم حجيّة ما في كتب العهدين على المسلمين ٥٥
المقدّمة السابعة: في آداب المباحثة والمناظرة ٦١
المقدّمة الثامنة: في محلّ البحث من الرسالة والنبوّة ٦٥
الباب الأوّل ٦٧

الفصل الأوّل: في بيان حقيقة الرسول ٦٧
الفصل الثاني: في الغاية المطلوبة من إرساله ٦٧
الفصل الثالث: في عصمته ٦٧
الفصل الرابع: في ذكر الاعتراضات على هذا المقام، وأجوبتها ٧٢
الباب الثاني من المقدّمة الثامنة: نسبة المعاصي والذنوب إلى الأنبياء في العهدين ٨٣
الفصل الأوّل: في ذكر آدم وما يقال في شأنه ٨٣
الفصل الثاني: في ذكر نوح وما قيل في شأنه ٨٨
الخمر والعهدان ٩٠
تلويث قدس خاتم المرسلين بنسبة شرب الخمر ٩٥
الفصل الثالث: في شأن إبراهيم وما قيل فيه ٩٩
إبراهيم في القرآن والتوراة ١٠١
الفصل الرابع: في ذكر إسحاق وما جاء في شأنه ١٠٦
الفصل الخامس: في نبوّة يعقوب وما قيل في شأنه ١٠٩
الفصل السادس: في نبوّة يوسف وما جاء في شأنه ١١٢
الفصل السابع: في رسالة موسى وما قيل في شأنه ١١٣
التوراة وموسى عليه السلام ١٢١
الفصل الثامن: في رسالة هارون وما ذكر في شأنه ١٢٣
الفصل التاسع: في رسالة أيّوب وما ذكر في شأنه ١٢٩
الفصل العاشر: في نبوّة داود وما ذكر في شأنه ١٣٠
الفصل الحادي عشر: في نبوّة سليمان وما ذكر في شأنه ١٣٦
الفصل الثاني عشر: في نبوّة اليسع وما ذكر في شأنه ١٤١
الفصل الثالث عشر: في نبوّة إِرْمِيا وما ذكر في شأنه ١٤١
الفصل الرابع عشر: في نبوّة حَزْقِيال وما ذكر في شأنه ١٤٢
الفصل الخامس عشر: في رسالة المسيح وما قيل في شأنه ١٤٣

المتكلّف والسؤال عليه في الفداء ١٤٩
الفصل السادس عشر: في عصمة خاتم المرسلين محمّدﷺ وما يتعلّق بها ١٥٥
حقيقة قصّة الغرانيق ١٥٦
تفسير الآية ٥٢ من سورة الحجّ (٢٢) ١٦٠
ورطات المتكلّف ١٦٢
تزوّج رسول اللهﷺ بزينب بنت جحش ١٧١
ورطات المتكلّف ١٧٣
حديث الإفك ١٧٦
نسبة الفظائع إلى الأنبياء ١٧٨
ورطات المتكلّف ١٨٢
دعوى الخطأ في أعمال رسول اللهﷺ !؟ ١٨٢
آداب القضاء ١٩٤
شطط الغرور ١٩٧
المقدّمة التاسعة: في بيان ما تثبت به الرسالة، وتقوم به لله على الناس الحجّة ٢٠٥
المعجز ما هو؟ ٢١٢
المقدّمة العاشرة: في ذكر الموانع للنبوّة والرسالة الشاهدة على كذب ادّعائها ٢١٧
المقدّمة الحادية عشرة: في وجوب النظر في دعوى الرسالة ٢٢١
فصل فيما يتعلّق بكيفيّة النظر ٢٢٢
فصل في أُنموذج النظر ـ حسبما شرحنا من قوانينه ـ تمريناً للذهن ٢٢٤
عدم تواتر كتبهم ٢٣٠
الأمر الأوّل ٢٣٠
المورد الأوّل ٢٣٠
المورد الثاني ٢٣٢
المورد الثالث ٢٣٤

المورد الرابع ٢٣٤
المورد الخامس ٢٣٧
الأمر الثاني ٢٤٠
الأمر الثالث ٢٤١
الأمر الرابع ٢٤١
الأمر الخامس ٢٤٣
الاحتجاج للمنع من الطلاق ٢٤٣
الزواج في القيامة ٢٤٦
القيامة من الأموات ٢٤٧
الأمر السادس: اختلاف الأناجيل في نسب المسيح ٢٤٩
التناقض في كلام المتكلّف ٢٥١
الأمر السابع: نسبة التناقض إلى المسيح ٢٧٣
الأمر الثامن: فرية على قدس المسيح بمنافيات العفّة ٢٧٩
الأمر التاسع: نسبة شرب الخمر إلى المسيح ٢٨٠
الأمر العاشر: نسبة القول بتعدّد الآلهة إلى المسيح ٢٨٠
المقدّمة الثانية عشرة: في النسخ في الشريعة الإلهيّة ٢٨٣
الفصل الأوّل: في ماهيّته وحقيقة المراد منه في الاصطلاح ٢٨٣
الفصل الثاني: في إمكانه ٢٨٣
١. الناسخ والمنسوخ في شريعة نوح بمقتضى نقل التوراة ٢٨٨
٢. التوراة وشريعة نوح والحيوانات ٢٨٨
٣. التوراة وما قبلها في التزوّج بالأُخت ٢٨٨
٤. أيضاً الجمع بين الأُختين في التزويج ٢٨٩
٥. التزوّج بالعمّة ٢٨٩
٦. نسخ التوراة لحكمها في محرقة السّهو ٢٩٥

٧. أيضاً امرأة الأخ ٢٩٦
٨. التوراة وداود وعمر اللاويّين ٢٩٦
٩ ـ ١١. التوراة وحَزْقِيال والمُحرَقة اليوميّة ٢٩٨
١٢ ـ ١٦. وأيضاً محرقة السبت ٢٩٨
١٧ ـ ٢١. وأيضاً محرقة رأس الشهر ٢٩٨
٢٢ ـ ٢٥. وأيضاً محرقة الفصح ٢٩٩
٢٦ ـ ٢٩. وأيضاً محرقات عيد المظالّ ٢٩٩
٣٠ و ٣١ . التوراة والمسيح والطلاق والتزوّج بالمطلَّقة ٣٠١
٣٢ . الحلف ٣٠٦
٣٣ و٣٤ . القصاص والسياسة ٣٠٦
٣٥ و٣٦ . الدفاع والمطالبة بالأموال ٣٠٧
٣٧ . الصَّوم في العهدين ٣٠٧
٣٨ . الإنجيل والإنجيل بشارة الرسل ٣٠٧
٣٩ . التوراة والرسل والختان ٣٠٨
٤٠ . الحيوانات النجسة والمحرّم أكلها ٣١٢
٤١ و٤٢ . الذبائح وأحكام الكهنة ٣١٥
٤٣ . السبت والأحد والسابع والأوّل ٣١٦
٤٤ . الناموس والعهد الجديد ٣١٨
٤٥ و٤٦ و٤٧ . الرسل وبولس وما ذبح للأوثان والمخنوق والدم ٣٢١
١. نوح والحيوانات ٣٢٣
٢. امتحان الله لإبراهيم ٣٢٦
٣. عُمْر اللاوي الموظّف للمسكن ٣٢٨
٤. حَزْقِيال وتكليفه ٣٣١
العهدان وتبدّل الحكم الشرعي ٣٣٣

١. فينحاس وكهنوت نسله الأبدي ٣٣٣
٢. عالي وكهنوت بيته ٣٣٤
٣. مملكة شاول ٣٣٥
٤. موت حِزْقِيّا وشفاؤه ٣٣٥
إنكار المتكلّف ما في العهد الجديد ٣٣٩
اللعنة على من لا يقيم الناموس ٣٤٢
الأبد في التوراة والعهد القديم ٣٤٣
استئناف للكلام مع المتكلّف ٣٤٤
المتكلّف وسرّ الفداء ٣٤٨
مغفرة الله ورحمته وجوده ٣٤٩
الإسلام والمتكلّف ٣٥٣
معارف القرآن والمتكلّف ٣٥٦
المتكلّف والبرهميّة والبوذيّة ٣٥٨
الفداء عند المسلمين ٣٥٩
الفصل الثالث: في وقوع النسخ ٣٦٠
المتكلّف والنسخ ٣٦١
العلماء والمفسّرون ٣٦٣
المفسّرون والنسخ ٣٦٤
شروط الفتيا ٣٧٠
منسوخ التلاوة ٣٧٤